

دكتور

محمود محمد الحويرى

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

# تاريخ الدولة العثمانية فى العصور الوسطى

٢٠٠٢ م

المكتب المصرى لتوزيع المطبوعات - تليفاكس: ٣٦٥٥٤٨٧



# تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى

تأليف

دكتور محمود محمد الحويرى  
أستاذ تاريخ العصور الوسطى

الطبعة الأولى

٢٠٠٢ م

## الكتاب: تاريخ الدولة العثمانية فى العصور الوسطى

تأليف: دكتور/ محمود محمد الحويرى

رقم الإيداع ٢٠٠٢/١٧٥٨٤

الترقيم الدولى: ISBN

977--5841-57-7

تاريخ النشر: ٢٠٠١

الناشر: المكتب المصرى لتوزيع المطبوعات (طباعة - نشر - تصدير كتب)  
حقوق الطبع والترجمة والاقتباس محفوظة للمكتب المصرى لتوزيع المطبوعات

الإدارة: ٥ ش مصطفى طموم - المنيل - القاهرة

تليفاكس: ٣٦٥٥٤٨٧



## مقدمة

الترك أحد الشعوب الرعوية التي عاشت في أواسط قارة آسيا، ولعبوا دوراً بارزاً في التاريخ، وأول ما نسمعه عنهم هو أنهم أقاموا لأنفسهم في القرن السادس الميلادي دولة امتدت من حدود الصين شرقاً إلى حدود الدولتين الفارسية والبيزنطية غرباً. وقد عرفت الدولة البيزنطية في فترة سابقة عدداً من القبائل التي تنتمي إلى الجنس التركي كالكزور والقفجاق والبلغار والماجيار وغيرهم.

وفي النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي، ظهرت على مسرح الأحداث السياسية قوة الأتراك السلاجقة. وكانت الدولة البيزنطية الضحية الأولى التي وقعت في طريقهم. وبعد الإحياء الملحوظ الذي شهدته تلك الدولة في القرن العاشر الميلادي، سارت أوضاعها السياسية في طريق التدهور والانحطاط، ويبدو ذلك واضحاً منذ وفاة الإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني سفاح البلغار سنة ١٠٢٥م، فقد انهارت قواها الدفاعية، وانتابتها أزمتان اقتصادية حادة منذ نهاية النصف الأول من القرن الحادي عشر، أدت إلى سيطرة التجار الأتراك السلاجقة على تجارة آسيا الصغرى، الأمر الذي حرم الدولة البيزنطية من أغنى ولاياتها ومصدرها الرئيسي للدخل من الضرائب.

على أنه حدث في يناير سنة ١٠٦٧م أن اعتلى عرش الدولة البيزنطية إمبراطور نشيط قدير هو رومانوس الرابع، فخرج في عام ١٠٧١م ليضع حداً لتقدم السلاجقة في أراضيهم، وعسكر بجيشه في مانزكرت (ملازكرد) شمالي بحيرة فان، في انتظار اللقاء بخصمه السلطان السلجوقي ألب أرسلان. وفي هذا الموقع حلت الهزيمة ساحقة بالبيزنطيين، وتمزق جيشهم، ووقع الإمبراطور نفسه أسيراً.

وقد جاءت معركة مانزكرت دليلاً دامغاً على ضعف الدولة البيزنطية، ونهاية دورها في الدفاع عن المسيحية ضد الإسلام، وترتب عليها ضياع الأجزاء الشرقية من الدولة البيزنطية، وساعدت على القضاء على الدولة نفسها على يد الأتراك العثمانيين فيما بعد سنة ١٤٥٣م.

على أن دولة السلاجقة سرعان ما أخذت تسير في طريق التدهور والانحطاط بعد وفاة السلطان ملكشاه سنة ١٠٩٢م، فقد ترتب على وفاته نشوب النزاع بين أبنائه، ثم بينهم

وبين أعماهم، فأدى ذلك إلى تفتت الدولة إلى دويلات صغيرة، وانتشار الفوضى، وفساد الإدارة، واغتصاب الحكم، وحاول كل أمير سلجوقي أن يضم إليه صفه حلفاء يمنحهم الأموال والإقطاعات، الأمر الذى أضعف نفوذه وقوته.

ويمثل القرن الثالث عشر الميلادى حقبة هامة فى تاريخ الشرق الأدنى، وخاصة فى آسيا الصغرى، إذ شهد أفول وفسخ سلطنة سلاجقة الروم، وتوغل المغول فى أملاكها. وما أن حلت أوائل القرن الرابع عشر، حتى كانت تلك السلطنة قد فقدت غربى الأناضول الذى توزع على عدد من إمارات الغزاة الأتراك، وأهمها إمارة عثمان.

وتقول الرواية التاريخية أن أرطغرل (١٢٣١ - ١٢٨١) أبو عثمان الذى نسبت إليه الدولة العثمانية كان يقود جماعة صغيرة، وحدث أن ساعد علاء الدين سلطان سلاجقة الروم فى حروبه، فرد السلطان على هذه المساعدة بمنح العثمانيين هبة سخية من الأراضى فى آسيا الصغرى فى المنطقة الواقعة على الحدود البيزنطية.

ولما توفى أرطغرل انتقلت زعامة العثمانيين إلى أكبر أبنائه عثمان (١٢٨١ - ١٣٢٦)، الذى انحصرت اهتماماته فى تأسيس قواعد الدولة العثمانية وبداية توسعها بالتدريج على حساب البيزنطيين، مستغلا الفوضى التى سيطرت على الأراضى البيزنطية بالأناضول، ومتجنباً الدخول فى نزاع مع جيرانه التركمان على الأقوى منه، حتى يأتى الوقت الذى تقوى فيه دولته بصورة كافية تمكنه من مواجهتهم.

وأخذ العثمانيون يتوسعون فى سرعة تسترعى الانتباه، فاستولوا سنة ١٣٢٦ على بروسه، واتخذوها عاصمة لدولتهم، ودفن بها عثمان مؤسس الدولة التى نسبت إليه. والواقع أن استيلاء العثمانيين على بروسه كان خطوة هامة دفعتهم إلى الأمام، فقد تحولت ممتلكاتهم من إمارة حدود يسكنها رعاة إلى دولة حقيقية ذات عاصمة وحدود وشعب مستقر.

وفى سنة ١٣٥٤م استولت جيوش السلطان العثمانى أورخان على مدينة غاليبولى، لتكون أول قاعدة عثمانية ثابتة فى أوروبا، راحت تنطلق منها الحملات العثمانية لغزو أوروبا ومنطقة البلقان فى السنوات التالية. ويرجع الفضل إلى أورخان فى أنه أرسى دعائم حضارة عثمانية، استمدت عناصرها من التراث السلجوقى وحضارة السلاجقة.

وعندما توفي أوروخان، واستقرت الأمور لخليفته السلطان مراد الأول (١٣٦٢ - ١٣٨٩)، وجه جهوده إلى الجانب الأوربي، حتى استولى على مدينة أدرنة (أدرينوبل) عاصمة تراقيا البيزنطية، واتخذها العثمانيون عاصمة لهم حتى سقوط القسطنطينية في أيديهم في القرن التالي. ونتيجة لذلك أصبحت القسطنطينية معزولة عن باقي أجزاء الدولة البيزنطية، قابعة خلف أسوارها، وباتت تنتظر الضربة الكبرى الأخيرة، التي كان لامفر من وقوعها.

وفي تلك الأثناء لم يجد الإمبراطور البيزنطي يوحنا الخامس باليولوجوس وسيلة لحماية دولته سوى الاستنجاد بالغرب الأوربي. ولهذا الغرض رأى أن يسافر إلى أوروبا ليستعطف المساعدة من ملوكها وحكامها ضد العثمانيين. فتوجه إلى روما سنة ١٣٦٩م، حيث قابل البابا وأعلن اعتناقه للعقيدة الكاثوليكية كما كتب له اعترافا بقبول وجهة نظر الكنيسة الغربية في جميع نواحي الخلاف بينها وبين الكنيسة الشرقية. وبديهي أن اعتناق يوحنا الخامس للكاثوليكية قد أثار ضجة عنيفة بين رعاياه الأرثوذكس، في الوقت الذي لم تقدم له البابوية شيئا، إذ كانت عند منتصف القرن الرابع عشر الميلادي أضعف من أن تحيي الحماسة الصليبية بعد أن خمدت أنفاسها.

وفي سنة ١٣٨٧م، تكون حلفا صليبيا من صربيا والبوسنة والاشيا وكرواتيا وبلغاريا والمجر، ضد العثمانيين. غير أن السلطان مراد الأول استطاع أن ينزل هزيمة فادحة بجيوش هذا الحلف في كوسوفا سنة ١٣٨٩م، ولقى ملك الصرب مصرعه في هذه المعركة، وقتل مراد نفسه بيد أحد نبلاء الصرب.

وعقب مقتل السلطان مراد كان من بين أبنائه الموجودين على قيد الحياة بايزيد ويعقوب، وكان الأخير الإبن الأكبر. غير أن بايزيد استطاع الوصول إلى العرش بعد أن قام بقتل أخيه يعقوب خشية أن ينازعه الملك. وباعتلاء بايزيد العرش، بدأ التقليد الدموي العثماني القاضى بقتل الإخوة إثناء منازعته الملك. وهو التقليد الذي برره الفقهاء، وما لبث أن أصبح بمثابة قانون في عهد السلطان محمد الفاتح (١٤٥١ - ١٤٨١). ورغم أن هذا التقليد ينم عن القسوة الشديدة، فإنه حقق الهدف المرجو منه، بدليل أن الدولة العثمانية لم تتأثر بالصراعات الأسرية لمدة خمسة قرون.

وفى عهد بايزيد الأول (١٣٨٩ - ١٤٠٢) جاء التهديد المباشر للعثمانيين فى أوروبا من قبل دولة المجر. فقد طلب ملكها سيجسموند المعونة من الغرب الأوروبى عام ١٣٩٥ للوقوف فى وجه العثمانيين. وكان رد الفعل سريعا، فقد أتى الحلفاء والألمان والإنجليز وبعض الأمراء الفرنسيين ومقدم منظمة التيوتون ومقدم منظمة فرسان القديس يوحنا برودس، وجماعات أخرى. ولكن بايزيد الأول استطاع أن ينزل بهم هزيمة ساحقة فى موقعة نيقوبوليس سنة ١٣٩٦. ونتيجة لذلك استولى العثمانيون على شبه جزيرة البلقان، باستثناء القسطنطينية وما حولها.

وبعد الانتصار الرائع الذى حققه بايزيد الأول على قوى الحلف الصليبي فى نيقوبوليس، قام بفرض الحصار على مدينة القسطنطينية. ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان، فقد اجتاحت تيمور لك على رأس جموع ضخمة من المغول الجزء الأكبر من آسيا الصغرى، الأمر الذى اضطر بايزيد إلى رفع الحصار عن القسطنطينية والعودة سريعا إلى آسيا الصغرى للدفاع عنها، حيث أنزل به تيمور لك هزيمة منكرة فى موقعة أنقرة سنة ١٤٠٢م، ومات بايزيد الأول فى الأسر فى العام التالى.

وعلى الرغم من أن تيمور لك قد قضى على القوة العسكرية للدولة العثمانية، إلا أنه لم يستطع التغلب على القوة الحيوية الكامنة فيها. فما لبثت هذه الدولة أن نهضت من كبوتها، واستعادت قواها، واستأنفت سيرها إلى الأمام فى ثبات وقوة كعهدها من قبل.

ففى خلال فترة الشغور - أو الحرب الأهلية بين أبناء بايزيد الثانى - ظلت حدود الدولة العثمانية على ما هى عليه تقريبا، فيما عدا الأراضى التى استولى عليها تيمور لك. ويرجع السبب فى ذلك إلى أن أعداء العثمانيين فى أوروبا وآسيا الصغرى، لم يحاولوا إنتهاز فرصة تمزق البيت العثماني، والقيام بأى مجهود للقضاء على وجوده.

وعلى أية حال، استطاع محمد أصغر أبناء بايزيد الأول أن يتغلب على إخوته الواحد بعد الآخر، ويصبح السلطان الوحيد للدولة العثمانية، واشتهر فى التاريخ باسم السلطان محمد جلبى الغازى (١٤١٣ - ١٤٢١). وعندما توفى محمد الأول خلفه ابنه مراد الثانى (١٤٢١ - ١٤٥١)، الذى يعتبر واحد من أعظم السلاطين العثمانيين. فهو صاحب الفضل فى تأسيس القوة العثمانية فى أوروبا وآسيا. ففى أوروبا انصرفت معظم

جهوده ضد الصرب والبلغار والاشيا والبوسنة وألبانيا، وخاصة المجر التي استطاعت فى أول الأمر الثبات أمام الجيوش العثمانية وأحرزت بعض النجاح عليها فى سنة ١٤٤٣م. ولكن السلطان مراد الثانى لم يلبث أن أنزل هزيمة قاسية بالجيش المجرى عند فارنا سنة ١٤٤٤. وتعتبر تلك الهزيمة علامة هامة فى تاريخ العلاقات التركية الأوربية، فقد حطمت اعتقاد المسيحيين فى أنهم قادرون على طرد العثمانيين إلى آسيا، وهى آخر محاولة يقوم بها الغرب الأوروبى لإنقاذ الدولة البيزنطية، وهو المصير الذى سيتحدد بعد تسع سنوات.

ويسجل عهد السلطان مراد الثانى نهاية الثقافة العثمانية القديمة، فقد واصلت الحياة الدينية فى عهده دورانها فى فلك الصوفية التى فرضت طابعها على الحياة الفكرية. وفتح أبواب بلاطه للعلماء والشعراء والموسقيين، وأخذت اللغة التركية تحل محل لغتى الأدب الرفيع: العربية والفارسية. واهتم مراد الثانى اهتماما بالغاً بالبناء والتشييد، وسارع على نهج أبيه فى كونه محباً للعدالة، وراعياً نشيطاً للفنون، ومحباً للحياة.

بعد وفاة السلطان مراد الثانى ورث ابنه محمد الثانى أو الفاتح إمبراطورية واسعة. ومن أجل الاحتفاظ بتلك الإمبراطورية من الناحيتين السياسية والاستراتيجية، كان لابد من الاستيلاء على مدينة القسطنطينية باعتبارها قلعة مسيحية وسط أراضي السلطان، ومصدر تهديد لأمن السلطنة فى الداخل والخارج.

وبما يجدر ذكره أن الغزاة والفاطحين قد أدركوا منذ وقت بعيد أهمية مدينة القسطنطينية وخطورة موقعها، فحاصروها مرات كثيرة، وحاولوا الاستيلاء عليها، غير أن المدينة استطاعت بفضل موقعها وقوة حصونها ومناعة أسوارها أن تبعد عنها معظم الغزاة والفاطحين.

وفى عهد محمد الثانى أو الفاتح كانت الظروف مهيئة تماماً لفتح القسطنطينية، فقد صارت حطاماً مهالكة، ويتمثل ذلك فى قول المؤرخ ديل Diehl «أصبحت القسطنطينية جسماً مريضاً برأس ضخمة، وتحيط بها دولاً إما مستقلة أو عدائية، حتى أطلق على الإمبراطورية البيزنطية رجل العصور الوسطى المريض».

وفى تلك الأثناء أحس الإمبراطور البيزنطى قنسطنطين الحادى عشر (١٤٤٩ - ١٤٥٣) بخطر الاستعدادات الحربية التى قام بها العثمانيون للاستيلاء على مدينته. فحاول

أن يستجدي معونة الغرب الأوربي، ولكن دون جدوى. وفي ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ دخل العثمانيون بقيادة محمدا الفاتح مدينة القسطنطينية كالسيل الجارف، وحلوا محل الأباطرة البيزنطيين. وكان فتحها حادثا جللا اهتزت له أوروبا المسيحية من أقصاها إلى أقصاها. وفي الشرق الإسلامي عم الفرح والابتهاج في أرجاء آسيا وأفريقية، وأصبحت القسطنطينية عاصمة للإمبراطورية العثمانية، وأطلق عليها إسم إستانبول أو إسلامبول أو الآستانة، وإستانبول كلمة تركية معناها دار الإسلام.

وكان فتح القسطنطينية بداية لسلسلة من الانتصارات العثمانية الرائعة أحرزها العثمانيون في البر والبحر، فلم تأت أواسط القرن السادس عشر حتى استطاع العثمانيون أن يسيطروا نفوذهم على مناطق شاسعة في أوروبا الوسطى مثل المجر ورومانيا وجنوبى بولونيا وأجزاء من شرق النمسا. وزحف العثمانيون على مدينة فيينا وحاصروها لأول مرة فى سنة ١٥٢٩، ثم حاصروها للمرة الثانية فى سنة ١٦٨٣. وبالرغم من فشل العثمانيين فى هذين الحصارين الشهيرين، فإن مجرد وصول فتوحاتهم إلى قلب أوروبا المسيحية على هذا النحو أثار الرعب والفرع فى أرجائها.

وهنا نلاحظ أن السلطان سليم الأول المشهور بلقب «ياوز» (١٥١٢ - ١٥٢٠)، قد خرج عن السياسة الأوربية التى سار عليها أسلافه من السلاطين العثمانيين، فتوقف عن الزحف غربا والتوسع فى أوروبا على حساب دول القوى المسيحية المجاورة، واتجه بغزواته ناحية الشرق على حساب الدول الإسلامية المجاورة. وقد اختلف المؤرخون فى تفسير هذه الظاهرة، فيرى البعض أن الدولة العثمانية قد بلغت مرحلة التشبع فى فتوحاتها الغربية بنهاية القرن الخامس عشر الميلادى، وأنه كان عليها فى أوائل القرن التالى البحث عن ميادين جديدة للتوسع، فى حين يرى البعض الآخر أن الأحداث التى دارت داخل الشرق الإسلامى أو حوله فى أوائل القرن السادس عشر هى التى جذبت الدولة العثمانية إلى الشرق الإسلامى لحماية آسيا الصغرى بصفة خاصة والعالم السنى بصفة عامة، والمقصود هنا بأحداث الشرق الإسلامى هو الزحف البرتغالى على حدود الشرق العربى ومنافذه البحرية، وأن خروج العثمانيين إلى هذه المناطق كان هدفه حماية الشرق الأدنى الإسلامى من الخطر البرتغالى. وبعبارة أخرى، فقد أعلن العثمانيون أن هدفهم من التحرك صوب الدولة المملوكية، هو حماية الحرمين الشريفين والمدن الإسلامية المقدسة والعالم الإسلامى من هجمات البرتغال الصليبية، الأمر الذى عجز عن تحقيقه سلاطين الممالك، وبذلك يكون

تحرك العثمانيين ناحية الشرق بهدف الجهاد لحماية العالم الإسلامى.

وفى ٢٠ مايو سنة ١٤٩٨، بعد رحلة استغرقت أكثر من عشرة شهور، تمكن فاسكو دى جاما من الطواف حول أفريقيا عن طريق رأس الرجاء الصالح، والوصول إلى أهم موانئ ساحل ملبار الهندى. وبذلك حقق البرتغاليون تحولا بارزا فى تاريخ التجارة الشرقية، إذ كانت حاصلات الشرق تصل إلى أوروبا حتى ذلك الوقت بواسطة التجار فى مصر المملوكية، الذين كانوا يبيعونها بدورهم إلى البنادقة، بأسعار مرتفعة، وقد عادت تلك التجارة فى تلك الحاصلات على مصر والبندقية بأرباح طائلة. وهكذا ذهبت حصيلة الضرائب التى كان سلاطين المماليك يحصلون عليها، وأدت إلى ثرائهم وقوتهم.

وعبثا حاولت دولة المماليك الهراكية إيقاف البرتغاليين عن التعرض بسوء للتجار المسلمين فى الهند، فدخلت فى حرب معهم كان نصيبهم فيها الهزيمة الساحقة؛ وتحطيم أسطولها فى معركة ديو البحرية فى ٣ فبراير سنة ١٥٠٩، فلم تقم للتجارة المملوكية فى الهند بعد ذلك قائمة، ولم تعد سوقا عالميا للتجار بين الشرق والغرب. ولم تمض على تلك المعركة سوى سنوات قليلة، حتى سقطت الدولة المملوكية فريسة هينة فى أيدي العثمانيين سنة ١٥١٧.

وخلال القرن السادس عشر الميلادى (العاشر الهجرى) كانت الدولة العثمانية قد وصلت إلى ذروة قوتها وأرج ازدهارها. فمدت جناحيها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، ودقت أبواب فيينا، وبسطت نفوذها على ما يعرف اليوم بدول أوروبا الشرقية واليونان وجزر البحر المتوسط وأجزاء من إيطاليا والنمسا. كما خضعت لسيطرتها الأرض الممتدة من القوقاز شمالا حتى الصحراء الإفريقية جنوبا وحدود المغرب الأقصى غربا. كما أنها مدت جناحها الشرقى حتى بلاد فارس وجبال كردستان، فكانت أقوى دولة فى العالم شهدتها العصور الوسطى.

وبوفاة السلطان سليمان القانونى عام ١٥٦٦ ينتهى العصر الأول من تاريخ الدولة العثمانية وهو عصرها الذهبى، بلغت فيه الأوج من النفوذ الدولى والقوة الحربية والتوسع الإقليمى المطرد كما سبق أن ذكرنا. ويبدأ العصر الثانى، وقد تولى الحكم فيه عدد من السلاطين الضعاف انصرفوا عن مباشرة اختصاصاتهم، وانغمسوا فى حياة المجون والترف،

وأخذت الدولة تفقد رويداً رويداً ممتلكاتها فى القارات الثلاث آسيا وأوروبا وأفريقية.

ولاشك أن الدولة العثمانية تركت بصماتها واضحة فى تاريخ العصور الوسطى. ففى خلال فتوحاتها لم تسع إلى تحويل رعاياها المسيحيين واليهود إلى اعتناق الإسلام، ولم تنتهج سياسة شاملة تتجه نحو التتريك. وبسبب سياسة التسامح الدينى التى سارت عليها الدولة العثمانية، نجحت الحضارة العثمانية فى فرض نفسها، وفى تشكيل بعض جوانب الحياة فى البلقان، بحيث يمكن القول بأن الأتراك هم الذين أرسوا اللبنات الأولى لحضارة مدنية حديثة. فقد وضعت سيطرة العثمانيين حداً للفوضى التى كانت سائدة فى الأناضول والبلقان، ووفرت عامل الاستقرار السياسى، وأمنت النشاط الاقتصادى.

ومن المعروف أنه قبل فتح القسطنطينية على أيدى السلطان محمد الفاتح سنة ١٤٥٣ كان الإقطاع منتشراً فى أوروبا، ويفضل هذا السلطان تداعى النظام الإقطاعى أمام قذائف مدافع العثمانيين، وبذلك ساهمت الدولة العثمانية فى تشكيل أوروبا الحديثة.

وهذا الكتاب ليس دراسة مفصلة شاملة لأحداث الدولة العثمانية السياسية والحضارية فى العصور الوسطى، وإنما هو دراسة موجزة متواضعة لأحوال تلك الدولة فى تلك العصور، تروخيت انتفاع أبنائى الطلاب وقراء العربية الكرام بها. وفى الحديث الشريف: «من اجتهد وأصاب له أجران، ومن اجتهد وأخطأ له أجر».

المؤلف

ثكنات المعادى - يناير ٢٠٠١م

شوال ١٤٢١هـ



## الفصل الأول

### ظهور الأتراك العثمانيين وقيام دولتهم

- الأتراك.
- الأتراك السلاجقة.
- السلاجقة والبيزنطيون.
- ضعف نفوذ السلاجقة.
- أصل الأتراك العثمانيين.
- قيام الدولة العثمانية.

## الأتراك:

تختل دراسة تاريخ الترك وضعاً خاصاً، وذلك أن المصادر الأولى لهذا التاريخ لم تكتب بلغة الترك، وإذا أردنا أن نعرف تاريخ الترك زمن بداوتهم - أى زمان جهلهم الكتابة - فنحن مضطرون إلى أن نقرأ حكايات جيرانهم، أما إذا أردنا دراسة تاريخهم بعد أن فتحو الممالك المتحضرة، ويعد أن تحولوا هم أنفسهم من البداوة إلى الحضارة، إذا أردنا هذا واجهتنا صعوبة أخرى وهى أن الترك فى هذا الدور من تاريخهم تأثروا حضارياً بالعناصر المغلوبة لهم، وتأثروا أيضاً باللغات الأدبية لهذه العناصر. يمكن القول أن أحوال الترك المقيمين فى شرق آسيا وخاصة فى منغوليا إنما تعرف من المصادر الصينية، أما الترك الذين هاجروا إلى الجزء الغربى من آسيا الوسطى وتأثروا بالحضارة الإسلامية، فإن أحوالهم إنما تعرف من المصادر العربية، ومن المصادر الفارسية بوجه خاص<sup>(١)</sup>. ومن أهم المصادر التى تهم صاحب الدراسات التركية آثار أورخون التى اكتشفت فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر، وتحتوى هذه الآثار كتابات عن الأصول الأولى للغة الترك، فضلاً عن بعض جوانب من تاريخهم الذى يشير إلى أنهم ظهروا فى القرن السادس الميلادى. وتؤيد الكتابات الصينية والبيزنطية ما جاء فى نقوش أورخون، فقد وردت فى المصادر الصينية كلمة Tu-Küe (تو - كه - كه) بمعنى «الترك»، وفى المصادر البيزنطية وردت كلمة توركوو Turkoï، التى قبلت على أنها بمعنى الترك بلا خلاف. والواقع أنه ليس بين الدول التركية جميعها ما يمكن أن تستمد تاريخه من مصادر محررة بالتركية إلا الدولة العثمانية، ولكن لغة المؤرخين العثمانيين تحوى من الكلمات العربية والفارسية أكثر مما تتضمن من الكلمات التركية، وهى لذلك غير مفهومة لكثير من الأتراك<sup>(٢)</sup>.

ولاشك أن الترك الذين يتكلمون ما نسميه اليوم اللغة التركية كانوا موجودين منذ أقدم العصور، ولكن من العبث أن نفرض أن كلمة ترك كانت موجودة قبل القرن السادس الميلادى، وقد لاحظ العرب أن أقواماً كثيرة ممن حاربوها فى القرنين السابع والثامن

(١) بارتولد (و)؛ تاريخ الأتراك فى آسيا الوسطى، ترجمة د. أحمد السعيد سليمان (القاهرة ١٩٩٦)، ص

١٥ - ١٦.

(٢) المرجع السابق، ص ١٦ - ١٧.

للميلاد كانت تتكلم نفس اللغة التى يتكلمها الأتراك، فأطلقوا عليهم كلمة ترك. ويرى الباحث الدانمركى طومسن Thomsen أن كلمة «ترك» إسم لقبيلة مستقلة أو على الأرجح إسم لأسرة حاكمة، ويحتمل أن يكون المعنى الأول للكلمة «ترك» هو البأس والقوة والإحكام<sup>(١)</sup>.

وقد أطلق على بلاد الترك إسم «تركستان»، وهى كلمة فارسية تعنى «بلاد الترك». وأول ما نسمعه فى التاريخ عن الترك هو أنهم أقاموا لأنفسهم فى القرن السادس الميلادى دولة امتدت من حدود الصين شرقا إلى حدود الدولتين الفارسية والبيزنطية غربا. وقد انقسم الوطن التركى عندئذ إلى قسمين: قسم يقع شرقى إقليم ما وراء النهر - وهو الإقليم الواقع بين نهري جيحون وسيحون - ويمتد حتى حدود الصين شرقا، وسهوب روسيا شمالا، وقد ينبسط ليشمل بلاد القوقاز وحوض نهر الفولجا، وقسم غربى يشمل المناطق الزراعية الخصبة بين نهري جيحون وسيحون، أى يشمل بلاد ما وراء النهر<sup>(٢)</sup>.

وتحوى كتابات الجغرافيين العرب التى ترجع إلى القرن العاشر الميلادى وصفا مفصلا للعالم الإسلامى، وفيها كذلك معلومات قليلة عن الأماكن الآهلة بالترك والواقعة على الطريق الذى يربط العالم الإسلامى بالصين. ويوجد طبقا لما تصوره هذه المؤلفات ثلاثة أقوام من الترك فى الأرض الممتدة من بحر الخزر إلى حدود الصين، وهؤلاء هم<sup>(٣)</sup>.

١ - الغز وينتشرون فى الأراضى الممتدة فى بحر الخزر إلى أواسط مجرى نهر سيرداريا (سيحون).

٢ - القارلوق وينتشرون فى الأراضى التى تمتد إلى مسيرة عشرين يوما شرق فرغانة.

٣ - التغزغز أو طوقوز - أوغوز ويسكنون الأراضى التى تبدأ من حدود أراضى القارلوق وتمتد حتى الصين.

(١) المرجع السابق، ص ٤٤ - ٤٦.

(٢) سعيد عاشور: «العلاقات العربية التركية من منظور عربى»، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية (القاهرة ١٩٩١)، ج ١ ص ٢٤.

(٣) بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، ص ٦٦ - ٦٧.

وفى القرن السادس الميلادى نجح خانات الترك فى توحيد آسيا الوسطى بأجمعها تحت سيطرتهم، وصار الأمل يحدوهم فى القضاء على القوة التى اعترضت سبيل توسعهم غرباً، وهى دولة الساسانيين (٢٢٦ - ٦٣٧م)، ولذلك سعوا للدخول فى حلف مع البيزنطيين ضد العدو المشترك مثلاً فى الدولة الساسانية، ولكن ضعف الدولة البيزنطية عندئذ حال دون تنفيذ هذا المخطط<sup>(١)</sup>.

وكانت الديانة الغالبة على الترك حتى ذلك الوقت هى الديانة البوذية السائدة فى شرق القارة الآسيوية، ولكن احتكاكهم بالفرس أدى إلى تأثرهم بجوانب من الحضارة الفارسية، فتسربت إليها العقيدة الزرادشتية<sup>(٢)</sup>، وإن ظلت هذه العقيدة محدودة الانتشار بين الترك لعدم اهتمام أهلها بأمر الدعوة لها<sup>(٣)</sup> هذا بالإضافة إلى بعض الديانات الأخرى التى وجدت منفذاً لنفسها بين الترك، ومن هذه الديانات المسيحية والمناوية<sup>(٤)</sup>، وقد استهدفت الديانة

(١) سعيد عاشور: المرجع السابق، ص ٢٥.

(٢) تنسب الزرادشتية إلى مؤسسها زرادشت، وتاريخ ظهوره غير معروف بالضبط، فيعتقد علماء الزرادشتية أنه عاش حوالى عام ١٠٠٠ ق.م، وإن كان بعض رجال الغرب يحددون ذلك فى تاريخ متأخر هو القرن السابع قبل الميلاد. وتقوم تعاليم الزرادشتية على فكرة «الله»، والإسم الذى يطلق عليه فيها وهو «أهورامزدا»، الذى يوصف بأنه الكامل والأبدى وخالق الحياة وإله الخير. والشعور المنتشرة فى حياة البشر من أشد ما يشغل زرادشت، فهو يحرض الناس على إشعال حرب لا تنتهى على تلك الشرور. وتشير الزرادشتية إلى الشر بأنه العدو أو الفرد الشرير أهريمان. وقد أدى استخدام الزرادشتية لإسم علم يطلقونه على الشر وهو أهريمان إلى نشوب الكثير من الجدل فيما إذا كانت الزرادشتية تؤمن بشائية مطلقة، تجمع بين أهورامزدا المتصف بالحكمة وبين أهريمان متصف بالشر، أنظر ويدجرى (البان - ج): التاريخ وكيف يفسرونه (القاهرة ١٩٩٦)، ج ١ ص ١٣٧ - ١٤١.

(٣) سعيد عاشور: «العلاقات العربية التركية»، ص ٢٥.

(٤) تنسب المناوية إلى صاحبها مانى (٢١٦ - ٢٧٧م)، ولد فى ماردين بالقرب من بابل، وأعلن عقيدته فى سن الخامسة والأربعين خلال عهد الملك الساسانى سابور الأول (٢٤١ - ٢٧٢م). والعالم عند المناوية قائم على أصليين هما الخير والشر أو النور والظلمة. ويرى مانى أن الخير والشر ممتزجان معاً فى الإنسان، وأن المرأة هى السبب فى إيقاع الرجل فى الذنوب، فإذا امتنع عنها، وعاش عيشة الزهد، وصام عن الطعام بعض الوقت، فإن ما فيه من عناصر الخير يتغلب على الدوافع الشيطانية ويهديه إلى النجاة. وقد رفض مانى التوراة تماماً وقبل الإنجيل فقط، ويرى أنه رسول الحق وخليفة بوذا ووزرادشت والمسيح. ويتضح من ديانة مانى أنها ديانة مركبة، أى اقتبس معتقداته من ديانات أخرى وألف بينها، وظل مانى ينشر دعوته حتى صلب سنة ٢٧٢م، وحشى جلده بالقش =

المانوية التوفيق بين الزرادشتية والمسيحية والبوذية، مما جعلها تصادف قبولاً واسع الانتشار بين الترك في تلك المرحلة السابقة على وصول الإسلام إليهم، وقد شجع ذلك بعض المانويين على الفرار بعقيدتهم من فارس إلى بلاد ما وراء النهر، حيث توافر لهم قدر من حرية العبادة، فعاشوا جنباً إلى جنب مع البوذيين والمسيحيين النساطرة، هذا وإن ظلت الزرادشتية ديانة الطبقة الحاكمة في تلك الأصقاع حتى وصول الإسلام إليها<sup>(١)</sup>.

وكان أن ظهر الإسلام في شبه الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي، واستطاع الرسول ﷺ أن يضع نواة الدولة العربية الإسلامية، ويوحد القبائل العربية بعد أن كانت متفرقة متنازعة، ويجعل من العرب قوة هائلة. وبعد وفاة الرسول الكريم خرج العرب المسلمون من شبه جزيرتهم لنشر الإسلام في أنحاء العالم المعروف وقتذاك، وضربوا أروع الأمثلة في الفضائل والقُدوة الحسنة، وحملوا راية التوحيد شعارها «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، ومعهم دستور إلهي محكم وهو القرآن الكريم. ولاشك أن نجاح حركة الفتوح الإسلامية العربية على حساب القوى الكبرى المعاصرة وبخاصة دولتي الفرس والروم (البيزنطيين)، وانتشار القبائل العربية تبعاً لذلك شرقاً وغرباً، وما ترتب على ذلك من نتائج سياسية وحضارية، كل ذلك كان له أثره في تغيير خريطة العالم.

وعلى أية حال، بدأت الفتوحات العربية في عهد الخليفة أبي بكر الصديق، باندفاع العرب إلى أراضي الدولة البيزنطية والدولة الفارسية في وقت واحد. ويهمننا هنا أن العرب ما كادوا يوطدون نفوذهم في فارس حتى اتخذوا من خراسان في عام ٢٢ هـ (٦٤٣ م) ثغراً إسلامياً يناوش الأتراك ويحاربهم ويشيع الفرقة بينهم، لا يعطى الإمارات التركية المتنازعة فرصة التجمع في جبهة تركية موحدة<sup>(٢)</sup>. والواقع أن الأتراك كانوا على العكس من الفرس، فقد ثبتوا ولم تستطع قوات العرب المسلمين أن تفتح بلادهم، وقد كان العرب

---

= وقد انتشرت المانوية أول الأمر في بابل، ثم انتقلت بعد ذلك إلى سوريا وفلسطين ومصر، ومنها انتقلت إلى طرابلس وقرطاجنة، في الوقت الذي انتشرت فيه في الغال (فرنسا) وبريطانيا. انظر حسن بيرنيا: تاريخ إيران القديم من البداية حتى نهاية العهد الساماني (القاهرة ١٩٧٩)، ص ٦٣ - ٦٤.

(١) سعيد عاشور: المرجع السابق ص ٢٥ - ٢٦، حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى بين الفتحين العربي والتركي (القاهرة ١٩٦٨)، ص ١١٤.

(٢) حسن محمود: المرجع السابق، ص ١١٥.

يلتزمون سياسة الدفاع طوال القرن الثامن، وذلك بعد أن تم لهم فتح الأماكن المتحضرة في أحواض جيحون وزرقشان وسيحون، واتباع العرب أيضاً سياسة من سبقهم، فبشوا الأسوار وحفروا الخنادق، ليحافظوا على البلاد المتحضرة<sup>(١)</sup>.

ويتخذ بعض الباحثين من سنة ٨٦هـ (٧٠٥م) بداية الفتح الحقيقي لبلاد الترك. وكانت الدولة الأموية عندئذ قد خلصت من مشاكلها الداخلية - وأهمها ثورة عبد الله الزبير - مما جعل الدولة تستأنف حركة الفتوح على مقياس واسع، شرقاً وغرباً. ويقترون فتح تركستان عادة باسم قتيبة بن مسلم الذي ولاه الحجاج بن يوسف الثقفي خراسان سنة ٨٦هـ، فنجح في استعادة طخارستان، كما استولى على الطالقان وبلغ في نفس العام، ثم اجتاحت إقليم بخارى، وسقطت بخارى ثم سمرقند في أيدي العرب سنة ٩٣هـ (٧١٢م). وجاءت هذه الحركة التوسعية مصحوبة بانتشار الإسلام، إذ يذكر المؤرخون أن المسلمين عندما دخلوا سمرقند أحرقوا ما بها من أصنام وبنوا فيها مسجداً أقيمت فيه الصلاة والخطبة<sup>(٢)</sup>.

أخذ الإسلام ينتشر بين الترك حين بسطت الدولة السامانية الفارسية (٨٧٤ - ٩٩٩م) نفوذها في أواسط آسيا، ففي القرنين التاسع والعاشر (من ٨٢٠ إلى ١٠٠٠ تقريباً) كانت المناطق المتحضرة بتركستان الروسية الحالية في قبضتهم، وتسمى الولايات الواقعة بالجانب الآخر من نهر أموداريا (جيحون) بلاد ما وراء النهر، وكان سكانها يسمون أحياناً في أثناء الفتوحات الإسلامية بالأترك<sup>(٣)</sup>.

وتدل الوثائق على أن المدارس التي كانت بخراسان وبما وراء النهر في القرن العاشر الميلادي، لعبت الدور الأهم في نشر الإسلام، وكانت هذه المدارس مستقلة عن تدبير الحكومات وسياساتها. وفي ذلك القرن كانت الدعوة للإسلام خارج حدود الخلافة العباسية أكثر نجاحاً في آسيا الوسطى منها في أي مكان آخر، وذلك بفضل هذه المدارس<sup>(٤)</sup>.

(١) بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ص ٥٠.

(٢) سعيد عاشور: المرجع السابق، ص ٢٨ - ٢٩.

(٣) بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ص ٧٤.

(٤) المرجع السابق، ص ٧٥ - ٧٦.

وهنا نلاحظ أن السامانيين عدلوا عن خطة الدفاع التي كان يتبعها أمراء خراسان وما وراء النهر المعينون من قبل الخليفة، ونفضوا أيديهم من بناء الأسوار التي كانت تقام لحماية الأقاليم المتحضرة من غارات قبائل البدو الرحل، وبدأ السامانيون يغيرون على مناطق الرعى فيما وراء الحدود، وكانت غزواتهم تنتهى أحيانا بفتح بعض المدن، ففي سنة ٢٨٠هـ (٨٩٣) فتحوا مدينة طراز أو طالاس، وحولوا الكنيسة الكبيرة بالمدينة إلى مسجد، مما يدل على أن المسيحية كانت قد سبقت الإسلام إلى هناك<sup>(١)</sup>.

وقد صاحب هذا التوسع في انتشار الإسلام بين الترك نشاط تيار كبير هو النشاط التجارى لحرص المسلمين في تلك المستوطنات التي أقاموها في بلاد الترك على مباشرة التجارة بين غرب القارة الآسيوية وشرقها عبر طرق التجارة المألوفة بين الشرق والغرب. ومن المعروف أن قوافل التجار في تلك العصور كانت تحمل الأفكار والأخبار والتيارات الفكرية والعقائدية والروحية، إلى جانب البضائع، بمعنى أن نشاط المسلمين التجارى في بلاد الترك، حمل بين ثناياه تيار الإسلام وأركانه ومبادئه<sup>(٢)</sup>.

### الأتراك السلاجقة:

وفي خلال القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) أخذ فرع آخر من الترك، وهم السلاجقة، يتحركون صوب الأقاليم الإسلامية<sup>(٣)</sup>. والأتراك السلاجقة هم مجموعة من قبائل الأتراك الذين عرفوا بالأوغوز Oghuz أو الغز Ghuzz، وعرفهم المؤرخون البيزنطيون باسم أوزوى Ouzoi، ويشير الجغرافى الفارسى مؤلف كتاب «حدود العالم» فى القرن العاشر الميلادى إلى أن قبائل الأوغوز أو الغز كانوا يعيشون مع قبائل القرغيز التركية فى منطقة السهوب الواقعة شمالى بحيرة بلكاش<sup>(٤)</sup>، وهى المنطقة المعروفة باسم منطقة

(١) المرجع السابق، ص ٧٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٧ - ٣٨.

(٣) للوقوف على مزيد من التفاصيل، أنظر للباحث: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها فى التصدى للصليبيين (القاهرة ١٩٩٢)، ص ١٦ - ٢٦.

(4) Grousset (R.), L'Empire des Steppes (Paris, 1948), p. 203, The Empire of of Steppes. Trans -- From the Franch by Naomi Waiford (new Jersey, 1970) p. 148.

التركستان. وفي النصف الأول من القرن الحادى عشر، نرى الغز مجموعة من القبائل لايربطها إلا رباط مفكك تماماً، وتحارب بعضها بعضاً، وفي الربع الثانى من هذا القرن هاجرت قبائل الغز إلى الغرب بحثاً عن أماكن أفضل، فانجذبت جماعات منها إلى روسيا الجنوبية وإيران، ويشير المؤرخون الروس إليهم لأول مرة حوالى سنة ١٠٥٤م، ذلك أن قبائل رعوية تركية أخرى دفعتهم إلى التحرك، فانتشروا بعيداً حتى الدانوب الأدنى وعبروه، واجتاحوا البلقان، حيث لقوا فى النهاية هزيمة ساحقة على أيدي القوات البيزنطية فى سنة ١٠٦٥م، أما الجماعات الأخرى أو الفرع الآخر من الغز وهم السلاجقة، فقد اتجهوا اتجاهاً آخر، وكان حظهم وافراً، فقد غزوا فارس وآسيا الصغرى<sup>(١)</sup>. ومن العجيب أن هؤلاء الغز الذين لم يستطيعوا فى أى وقت الوصول إلى الوحدة، قد نجحوا فى تأسيس أقوى الدول التركية وأطولها عمراً، ومن بينها تركيا الحالية<sup>(٢)</sup>.

وينسب السلاجقة إلى جدهم سلجوق (ومعناها القوس الحديدى) بن دقاق، وهو الذى مع قبيلة القنق الغزية Kinik tribe of the Oghiez تحت زعامته، وكان لايعرف لها إسم خاص قبل توليه زعامتها، فنسبت إليه وخضعت لحكمه، وقبل سنة ٩٨٥م كان سلجوق قد انفصل مع جماعته من قبائل الغز الضخمة، وعسكر على الضفة اليمنى لنهر سيرداريا الأدنى (سيحون) فى مدينة جند بالقرب من بيرويسك الحالية Perowask، بذلك أصبح السلاجقة يجاورون أملاك السامانيين، وأدى ذلك إلى تخليهم عن البوذية واعتناقهم الإسلام<sup>(٣)</sup> على المذهب السنى. وقد أثرت بدعوة السلاجقة فى تعصبهم الشديد للإسلام بعد اعتناقهم له على المذهب السنى، وتحمسوا له حماسة الحديث العهد بالدين، مما أثر فى تصرفات السلاجقة، فجعلهم يحترمون أئمة الدين احتراماً شديداً، ويميلون إلى المتصوفة، فانتشر التصوف فى عصرهم، وظفرت طوائف الصوفية باحترام الناس والحكام<sup>(٤)</sup>.

(1) Grousset, L'Empire des Steppes, p. 203, English translation, p. 148.

(٢) بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، ص ١١٩.

(3) Grousset, L'Empire des Steppes, p. 204; Cahen, "The Turkish Invasion: The-Selchukids", in Hist. of the Crusades. Vol. I (Philadelphia, 1955), pp. 139-140.

(٤) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراض، ص ٢١، دولة السلاجقة ص ٢١.



والواقع أنه كان لاعتناق السلاجقة الإسلام وتمسكهم بتعاليمه بالغ الأثر في اكتساب ود السامانيين الذين كانوا يقيمون في إقليم ما وراء النهر، ويدافعون بصلافة عن أراضيهم من غارات الترك القرخانيين، فوقف السلاجقة إلى جانب السامانيين، كما أعانواهم في صد غارات الترك الوثنيين<sup>(١)</sup>، فأخذت قواتهم تتزايد، في الوقت الذي أخذوا هم يشنون الغارات من حين لآخر على الترك الوثنيين، الأمر الذي أكسبهم احترام الحكام المسلمين المجاورين لهم<sup>(٢)</sup>.

وبعد انهيار الدولة السامانية في عام ٣٨٩هـ (٩٩٩) تنازع القرخانيون والغزنويون على أرضها، فاستولى القرخانيون على إقليم ما وراء النهر، واستولى الغزنويون على خراسان، وهنا عمل السلاجقة على الاستفادة من الفوضى التي صاحبت الوضع الجديد، فاستقروا في قلب بلاد ما وراء النهر، في الجزء الشمالي الشرقي من بخارى. ولما توفي سلجوق خلفه في زعامة السلاجقة ابنه الأكبر إسرائيل، الذي دخل في خدمة ملك القرخانيين على تكن في عام ١٠٢٥م، وتحالف معه ضد السلطان محمود الغزنوي مؤسس الدولة الغزنوية، فما كان من الأخير إلا أن عول على القضاء على إسرائيل، ولتحقيق ذلك لجأ إلى استمالته بالحيلة، ثم قبض عليه وألقى به سجيناً في أحد قلاع بالهند، حتى أدرسته الوفاة سنة ١٠٣٠م<sup>(٣)</sup>.

ولاشك أن هذا التصرف الغادر قد أغضب السلاجقة، وجعلهم يعقدون العزم على الأخذ بالثأر لإسرائيل، فاخترأوا أخاه ميكائيل بن سلجوق لقيادتهم، فما لبث أن فكر في الانتقال بهم إلى خراسان، بهدف تثبيت أقدام قومه في هذا الإقليم، ثم الانقضاض على الغزنويين والأخذ بالثأر منهم، كما أنه استهدف تكوين دولة قوية تحل محل الغزنويين في خراسان وما وراء النهر. وكان أن كتب السلاجقة إلى السلطان محمود الغزنوي يطلبون منه أن يأذن لهم بعبور دياره والإقامة بين «نسا» و«بارود»، فوافق محمود فلما أن انقضت على إسرائيل زعيمهم السابق قد كسر شوكتهم. على أنه لم يكد يستقر السلاجقة في خراسان،

(1) Grousset, op. cit., p. 204.

(٢) محمد محمود إدريس: تاريخ العراق والمشرق الإسلامي خلال العصر السلجوقي الأول (القاهرة ١٩٨٢)، ص ٦٣ - ٦٤.

(3) Grousset, op. cit., p. 204.

حتى أخذوا يدعمون قواتهم، وينتشرون في الأرجاء المجاورة لهم، ويتحينون الفرص للقضاء على الدولة الغزنوية، واقتلاع جذورها من خراسان وما وراء النهر<sup>(١)</sup>.

لما توفي السلطان محمود الغزنوي في عام ١٠٣٠م، وخلفه ابنه مسعود في حكم الغزنويين، رأى السلاجقة أن الوقت قد حان للقضاء على الغزنويين، فوحدوا قيادتهم في يد طغرليک (١٠٣٧ - ١٠٦٣)، الذي أسرع إلى نيسابور حاضرة خراسان واحتلها في عام ١٠٣٧، ثم جلس على عرش مسعود في نيسابور، فأصبح بذلك أول سلطان للسلاجقة والمؤسس الحقيقي لدولتهم<sup>(٢)</sup>. على أن السلطان مسعود الغزنوي قرر الانتقام لنفسه من طغرليک، فدارت بين السلاجقة والغزنويين معركة عنيفة عند دندانقان بالقرب من مرو عام ١٠٣٩م، إنتهت بهزيمة الغزنويين هزيمة ساحقة أنزلت بهم أفدح كارثة قضت على نفوذهم في فارس وما وراء النهر، وصارت خراسان كلها للسلاجقة<sup>(٣)</sup>. وفي العام التالي (١٠٤٠) كتب طغرليک إلى الخليفة العباسي القائم بأمر الله، طالبا منه أن يعترف بسلطنة السلاجقة وشرعية حكمه، ومع أن الخلافة العباسية كانت آنذاك في غاية الضعف، إلا أن الحصول على اعترافها يعطى الدولة السلجوقية صفة شرعية يرضى عنها الناس، وقد اهتم الخليفة العباسي بطغرليک، واعترف بسلطنته<sup>(٤)</sup>.

واصل السلطان طغرليک توسيع رقعة دولته، فاستولى على خوارزم عام ١٠٤٢م، والرى وقزوين وأبهر وزنجان عام ١٠٤٥م، وفي عام ١٠٥٠م حاصر طغرليک مدينة

(١) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق، ص ٢٦، دولة السلاجقة ص ٢٤ - ٢٦، محمد إدريس: المرجع السابق، ص ٧٠ - ٧١، أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة (الكويت ١٩٧٥)، ص ٢٣ - ٢٥.

(٢) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق، ص ٢٨؛ أحمد كمال الدين: المرجع السابق، ص ٢٥.

(٣) الفارقي: تاريخه، تحقيق د. بدوى عبد اللطيف عوض (بيروت ١٩٧٤)، ص ٥، تامارا تالوت رايس: السلاجقة تاريخهم وحضارتهم، ترجمة لطفى الخورى وإبراهيم الدسوقي، مراجعة عبد الحميد العلوجي (بغداد ١٩٦٨)، ص ٢٥.

Grousset, op. cit., pp. 204-205; Cahen, op. cit., pp. 141-142.

(٤) عبد النعيم حسنين: المرجع السابق، ص ٢٩ - ٣٥؛ دولة السلاجقة، ص ٢٢٨، أحمد كمال الدين: المرجع السابق، ص ٢٦.

أصفهان فسقطت في يده بعد صعوبات جمة، في الوقت الذي استطاع السيطرة على بلاد فارس والقضاء على دولة البويهيين قضاء تاماً، وفي عام ١٠٥٤م توجه طغرلبيك إلى إقليم آذربيجان، واستطاع أن ييسر نفوذه على جميع أنحائه، وفي العام التالي (٤٤٧ - ١٠٥٥م) دخل بغداد بناءً على دعوة الخليفة العباسي ليحل محل البويهيين الشيعة في الهيمنة على العراق<sup>(١)</sup>.

### السلاجقة والبيزنطيون:

وكانت الدولة البيزنطية الضحية الأولى لقوة السلاجقة. فبعد الإحياء الملحوظ الذي شهدته تلك الدولة في القرن العاشر الميلادي، سارت أوضاعها السياسية في طريق التدهور والانحطاط. فمنذ وفاة الإمبراطور باسيل الثاني سفاح البلغار سنة ١٠٢٥م، انهارت قواها الدفاعية، وانتابتها أزمات اقتصادية حادة منذ نهاية النصف الأول من القرن الحادي عشر، أدت إلى سيطرة التجار الإيطاليين على تجارة الإمبراطورية، وجاء الخطر الداهم في اجتياح الأتراك السلاجقة أراضي آسيا الصغرى، الأمر الذي حرم الإمبراطورية من أغنى ولاياتها ومصدرها الرئيسي للدخل من الضرائب<sup>(٢)</sup>.

والواقع أن الغزو السلجوقي لأراضي الإمبراطورية البيزنطية لم تشتد وطأته إلا منذ عهد الإمبراطور قسطنطين التاسع مونوماخوس (١٠٤٢ - ١٠٥٥). ففي سنة ١٠٤٨م إندفع إبراهيم إينال - أخو طغرلبيك من أمه - في إغارات ناجحة على الأراضي البيزنطية، وانتصر على البيزنطيين في إقليم أيريا (الأبخاز) وطرايبزون وأرضروم القريبة من أعالي الفرات التي أحرقتها وسواها بالأرض وقتل معظم سكانها<sup>(٣)</sup>. وفي عام ١٠٥٤م قاد السلطان طغرلبيك بنفسه السلاجقة إلى الأراضي البيزنطية، فغزا أرمينية، ودمر ما صادفه من قرى ومزارع فيما

(1) Grousset, op. cit., pp. 205-206.

أحمد كمال الدين: المرجع السابق، ص ٢٧ - ٢٨.

(2) Stavrianos, The Balkans since 1453 (Nw York 158), pp. 29-31.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، - ٨ ص ٤٨، راي: السلاجقة، ص ١٢٧،

Charanis (P-), "The Byzantine Empire in the Eleventh Century", pp. 189-190;

Cahen, op. cit., p. 144.

بين بحيرة فان وأرضروم، وفرض الحصار على مانزكرت (ملازكرد)، ولكن الجيوش البيزنطية لم تمكنه من الاستيلاء عليها، فانسحب إلى الري<sup>(١)</sup>.

وهنا نلاحظ أن الغارات التي وجهها السلاجقة إلى جميع أنحاء إرمينية، لم تنجح في احتلال مركز قوى يشبتون فيه. على أن الموقف قد تغير عندما اشتدت غارات السلاجقة على أراضي الإمبراطورية البيزنطية بين سنتي ١٠٥٧ و ١٠٨١م، فاجتاحوا قبادوقيا ونهبوا ملطية سنة ١٠٥٧، وفي سنة ١٠٥٩ أوغل السلاجقة لأول مرة إلى جوف أملاك الإمبراطورية شرقى آسيا الصغرى، حتى بلغوا سيواس، فاقتحموها وأجروا بها مذبحة مريعة، ثم بعد أن أشعلوا فيها النيران، عادوا محملين بالأسلاب والغنائم<sup>(٢)</sup>. ويمكن القول بأن غارات السلاجقة حتى وفاة طغرل بك سنة ٤٥٥هـ (١٠٦٣) استهدفت غالباً النهب والسلب، دون أن يحاولوا الاستقرار وإقامة دولة لهم داخل الإمبراطورية البيزنطية.

ولما تولى ألب أرسلان الحكم بعد وفاة عمه طغرل بك، نهج السلاجقة نهجاً جديداً تجاه الإمبراطورية البيزنطية، إذ استهدفوا الاستيلاء على أراضي تلك الإمبراطورية وامتلاكها، بدلا من القيام بغارات محدودة للسلب والنهب. ففي سنة ١٠٦٥ إستولى ألب أرسلان على آنى حاضرة إقليم أرمينية وهي مدينة حصينة ذات موقع استراتيجي هام، وباستيلاء السلاجقة على هذه المدينة أضحوا يسيطرون على هضبة أرمينية التي كانت بمثابة الدرع الواقى للإمبراطورية البيزنطية من الشرق لأهمية موقعها وصعوبة مسالكها<sup>(٣)</sup>، وبات الطريق مفتوحاً أمام السلاجقة للتوغل في داخل الأناضول. حدث ذلك دون أن يحاول الإمبراطور البيزنطي قسطنطين العاشر دوكاس (١٠٥٩ - ١٠٦٧) التحرك لإنقاذ الإمبراطورية من الوضع الخطير الذي تردت فيه. والواقع أن هذا الإمبراطور أثبت فشله في الحكم، إذ كان لايهتم بشيء أكثر من اهتمامه بشئون المال، فأهمل جميع إدارات الحكومة الأخرى لكي

(١) إين الأثير: الكامل، ج ٨، ص ٦٧،

Charanis, op. cit, p. 190; Cahen, op. cit., p. 144.

(2) Runciman (S.), A Hist. of the Crusades (Cambridge, 1951), Vol. I. p. 60.

(٣) الكامل، ج ٨ ص ٩٨ - ١٠٠،

Ortogorsky (G.), Hist. of the Byzantine State (New Jersey, 1968), p. 303; Cahen, op. cit., p. 148.

يحاول تدعيم خزانة الإمبراطورية ثانية، بعد أن استنزفت مواردها، ولكي يقتصد في الأموال سرح جزءاً ضخماً من الجيش وأنقص مرتبات الباقين، وكان هذا عملاً جنوبياً أدى إلى عدم كفاءة القوات المحاربة بصورة خاصة، في الوقت الذي كان يهدد فيه الإمبراطورية أفضع خطر حربي شوهد منذ أربعة قرون، وهو خطر الأتراك السلاجقة<sup>(١)</sup>.

على أنه حدث في يناير سنة ١٠٦٧ أن اعتلى عرش الإمبراطورية البيزنطية جندى نشيط هو رومانوس الرابع ديوجينيس Romanus IV Diognes. فأعاد تنظيم الجيش وإن كان معظمه تألف من المرتزقة النورمان والخزر والروس والفرنسيين والبلغاريين واليونانيين والصقالبة والترك. وبهذا الجيش الذي يفتقر إلى روح التجانس ويتألف من قوميات مختلفة خرج رومانوس في عام ١٠٧١م ليسترد أرمينية ويضع حداً لتقدم السلاجقة. وعسكر بجيشه الذي قدرته المراجع بحوالي مائتي ألف مقاتل في مانزكورت (ملازكرد) شمالي بحيرة فان بالقرب من مدينة خلاط في انتظار اللقاء بخصمه السلطان ألب أرسلان. وأحس السلطان أنه أمام خطر داهم، فأسرع بالهجوم على مقدمة الجيش البيزنطي في سرعة خاطقة وشجاعة نادرة واستطاع أن يحرز نصراً، ولكنه لم يلبث أن أدرك أنه من الصعب على جيشه أن يواجه جيشاً ضخماً كجيش البيزنطيين، ورأى أن الحكمة تقتضيه أن يسعى في طلب الصلح إلى أن يستعد الاستعداد المناسب للملاقاة خصمه في معركة حاسمة، غير أن الإمبراطور رفض الصلح في غطرسة وكبرياء، ورد على ألب أرسلان بأن الصلح بينهما لن يتم إلا في الري عاصمة السلاجقة<sup>(٢)</sup>. وعندئذ لم ير السلطان بداً من خوض المعركة، فدعا جنده إلى الاستماتة في القتال دفاعاً عن الإسلام، واختار يوم الجمعة وهو وقت الدعاء على جميع المنابر لجيوش المسلمين موعداً للاشتباك مع البيزنطيين، فصلى بجنده وبكى خشوعاً وتأثراً وبكى الناس معه، ثم امتطى فرسه ولبس البياض وتحنط استعداداً للموت، وأعلن أنه إن هزم فإن ساحة الحرب تغدو قبره. والتقى في ٢٠ ذي القعدة ٤٦٣هـ (١٩ أغسطس ١٠٧١) في معركة عنيفة اشتدت فيها حماسة

(١) أومان (تشارلز): الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة د. مصطفى طه بدر (القاهرة ١٩٥٣)، ص ٩٦، رابن: السلاجقة، ص ٣٤ - ٣٥.

(٢) الكامل، ج ٨، ص ١٠٩، رابن: السلاجقة، ص ٣٧ - ٣٨، محمد عبد الله عنان: مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام (القاهرة ١٩٦٢)، ص ١٠٩، عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران، ص ٥٧.

السلاجقة، واستماتوا في القتال، ولم يستطع الجيش البيزنطي الوقوف أمام الفرسان السلاجقة الذين انقضوا على البيزنطيين بحركاتهم السريعة المفاجئة، وقتلوا منهم جموعاً عظيمة، وقع الإمبراطور نفسه أسيراً في أيدي ألب أرسلان<sup>(١)</sup>، الأمر الذي لم يحدث يوماً قبل ذلك في تاريخ بيزنطة. ومن العوامل التي أسهمت في إلحاق الهزيمة بالجيش البيزنطي، أنه لما احتدمت المعركة استجاب المرتزقة الأتراك في جيش رومانوس لرابطة الدم والعصبة التي تربطهم بالأتراك السلاجقة. ومن أسباب الهزيمة أيضاً أن أحد فرسان النورمان انسحب من المعركة دون أن يمد يد المساعدة إلى رومانوس؛ كما أن القائد أندرونيقوس دو كاس وهو أحد الطامعين في العرش البيزنطي، وضع مصالحه الخاصة فوق مصالح وطنه فانسحب بقواته إلى القسطنطينية<sup>(٢)</sup>، مما أدى إلى حدوث اضطراب في الجيش البيزنطي كله.

ولاجدال في أن موقعة ملازكرد كانت هزة عيفة أصابت كيان الإمبراطورية البيزنطية إصابة لم تستطع النهوض منها، وكان من الممكن أن تؤدي إلى نتائج أسوأ مما أدت إليه لو أن ألب أرسلان اكتفى منها بانتصاره الساحق، ولم يتابع ما هيأته له الظروف من إمكان السيطرة التامة على مقاليد الإمبراطورية أو على الأقل إضعافها أكثر مما حدث<sup>(٣)</sup>. وعلى أية حال، فإن تلك المعركة جاءت دليلاً على ضعف الإمبراطورية البيزنطية ونهاية دورها في الدفاع عن المسيحية ضد الإسلام، بل إنها ساعدت على القضاء على الإمبراطورية نفسها على يد الأتراك العثمانيين فيما بعد سنة ١٤٥٣ م.

بعد كارثة ملازكرد المروعة، واصل الأتراك السلاجقة تقدمهم على حساب البيزنطيين بعد أن انفتح الطريق أمامهم في آسيا الصغرى، واجتاحوا معظمها، وبات من العسير على

(١) إبن القلائس؛ ذيل تاريخ دمشق، تحقيق د. سهيل زكار (سوريا ١٩٨٣) ص ١٦٧ - ١٦٨، الكامل، ج ٨ ص ١٠٩ - ١١٠، الفارقي؛ تاريخه، ص ١٨٩ - ١٩٠؛

Levtchenko (M.V.), Byzance des Origines à 1453. (Paris, 1949), p. 220; Grousset, L'Empire des Steppes, p. 207, Wittek (Paul), The Rise of the Ottoman Empire (New York, 1971), p. 16.

(2) Charanis, op. cit., pp. 192-193;

حسن حبشي؛ الحرب الصليبية الأولى (القاهرة ١٩٥٨)، ص ٣٣، عبد القادر اليوسف؛ الإمبراطورية البيزنطية (بيروت ١٩٦٦)، ص ١٤٢ - ١٤٣.

(٣) حسن حبشي؛ المرجع السابق، ص ٣٥.

الإمبراطورية البيزنطية استرداد الأقاليم التي فقدتها هناك، الأمر الذي أدى إلى فقدان بيزنطة مركزاً حربياً ممتازاً، ومصدراً هاماً للجبوب والغلال، ومورداً رئيسياً لتزويدها بالجنود، واستلزم الحال زيادة الاعتماد يوماً بعد يوم على الجند المرتزقة الأجانب<sup>(١)</sup>. وقد حدث ذلك دون أن تلقى الجموع السلوقية مقاومة تقريباً، إذ لم يعد ثمة من يحل محل الإمبراطور رومانوس الرابع، في الوقت الذي كانت السنوات العشرة التالية في داخل الإمبراطورية فترة فوضى وكوارث، لم يستخدم حطام الجيش البيزنطي في خلالها لمقاومة السلاجقة وإيقاف توغلهم غرباً، بل في القيام بسلسلة يائسة من الحروب الأهلية<sup>(٢)</sup>. يضاف إلى ذلك ازدياد حدة النزاع بين الطبقة الأرستقراطية المدنية وطبقة القادة العسكريين في الولايات بصفة خاصة في آسيا الصغرى، وما وقع من مكائد وثورات وفتن لانتتهى، قد أصاب الحياة السياسية البيزنطية بالشلل التام، ودمر القوات البيزنطية في آسيا الصغرى، وجعل بيزنطة تستعين بالترك كقوات مرتزقة، كل ذلك هياً للأتراك السلاجقة فرصة التوغل في آسيا الصغرى.

وما يجدر ذكره أن الإمبراطورية البيزنطية بعد أربعة قرون من الغزوات العربية الإسلامية عبر جبال طوروس، قد اتخذت استراتيجية فعالة للدفاع عن حدودها، وكانت قادرة على مقاومة الغزوات في داخل أراضيها، تلك الغزوات التي كانت في بعض الفترات تتكرر سنوياً (الصوائف والشواتي). ولكن الغزو التركي يقدم لنا صورة مختلفة تماماً، فالغزوات العربية الإسلامية كانت تقوم من المراكز العربية المتقدمة في قيليقية شمال الشام، وقامت بها جماعات من الفرسان كانت مستعدة للانسحاب بعد كل حملة موسمية، على حين

(١) ستيفن رنسيمان: الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة زكى على (القاهرة ١٩٦١)، ص ٥٢، جوزيف نسيم يوسف: العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى (القاهرة ١٩٦٧)، ص ١٤٦.

(٢) أومان: المرجع السابق، ص ١٩٩.

Brice (W.C.), "The Colonization of Anatolia", in Bulletin of the John Rylands library, Vol. 38 (1955-1956), p. 18.

(3) Vryonis (Speros), The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor and the Process of Islamization from the eleventh through the fifteenth Century (London, 1971), p. 103.

أن الأتراك السلاجقة جاءوا للاستقرار، وأحضروا صحبة جيوشهم كل قبائلهم وعائلاتهم ومواشيهم، بحثا عن مراعى ومناطق جديدة<sup>(١)</sup>.

وقد أبرز لنا المؤرخ كلود كاهن المراحل الرئيسية للغزو السلجوقي فى الأناضول، فيرى أن هزيمة مانزكرت كانت أوضح حلقة فى عملية التسلل الطويلة التى قام بها السلاجقة فى آسيا الصغرى. فقبل سنة ١٠٧١م كانت القبائل أو الجماعات التركمانية تتحرك غربا قادمة من فارس، وكان الأتراك يجرى تجنيدهم - من خلال زعمائهم - كقوات مرتزقة فى الجيوش المسيحية والإسلامية، وفيما بين سنتى ١٠٧١ و ١٠٨٧ إنهارت مقاومة الإمبراطورية البيزنطية، وقامت إمارات تركمانية صغيرة مستقلة تحت حكم زعامات محلية فى أنحاء كثيرة من الأناضول والشام، وضعت هذه الإمارات بسبب المنافسات والحروب التى نشبت بينها، وأخيراً أصبح الأتراك فى آسيا الصغرى متحدنين تحت سيطرة دولة سلجوقية عاصمتها قونية<sup>(٢)</sup>.

وبزوال النفوذ البيزنطى من الأناضول، كان على المجتمع المسيحى أن يكيف نفسه مع الأتراك السلاجقة المسلمين وحضارتهم الإسلامية، وقد تسببت الظروف التاريخية المختلفة فى العالم الإسلامى فى هجرة مستمرة قام بها العلماء المسلمون والدراويش للاستقرار فى الأناضول، ولذلك صادر السلاطين السلاجقة معظم أراضى المسيحيين والمبائى والإيرادات ومنحوها لأتباعهم العلمانيين والدينيين من المسلمين، ونتيجة لذلك انتشرت المساجد والمدارس والتكايا والمستشفيات عبر الأناضول<sup>(٣)</sup>. وإذا كان الغزو التركى للأناضول قد أنزل بالإمبراطورية البيزنطية كارثة لم تفق منها، فيمكن القول إن تلك الكارثة قد أصابت الكنيسة اليونانية، فقد فقدت تلك الكنيسة جزءاً من رعاياها الذين اعتنقوا الديانة الإسلامية، وشاهدت تلك الكنيسة تقلص مؤسساتها وأسقفياتها، واختفت المراكز الديرية العظيمة، وصارت الكنيسة فقيرة إلى حد كبير، بعد أن فقدت معظم إيراداتها وأملاكها على أيدى الأتراك<sup>(٤)</sup>.

(1) Brice, op. cit., p. 20.

(2) Brice, op. cit., pp. 20-21.

(3) Vryonis, The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor. p. 402.

(4) Ibid., p. 406.



ومهما يكن من أمر، فقد ركز العزاة الأتراك السلاجقة جهودهم فى آسيا الصغرى، وثبتوا فتوحاتهم، ثم بعد ذلك طردوا النفوذ الإغريقى من المناطق الساحلية. وفى نفس الوقت تزايدت أعداد الأتراك باطراد فى آسيا الصغرى، وتجولوا فى أنحائها حتى استقروا على الحدود. وقد ازداد عدد السكان المسلمين بهجرات العرب والفرس والأتراك القادمين من الشرق الأوسط، مما أدى إلى تصاعد التيار الإسلامى وقيام الكثير باعتناق الإسلام. والحقيقة أنه يعد أن فقدت الإمبراطورية أقاليمها الغنية فى آسيا الصغرى، هبطت قوتها إلى درجة متدنية، وانتزع الأتراك السلاجقة المنايع الرئيسية لقوتها البشرية، وفى عهد الإمبراطور نفقور الثالث (١٠٧٨ - ١٠٨١) حرمت القسطنطينية من الضرائب التى كانت تدرها الولايات الأناضولية الغنية<sup>(١)</sup>.

ومن المعروف أن السلاجقة كانوا رعاة فى عاداتهم وتنظيماتهم مثل معظم القبائل التركية فى آسيا الوسطى. ولكن البناء الاجتماعى للوافدين الجدد منهم إلى آسيا الصغرى، تميز باستقرار جماعات ضخمة منهم فى شتى أنحائها، ومنذ وقت بعيد كان سكان القرى الزراعية فى هضبة الأناضول جيرانا لجماعات رعوية، وكانت القرى الزراعية تقع فى منحدرات السفوح أو فى الأراضى وافرة الخصوبة والوديان النهرية. وقد أتاحت الظروف السكانية الخاصة بآسيا الصغرى لأعداد ضخمة من الأتراك أن يتسللوا إليها منذ عقود بعيدة، وأحضروا معهم عنف ونشاط البدو، فضلا عن رغبتهم فى الخضوع للنظام. وبالتدريج خضع الأتراك للحياة الزراعية، وعاشوا فى قرى جنباً إلى جنب مع السكان الأصليين، وحدث اندماج بين الفريقين، وشيئا فشيئا أصبحت المدن خاضعة للإسلام. ونتيجة لذلك اختفت اللغة اليونانية والثقافة اليونانية من داخل آسيا الصغرى، تحولت بلادها إلى العقيدة والحضارة الإسلامية<sup>(٢)</sup>.

وقد أشار الجغرافى الإدريسى إلى أن بلاد آسيا الصغرى فى سنة ١١١٧م كانت لانزال تستخدم الأسماء الجديدة، على حين أن الرحالة ابن بطوطة الذى عبر بلاد آسيا الصغرى

(1) Ibid., p.405.

(2) Langer (W.L.) and Blake (R.P.), "The Rise of the Ottoman Turks and its Historical Background", in American Historical Review, 37 (1931-1932) pp. 479-481.

سنة ١٣٣٠ يرى أن تلك البلاد بما فيها من مدن وقرى تحمل أسماء تركية صرفة، الأمر الذى يعطينا صورة مذهلة عن التحول الذى حدث، ونعنى بذلك «التتريك الفعال» لآسيا الصغرى ودخولها فى الإسلام<sup>(١)</sup>. ويذكر المؤرخون أنه بمجرد أن تخضع الأرض للأتراك السلاجقة أو العثمانيين، سرعان ما تستقر الأمور بها، ولذلك شهدت آسيا الصغرى هدوءاً فى عهد الأتراك السلاجقة الذين غلب عليهم التسامح الدينى، ولم يعرفوا الاضطهاد الدينى وأمنوا للأهالى الحرية الدينية، ويدل على ذلك أن الأهالى اعتنقوا العقيدة الجديدة الممثلة فى الإسلام من تلقاء أنفسهم<sup>(٢)</sup>.

### ضعف نفوذ السلاجقة:

بلغت الدولة السلجوقية أوج اتساعها وعظمتها فى عهد السلطان ملكشاه (١٠٧٢ - ١٠٩٢م) الذى خلف أباه ألب أرسلان، وصارت تمتد من بحيرة خوارزم شمالاً إلى حدود اليمن جنوباً، ومن حدود الصين شرقاً إلى سواحل البحر المتوسط غرباً<sup>(٣)</sup>. ومع ذلك فإنه من الخطأ الاعتقاد فى أن امتداد دولة السلاجقة غرباً على عهد ملكشاه إنما جاء ثمرة جهوده الشخصية، إذ الحقيقة أن هذا السلطان لم تطأ قدمه أرض الأناضول، وإنما قام بمواصلة الحرب ضد البيزنطيين أحد أقارب ملكشاه وهو سليمان بن قتلمش الذى تمكن من بسط نفوذ السلاجقة على ثلاثة أرباع آسيا الصغرى تقريباً<sup>(٤)</sup>. وقد اختار سليمان بن قتلمش السلجوقى مدينة نيقية لتكون مركزاً له، وهى المدينة التى أصبحت أول عاصمة لسلطنة سلاجقة الروم فى الأناضول حتى حلت محلها قونية فيما بعد (١٠٨١ - ١٣٠٢)<sup>(٥)</sup>.

(1) I bid., p. 485.

أنظر مهذب رحلة ابن بطوطة (القاهرة ١٩٣٤)، ج ١ ص ٢٢٣ - ٢٤٨، حسين مؤنس: ابن بطوطة ورحلاته (القاهرة ١٩٨٠)، ص ١١٥ - ١٣٥.

(2) Langer and Blake, op. cit., pp. 482-483.

(٣) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر (بيروت ١٩٦٨)، المجلد الخامس، القسم الأول، ص ٢٧، عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران، ص ٩.

(٤) سعيد عاشور: الحركة الصليبية (القاهرة ١٩٧٨) ج ١ ص ٨٧.

(٥) المرجع السابق، ص ٨٩ - ٩٠.

على أن دولة السلاجقة سرعان ما أخذت تسير فى طريق التدهار والانهيار بعد وفاة ملكشاه سنة ١٠٩٢م، وترتب على وفاته نشوب النزاع بين أبنائه، ثم بينهم وبين أعمامهم، فأدى ذلك إلى تفتيت الدولة إلى دويلات صغيرة، وانتشار الفوضى وفساد الإدارة، واغتصاب الحكم، وحاول كل أمير سلجوقى أن يضم إلى صفه حلفاء يمنحهم الأموال والإقطاعات، الأمر الذى أدى إلى إضعاف نفوذه وقوته<sup>(١)</sup>.

ولعل أكبر مظهر لانحلال نفوذ الأتراك السلاجقة منذ بداية القرن الثانى عشر الميلادى أنهم انقسموا إلى خمسة بيوت هى:

١ - بيت طغرلبيك، وتسمى دولته دولة السلاجقة الكبرى، وقد ملكوا خراسان والرى والعراق والجزيرة وفارس والأهواز. واستمرت دولتهم من سنة ١٠٣٨ حتى سنة ١١٢٨ عندما سقطت فى أيدي الخوارزمية.

٢ - بيت سلاجقة كerman، وهم عشيرة قاروت بك بن داود بن ميكائيل بن سلجوق - وهو أخو ألب أرسلان - واستمرت دولتهم من سنة ١٠٤١ حتى سقطت على أيدي الغز التركمان سنة ١١٨٣.

٣ - سلاجقة عراق العجم وكرديستان، وقد استمرت دولتهم من سنة ١١١٧ حتى سقطت على أيدي الخوارزمية سنة ١١٩٤م.

٤ - سلاجقة الشام، وهم بيت تش بن ألب أرسلان، وقد بدأت سنة ١٠٩٤، استمرت حتى سنة ١١١٧م.

٥ - سلاجقة الروم بآسيا الصغرى، وكانوا من بيت قتلمش بن إسرائيل ابن سلجوق، وقد بدأت دولتهم سنة ١٠٧٧، ولم تسقط إلا على أيدي الأتراك العثمانيين سنة ١٣٠١، وبذلك كانت أطول دول السلاجقة عمراً<sup>(٢)</sup>.

وبعد وفاة ملكشاه، كان سلطان السلاجقة بآسيا الصغرى قلج أرسلان بن سليمان، وعلى الرغم من أن نفوذه قد امتد على الطريق الممتد من نيقية إلى قونية، وعلى الممرات

(١) السيد الباز العرنى: الشرق الأوسط والحروب الصليبية (القاهرة ١٩٦٣)، ص ٩.

(٢) سعيد عاشور: العلاقات العربية التركية من منظور عربى، ص ٧١.

الواقعة بشمال سلسلة جبال طوروس، فإنه لم يسيطر على كل آسيا الصغرى، ففي أرمينية استقرت جماعة من التركمان، وفي أرزنجان استقرت طائفة أخرى، وفي أقصى الغرب خضعت سيواس وأماسيه وقيصرية وأنقرة لرجل من زعماء التركمان، اتخذ لقب دانشمند الأمر الذى يدل على ما كان له من نفوذ روحى. وعلى هذا النحو قامت بآسيا الصغرى قوة من التركمان، دأبت على الإغارة فى آسيا الصغرى، تقابل قوة الأمراء السلاجقة التى ترتكن إلى العناصر التركية فى داخل البلاد<sup>(١)</sup>.

ويمثل القرن الثالث عشر حقبة هامة فى تاريخ الشرق الأدنى، وخاصة فى آسيا، إذ شهد أفول وتفسخ سلطنة سلاجقة الروم، وتوغل المغول فى أملاكها.

وقد ظل المغول حتى القرن الثانى عشر بمنأى عن أحداث التاريخ العام باعتبارهم قوما رحلًا أملت الظروف القاسية عليهم أن يعيشوا عيشة رعوية، وأن ينتقلوا فى هضبة منغوليا الواسعة من مكان إلى آخر، سعيا وراء العشب والكلأ. وما أن وافت نهاية هذا القرن حتى أصبح المغول شعبا مقاتلا من نوع فريد يفتقر إلى القائد الذى يستطيع أن يقوده، فكان ذلك القائد هو تيموجين الذى عرف فيما بعد باسم جنكيزخان (ت ١٢٢٧م)، وقدر له أن يضع أساس أكبر إمبراطورية عرفها تاريخ البشرية<sup>(٢)</sup>.

ثم كان أن بدأ جنكيزخان يوجه أنظاره إلى المناطق الخارجة عن نطاق المغول، وذلك بالتوسع فى الجنوب على حساب الصين. وفى ربيع عام ١٢١٤ هاجم جنكيزخان إمبراطورية الصين من عدة نقاط، والتحم مع الصينيين فى معركة حاسمة سقطت على إثرها مدينة بكين عاصمة كين الصينية فى سنة ١٢١٥<sup>(٣)</sup>. ولاشك أن سقوط عاصمة الصين فى أيدي المغول أحدث دويًا هائلا، جاء إنذاراً للدول الإسلامية المجاورة، فى وقت كانت تعاني من الضعف والتخاذل والانقسام.

(١) الباز الميرنى: المرجع السابق، ص ١٠ - ١١.

(٢) للوقوف على مزيد من التفصيلات، انظر للباحث كتاب: «العلاقات المبكرة بين أوروبا والمغول» (القاهرة ١٩٨٦).

(3) Ratchnevsky (Paul) Genghis Khan, His Life and Legacy, trans. and edited by Thomas Bivison Haining (U.S.A., 1992), pp. 113-114.

كان الغزو المغولي للعالم الإسلامي عنيفا شديدا الوطأة، فقد ضرب المغول الأقاليم الإسلامية، وسالت الدماء على طول الطريق الذي سلكته جحافلهم إليها، وقاسى المسلمون شتى أنواع العذاب والتتكيل، وتجمع الروايات على أن غزوات المغول كانت مصحوبة بالمجازر البشرية، وتركت أبشع الآثار في النفوس. ومن المؤرخين المعاصرين الذين صوروا ما قاساه العالم الإسلامي وتحسر على ما أصاب الإسلام وكبار مدنه على يد المغول المؤرخ ابن الأثير، فقد قال في حوادث سنة ٦١٧هـ (١٢٢٠م) تحت عنوان «ذكر خروج التتر (المغول) إلى بلاد الإسلام: «لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة، استعظما لها، كارها لذكرها، فأنا أقدم رجلا وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك، فيأليت أُمى لم تلدنى. وباليقيني مت قبل هذا وكنت نسبا منسيا، إلا أنى حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدى نفعاً، فنقول هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عفت الأيام والليالي عن مثلها عمت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال إن العالم من خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها.. وهؤلاء (المغول) لم يبقوا على أحد، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجنة، فإننا لله وإننا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، لهذه الحادثة التي استطار شررها، وعم ضررها، وسارت في البلاد كالسحاب «استدبرته الريح».

وبهذه الصورة المفزعة زحفت جيوش المغول على الجانب الشرقى من العالم الإسلامي، في وقت وصل فيه هذا العالم - كما ذكرنا - إلى درجة بالغة من التفكك والضعف، جعلته يعجز عن صد السيل المغولي الجارف تحت قيادة جنكيزخان. وكان أن اختص جنكيزخان نفسه بالهجوم على البلاد الواقعة بين نهري سيحون وجيحون، على حين عهد إلى قواده وأبنائه مهمة الاستيلاء على أقاليم الدولة الخوارزمية، وكان جنكيزخان مثالا لوحشية الغزو البربري، ويبدو ذلك واضحا عندما استولى على مدينة نجاشي في فبراير سنة ١٢٢٠<sup>(١)</sup>، وسمرقند في مارس من نفس العام. وأثبت تولوى ولد جنكيزخان أنه لا يقل وحشية عن أبيه، فقد أجهز على سكان مدينة خراسان عندما سقطت المدينة في يده

(1) I bid., pp.131-132.

فى فبرابر سنة ١٢٢١، ثم انطلق تولوى إلى مرو عاصمة خراسان، فسقطت فى يده فى أبريل من نفس العام، وبعد أن أتى عليها تلقى أمراً من أبيه جنكيزخان الذى قرر العودة إلى منغوليا، ليلحق به عند مدينة الطالقان فى أعلى نهر جيحون.

وأخيراً وصل جنكيزخان إلى عاصمته قراقورم فى سنة ١٢٢٥م بعد غياب دام ست سنوات، وشرع فى مقابلة أعدائه القدامى من القبائل المغولية والتركية، كما أعلن الحرب على إمبراطورية سونغ الصينية، واشترك فى هذه الحرب بنفسه رغم تقدمه فى السن، ولكنه مات فى ٢٥ أغسطس سنة ١٢٢٧ عن اثنين وسبعين عاماً<sup>(١)</sup>، تاركاً خلفه إمبراطورية واسعة، تمتد من أقصى حدود الصين على شاطئى المحيط الهادى شرقاً، إلى قلب أوروبا وإلى عواصم المسلمين غرباً.

وبما يذكر أن الحركة التوسعية للمغول قد توقفت قليلاً عقب وفاة جنكيزخان، وانشغل المغول عن كل شىء بأحوالهم الداخلية. وباعتلاء أوكتاي عرش الإمبراطورية المغولية سنة ١٢٢٩، توسعت الممتلكات المغولية بشكل لافت على حساب القوى الإسلامية والمسيحية.

ويهمنا هنا أن المغول استغلوا فرصة النزاع الدائر بين سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى من جهة وبين المماليك حكام مصر والشام من جهة أخرى. فسار القائد المغولى بيجو فى عام ١٢٤٢ على رأس جيش بلغ تعدادة ٣٠٠٠٠ جندي، مجهزين بالآلات القتال، قاصدين أرضروم، حيث التحموا بقوات غياث الدين كيخسرو بن علاء الدين كيقباز سلطان سلاجقة الروم، فلم يقو على الصمود أمام المغول، وسقطت المدينة فى أيديهم<sup>(٢)</sup>. وفى السنة التالية استعد غياث الدين كيخسرو للقاء المغول، فكون جيشاً ضخماً من المسلمين الأرمن والكرج واليونانيين والفرنج، وساروا عن طريق البر، كما سار البعض عن طريق البحر، متجهين إلى أرمنية لمحاربة المغول، فالتقى الفريقان بموضع يسمى كوسة طاغ (الجبل الأقرع) بالقرب من أرزنجان، حيث دارت معركة عنيفة فى ٢٦ يونيو سنة ١٤٣٢، أسفرت عن انتصار المغول، ودحر هذا الجيش غير المتجانس، وهرب غياث الدين إلى الحدود

(١) Ibid., pp. 140-142.

(٢) فؤاد عبد المعطى الصياد: المغول فى التاريخ، ص ١٨٢، الباز العرنى: المغول، ص ١٧٨ - ١٧٩.

البيزنطية، ثم استولى المغول على سيواس وقيصريّة وخربوها، وفرضوا عليهما في كل سنة أربعمئة ألف دينار<sup>(١)</sup>.

والواقع أنه كان لهذه المعركة أثر حاسم في مصير الدولة السلجوقية، إذ وقع الأناضول بعدها في قبضة المغول، وعندما رأى السلطان غياث الدين أنه لن يقوى على مواجهة المغول، أرسل لهم رسولا يعلن خضوعه، ويتعهد بدفع جزية سنوية لخان المغول. وبهذا قضى على استقلال دولة سلاجقة الروم، وصارت تابعة للمغول. وكان أمراء السلاجقة يتولون الحكم بمراسيم من قبل المغول<sup>(٢)</sup>.

وعلى الرغم من أن دولة السلاجقة في آسيا الصغرى ظلت باقية حتى سنة ١٣٠٢ م فإنها لم تبق على وجه الإطلاق من الضربة الشديدة التي وجهها لها المغول في كوسه طاغ، كما أن الغزو المغولي لم يحدث أى تغييرات عميقة في الأناضول، وكل ما فعله أنه ساهم في هجرة العديد من أتراك آسيا الوسطى إلى شبه جزيرة الأناضول فراراً من المغول أو سيراً في ركابهم، ولم يحدث إلا تغييراً طفيفاً في الحياة الاجتماعية أو الثقافية<sup>(٣)</sup>.

وقد أدى ضعف دولة سلاجقة الروم إلى نقل السلطة إلى أطرافها، حيث أخذت إمارات تركية صغيرة تعمل في استقلال عن سلطة السلاجقة، ونعني بذلك مهاجمتها لمناطق الشغور البيزنطية، وعجز السلاجقة عن الحيلولة دون مهاجمتها لتلك المناطق. ولعب الغزاة<sup>(٤)</sup> (المجاهدون) دوراً أساسياً في شن هذه الهجمات الجديدة، في نفس الوقت الذي كان فيه الأولياء من المشايخ والدراويش - يقومون بدور هام في التحريض على الجهاد ضد الدولة البيزنطية التي كانت قد وصلت إلى مرحلة بالغة الضعف. وما حلت أوائل القرن

(١) محمد فؤاد كوبرلي: قيام الدولة العثمانية، ترجمة د. أحمد السعيد سليمان (القاهرة ١٩٩٣)، ص ٦٨، فؤاد الصياد: المرجع السابق، ص ١٨٢ - ١٨٣، الباز العريني: المرجع السابق، ص ١٧٩.

(٢) فؤاد العريني: المرجع السابق، ص ١٨٣.

(3) Langer & Blake, "The Rise of the Ottoman Turks and its Historical Background", pp. 486-487.

(٤) الغازی هو المدافع عن العقيدة الإسلامية، والمحارب في سبيلها، والغازی سيف الله، وحامي المؤمنين وملاذهم. ولو حدث أن استشهد الغازی في سبيل الله، فإنه حتى لا يموت، كما جاء في الآية الكريمة: «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله.

الرابع عشر الميلادي، حتى كانت دولة سلاجقة الروم قد فقدت غربي الأناضول الذي توزع على عدد من إمارات الغزاة الأتراك، الذين قبض لإحدى دولهم وهي الدولة العثمانية أن تسعى إلى إقامة إمبراطورية عالمية<sup>(١)</sup>.

### أصل الأتراك العثمانيين:

ينحدر الأتراك العثمانيون من حشود البدو الذين تجولوا في منطقة جبال ألطاي، شرق الاستبس الأوراسية وجنوب نهر ينسي وبحيرة بايكال، وذلك في الأراضي التي تمثل حالياً جزءاً من منغوليا الخارجية Outer Mongolia. وهؤلاء البدو الألتائيون كانت لديهم حضارة بدائية قائمة على الحياة الجبلية والعادات، دون أن يكون هناك شكل للحكومة والقوانين التي تميز المجتمعات المتقدمة، وقامت حياة هؤلاء البدو واعتنقوا الشامانية<sup>(٢)</sup>.

وفي القرن الثاني قبل الميلاد، أدت التغيرات السياسية والحربية والأحوال المناخية في المناطق الألتائية، إلى حدوث موجات بدوية متتابعة ضد الحضارات المستقرة الواقعة على حدود الاستبس، وقد عرفت القبائل التي تحركت إلى الجنوب والغرب إلى شرق أوروبا، والشرق الأوسط، وآسيا الوسطى، باسم الأوغوز Oguz فيما بينهم، وعرفوا بالتركمان أو الترك عند الشعوب التي تعرضت لهجماتهم. وقد اجتاحت الترك في طريقهم بحثاً عن مأوى لهم ولقطعان ماشيتهم الشعوب المستقرة ودمروا المدن والحقول، وعندما استقر الترك سمحوا للشعوب المستقرة التي بقيت حية أن تستعيد أوطانها وأنشطتها السابقة، ولهذا فإن الغزوات التي قام بها الترك، لم تترك أية تغيرات دائمة في الأنماط العرقية والاقتصادية<sup>(٣)</sup>.

ويحيط الغموض بأصل العثمانيين، وهي مشكلة شغلت أذهان الباحثين، وذلك لغياب المصادر المعاصرة والروايات المختلفة عن أحداثهم. فلم تكن للعثمانيين سجلات مكتوبة عن الفترة السابقة على فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣، على حين أن البيزنطيين لا يشيرون بما يستحق الذكر إلى أصل العثمانيين، خاصة وأنهم لم تتوفر لديهم وسائل الحصول على

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، ص ٢٣ - ٢٤.

(2) Shaw (Stanford J.), Hist. of the Ottoman Empire and Modern Turkey (Cambridge, 1977), Vol. I, p. 9.

(3) Ibid., p. 2.



معلومات لها قيمتها. أما الكتاب الأوروبيون الأول فليست لمعلوماتهم أية قيمة من حيث اعتبارها انعكاساً لفكرة أوروبا عن العثمانيين حين أصبحوا خطراً يتهدهدها، هذا إلى أن المصادر العثمانية التقليدية لم تشر إلا قليلاً إلى العثمانيين قبل استقرارهم في الأناضول، كما أنها تتجاهل تاريخ الأتراك بوجه عام قبل اعتناقهم الإسلام<sup>(١)</sup>.

ومن الآراء التقليدية السائدة عند المؤرخين عن أصل الأتراك العثمانيين، أن زعيم قبيلة قايى وهى قبيلة تركمانية حكمت منطقة ماهان الصغيرة فى الجزء الشمالى الغربى من إيران فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى. ويقال إن سليمان شاه زعيم تلك القبيلة هرب من الزحف المغولى بقيادة جنكيزخان ومعه آلاف من الأتراك الآخرين، حتى لا يواجه الموت أو العبودية فى أيدي الغزاة الجدد القادمين من آسيا الوسطى، واستقر فى أخلاط الواقعة فى شرقى تركيا الحالية قريباً من بحيرة وان فى هضبة أرمنية. ولكن إقامته لم تدم طويلاً، فقد أراد سليمان شاه العودة إلى بلاده، فسار إلى قلعة جعبر، وأثناء عبوره مع عشيرته نهر الفرات سقط فى النهر وغرق فى سنة ٦٢٩هـ (١٢٣١) قبل أن يبلغ غايته. وعندئذ انقسم قومه بين أبنائه الأربعة، فقاد إثنان منهم معظم قومه عائدين إلى خراسان للدخول فى خدمة المغول، بينما تابع الأخوان الباقيان المسير غرباً إلى الأناضول، وتولى أرطغرل زعامة هذا الجزء من القبيلة. ويعنى إسم أرطغرل «الرجل ذو القلب الأيمن» The Right - Hearted man<sup>(٢)</sup>.

وتقول الرواية التاريخية أن أرطغرل أبو عثمان الذى نسبت إليه الدولة العثمانية قاد جماعة صغيرة مؤلفة من حوالى أربعمئة فارس وعائلاتهم، وفى أثناء سير أرطغرل (١٢٣١ - ١٢٨١) وعلى غير المتوقع، شاهد معركة دائرة بين فريقين لايعرفهما، وكان أحد

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ١٧.

(2) Creasy (Sir Edword), Turkey, revised and ed. by Archibald Cary Coolidge and Harold Clavin (U.S.A., 1928), p. 9. Shaw, Hist. of the Ottoman Empire. Vol. I. p. 13, Langer and Blake, The Rise of the Ottoman Empire., p. 489, فؤاد كوبرلى: قيام الدولة العثمانية، ص ١٢١، أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ١٧ - ١٨.

الفريقين قد ضغط على الآخر بضراوة، فحث عثمان أتباعه على مساعدة الفريق الخاسر، وتم النصر لهذا الفريق. وتبين فيما بعد أن الجيش الذي جرى إنقاذه من الهزيمة المؤكدة كان بقيادة سلطان دولة الروم السلاجقة الأول علاء الدين كيقباز (١٢١٩ - ١٢٣٧)، فما كان من السلطان إلا أن كافأ أرطغرل بمنحه وقبيلته أرضاً كإقطاع على الحدود البيزنطية<sup>(١)</sup>، في أقصى الحافة الشمالية الغربية للأراضي السلجوقية، على بعد أقل من خمسين ميلاً من بحر مرمرة، وأقل من مائة ميل من القسطنطينية نفسها. وعلى الرغم من أن تلك الرواية تحمل طابع الأسطورة، إلا أنها لم تكن دون فائدة، إذ أنها توضح لنا مدى الفوضى والظروف السياسية والاجتماعية الصعبة التي كانت تعانيها آسيا الصغرى في القرن الثالث عشر، وكيف أن القبائل التركية الرعوية كانت تشق طريقها وتؤسس لنفسها في آسيا الصغرى، الأمر الذي يجعلنا نؤكد تماماً أن السلطان السلجوقي رحب بأرطغرل وبقيّة الزعماء الأتراك الآخرين كحلقة له لمقاومة ضغط البيزنطيين في الغرب والمغول في الشرق<sup>(٢)</sup>.

ومن الروايات الأسطورية التي وضعها المؤرخون لتعليل أصل العثمانيين وظهورهم واعتناقهم الإسلام، زواج عثمان أكبر أولاده أرطغرل بنت رجل صالح كان قد رآها مصادفة وعلق بها، ولكن أبى والدها أن يزوجه لها، فحزن عثمان لذلك، وأظهر الصبر والجلد، ولم يرغب بالإقتران بغيرها، حتى قبل أبوها بعد أن قص عليه عثمان مناماً رآه ذات ليلة في بيت هذا الصالح، وهو أنه رأى القمر قد صعد من صدر هذا الشيخ، وبعد أن صار بداراً نزل في صدره أي صدر عثمان، ثم خرجت من صلبه شجرة نمت في الحال، حتى غطت الأكوان بظلالها، ورأى أكبر الجبال تحتها، وخرج النيل ودجلة والدانوب من جذعها،

---

(1) Stavrianos, *The Balkans since 1453*, p. 35, Schevill (Ferdinand), *The Hist. of Balkan Peninsula. From the earliest times to the Present day* (New York, 1933) p. 176.

محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٤٣٩،

Langer & Blake, op. cit., p. 490.

(2) Ibid., p. 13.

ورأى ورق هذه الشجرة كالسيوف يحولها الريح نحو مدينة القسطنطينية، فتفاءل الشيخ من هذا المنام وبشره بأن أسرة عثمان ستحكم العالم، وزوجه ابنته<sup>(١)</sup>.

وعلى أية حال، فإن الأحداث التاريخية تثبت أن قسماً صغيراً من الغز المعروفين بقايا والذين وفدوا على الأناضول أيام الفتوحات السلجوقية، فأسكنوا في أماكن مختلفة منه، كان يعيش في أواخر القرن الثالث عشر في شمال غرب الأناضول على الحدود التركية البيزنطية، وكان يحارب جيرانه من البيزنطيين<sup>(٢)</sup>. ويرى البعض أن صلات العثمانيين بدولة الأتراك السلاجقة في الأناضول - وهي دولة إسلامية - كانت عاملاً هاماً ساعد على اعتناقهم الدين الإسلامي في سرعة وسهولة. وعلى ذلك فقد تحدد الإسلام عقيدة دينية رسمية للأتراك العثمانيين من عهد الأمير عثمان<sup>(٣)</sup>.

### قيام الدولة العثمانية:

ولما توفي أرطغرل في سنة ١٢٨١ انتقلت زعامة القبيلة إلى أكبر أبنائه عثمان (١٢٨١ - ١٣٢٤)، الذي انحصرت اهتماماته في تأسيس قواعد الدولة العثمانية وبداية توسعها بالتدريج على حساب البيزنطيين، مستغلاً القوضى والإهمال المسيطرين على الأراضي البيزنطية بالأناضول، وتجنب الدخول في نزاع مع جيرانه التركمان الأقوى منه، حتى يأتي الوقت الذي تقوى فيه دولته ويشدد ساعدها بصورة كافية تمكنه من مواجهتهم، وقد بدأ عثمان فتوحاته، فتقدم خلال المرات من مناطق الحدود شمالى فريجيا بالقرب من دوريلايوم (إسكى شهر ومعناها المدينة القديمة) إلى سهول بيثينيا الخصبة، وضد المسيحيين الإقطاعيين إلى الشمال<sup>(٤)</sup>. وفي حوالى سنة ١٣٠٠ م مكنه الانهيار النهائى لدولة الأتراك السلاجقة ووفاء علاء الدين الثالث آخر السلاطين السلاجقة بقونية، من الاستيلاء على

(١) القرماني: أخبار الدول وآثار الأول من ٢٩٧ - ٢٩٧.

محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٤٠، عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية، جـ ١ ص ٣٦ - ٣٧.

(٢) فؤاد كوبرلى: قيام الدولة العثمانية، جـ ١ ص ٣٥.

(٣) عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية، جـ ١ ص ٣٨.

(4) Shaw, Hist, of the Otoman Empire, Vol. I, pp/ 13-14.

محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٤٠ - ٤١.

القلاع الحصينة لإسكى شهر وقره جه حصار التى تتحكم فى الممرات المؤدية من هضبة الأناضول الوسطى إلى سهول بيثيا وجعلها قاعدة له. وما لبث أن استولى عثمان على أول مدينة عامة فى منطقته، وهى مدينة بنى شهر (ومعناها المدينة الجديدة)، وقد أصبحت العاصمة العثمانية ومقر ملكه وبداية عملية نقل أتباعه من الوضع البدوى إلى وضع أكثر تحضرًا، ولقب نفسه «باد شاه آل عثمان» أى سلطان العثمانيين. ثم اجتاحت عثمان ومحاريبه السهول الممتدة من إينجول إلى الضفة الشرقية من نهر سنقاريا Sakarya، وبذلك لم يعد البيزنطيون قادرين على الاتصال بالقسطنطينية إلا بحرًا فحسب عن طرق ميناء مودانيا Mudanya والموانئ الأخرى الواقعة بحذاء ساحل بحر مرمره<sup>(١)</sup>.

ومن موقعه الحصين فى بنى شهر، قضى عثمان بقية عهده فى التوسع فى الاتجاهين: شمال نهر سنقاريا ناحية البحر الأسود، والجنوب الغربى تجاه بحر مرمره، وقد أنجز هدفه فى المنطقتين حوالى سنة ١٣٠٨م، وبذلك عزل آخر مدينة بيزنطية هامة وهى مدينة بروسة التى تقع جنوبى بحر مرمره عند سفح جبل أولوداج، بعد أن سقطت الأقاليم والحصون والقلاع الواقعة حولها، وأخيرًا فى ٦ أبريل سنة ١٣٢٦ سقطت بروسة على أيدى جيش قاده ابنه أورخان، الذى كان آنذاك النائب الرئيسى لوالده فى الدولة وقيادة الجيش<sup>(٢)</sup>. ومن الثابت أن بروسة لم تشهد قتالا خارج أسوارها، فقائدها اليونانى لم يلقى أية مساعدة من الأباطرة البيزنطيين، فسلم المدينة، وبلغ من استيائه لموقف الأباطرة أن اعتنق الإسلام وسلم ثروته للعثمانيين. ونتيجة لذلك منح أورخان قائد المدينة اليونانى أفريونوس لقب بك، وصار من مشاهير القواد العثمانيين، ولم يتعرض أورخان لأهل المدينة بسوء. وأسرع أورخان إلى سوكوند لينقل الخبر إلى والده الذى كان يجود بأخر أنفاسه، فسر على تنويع حياته بالنجاح الذى أحرزه ولده، ودفن فى بروسة العاصمة الجديدة للدولة الناشئة<sup>(٣)</sup>.

والواقع أن استيلاء العثمانيين على بروسة كان خطوة هامة إلى الأمام بالنسبة لهم، فقد تحولت ممتلكاتهم من إمارة حدود يسكنها رعاة إلى دولة حقيقية ذات عاصمة وحدود

(1) Creasy, Turkey, P. 15. Shaw, op. cit., Vol. I. p. 14.

(2) Ostrogorsky, op. cit., pp. 501-502, Shaw, p. 14.

(3) Chevill, op. cit., p. 198.

محمد فريد؛ تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٣٧، القرماتى؛ أخبار الدول وآثار الأول، ص ٢٩٧.

وشعب مستقر، ووسائل تطوير جيش نظامى يدافع عن الدولة ويوسع رقعتها، وإدارة تشرف على مهام الحكم. حدث هذا فى القوات الذى انغمس فيه البيزنطيون فى الفتن والحروب الأهلية، وتشبت المنازعات السياسية بين أفراد الأسرة البيزنطية الحاكمة، وبدأت تلك الأسرة تتجه نحو العثمانيين طلباً للمساعدة، وأصبح القادة الحرييون العثمانيون مساندين للأباطرة البيزنطيين المتنافسين وكبار رجال الدولة، وأرسلوا بانتظام قوات كمرتزة إلى القسطنطينية وراقيا، حيث وقعت عيونهم على مدى ضعف بيزنطة من ناحية، واغتنام فرص الغزو على حساب البيزنطيين من ناحية أخرى<sup>(١)</sup>.

ومهما يكن من أمر، فقد كان لدى العثمانيين من الأسباب الوجيهة ما يدعوهم إلى اعتبار عثمان سلطانهم الأول. صحيح أن أرطغرل قادة عشيرته فى الأناضول، إلا أنه لم يحرز الاستقلال ولم يتعد كونه أميراً متواضعاً، أما عثمان فهو أول من راوده حلم إرساء قواعد دولة مترامية الأطراف، وبدأ السير فى طريق النصر الذى قيض لأسلافه أن يرتادوه. ورغم بساطة مظهر عثمان، فقد كانت طلعتة توحى بالهبة، وكان يطلق عليه إسم عثمان الأسود، وذلك على أساس أن اللون الأسود له احترامه فى الشرق باعتباره رمزاً لقوة الشخصية والحيوية الجسمانية. وقد انتقلت صفات عثمان «الأسود» الجسمانية إلى بضعة أجيال من أسلافه، فطيلة ما يقل عن ثلاثة قرون لم يجلس على عرش العثمانيين سلطان لم يتحل بالشجاعة التى كانت من أبرز صفات الأتراك<sup>(٢)</sup>.

(1) Shaw, op. cit. Vol. I. p. 14.

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ٣٨.

## الفصل الثاني

### إتساع الدولة العثمانية

- أورخان (١٣٢٤ - ١٣٦٢).
- مراد الأول (١٣٦٢ - ١٣٨٩).
- متاعب العثمانيين في الأناضول:
- معركة كوسوفا (قوصوه).

## أورخان (١٣٢٤ - ١٣٦٢):

توفي عثمان في بروسة بعد أن أوصى بالملك من بعده لأورخان ثانياً أولاده لما يتصرف به من علو الهمة والشجاعة والإقدام، ولم يوص به لأكبر أولاده علاء الدين لميله إلى الورع والعزلة<sup>(١)</sup>. ويعتبر أورخان أول أمير عثماني يحمل لقب سلطان، فهو السلطان ابن سلطان الغزاة، والغازي ابن الغزاة، وحاكم الآفاق، وسيد العالم، وشجاع الدين، واختيار الدين، وسيف الدين<sup>(٢)</sup>.

وبعد ارتقاء أورخان العرش بوقت قصير تحرك تجاه بحر مرمرة، فأسرع الإمبراطور البيزنطي أندرونيق الثالث باليولوجوس (١٣٢٨ - ١٣٤١)، وقاد حملة ضخمة لصد الخطر العثماني، ولكن أورخان ألقى به هزيمة فادحة سنة ١٣٢٨، جعلت الإمبراطور يقرر راجعاً إلى القسطنطينية، وبعد ذلك تخلت الإمبراطورية البيزنطية عن بذل أية جهود لتنظيم المقاومة العسكرية في الأناضول أو تعزيز المدن البيزنطية الباقية لها هناك. ونتيجة لذلك استولى أورخان على معظم شبه جزيرة نيقية وسواحل خليج نيقوميديا حتى يالوفا Yolava في الجنوب، وعزل مدينة نيقية، ثم استولى عليها في ٢ مارس سنة ١٣٣١ دون قتال<sup>(٣)</sup>، ولعل هذا عو السبب في أن الرحالة المراكشي ابن بطوطة الذي زار نيقية بعد خمس أو ست سنوات يصف أسوار نيقية بأنها سليمة لم تمتد إليها يد التلف. وباستيلاء أورخان على نيقية ثانياً المدن البيزنطية بعد القسطنطينية انتهى نفوذ الإمبراطورية البيزنطية في آسيا الصغرى.

وخلال الستة سنوات التالية استولى أورخان على معظم الأراضي البيزنطية الباقية في الشمال الغربي من الأناضول بعد معاناة قليلة، وتوج جهوده بالاستيلاء على نيقوميديا (إزميت) في سنة ١٣٣٧ بعد حصار دام ست سنوات، وفي السنة التالية استولى على أسكودار (سكوتاري)، الأمر الذي جعل الدولة العثمانية من أقوى الإمارات التركية في المنطقة، وازداد مركزها قوة باعتبارها زعيمة الجهاد ضد العدو (المسيحيين). وهنا نلاحظ أن

(١) محمد فريد: تاريخ الدولة العثمانية، جـ ١ ص ٩٤.

(٢) يلماز أوزنونا: تاريخ الدولة العثمانية. ترجمة عدنان محمود سلمان، مراجعة د. محمود الأنصاري،

جـ ١ (استانبول ١٩٨٨)، جـ ١ ص ٩٤، بول كولز: العثمانيون في أوربا، ص ٢٩.

(3) Shaw, op. cit. Vol. I, p. 15, Schevill, op. cit., pp. 179-180.

طرايزون الواقعة فى الشمال الشرقى من الأناضول ظلت بيزنطية على الرغم أنها كانت مستقلة عن القسطنطينية منذ الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٤م)، وقد احتفظت بيزنطة بسيطرة مباشرة على الشريط الساحلى لغرب الأناضول من ساييل Sile على البحر الأسود إلى سكوتارى، ومدينة أماستريس Amastris فى بافلاجونيا، ولكن تلك المدن كانت معزولة إلى حد بعيد، ومبعثرة بصورة تجعلها عاجزة عن تقديم أية مقاومة فعالة ضد العثمانيين<sup>(١)</sup>.

وعزز أورخان مركزه أيضا بالتوسع فى ساحل بحر مرمرة، وذلك على حساب إمارتى عمرخان وقره سى، الأمر الذى جعل العثمانيين على مرمى البصر من جناق قلعة عبر الدردنيل فى شبه جزيرة غاليبولى. وقد استفاد أورخان من المنازعات الداخلية فى هاتين الإمارتين، وذلك بتحالفه مع أحد الأمراء، ثم التحول عنه إلى غيره، وفى نظير ذلك يأخذ أيضا من كل إمارة مكافأة له على الخدمات التى قدمها<sup>(٢)</sup>.

وفى حوالى منتصف عمره الطويل، وبعد أن أصبح سيداً على آسيا الصغرى، تخلت أفكاره عبر المضائق إلى أوروبا، أى نقل فتوحاته إلى أوروبا، وتصور أفكاره عقلية فذة، وتنم عن نشاط رائع لرجل لم يقم بأى مجهود للتوسع شرقاً فى آسيا الصغرى، لوجود أمراء مسلمين بعضهم أكثر قوة منه، بل أسرع إلى حدود الإمبراطورية البيزنطية التى انتزع أورخان آخر ممتلكاتها فى آسيا الصغرى، وصارت أحوالها تدل على نهايتها القريبة: فالزراعة والتجارة غرقا فى كساد تام، وقلت الموارد، واختفت التقاليد المتبعة فى الجيش والإدارة، وفى العاصمة ازداد التنافس بين النبلاء حول مناصب الدولة، فى الوقت الذى أثبت الأباطرة ضعفهم الشديد. ولم يكن أورخان يتطلع وحده إلى الانقضاء على ممتلكات الإمبراطورية، بل ظهر فى تلال مقدونيا ستيفن دوشان Stephen Dushan زعيم الصرب الذى أخذ يمعن النظر بدقة فى الفوضى التى ألمت بالإمبراطورية، وأخذ يفكر فى الاستيلاء عليها<sup>(٣)</sup>.

(1) Shaw, op. cit., p. 15.

(2) Shaw, pp. 15-16.

(3) Schevill, The Hist. of the Balkan Peninsula, pp. 182-183.



وعلى أية حال، ففي حوالى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى، وفى نفس الوقت بالضبط، ضغطت قوتان نشيطتان من الشرق والغرب على الإمبراطورية البيزنطية الضعيفة. وقد تصادف آنذاك أن دخلت الإمبراطورية فى حرب أهلية<sup>(١)</sup>. ذلك أنه لما مات الإمبراطور أندرونيق الثالث باليولوجوس فى سنة ١٣٤١م، وخلفه فى الحكم ابنه يوحنا الخامس باليولوجوس تحت وصاية أمه آن صاحبة سافوى Anne of Savoy، اندلعت الحروب مرة أخرى فى الإمبراطورية، وكانت أهمها تلك التى شبت فى مدينة أدرنة (أدرينوبل) وخاصة فى سالونيك. وتراكت أسباب الفتن والحروب الداخلية، فبالإضافة إلى التنافس على العرش البيزنطى، شب النزاع بين العامة والنبلاء، وازدادت الأحوال الاقتصادية سوءاً مع قسوة جامعى الضرائب، فضلاً عن الفقر والبؤس الذى عانى منهما البيزنطيون كثير<sup>(٢)</sup>.

وكان يوحنا الخامس باليولوجوس فى الحادية عشرة من عمره وتحت وصاية أمه عندما ورث عرش أبيه سنة ١٣٤١م. ونشبت حرب أهلية طويلة للفوز بعرش الدولة البيزنطية لعب فيها يوحنا السادس كانتاكوزين John VI Cantacuzene دوراً هاماً، إذ أعلن نفسه إمبراطوراً فى إحدى مدن تراقيا، وأصبح هناك إمبراطوران فى الدولة البيزنطية<sup>(٣)</sup>. وقد استخدم كانتاكوزين المرتزقة من الصرب والأتراك من إمارة آيدين Aydin - بصفة خاصة - لمساعدته، وفى مقابل ذلك سمح لعمر بك صاحب آيدين بنهب مقدونيا والحصول على غنائم وفيرة، وبعد وفاة عمر بك إنهارت إمارته سريعاً، فتحول كانتاكوزين إلى أورخان طلباً للمساعدة ضد يوحنا الخامس، فوافق أورخان، خاصة أن كانتاكوزين وعده بتزويجه ابنته الجميلة تيودورا برغم اختلاف العقيدة والسن، إذ كان فى سن الستين وهى لاتزال قاصراً، واتفق على أن يتم الاحتفال بالزواج فى حفل باذخ فى سليمانبريا فى شهر يونيو سنة ١٣٤٦. وفى هذا العام قاد أورخان جيشاً بلغ عدده حوالى ٥٥٠٠ جندي إلى تراقيا، وغزا

(1) Ibid., p. 183.

(2) Lodge, The Close of the Middle Ages., p. 500,

حسين محمد ربيع: دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية (القاهرة ١٩٨٦)، ص ٢٩٨ - ٢٩٩.

(3) Lodge, op. cit, pp. 500-501, Vasiliev (A.A.), Hist. of the Byzantine. Empire, (U.S.A., 1964). Vol. II, p. 584,

حسين ربيع: المرجع السابق، ص ٢٩٩ - ٣٠٠.

الإقليم الساحلى للبحر الأسود شمال استانبول الحالية، أو انتزعه من آن صاحبة ساقوى أم يوحنا الخامس والوصية عليه، ومكن كانتاكوزين من الحصول على العرش البيزنطى، حيث جرى تنويجه فى أدرته فى ٢١ مايو سنة ١٣٤٧. وعندئذ أرسل كانتاكوزين ابنته ومعها المهر والهدايا لأورخان، وسمح لرجال الأخير بالإغارة على غاليبولى وتراقيا ونهبها دون معارضة<sup>(١)</sup>. وقد قام كانتاكوزين بنقل الكثير من البيزنطيين، وأخذ العديد أسرى، ودمر جميع ضواحي مدينة القسطنطينية، حتى وصل إلى بواباتها ودخلها بمساعدة بعض أعوانه فى ٣ فبراير سنة ١٣٤٧. وقد رفضت الإمبراطورة الوصية أن أن تستسلم، فأغلقت على نفسها القصر ومعها إبنها وقلة من الجنود، وعندما اقتحم كانتاكوزين القصر وجد الإمبراطورة جالسة مع ولدها غير وجلة ولامنزعجة، فحياهما «كإمبراطور وإمبراطورة الرومان»، ثم صرف الأتراك الذين كانوا يرفقته ومعهم الهدايا العديدة<sup>(٢)</sup>.

على أن محالفة كانتاكوزين للعثمانيين كلفتة الثمن غاليا، فبعد الزفاف بقليل استغل الصربون<sup>(٣)</sup> فرصة ضعف الدولة البيزنطية للتوسع على حسابها. فقد أضفى ستيفن دوشان ملك الصرب (١٣٣١ - ١٣٥٥) انطبعاأأأأأأأ على مواطنيه بقدرته وحضوره الفعال، ويعتبر الصربون عصره على مدى تاريخهم أعظم حقبة شهدها تاريخهم. فقد كون دولة

---

(1) Shaw, op. cit. Vol. I, p. 16.; Ostrogorsky, op. cit., pp. 519-522; Halil Inalcik, The Ottoman Empire, p. 9; Doukas, Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks, pp. 70-74, Vasiliev, op. cit. Vol II., p. 622.

(2) Doukas, op. cit., pp. 74-75.

(٣) كانت مملكة الصرب القديمة مجرد دولة صغيرة تابعة لبيزنطة، وكانت تشغل موقعا وسطا بين بيزنطة التى كانت حدودها تضم مقدونيا الحديثة، والجر التى كانت فى ذلك الوقت ما يعرف الآن بالبوسنة وكروشيا والشاطيء الشمالى للدانوب، وبلغاريا التى كانت تضم وقتها نيس وأراض تابعة لها غربا. على أن تدهور بيزنطة فى القرن الثالث عشر سمح بإعادة تكوين صربيا بسرعة تحت حكم ستيفن دوشان الفعال، الذى اتخذ لنفسه لقب قيصر الصرب والإغريق، وألحق بحكمه كلا من مقدونيا وتراقيا وأبيروس وتساليا، وجعل من بلغاريا كيانا تابعة، وصل بحدود ممتلكاته إلى سواحل البحر المتوسط المواجه لكورفو، وإلى بحر إيجه عند سالونيك. وقد أرسى دوشان دعائم نظام سياسى ودينى على النسق البيزنطى، وأعاد تنظيم الكنيسة الصربية، وتوج صرحه الإمبراطورى بإعلان مجموعة قوانينه الشهيرة التى عرفت بتشريعات دوشان فى سنة ١٣٤٩. أنظر كولز: العثمانيون فى أوروبا، ص ٢٠ - ٣١.

قوية في الداخل، وبدأ في تنفيذ سياسة خارجية شجاعة. وكان هدفه الرئيسي من تلك السياسة هو الاستيلاء على القسطنطينية<sup>(١)</sup>. وفي حوالى سنة ١٣٤٥ استطاع دوشان بمساعدة المرتزقة الاستيلاء على مقدونيا كلها، وإن كانت سالونيك قد نجحت في التخلص من الوقوع في قبضته، ولكن قلعة أوهريد الكبيرة ومدن فالونا وبيرات (بلغراد) Berat وسيريز Seres وقعت في أيديه. وتقليداً للإمبراطورية البيزنطية خلع دوشان على نفسه ألقاباً عالية مثل قيصر، وفي عيد الفصح في سنة ١٣٤٦ توج دوشان في احتفال عظيم في سكوبلي (إمبراطور الصرب والإغريق) وسرعان ما تضخم هذا اللقب إلى «إمبراطور وأتوقراط الصرب والإغريق»<sup>(٢)</sup>. وفي سنة ١٣٤٩ إنتزع دوشان سالونيك من البيزنطيين، وعندئذ طلب كانتاكوزين المساعدة من السلطان العثماني أورخان، فأرسل الأخير ابنه سليمان على رأس جيش بلغ تعدادة عشرين ألف رجلاً، وبمساعدة الأسطول البيزنطي أجبر سليمان الصرب على الارتداد، وأعاد سالونيك للبيزنطيين<sup>(٣)</sup>.

وفي الصراع الذى تجدد بين يوحنا الخامس باليولوجوس وكانتاكوزين في سنة ١٣٥٢ اعتمد باليولوجوس على الصرب وبلغاريا، فلم يكن أمام كانتاكوزين مفر من طلب النجدة من أورخان، فأرسل الأخير ابنه سليمان إلى الشاطئ الأوربي على رأس عشرة آلاف جندي وبفضل مساندة سليمان استطاع كانتاكوزين أن يتغلب على خصمه. وفي نظير ذلك أعطى كانتاكوزين العثمانيين قلعة تزيب الواقعة على مضيق الدردنيل لاتخاذها قاعدة ينطلقون منها عند ما يحتاج إليهم كانتاكوزين. ولكن سليمان خرج في سنة ١٣٥٤ من تزيب واتجه شمالاً، واستولى على مدينة غاليبولى، التى أصبحت أول قاعدة عثمانية في أوروبا. وعندئذ احتج كانتاكوزين بشدة على ما قام به سليمان من فتوحات في أوروبا، فأجابه أورخان أنه لا يستطيع أن يتنازل عن غاليبولى أو الأراضى التى تم فتحها في

(1) Darby (H.C.), Seton - Watson (R.W.), Auty (Py yllis), Iaffan (R.G.D) and Clissold (Stephen) Ed. by Clissold (Cambridge, 1966) pp. 96-97.

(2) Stavrianos, The Balkans since 1453, p. 41; Clissold, ed. op. cit. pp. 97-99, Shaw, op. cit., Vol. I., p. 16.

(3) Shaw, op. cit., Vol. I, Stavrianos, op. cit., p. 41.

تراقيا، على أساس أن الشريعة الإسلامية لا تجيز تسليم الأراضي التي جرى الاستيلاء عليها من العدو<sup>(١)</sup>. وتذكر الروايات العثمانية أن القلاع البيزنطية في غالبولي بما فيها تريمب، قد أصابها زلزال مروع في ٢ مارس ١٣٥٤، وهجرها أهلها، ولولا عنها هاربين، الأمر الذي سهل على العثمانيين دخولها بغير حرب ولا قتال، وأصلحوا قلاعها، وعندما احتج الامبراطور البيزنطي، رد عليه أورخان بأنه لا يستطيع أن يغادرها، لأن الله أراد بهم خيراً فمهد السبيل للاستيلاء عليها، ولا يستطيع أن يسلم ما منحه الله له. على أية حال، أصبحت غالبولي أول قاعدة عثمانية ثابتة في أوروبا، راحت تنطلق منها الحملات العثمانية لغزو كانتاكوزين لتعوانه في السنوات التالية<sup>(٢)</sup>. وإذا كان المؤرخون قد انتقدوا كانتاكوزين لتعوانه مع الأتراك، وأخذوا عليه أن دعواته هي التي أسرعت بمجيء العثمانيين إلى أوروبا، فقد نسي هؤلاء المؤرخون أن العثمانيين كانوا سيتوجهون إلى أوروبا بمحض إرادتهم ودون أن يدعوهم إليها أحد<sup>(٣)</sup>.

قام سليمان بعدة غزوات في تراقيا، ووصل إلى مدن تشورلو Corlu، لوليورجاز Lu-  
lelrigas وملاقرا Malkara، وتيكرداج Tekirdag وقام بنهبها، وبذلك شيد قواعد متقدمة ينطلق منها للتوسع والقيام بغزوات أخرى أكثر عمقا. وسرعان ما أحس كانتاكوزين بالخطر الذي يتهدد دولته من دعوة العثمانيين إلى أوروبا. فحاول الحصول على مساعدة من الصرب والبلغاز ضد حلفائه العثمانيين لتحويلهم عنه وانصرفهم إلى تحقيق مكاسب جديدة على حسابهم، ولكن قيامه بإحضار العثمانيين إلى أوروبا، جعل الأهالي في القسطنطينية يرون أن سياسته هي التي بدأت بتسليم أرض مسيحية إلى المسلمين العثمانيين، وزاد في حرج كانتاكوزين أن بطريرك القسطنطينية أثار مسألة بيع الإمبراطور أملاك الكنائس لإرضاء أورخان. ونتيجة لذلك تمكن منافسيه في القسطنطينية من عزله عن العرش في أواخر سنة ١٣٥٥، ودخله أحد الأديرة قضى منه بقية حياته، وتفرد يوحنا الخامس باليولوجوس بحكم الإمبراطورية البيزنطية في سنة ١٣٥٨ م<sup>(٤)</sup>.

(1) Shaw, op. cit., Vol I. p. 16, Ostrogorsky, op. cit., pp. 529-531.

(2) Shaw, op. cit., pp. 16-17, Lodge, op. cit., 502, Halil Inalcik. The Ottoman Empire., pp. 9-10.

(3) Stavrianos. The Balkans since 1453, p. 43.

(4) Shaw, op. cit., Vol. I. p. 17.

وما يجدر ذكره أن كائتاكوزين كانت له علاقات بالبابوية، وخاصة مع البابا كليمنت السادس (١٣٤٢ - ١٣٥٢)، وكان كائتاكوزين يأمل أن يسمح البابا بانضمام البيزنطيين إلى تحالف القوى الأوربية، حتى ولو كان هدفها في النهاية هو استعادة الأراضي المقدسة، وليس حماية القسطنطينية من الخطر العثماني. ولكن الإمبراطور البيزنطي فشل في محاولته، إذ أصر البابا على أن الإغريق ينبغي أن يعود إلى قبضة روما، وأن ينكروا الشقاق الديني، ويتوبون عن آثامهم. ولكن كائتاكوزين كان مرتبطاً بالتقاليد والعادات البيزنطية، ولم يقدم أية تنازلات، وأعلن أنه سوف لا يتوصل للبابا مثلما فعل الإمبراطور ميخائيل الثامن (١٢٥٩ - ١٢٨٢) (١).

وفي نفس الوقت كانت القوة العظمى الوحيدة في شرق أوروبا القادرة على رد الأتراك العثمانيين إلى آسيا الصغرى هي إمبراطورية صربيا، التي صار زعيمها ستيفن دوشان أقرب ما يكون إلى تحقيق حلمه الرامي إلى السيطرة على القسطنطينية. لكنه مات فجأة في سنة ١٣٥٦، ولم تلبث أن تفسخت إمبراطوريته الواسعة بعد وفاته مباشرة وصارت ولايات متنازعة، مثلما حدث لإمبراطورية الإسكندر الأكبر بعد وفاته سنة ٣٢٣ ق.م. وعندئذ رأى الإمبراطور البيزنطي يوحنا الخامس باليولوجوس أن الأمل الوحيد في إنقاذ إمبراطوريته من الخطر العثماني يكمن في استصراخ ضمير المسيحيين في الغرب الأوربي. وقد ساعده على ذلك أمه أن أميرة ساقوى، حيث اتصل من خلالها بعائلات عديدة في الغرب الأوربي. ولكن البابا هو الذي وجه الدعوة للغرب الأوربي للقيام بحملة صليبية ضد الأتراك العثمانيين. ففي ١٥ ديسمبر سنة ١٣٥٦، أي في نفس الأسبوع الذي مات فيه دوشان، كتب الإمبراطور الشاب إلى البابا إنوسنت السادس (١٣٥٢ - ١٣٦٢) يطلب منه إرسال أسطول وجيش إلى القسطنطينية. وفي المقابل وعد الإمبراطور بتحويل البيزنطيين إلى المذهب الكاثوليكي، وإرسال ابنه مانويل رهينة إلى البلاط البابوي في أفينيون Avignon (حيث كان يوجد البابا آنذاك تحت سيادة الملك الفرنسي)، ولكن البابا لم يأخذ تلك الوعود مأخذ الجد، وأصدر تعليماته إلى نائبه بيتر توماس الذي كان موجوداً آنذاك في صربيا، بالتوجه إلى القسطنطينية لمقابلة الإمبراطور والتفاوض معه. والحقيقة أن تحالف

(1) Nicol (D.M.), The End of the Byzantine Empire (London, 1979), p. 58.

القوى المسيحية قد أعيد تشكيله في سميerna Smyrna، ولكنه أغفل البيزنطيين للمرة الثانية<sup>(١)</sup>. ولهذا اضطر يوحنا الخامس باليولوجوس إلى الاعتراف بكل فتوحات أورخان في أوروبا في مقابل أن يسمح أورخان بتسهيل وصول المؤن إلى القسطنطينية، فوافق أورخان وبدأ في إرسال أعداد ضخمة من الرعاة التركمان في الأناضول إلى تراقيا «للتريكةا»، ومنع تكوين أى مجهود مسيحي لطرد العثمانيين من أوروبا<sup>(٢)</sup>.

وهنا تكرر القول إن عبور العثمانيين للدردنيل واستيطانهم أراضي أوربية كان أمراً حاسماً في تحول الدولة العثمانية من إمارة حدود صغيرة وغير هامة، إلى إمبراطورية تضم البلقان وآسيا الصغرى. ويعود الفضل إلى سليمان ابن ثانى السلاطين العثمانيين أورخان في إقامة أول مستوطنة عثمانية في أوروبا<sup>(٣)</sup>. وكان أورخان يرى في ابنه سليمان شخصية عظيمة تخلفه في حكم الدولة العثمانية لتحقيق الأمجاد للبيت العثماني، ولكن سليمان مات قبل أبيه سنة ١٢٥٨، إذ سقط من ظهر جواده أثناء قيامه برحلة صيد وعمره واحد وأربعون عاماً، فحزن أورخان لذلك أشد الحزن<sup>(٤)</sup>. ولا يعرف تاريخ موته على وجه الدقة، فبعض الروايات تقول إنه مات في سنة ١٣٥٩، والبعض يميل إلى أنه توفي سنة ١٣٦٢، ودفن في بروسة.

### مراد الأول (١٣٦٢ - ١٣٨٩):

توفي أورخان وخلفه ابنه مراد، الذي اتخذ نفس سياسة أبيه في غالبيولى الرامية لغزو تراقيا ومقدونيا وبلغاريا وصربيا، ولذلك؛ يعتبر المؤسس الحقيقي لأول إمبراطورية عثمانية في أوروبا. وكان الوضع في أوروبا مناسباً تماماً لبحث الدولة العثمانية على مزيد من التوسع والفتوحات في أوروبا. فبلغاريا وبيزنطة كانتا في مراحل متقدمة من التأخر والضعف،

(1) Ibid., pp. 58-59, Eliot (Sir Charles), Turkey in Europe.

(2) Shaw, op cit., Vol. I, p. 17.

(٣) خليل إينالچك: «الدولة والرايا» ترجمة عبد اللطيف الحارس، مجلة الإجتهد، السنة الحادية عشرة، عدد ٤١، ٤٢ سنة ١٩٩٩، ص ٨١.

(4) Creasy, Turkey., p. 28.

والإمبراطورية الصربية التي بناها ستيفن دوشان<sup>(١)</sup> تمزقت بعد موته في سنة ١٣٥٥ كما ذكرنا، كما أضعفت الانقسامات الداخلية الإمارات اللاتينية في اليونان والمورة، أما الجزر الإيجية فقد كانت تحكمها الأسر الإغريقية والبنادقة والجنوية وفرسان القديس يوحنا في رودس، الذين وجدوا أنفسهم غير قادرين على التعاون ضد العثمانيين<sup>(٢)</sup>.

ويلاحظ أن مراد الأول وحلفاءه تخاشوا القيام بأعمال حرية ضد القسطنطينية كما فعل أروخان، وأبقوا عليها سليمة تحت الحكم البيزنطي لمدة قرن تقريبا، وذلك لأن العثمانيين كانوا مشغولين بمد نفوذهم في أوروبا. حدث هذا على الرغم من ضعف البيزنطيين وضعف جيشهم ودفاعاتهم، ولكن أرضهم الوعرة وأسوار البحر، جعلت من الصعب على العثمانيين التغلب عليهم. وينبغي ألا ننسى أيضا أن الجيش العثماني كان يضم بعض المشاة، ولكن قاعدته كانت تقوم على قوة الفرسان التركمان، الذين لم يكونوا جاهزين آنذاك لاجتياح مدينة حصينة منيعة مثل القسطنطينية<sup>(٣)</sup>.

وعلى أية حال، بدأ مراد الأول في توسيع دائرة نفوذه في أوروبا على حساب البيزنطيين، وكانت أدرنه (أدرينوبل) الهدف الأول الذي وضعه نصب عينيه للوصول إليه. وقد سبق لمراد التحرك في راقيا عندما خلف أخيه سليمان في قيادة القوات العثمانية في أوروبا خلال السنوات الأخيرة من حكم أبيه أروخان. ولكن مراد لم يلبث أن اضطر للذهاب إلى الأناضول لاعتلاء عرش الدولة العثمانية من ناحية، وللإستيلاء مرة أخرى على قونية

---

(١) خلف ستيفن دوشان إبنه الوحيد ستيفن أروش الخامس Stephen Uroo V الذي عاش حتى سنة ١٣٧١. وفي عهده تمزقت الإمبراطورية الصربية إلى شذرات، واستقلت المناطق المختلفة للإمبراطورية عن السلطة المركزية، فتساليا أصبحت مستقلة تحت حكم سيميون أروش عم الإمبراطور الجديد، ودخلت إبيروس في منازعات وتقسمتها عائلات مختلفة تحت حكم زعماء محليين، كان أعظمهم أهمية فوكاشين حاكم بريليب Prilep، وفي الغرب في زيبا أصبح بيت يالشا Balsa مستقلا وأسس ولاية مونتنبجرو، وأخيرا حكم الجزء الشمالي نبيلا يدعى لازار هرليانوفتش، وقد اختفت السلطة المركزية في عهد ستيفن أروش الخامس. أنظر:

Clissold (Editor), A Short Hist. of Yugoslavia., p. 99.

(2) Shaw, Hist of the Ottoman Empire. VI. I, P. 17.

(3) Ibid., p. 17.

عاصمة إمارة قرمان<sup>(١)</sup>، من ناحية أخرى. وفي تلك الأثناء انتهز البيزنطيون فرصة غياب مراد عن أوروبا، واستعادوا معظم المدن التراقية التي استولى عليها أورخان، كما بذلوا بعض الجهد لتوحيد المسيحيين الموجودين في المنطقة ضد العثمانيين<sup>(٢)</sup>. على أنه بعد أن استقرت الأمور لمراد في الأناضول عاد مسرعاً إلى أوروبا، واستولى على أدرنة عاصمة تراقيا البيزنطية في سنة ١٣٦١م، واتخذها العثمانيون عاصمة لهم حتى سقوط القسطنطينية. وتعتبر تلك المدينة أهم مدينة للإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية، فهي أقوى حصن بين القسطنطينية والدانوب، وتسيطر على الطريق المؤدى من العاصمة البيزنطية إلى جبال البلقان، وكانت مركز الجيش البيزنطي والأنظمة الإدارية في البلقان، وقد استخدمها العثمانيون قاعدة للإنطلاق، ومقاومة أى جهد مسيحي لدفع العثمانيين خارج أوروبا<sup>(٣)</sup>. ونتيجة لذلك أصبحت القسطنطينية معزولة عن باقى أجزاء الدولة البيزنطية، قابعة خلف أسوارها، وباتت تنتظر الضربة الكبرى الأخيرة التي كان لامفر من وقوعها<sup>(٤)</sup>.

وقد تبعث الغزوات في تراقيا نفس النهج الذي سارت عليه في الأناضول. ففى مواجهة غزوات المجاهدين (الغزاة) المستمرة، هرب الإغريق المحليون إلى القلاع. أما سكان المدن الذين خضعوا طواعية للعثمانيين، فقد تركوا دون أذى، ولو حدث أن عارض بعض

---

(١) بينما كانت دولة سلاجقة الروم آخذة في الاضمحلال، كانت قوى تركية جديدة آخذة في التبلور في المناطق الملازمة بالأناضول، وأقدم هذه القوى وأشدّها بأساً هي دولة أبناء قرمان التي قامت في غربى قيليقية واتخذت لرمناك عاصمة لها، وقد فتح بلادها علاء الدين كييقباز الأول. وفى سنة ١٢٦١ زحفت هذ الإمارة على قونية بحجة الدفاع عن عز الدين كيكاوس، ولكنها انهزمت أمام القوات السلجوقية والمغولية. وفى سنة ١٢٧٧ إستغل القرمانيون الاضطراب السائد فى البلاد، واستولوا على قونية، ولكنهم هزموا أيضاً على يد السلاجقة والمغول، وعلى الرغم من هذه الهزائم المتوالية، فإن القرمانيين الذين لم ينقطع عنهم عون المماليك فى مصر كانوا يزددون قوة ونفوذاً، وقد زعموا بعد سيطرتهم على قونية أنهم ورثة الإمبراطورية السلجوقية. وقد عظم شأن هذه الإمارة التي كانت قونية قد صارت عاصمة لها، وأصبحت دولة قوية. أنظر فؤاد كوبرلى: قيام الدولة العثمانية، ص ٧١ - ٧٢.

(2) Shaw, Hist. of the Ottoman Empire, Vol. I, PP. 17-18, Halil Inalcik, The Ottoman Empire, p. 10.

(3) Ostrogorsky, Hist of the Byzantine State, p. 536, Shaw, op, cit., Vol. I p. 18.

(4) Diehl (Charles), Hist of the Byzatione Empire., p.163.



السكان، فقد كانوا مضطرين لترك المدينة للإتراك. وشجعت الحكومة العثمانية الأتراك من الأناضول على الهجرة، وفي بعض الأحيان فرضت عليهم الترحيب الجبري، وذلك للاستقرار في الأراضي الجديدة التي قام العثمانيون بفتحها حديثاً. كذلك أسس الدراويش الزوايا، التي صارت فيما بعد نواة لقرى جديدة. وقد تبع الاستيطان التركي الفتوحات في تراقيا، خالفاً قاعدة قوية لانتشار العثمانيين في أوروبا<sup>(١)</sup>.

وعلى أية حال، فمن موقعه الاستراتيجي الجديد، استولى السلطان مراد الأول على فيلبوبوليس في سنة ١٣٦٣، الأمر الذي مكّنه من السيطرة على وادي نهر ماريتزا Maritsa بالقرب من أدرنة، الذي يمد القسطنطينية بكثير من القمح والأرز، فضلاً عن الضرائب الهائلة التي ترد إلى خزانة الدولة. وقد استطاع مراد بفضل موقعه الجديد أيضاً عزل البلغاريين عن الإغريق الذين كانوا يقاومون قواته بحذاء الساحل الإيجي<sup>(٢)</sup>. ومن ثم اضطرت بيزنطة إلى الاعتراف بنوع من التبعية للسلطان، ووقعت معاهدة في سنة ١٣٦٣م، أكدت فيها كل الفتوحات العثمانية في أوروبا، كما أقرت بعدم الوقوع في أية مؤامرة مع أمراء البلقان ضد السلطان. وفي مقابل ذلك حصلت بيزنطة على تأكيد من مراد بعدم شن هجوم على القسطنطينية، وتزويدها بما تحتاجه من مؤن وطعام، وبذلك صار مراد قادراً على التحرك دون أن يساوره أى قلق على مؤخرته<sup>(٣)</sup>.

وما يجدر ذكره أن استيلاء العثمانيين على أدرنة شجع صربيا والمجر (هنغاريا) على عقد تحالف بينهما ضد السلطان العثماني مراد الأول. وفي عام ١٣٦٤م زحفت جيوشهما باتجاه نهر ماريتزا، لدفع الأتراك خارج أوروبا، قبل أن يتأخر الوقت وتضيع الفرصة نهائياً. بيد أن مراد نصب كميناً للجيوش المتحالفة على ضفاف هذا النهر بالقرب من أدرنة، حيث دارت معركة معروفة في تاريخ الأتراك العثمانيين باسم «هزيمة الصرب الساحقة». Rout of the Serbs، غرق فيها كثير من الجند والأمراء أثناء محاولتهم عبور النهر سباحة لإنقاذ أنفسهم، وقد استطاع لويس الكبير ملك المجر الهروب بصعوبة بالغة<sup>(٤)</sup>. ولذلك عند عودته

(1) Halil Inalcik, op. cit., p. 10.

(2) Shaw, Hist of the Ottoman Empire. Vol. I, p. 18.

(3) Ibid., p. 18.

(4) Ibid., pp. 18-19, Stavrianos, op. cit., 43, Creasy, Turkey, p. 29.

إلى بلاده شيد كنيسة لمرضاة السيدة مريم، إظهاراً لشكره على نجاته<sup>(١)</sup>. ولا شك أن الانتصار الذي حققه مراد على أعدائه، شجعه على التقدم فى أراضيهم.

وفى نفس العام (١٣٦٤) سمع الإمبراطور البيزنطى يوحنا الخامس باليولوجوس أن البابا أوربان الخامس (١٣٦٢ - ١٣٧٠) يدعو إلى حملة صليبية جديدة. ومن الذين حملوا الصليب ابن عمه أماديوس السادس كونت سافوى Amadeo of Savoy ولويس الكبير ملك المجر<sup>(٢)</sup>. وفى تلك الأثناء انتهز بطرس الأول لوزجنان (١٣٥٠ - ١٣٦٩) ملك قبرس، الذى امتاز بحماسة الشديد للأعمال الصليبية، فرصة ضعف دولة المالك الجراكسة، وخلق الإسكندرية من وسائل الدفاع والحماية، فقاد حملة فى أكتوبر سنة ١٣٦٥ إلى الإسكندرية وهاجمها فور وصوله، وأعمل القتل فى أهلها أسبوعاً كاملاً دون تمييز بين مسلم ومسيحى، ونهبها، وضرب رجاله المساجد والزوايا وحرقوها، واعتدوا على النساء والفتيات. ثم عاد محملاً بالأسرى والغنائم<sup>(٣)</sup>. قبل أن يدركه الجيش المملوكى. وقد عاب المؤرخ النويرى الإسكندراني<sup>(٤)</sup> على بطرس لوزجنان أنه أتى إلى الإسكندرية «على حين غفلة من حماتها»، فدخلها وسرقها كاللص، وهرب منها خوفاً من وصول جيش السلطان لو أدركه بها.

وعلى الرغم من أن تلك الحملة الصليبية كان هدفها مصر وأرضت الغرب الأوروبى، إلا أن الآمال التى وضعها الإمبراطور البيزنطى يوحنا الخامس باليولوجوس فى تلك الحملة قد تخطمت، وذلك لانحراف مسارها الرئيسى المتمثل فى طرد العثمانيين من أوروبا، ولكنه كان مليحاً بالنشاط، فحول أنظاره إلى المجر أقرب جارة كاثوليكية لبيزنطة، ووضع أمله فى ملكها لويس الكبير، باعتباره صليبي ملتزم، وبإستطاعته التحرك لمساعدته ضد العثمانيين<sup>(٥)</sup>. ولذلك أبحر الإمبراطور البيزنطى ومعه إثنان من أبنائه إلى المجر فى شتاء سنة ١٣٦٦، وللمرة

(١) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ج ١ ص ٩٨.

(2) Ostrogorsky, op. cit. p. 537. Nicol, The End of the Byzantine Empire., p. 59

(٣) النويرى الإسكندراني: كتاب الإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى وقعة الإسكندرية، ج ٣، ص ٦٤ - ٦٥، بذائع الزهور: ج ١ القسم الثانى، ص ٢٢ - ٢٣.

(٤) كتاب الإعلام بالإعلام، ج ٣ ص ٦٥ - ٦٨.

(5) Ostrogorsky, op. cit., p. 537, Nicol, pp. cit., p. 59.

الأولى يدخل إمبراطور بيزنطى بلد أجنبى، ليس كقائد على رأس جيشه، بل متوسلاً يبحث عن المساعدة، ولكن طلبه لم يلق قبولا، إذ طلب منه ملك المجر أن يغير عقيدته إلى الكاثوليكية، وأن يعيد تعميد نفسه طبقاً للطقوس الكاثوليكية<sup>(١)</sup>. وبما يجدر ذكره أنه لم يحدث من قبل أن إمبراطوراً بيزنطياً قد أهان كبرياءه وعظمته من أجل التودد لملك أجنبى، إذ كان من المعتاد أن يأتى الملوك والأمراء إلى إمبراطور القسطنطينية، ومن هنا لم يحافظ يوحنا الخامس على هيئته وكرامته، ووضعت رحلته إلى المجر سابقة سار عليها من جاء بعده من الأباطرة. وعلى أية حال، كانت المهمة التى قام بها الإمبراطور إلى المجر متواضعة إلى حد كبير، ولم تسفر عن شىء، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل جرى احتجاز الإمبراطور فى بلغاريا فى منطقة الحدود الواقعة بينها وبين المجر، ولم يسمح له البلغاريون بالسفر خلال أراضيهم، وهكذا وقع الإمبراطور أسيراً فى أيدي جيوشه المسيحيين<sup>(٢)</sup>.

ولم تلبث أن قامت أوروبا بجهود واسعة لتنظيم المقاومة ضد الأتراك العثمانيين. فقد أدت نتائج حادث الإسكندرية سنة ١٣٦٥ إلى ضرورة قيام حرب صليبية أخرى، وسرعان ما انتشرت أخبار ذلك النصر الوقتى الذى حققه ذلك الحادث من فى الغرب. الأوربي كما حدث فى المعارك الصليبية التى قامت فى الشرق من قبل. وعندئذ أمر البابا أوربان الخامس جميع المخلصين للصليب بالقيام بمثل حملة الإسكندرية حتى يصلوا إلى نصر محقق فى نهاية الأمر. وكان أكثر الجميع تجاوباً بهمة وجد أمادىوس السادس كونت سافوى الذى تناول الصليب من قبل من يد البابا نفسه<sup>(٣)</sup>.

وكان أمادىوس كونت سافوى قد وطد العزم على المضى إلى الأراضى المقدسة، غير أنه كان ابن عم شقيق للإمبراطور يوحنا الخامس، وكان يود أن يساعده، فغير مسار حملته الصليبية وحشد نخبة ممتازة من جيشه الإقطاعى، وخرج فى يونيو عام ١٣٦٦، ولحق به

(1) Ostrogorsky, pp. 537-538.

(2) Nicol, The End of the Byzantine Empire., p. 59.

(٣) عزيز سوربال عطية: العلاقات بين الشرق والغرب (القاهرة ١٩٧٢)، ص ٩١ - ٩٢، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣ ص ٧٥٩ - ٧٦٠، زبيدة عطا: بلاد الترك فى العصور الوسطى (القاهرة بدون تاريخ)، ص ١٦٦ - ١٦٧،

Pears (Edwin), The Destruction of the Greek Empire and the Story of the Capture of Constantinople by the Turks. (New York).pp. 90-91.

جيش من الجنود المرتزقة من إيطاليا وألمانيا وفرنسا وإنجلترا، والتقوا به في كورن في شبه جزيرة المورة، حيث أبحرت خمس عشرة سفينة حربية إلى غاليبولى التي كانت في حوزة العثمانيين منذ حكم السلطان أورخان، وقد اتخذتها هدفها الأول، وهى عاصمة القدر باعتبارها ميناء ينزل فيه الجنود، وقاعة لعمليات التوسع فى شبه جزيرة البلقان. وقد فاجأ الصليبيون حاميتها، فسقطت فى أيديهم فى ٢٣ أغسطس من نفس العام، وكان استردادها لطمعة قاسية للأتراك<sup>(١)</sup>.

على أن أماديوس واصل السير بحراً إلى القسطنطينية بدلا من الهبوط فى تراقيا لتطهير الإقليم من الأتراك، وهناك تبين له أن ابن عمه الإمبراطور البيزنطى يوحنا الخامس قد وقع غدرًا فى أسر ملك بلغاريا شيشمان الثالث، ولذا وجه أماديوس كل جهده لإنقاذ ابن عمه، ولم يتحقق تخليصه إلا بعد أن هاجم أماديوس ميناء فارنا البلغارى. ولما تم إنقاذ الإمبراطور اكتشف أماديوس أنه أنفق كل ما لديه من المال، بما فى ذلك المال الذى ابتزّه من السكان المحليين، فكان لزاما عليه أن يعود إلى وطنه، وفعلًا عاد إلى وطنه فى سنة ١٣٦٧. وتكاد تكون حملته الصليبية عديمة القيمة، إذ أن الأتراك استولوا من جديد على غاليبولى عقب رحيله<sup>(٢)</sup>. غير أن المؤرخ نيقول Nicol<sup>(٣)</sup> يذكر أن استعادة غاليبولى كانت أعظم خدمة قدمها أماديوس، فقد ظلت فترة تحت سيطرة البيزنطيين، توقف الأتراك خلالها عن إرسال تعزيزات أخرى عبر المضيق إلى أوروبا، وكان من الممكن أن يحدث تعاون بين المسيحيين فى الغرب الأوروبى، من شأنه أن يحول اتجاه المد العثمانى إلى أوروبا، ولكن هذا التعاون لم يحدث أبدًا.

ومهما يكن من أمر، فإن العثمانيين آنذاك كانوا يعملون على تثبيت نفوذهم فى تراقيا وتأمين وضعهم فيها. ولذلك قام السلطان مراد بترحيل عدد ضخم من التركمان إلى الأقاليم البلقانية التى تم فتحها حديثًا، ليضمن سيطرته عليها من جهة، والحصول على خدماتهم كقوات جاهزة فى الأقاليم التى كانت المقاومة المحلية قوية بها من جهة أخرى.

(١) هايد: تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى، ج٢، ص ١٧٦ - ١٧٧، عزيز سوريال: المرجع السابق، ص ٩٢.

(٢) هايد: المرجع السابق، ج٢، ص ١٧٧، رنسيان: المرجع السابق، ج٣، ص ٧٦٠.

(٣) The End of the Byzantine Empire., p. 61.

وعلاوة على ذلك بدأ مراد تنفيذ سياسة نقل كثير من الفلاحين المسيحيين من البلقان وتوطينهم في الأناضول وضواحي أدرنة لكي يضمن طاعتهم<sup>(١)</sup>. وقد تتبع العثمانيون سياسة التسامح الديني التام الذي يستند إلى الشريعة الإسلامية تجاه أهل الذمة اليهود والمسيحيين، وأعفواهم من الخدمة العسكرية في مقابل دفع الجزية التي كانت تنفق على القوات المسلحة، وبسبب ذلك تحول بعض المسيحيين إلى الإسلام حتى ترفع عنهم الجزية<sup>(٢)</sup>.

ومن الملامح الرئيسية لسياسة السلطان مراد الأول في أوروبا، أنه كان مثل سلفيه عثمان وأورخان، قد قام بتنظيم مناطق الحدود المواجهة للعدو في الولايات المتاخمة، فقسمها، وسيطر على ساحل البحر الأسود التراقي، الذي استولى عليه الأمير البلغاري حنا الإسكندر (١٣٥٥ - ١٣٦٥) بعد وفاة ستيفن دوشان، وبذلك انقطع البيزنطيون عن آخر الأراضي التي تصلهم بأوروبا، ولم يعد أمامهم إلا الاتصال بالبحر فحسب، سواء كان ذلك من خلال البحر الأسود إلى الإمارات البيزنطية أو من خلال مضيق الدردنيل، وحتى هاتين الوسيلتين كانتا معرضتين أحيانا لضغط العثمانيين وسيطرتهم<sup>(٣)</sup>. وإزاء هذا الموقف اليائس الذي تردت فيه الإمبراطورية البيزنطية، رأى يوحنا الخامس باليولوجوس أن يسافر إلى أوروبا بنفسه ليستعطف المساعدة ضد الأتراك. فترك ابنه الأكبر أندرونيق نيابة عنه في القسطنطينية، وإبنة الثاني مانويل في سالونيك، وتوجه إلى روما في أكتوبر سنة ١٣٦٩م، ولم يصحبه أحد من الأساقفة، وهناك أعلن للبابا أوربان الخامس اعتناقه للعقيدة الكاثوليكية، ومارس طقوس المذهب الكاثوليكي. وفي احتفال مهيب، وعلى درجات كنيسة القديس بطرس في روما، استقبل البابا وحوله الكرادلة «إمبراطور الإغريق» المتواضع الذي ارتد عن كنيسته، واعتنق بمحض إرادته وحرية عقيدة الكنيسة الرومانية المقدسة (الكنيسة الكاثوليكية). والواقع أن اعتناق يوحنا الخامس المذهب الكاثوليكي كان مسألة شخصية، بدليل أن البابا لم يعلن عن اتحاد الكنيستين، وكل ما فعله أنه أدى الصلاة، ودعا أن يكون الإمبراطور قدوة لرعاياه الإغريق<sup>(٤)</sup>. ولايشك أن اعتناق يوحنا الخامس للكاثوليكية قد أثار ضجة عنيفة بين رعاياه

(1) Shaw, Hist of the Ottoman Empire, Vol. I. p. 19.

(2) Ibid.

(3) Ibid.

(4) Ibid., p. 19, Nicol, op. cit., p. 61.

الأرثوذكس. ومن الجدير بالذكر أن الإمبراطور من أجل تغطية نفقات رحلته إلى الغرب الأوربي اضطر إلى الاستدانة من بعض المرابين في البندقية، فلما آن أجل الدفع عجز الإمبراطور عن قضاء دينه، فقبض عليه دائئوه وزجوا به في السجن، ولبث فيه حتى وفي عنه دينه إنه مانويل<sup>(١)</sup>.

أما الجبهة الغربية أو الجناح الأيسر للحدود، الى يقع بحذاء الساحل الإيجي، فقد تأسس بغرض الاستيلاء على مقدونيا وعاصمتها سالونيك، وكان قائد تلك الجبهة إيفرينوس بك، وهو في الأصل أمير إقطاعي في الأناضول، ودخل في خدمة العثمانيين بعد استيلائهم على يروسة وتحول إلى الإسلام، وأصبح قائداً عسكرياً في عهده السلطاني أورخان ومراد. وكان البلغار أعداءه الألداء في تلك الجبهة قد قاوموه بشدة، إلى أن تمزقت مملكة البلغار بعد وفاة الكسندر، بسبب المنازعات التي قامت بين أبنائه في سنة ١٣٧١ حول العرش<sup>(٢)</sup>. فأسرع إيفرينوس بك، وهزم الصرب في شرمن Tchermen في الجزء الجنوبي من نهر الماريتزا (بين فيلبوبوليس وأدرنة) في ٢٦ سبتمبر سنة ١٣٧١. وتعتبر معركة ماريتزا أعظم نصر أحرزه الأتراك العثمانيون في أوربا، قبل أن يوجهوا ضربتهم القاضية للقسطنطينية سنة ١٤٥٣. فقد فتحت الأبواب للعثمانيين في صربيا ومقدونيا وشمال اليونان، ولقى فيها أميران من ورثة ستيفن دوشان مصرعهما، أما الأمراء الصربيون الآخرون، فقد أجبروا على دفع الجزية، وأن يحاربوا إلى جانب سادتهم الأتراك عندما يطلبون منهم ذلك، الأمر الذي جعلهم نموذجاً للتبعية المسيحية للمسلمين، وسرعان ما أجبر البلغاريون على اتباع نفس النموذج<sup>(٣)</sup>. فبعد أن استولى إيفرينوس بك على كوموتيني Komotini الواقعة على البحر الأدرياتي في سنة ١٣٧١، توجه إلى تراقيا الغربية والأراضي المقدونية المنخفضة (١٣٧١ - ١٣٧٥)، وأرسل الغزاة إلى ألبانيا سنة ١٣٧٥، وفصل الصرب عن البلغار، واستولى على قولة ودراما وسيريز وسالونيك، وساعد بعض النبلاء

(1) Vasiliev, Hist of the Byzantine Empire. Vol. 11, p. 588.

سالم الرشيدى: محمد الفائح، ص ٣٠، زبدة عطا: المرجع السابق، ص ١٦٧.

(2) Shaw, op, cot., pp. 19-20, Clissold, Ashort Hist. of Yugoslavia., pp. 99-100.

(3) Nicol, op. cit., p. 62, Stavrianos, op. cit., p. 44, Ostrogorsky, pp. 540-541.

المحليين ضد منافسيهم، وكذلك صد البوسنيين<sup>(١)</sup> والبنادقة، الذين كانوا يحاولون الاستيلاء على الموانئ الساحلية<sup>(٢)</sup>. ثم غزا السلطان مراد الأول بلغاريا الوسطى، واستولى على صوفيا، وأجبر شيشمان ملك بلغاريا على قبول السيادة العثمانية في عام ١٣٧٦ م، وعزز ذلك زواجه من تامارا Tamara ابنة شيشمان<sup>(٣)</sup>.

وفي تلك الأثناء، ثار أندرونيق ضد والده الإمبراطور يوحنا الخامس باليولوجوس، وكان أندرونيق قد توجه إلى بلاط السلطان العثماني في أدرنة، وهناك عقد صداقة مع صاووجي أحد أبناء مراد الأول. وتذمر الإثنان من والديهما، لأنهما لم يكونا الولدين المفضلين. ولهذا شرع الأميران البيزنطي والعثماني في التخطيط للإطاحة بأبويهما. وقد جرى اكتشاف مؤامرتهم، فلم تأخذ مراد الأول الشفقة بإبنه، بل قبض عليه في ٢٩ سبتمبر سنة ١٣٧٣، وحرمه من نعمة البصر، ولم يلبث أن مات من آلامه. وفي نفس الوقت أمر مراد الأول الإمبراطور البيزنطي بسمل عيني إبنه أندرونيق وهدم التحصينات التي بناها خلف البوابة الذهبية للقسطنطينية. ولم يجرؤ الإمبراطور البيزنطي على عصيان أمر السلطان، فقبض الإمبراطور على إبنه أندرونيق، وسجنه في برج أنيماس Anemas Tower، ولكنه حرره من نعمة البصر لعين واحدة فقط، وسحب منه اللقب الإمبراطوري، وعين إبنه مانويل شريكا في الحكم، وبذلك أكد الإمبراطور يوحنا الخامس مركزه المتواضع كتابع للسلطان العثماني<sup>(٤)</sup>.

(١) يطلق اسم البوسنة على مساحات مختلفة في أوقات مختلفة، وهو اسم مشتق من نهر البوسنة River Bosna الذي يتفرع من Vrelo Bosne بالقرب من فريهوسنا Vrhbosna (حاليا سراييفو). وقد أصبح هذا الاسم يستخدم علما على القبائل السلافية التي دخلت الإقليم خلال القرن السابع الميلادي. وإلى الشمال والغرب كان الكراويون، وإلى الجنوب والشرق كان الصرب. ويقر المؤرخون المايجار أن أرض البوسنة كانت قلب كرواتيا الأصلية. ومن الواضح أن السيادة على المنطقة قد تغيرت كثيرا، فالكراويون والصرب والأباطرة البيزنطيون استولوا على أجزاء منها في أوقات مختلفة.

Fine (John V.A.), *The Bosnian Church, A new interpretation. A study of the Bosnian Church and Society from the 13th to the 15 Centuries* (New York, 1975), p. 17., Clissold, op. cit., p. 58.

(2) Shaw op. cit., p. 20, Stavrianos, op. cit., p. 44.

(3) Shaw, op. cit., p. 20.

(4) Nicol, op. cit., p. 62, Hearsey, (John E.N.), *City of Constantinople, 324-1453* (Philadelphia, 1966), pp. 229-230, Ostrogorsky, op. cit., p. 543.

وعلى أية حال، هرب أندرونيق من السجن فى سنة ١٣٧٦ م بمساعدة أصدقائه الجنوبية إلى جالاتا Galata، ومن هناك اتصل بالسلطان العثماني مراد الأول، وتعهد له بالعديد من التنازلات مقابل إعادته إلى عرشه. وبفضل المساعدة الفعالة التى قدمها الجنوبية والأتراك قبض أندرونيق على أبيه وإخوته، وزج بهم فى السجن. ومهما كانت دوافع أندرونيق، فقد وضع الإمبراطورية تحت عبء ثقل، فالأتراك العثمانيون لم يطلبوا زيادة الجزية المقررة على الدولة البيزنطية فحسب، ولكنهم طلبوا أيضا عودة غاليبولى التى كان قد استردها أماديوس السادس كونت سافوى فى أقل من عقدين من قبل، فسلمها أندرونيق لهم، وفضلا عن ذلك تعهد بتقديم المساعدة الحربية للسلطان. وبذلك أصبحت الأقاليم العثمانية فى أوروبا ترتبط مرة أخرى إرتباطا وثيقا بمثلتها فى آسيا الصغرى عبر مضيق الدردنيل<sup>(١)</sup>.

والواقع أن الانتصارات التى حققها العثمانيون فى بلغاريا وسهول مقدونيا، قد فتحت الطريق للقائد العثماني قره تيمورتاش للقيام بحملة خلال وادى فدار Vardar Valley إلى سلسلة جبال البلقان فى الشمال والغرب، فيما بين سنتى ١٣٨٥ و ١٣٨٩ م، واستولى تيمورتاش على القلاع الرئيسية فى مونستير وبريليب ف بلغاريا الغربية، وأطاح بجيش صربى بلغارى فى شيرمين على ضفاف نهر مارتيتزا، ثم تقدم بعد ذلك فى صربيا الجنوبية، واستولى على نيش فى عام ١٣٨٦، وأجبر الأمير الصربى لازار على عقد سلام مهين، حيث وعد بمقتضاه بدفع جزية سنوية، وتقديم مساعدات حربية، والاعتراف بالتبعية للعثمانيين، وقام تيمورتاش بغارات ناجحة فيما بين سنتى ١٣٨٦ و ١٣٨٨<sup>(٢)</sup>.

ولاشك أن كل تقدم أحرزه العثمانيون فى البلقان جعلهم بعيدين عن مركز قوتهم، وأكثر قربا من أعدائهم. ويتضح ذلك فى أنه بعد أن قبل الأمير الصربى سيادة العثمانيين،

(1) Nicol, op. cit., pp 62-63; Hearsey, op. cit., p. 230, Castellan (george). His of the Balkans., (New York, 1992), p. 52, Castellan, op. cit., p.52, Charanis (Peter), "The Strife, among the Palaeologi and the Ottoman Turks, 1370-1402", pp, 295-296, Byzantion (1942-1943).

(2) Schville, op. cit., pp. 186-187; Shaw, op. cit., p. 20, Greasy, op. cit., p. 29, Spinka (Matthew), A Hist of Christianity in the Balkans. A study in the spread of Byzantine Culture among the Slavs (london, 1968), p. 151.



انزعج من الانتصارات المتواصلة التي حققها تيمورتاش، وخاف أن يعزله العثمانيون من منصبه. ولهذا تحالف مع ورثة الملك دوشان في صربيا ومع ملك البوسنة، وانتهاز الحلفاء فرصة انشغال العثمانيين بإمارة قرمان أقوى الدول في الأناضول، وألحقوا هزيمة ساحقة بالقائد العثماني تيمورتاش في بلوشنك Piosnik على ضفاف نهر المورافا في عام ١٣٨٨، وأجبروه على مغادرة صربيا الجنوبية والرجوع إلى نيش. وقد أتاح هذا الوضع للأمير الصربي لازار فرصة تكوين حلف بلقاني من الصرب والبلغار والبوسنويين والوالاشيين وبعض الألبان، وكان الكثير منهم قد قبل السيادة العثمانية. من قبل<sup>(١)</sup>. ولكن السلطان مراد استطاع سحق البلغار، وأجبر ملكهم شيشمان على الاعتراف بسيادته ودفع الجزية مرة أخرى في سنة ١٣٨٨، وبذلك عزل أضخم فرقة عسكرية بلقانية عن جيش لازار. وعلى الرغم من ذلك، فقد جهز لازار جيشاً آخر من البوسنة والمجر وبولندا لمحاربة مراد وطرد العثمانيين من أوروبا. وفي الوقت الذي كان يستعد فيه السلطان مراد لمواجهة التحالف البلقاني الجديد، اضطرت الأحداث إلى إرسال معظم جيشه إلى الأناضول لمواجهة عدد من المنافسين الخطيرين المتزايدين<sup>(٢)</sup>.

### متاعب العثمانيين في الأناضول:

والواقع أن الموقف في الأناضول كان معقداً إلى حد كبير، فمن بين أعداء السلطان مراد إمارة سيواس في الهضبة الوسطى، التي أسسها القاضي برهان الدين، وقد حدث أن استغل منصبه لإمارة إريتنا التركمانية Eretna، واستولى عليها لنفسه. وإلى الجنوب الشرقي كانت الدولة التي أسسها تركمان «الشاة البيضاء»<sup>(٣)</sup> الذين كانوا يمدون نفوذهم من

(1) Shaw, op. cit.,m Vol. I.,p. 20.

(2) Ostrogorsky, op. cit., p. 546,Shaw, op. cit., p. 20.

(٣) الشاة البيضاء أو آق قويونلي أى قبيلة القطيع الأبيض أو أصحاب القطيع الأبيض، وهو حلف من القبائل التركمانية قام في إقليم ديار بكر بعد أيام المغول (في القرن الرابع عشر الميلادي) واستمر حتى عام ٩٠٨هـ - (١٥٠٢م)، وحارب أمراؤها القره قويونلي (الشاة السوداء) والكرد والأيوبيين والكرج والعثمانيين. والمؤسس الحقيقي لجماعة الشاة البيضاء، هو بهاء الدين قره عثمان ولقبه قره يولوك (ت ١٤٣٥م)، الذي ما إن استولى على أملاك القاضي برهان الدين صاحب سيواس حتى أقامه تيمور على ديار بكر. ومن خلفائه أوزون حسن (١٤٦٣ - ١٤٧٧) وهو الذي نقل عاصمته إلى تبريز سنة ١٤٧١م. وثمة بعض الشك حول أصل اسم آق قويونلي، وهل هو يشير إلى تربية الأغنام، أو إلى ضرب من طوطم، وكثيرا ما كانت الحجارة عند التركمان على هيئة الكباش، ولكن هذا الرمز يخلو منه راية أوزون حسن (دائرة المعارف الإسلامية).

إرزنجان وديار بكر في الأناضول الشرقية، إلى آذربيجان في شمال غربي إيران<sup>(١)</sup>. وإلى الجنوب كانت قرمان أقوى إمارة تركمانية في الأناضول الوسطى، التي نشأت في لارندة Larende في طوروس، وتغلغل في قيليقية، وهزمت المماليك، ونقلت عاصمتها إلى قونية مركز إمبراطورية سلاجقة الروم القديمة في سنة ١٢٧٧ م<sup>(٢)</sup>.

ووسط الظروف الصعبة التي أحاطت بالدولة العثمانية في الجانب الآسيوي، لم يجد مراد بدأ من السير على سياسة أبيه الرامية إلى التقدم في الأناضول باتخاذ الوسائل السلمية، فزوج ابنته بايزيد من ابنة أمير كرميان<sup>(٣)</sup>، وطلب بائنتها (هدية عرس لابنه) - كما هي عادة الأوروبيين حالياً - كل نصف الإمارة القريب من قرمان، بما فيه مدينة كوتاهية الشهيرة، وهي ذات موقع استراتيجي فريد. ثم حث السلطان مراد الأول حاكم إمارة حميد على أن يبيع له معظم أقاليم إمارته المتاخمة في سنة ١٣٧٧ م<sup>(٤)</sup>.

وقد أدت المكاسب التي حصل عليها العثمانيون إلى وصولهم إلى جبال طوروس، الأمر الذي أزعج إمارة قرمان، وخاصة منذ تقدم فاتح جديد من آسيا الوسطى في إيران، وهو تيمور لنگ، الذي اجتاحت الأناضول ترافقه موجة ضخمة من التركمان الرعاة، انضم معظمهم إلى جيش مراد الأول بهدف الحصول على الغنائم في أوروبا<sup>(٥)</sup>.

والجدير بالذكر أن البندقية وصربيا وألبانيا، قد شجعت إمارة قرمان على مهاجمة العثمانيين، بغرض إبعاد السلطان مراد الأول عن التحالف البلقاني، فوافقت قرمان على ذلك، وقامت بالاستيلاء على معظم الأراضي التي اشتراها من إمارة حميد. وقد خشي مراد

(1) Shaw, Hist of the Ottoman Empire, Vol. I. pp. 20-21.

(2) Ibid., p. 21.

(٣) من القوى التي ظهرت في التخموم الغربية للأناضول في النصف الثاني من القرن الثالث عشر إمارة أولاد كرميان، وقد ظهرت بتأثير عوامل كثيرة، وتنص كل مصادر القرن الرابع عشر التاريخية على أن إمارة كرميان كانت ذات بأس وخطورة أذعن لها كثير من إمارات الأناضول وخافتها، بل تنص على أن بيزنطة كانت تدفع لها جزية سنوية. أنظر محمد فؤاد كوبرلي: قيام الدولة العثمانية، ص ٧٢ - ٧٣.

(4) Shaw, op. cit., p. 21.

محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٤٦؛ القرمانى: أخبار الدول، ص ٢٩٩.

(5) Shaw, op. cit., Vol. I. p. 21.

من التركمان الموجودين في جيشه والذين يشكلون معظمه، إذ من الممكن ألا يساندوه في حربه ضد إمارة تركمانية من جنسهم وهي قرمان. ولتفادي ذلك أحضر مراد قوة أخرى تتألف بصفة خاصة من قوات أرسلها أمراء البلغار التابعين له، وبذلك استخدم قوات مسيحية لمحاربة إمارة تركمانية مسلمة. وبهذه الطريقة، انتصر مراد على إمارة قرمان، واستعاد ما فقدته في إمارة حميد، وفرض نفوذه على كثير من أراضي الأناضول. ويقال إن العثمانيين استخدموا المدافع والبنادق في حروبهم ضد قرمان، وقد استخدمها مراد بنجاح جعله ينقلها إلى أوروبا، حيث أظهرت كفاءة عالية ضد جيوش الأمير الصربي لازار المسيحية<sup>(١)</sup>. وفي أثناء عودة مراد إلى الغرب الأوربي، استولى على أودية كوبروسو ومانجات شاي Mangat Cay من إمارة تكة Teke ف ليكيا، وبذلك ربط مراد ممتلكاته الجديدة بالبحر الأبيض المتوسط، ونال حرية الوصول إليها عن طريق هذا البحر<sup>(٢)</sup>.

### معركة كوسوفا (قُصُوه):

وبعد أن أقر السلطان مراد الأول أموره في الأناضول، عاد إلى أوروبا لمواجهة التحالف البلقاني. ودارت المعركة الفاصلة في كوسوفا في ١٥ يونيو سنة ١٣٨٩ غرب بريشتينا، وبين متروفتش وسكوبلي الواقعة على جانبي نهر فردار في جنوب صربيا. ومن بين الأمراء البلقانيين الذين رافقوا أمير صربيا لازار أعظم الأمراء الصربيين لمواجهة الأتراك العثمانيين: ملك البوسنة ثفرتكو الأول Tvrtko 1 (١٣٥٣ - ١٣٩١)، وفوك برانكوفتش زوج ابنة لازار، وأمير الاشيا مركيا الكبير، وجورج كاستريوتا المسمى إسكندر بك أحد أمراء ألبانيا، كما اشترك في تلك المعركة الكرواتيون والبلغار والمجريين. ولم يشترك الإمبراطور البيزنطي يوحنا الخامس، ليس بسبب خضوعه الإسمي للسلطان مراد، ولكن من جراء عجزه عن الوصول إلى مكان المعركة، حتى لو كان يمتلك جيشا قويا<sup>(٣)</sup>.

وفي معسكر التحالف البلقاني دارت المناقشات الطويلة بين الأمراء، فنصح البعض منهم بتوجيه هجوم ضد الأتراك في الليل، للانتقام من كارثة ماريتزا التي حدثت منذ ست وعشرين سنة، ولكن البعض الآخر عارض هذه الخطة لما فيها من مخاطرة، في الوقت الذي

(1) Shaw, Hist. of the Ottoman Empire, Vol. I, p.21.

(2) Ibid., P. 21.

(3) Ibid., p. 21. Clissold, A short Hist of Yugoslavia, p. 100.

يمكن الأتراك من الهرب تحت جثث الظلام. وقد استمرت المناقشات حتى ظهور الفجر، وعندئذ سقط مطر ثقيل رفع التراب وجعل الجو صافياً أفاد منه الأتراك، ورأوا في ذلك علامة من الله على الوقوف بجانبهم<sup>(١)</sup>.

وعلى أية حال، قاد مراد وإنكشاريته الجيش العثماني بنفسه، وقاد الميمنة إبنه بايزيد، وقاد الميسرة إبنه يعقوب. وكان يرفقة مراد الأمير قنسطنطين البلغاري حاكم قوستندل Kostendil، وعدد من الأمراء الصربيين المنافسين للأمير لازار، وعدة أمراء تركمان من الأناضول وأتباعهم، وخاصة أمراء صاروخان وأيدين ومنتشا وحמיד وتكة<sup>(٢)</sup>، ولم يكن هذا سوى مظهراً لتبعية كافة أمراء الأناضول للسلطان العثماني بصفته قائداً للغزاة (المجاهدين) جميعاً.

وقد اختلفت المصادر إختلافاً بيناً حول عدد الجيوش التي اشتركت في المعركة، ويدو أن التحالف البلقاني كان يضم حوالي مائة ألف رجل، في حين كان جيش مراد لايزيد عن ستين ألف على أفضل الأحوال<sup>(٣)</sup>. وفي البداية أحرز لازار وحلفاؤه النصر، وفي أثناء احتدام المعركة، لقي مراد حتفه بالخدعة، وذلك أن نبيلاً صربياً صغيراً فاق في شجاعته أي رجل آخر يدعى ميلوش كويلتش Milosh Kobilich، انفصل عن الجيش المسيحي، كما لو أنه قد هجره، ووقع في وسط الجيش التركي، وعندما قبض عليه الأتراك طلب مقابلة السلطان قائلاً: «أرغب في أن أرى السلطان لأخبره بسر احتفظ به يمكنه من إحراز النصر في هذه المعركة، ولهذا السبب هجرت الجيش». وعندما قدمه الأتراك إلى السلطان مراد، أشار مراد بيده للنبيل الشاب للاقترب منه، فاندفع النبيل، وعندما أصبح قريباً من السلطان بدرجة كافية، استل خنجره، وطعنه طعنة مميتة، فقبض عليه حراس مراد وحمله فؤوسه ومزقوه إرباً. وتولى قيادة الجيش العثماني بعد موت مراد إبنه الأمير بايزيد الأول الذي أحرز نصراً باهراً، وجرح لازار، ووقع أسيراً في أيدي العثمانيين فقتلوه ومعظم نبلائه<sup>(٤)</sup>.

(1) Creasy, Turkey, P. 35.

(2) Shaw, op. cit., p. 21.

(3) القرمانى: أخبار الدول وآثار الأول، ص ٣٠١،

Doukas, Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks, pp. 60-62; Ostro-gorsky, op. Cit., pp. 546-547, Spinka, op. cit., p. 151, Creasy, Turkey, p. 36.

وتعتبر معركة كوسوفا التي عرفت باسم «حقل الطيور السوداء» Field of the Black-birds أول نجاح أحرزه العثمانيون ضد الجيوش الأوربية المتحالفة، وبعبارة أخرى دمر العثمانيون آخر مقاومة منظمة في البلقان، فتحت شمال الصرب للغزو العثماني، وأصبحت صربيا مثل بلغاريا خاضعة للدولة العثمانية<sup>(١)</sup>.

وعلى أية حال، انتصر الأتراك وسقط في المعركة زهرة الأرستقراطية الصربية، وأصبحت الإمبراطورية الصربية حطاما، ولم تستعد نفسها بعد ذلك، وتركت الكارثة انطبعا عظيما في الأجيال التالية، وأوحت الهزيمة بأعظم القصائد الشعرية في أوروبا، ولا زال يجرى الاحتفال بذكرى هذه المعركة في صربيا<sup>(٢)</sup>. ويقول المؤرخ شفيل<sup>(٣)</sup> Schevill: «ظهرت مئات الأغاني في السنوات المتأخرة، وأخذ كل منشئ جديد يفخر بالإسهام في تفاصيل جديدة، تزيد ثراء عما قاله أسلافه، فأصبحنا نسمع عن البطولة والخيانة والقتلة يصنعون ملاحم وطنية احتفظ بها الصرب حية في نفوسهم لقرون». ودارت حول معركة كوسوفا الأساطير التي استطاعت أن تحول الهزيمة إلى انتصار معنوي، فتقول تلك الأساطير أن أعداد القتلى من الصرب بلغ سبع وسبعين ألف. وأنه عندما وصلت أنباء مراد إل الغرب الأوربي، أدى الناس صلاة الشكر في الكنائس في فرنسا وإيطاليا، احتفالا بانتصار الصليب على الكافرين، على حين أن النتيجة الحقيقية لمعركة كوسوفا تعني أن صربيا فقدت استقلالها، وصارت ولاية تابعة للإمبراطورية العثمانية، التي سمحت لستيفن لازار يفتش (١٣٨٩ - ١٤٢٧) ابن لازار أن يحكم صربيا الضعيفة، شريطة أن تكون خاضعة خضوعاً تاما للعثمانيين<sup>(٤)</sup>. وقد ظلت إمارة صربيا خاضعة للعثمانيين لمدة سبعين عاما، وتدفع الجزية لهم. ونصل إلى القول إنه بعد أن عبر أورخان إلى أوروبا، جاء مراد وأكد حكم العثمانيين في أنحاء الجنوب الشرقي من أوروبا، فيما عدا إمارات البوسنة وألبانيا وجزء من اليونان<sup>(٥)</sup>.

(1) Shaw, op. cit., pp, 21-22.

(2) Clissold, op. cit., p. 100.

(3) The Hist. of the Balcan Peninsula, pp. 187-188.

(4) Nicol, op. cit., pp. 65-66, Clissold, op. cit., p. 100, Ostrogorsky, op. cit., p. 547, Castellan, op. cit., p. 56.

(5) Shaw, op. cit., p. 22.

كان حكم السلطان مراد الأول (١٣٦٠ - ١٣٨٩) هو البداية الحقيقية لنشأة الأسطول العثماني، فألى جانب سياسته في التوسع الإقليمي في البلقان، ونقله عاصمة الدولة إلى أدرنه في أوروبا، بنى هذا السلطان عددا من السفن، ونظم قوة عسكرية من البحارة وأقام دارا للصناعات البحرية في كل من أزمير وكميليك، وأنشأ ثكنات عسكرية للبحارة في غاليبولي<sup>(١)</sup>.

ولاشك أن مراد قد وجه مصائر العثمانيين لمدة ثلاثين سنة تقريباً بحكمة سياسية لا يضاويه فيها أحد من ساسة عصره، وفي تلك الفترة خاص بنفسه ٣٧ حرباً انتصر فيها جميعاً. وحتى الآن لم يتبوأ مراد مكانته الحقبة باعتباره من أبرز ساسة آل عثمان وقادتهم العسكريين. فحين نقارن الصعاب التي واجهها والمشكلات التي تغلب عليها بالأعمال التي أنجزها خلفاؤها نجده نداءً لهم إن لم يتفوق عليهم. فقد قيض لفتوحاته أن تؤمن مستقبل الدولة العثمانية طيلة خمسة قرون، ولم يخمد نشاطه وحماسه للحرب، وحتى في شيخوخته لم يفقد شيئاً من قدرته ودهائه، وحصل على ثقة الجميع سواء من الأعداء أو الأصدقاء. حقيقة إن عثمان قد أوجد جنساً، وأن أورخان بنى دولة، إلا أن مراد هو الذي أرسى قواعد الإمبراطورية العثمانية<sup>(٢)</sup>.

(١) عبد العزيز الشناري: الدولة العثمانية، جـ ٢، ص ٨٨١ - ٨٨٢.

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، ص ٥٠، يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، جـ ١، ص ١٠٢.

## الفصل الثالث

الإمبراطورية العثمانية في عهد بايزيد الأول

(١٣٨٩ - ١٤٠٣)

- تيمور لنگ.
- حملة نيقوبوليس الصليبية.
- نشاط بايزيد بعد موقعة نيقوبوليس.
- معركة أنقرة.

عقب وفاة السلطان مراد كان من بين أبنائه الموجودين على قيد الحياة بايزيد ويعقوب، وكان الأخير الإبن الأكبر، يمثل كبار الشخصيات التركمانية فى البلاط العثماني، وهى صاحبة القوة والنفوذ، أما بايزيد فهو ابن سيدة يونانية، وكان يمثل العناصر المسيحية التى اعتنقت الإسلام حديثاً، وهى العناصر التى ولاها مراد مراكز رفيعة. وقد استطاع بايزيد الوصول إلى العرش بعد أن قام بقتل أخيه يعقوب خشية أن ينازعه الملك، ولم يكن ذلك بسبب قوة أنصاره، ولكنه كان على مسرح الأحداث فى كوسوفاء، فى الوقت الذى كان أخوه يعقوب يقوم بتجنيد التركمان فى الأناضول<sup>(١)</sup>. وبوصول بايزيد إلى العرش، بدأ التقليد الدموي العثماني القاضي بقتل الإخوة إلقاءً لمناعتهم، وهو التقليد الذى برره الفقهاء، وما لبث أن أصبح بمثابة قانون فى عهد السلطان محمد الفاتح. ورغم أن هذا التقليد ينم عن القسوة الشديدة، فإنه حقق الهدف المرجو منه، إذ لم تتأثر الدولة العثمانية بالصراعات الأسرية لمدة خمسة قرون<sup>(٢)</sup>. وبعبارة أخرى، فقد أصبح قتل الإخوة قاعدة منتظمة عند السلاطين العثمانيين بعد الجلوس على العرش، طبقاً للمبدأ القائل بأن التمرد على الحكومة يؤدي إلى التمزق، إلى حد أنه يجدر التخلص فى أول فرصة ممكنة ممن يحتمل أن يظالبوا بالعرش<sup>(٣)</sup>.

وفى أثناء انشغال بايزيد فى أوروبا، إتحدت الإمارات التركمانية الموجودة فى جنوب غربى الأناضول، مع إمارة قرمان والقاضي برهان الدين - وتضم إمارته قيصرية وسيواس - الذى استولى على مساحات ضخمة من وسط الأناضول، وتمتع بنفوذ قوى بين الرعاة التركمان فى الشرق، فى تحالف ضد العثمانيين. وقد استطاع هذا التحالف استعادة مساحات كبيرة من الأراضي التى استولى عليها مراد. ونتيجة لذلك التهديد، ويتأثير من العناصر المسيحية الموجودة فى بلاط بايزيد حول بايزيد انتباهه إلى الشرق طيلة حكمه، وتخلى بصورة كبيرة عن تقاليد «الغزاة المجاهدين» التى اتبعها أسلافه<sup>(٤)</sup>، خاصة أن تلك

(1) Shaw, op. cit., p. 23.

(٢) عبد الرحيم مصطفى: فى أصول التاريخ العثماني، ص ٥٠ - ٥١.

(٣) ول ديورانت: قصة الحضارة، الجزء الخامس من المجلد السادس، ترجمة محمد على أبو درة، مراجعة على أدهم (القاهرة ١٩٧٢)، ص ٥٦.

(4) Shaw, op. cit., pp. 28-29.



الإمارات قد أعلنت أنها لن تسمح بحدوث أى تغيير فى الموازين الحالية بين الإمارات الأناضولية، ولن تسمح بتحقيق الوحدة التركية<sup>(١)</sup>.

والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن، وهو كيف يحصل السلطان بايزيد على القوة التى تمكنه من التغلب على الأمراء الأناضوليين الأقوياء؟ لقد تجنبهم أسلافه بسبب تقليد «الجهاد» الذى قاموا به من ناحية، ولأنهم كانوا أكثر قوة من ناحية أخرى. ولكن بايزيد لم يتبع هذه السياسة التى سار عليها أسلافه، بل قرر مهاجمة هؤلاء الأمراء وتدميرهم والقضاء عليهم بدلا من مهادنتهم. ولكى ينجز بايزيد هذه السياسة، رأى أن يوجه انتباهه إلى أوربا أولا، ثم يلتفت بعد ذلك إلى الأناضول، وكان فى نيته أن يستغل النصر الذى أحرزه فى كوسوفا وانتزاعها من ستيفن لازار يفتش، ولكنه بدلا من ذلك سمح لستيفن بالبقاء فى السلطة، وعقد معه اتفاقية تعهد ستيفن بموجيها بدفع جزية سنوية، وتقديم مساعدة حربية للسلطان فى الأناضول. وقد ختمت الاتفاقية بزواج بايزيد من مارياديسينا - Maria Despi na أخت ستيفن، الأمر الذى أدى إلى تدفق جديد من المستشارين المسيحيين فى البلاط العثماني، وزيادة النفوذ البيزنطى والمسيحى فى السنوات القليلة القادمة<sup>(٢)</sup>. وحتى يضمن بايزيد عدم قيام الأمراء والحكام الأوربيين بانتهاز فرصة قيامه بحملة فى الأناضول، أرسل قواده الموجودين على الحدود فى غزوات واسعة النطاق ضد البوسنة، التى كانت قد دخلت فى منازعات إقطاعية، وأصابها الضعف بعد وفاة ملكها تفرتكو الأول. وهناك وصف للبوسنة آنذاك كتبه الفرنسى جيل لوفوفيه Gille le Bouvier وجمع فيه آراء رحالة آخرين، وهو يعطى صورة تعسة للبوسنة: «إنهم يعيشون على التهام الحيوانات الضارية، وعلى التقاط السمك من الأنهار، وعلى التين وعسل النحل الذى لديهم منه مقادير كافية، وهذا هو كل طعامهم، كما أنهم ينطلقون فى عصابات من غابة إلى أخرى لقطع الطريق<sup>(٣)</sup>»، وما لبث بايزيد أن اكتسح الاشيا (الأفلاج)، وبذلك صارت البوسنة ووالاشيا تابعتين - لأول مرة - للعثمانيين فى سنة ١٣٩١م.

(١) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ج١، ص ١٠٣.

(2) Shaw, op, cit., p. 29, Spinka, A Hist of Christianity in Balkans, p. 152, Greasy, Turkey, p.37.

(٣) مالكولم: البوسنة، ص ٥٢.

وواصل بايزيد غزواته فى مناطق مقدونيا الجبلية، فاستولى على سكوبيجى، واستجلب آلاف التركمان وأسكنهم وادى فردار، وذلك لتكوين قاعدة أمامية جديدة ينطلق منها للغزو فى الغرب والشمال، فضلا عن عرقلة أى مجهود حربى يقوم به الأمير الصربى ستيفن لازار يفتش أو الأمراء المسيحيون التابعون الآخرون أثناء انشغال الصرب، فقد اعترف بايزيد بالأمير الصربى فوك برانكوفتش المنافس لستيفن حاكما لبرشتينا، كما سمح لابن برانكوفتش وخليفته جورج برانكوفتش (١٤٢٧ - ١٤٥٦) بمناهضة ستيفن حول حق السيطرة على كل صربيا<sup>(١)</sup>.

وفى تلك الأثناء، استولى التركمان - وهم من صاروخان - على سكوبيجى، وقادهم زعيمهم إلى ألبانيا، واستولى على سكوتارى، وديلكنجو Dulcigno، وكرويا (آق حصار) Kroya وذلك بين سنتى ١٣٩٣ و ١٣٩٥م. حدث هذا فى الوقت الذى استولت فيه البندقية على اليسيو، ودورازو ودريفاستو، من عائلة بالسا Balsa Family، مقابل مساعدتها ضد العثمانيين، ومن ثم بدأت المنافسة بين العثمانيين والبندقية فى ألبانيا ومنطقة البحر الأدرياتي. على أن بايزيد لم يقف ساكنا، إذ قام بغزو ألبانيا، وفى المناطق التى استولى عليها جعل حكامها المحليين أتباعا له، واشترط عليهم تقديم المساعدة الحربية له ضد البنادقة وفى الأناضول<sup>(٢)</sup>.

وفى تراقيا بدأ يزيد عملية «تريك» أدرنه، وذلك ببناء المساجد والمدارس والبيوت، وتوطين التركمان فى ضواحيها، وإنشاء إدارة منظمة. كما أحاط بايزيد القسطنطينية بسلسلة من القلاع والحصون، وأنهى كل حكم بيزنطى خارج أسوار المدينة. وآخر عمل قام به بايزيد قبل أن يتوجه إلى الأناضول، أن استقبل ممثلين عن راجوزه وجنوه، وقبل اعترافهم بالتبعية له ودفع جزية سنوية، فى مقابل السماح لهم بالاستمرار بمزاولة التجارة فى ممتلكاته<sup>(٣)</sup>.

وكان على السلطان بايزيد أن يواجه إمارة قرمان فى الأناضول، فقد استغلت فرصة انشغاله فى البلقان، واستولت على قونية وبعض أملاك العثمانيين فى الأناضول، واعتبرت

(1) Shaw, Hist of the Ottoman Empire, Vol. I, p. 29.

(2) Ibid., p. 29.

(3) Ibid., p. 29.

نفسها الوريثة الشرعية لدولة سلاجقة الروم، وصاحبة السلطة على الإمارات التركية الأخرى. فأُسرع بايزيد إلى آسيا الصغرى لمحاربة علاء الدين صاحب قرمان بجيش يتألف أساساً من القوات التابعة من المسيحيين الصربيين والبيزنطيين وغيرهم، إذ خشى من التركمان المسلمين الموجودين في صفوف جيشه أن يستأوا من مهاجمة إخوة لهم في الدين. وفي البداية تغلب بايزيد على الإمارات الصغيرة المتحالفة مع قرمان: صاروخان وأيدين ومنتشا، وضمها إليه في خلال صيف سنة ١٣٩٠. فردت قرمان عليه بالتحالف مع القاضي برهان الدين أمير سيواس والإمارات التركمانية الباقية. وعلى الرغم من المقاومة التي أبدتها هذا التحالف ضد بايزيد، إلا أنه استطاع الاندفاع في وسط الأناضول في خريف وشتاء عام ١٣٩٠، وأخضع معظم الإمارات الباقية، بما فيها حميد، وتكه، وكرميان، واستولى على اسكشيير Acsehir، ونجدة Nigde، كما استولى على قونية من قرمان، الأمر الذي جعل قرمان في سنة ١٣٩١ تتقدم إلى بايزيد بمقترحات تدعو إلى عقد السلام بينهما، فقبلها بايزيد خشية أن يتحالف أتباعه التركمان مع القاضي برهان الدين<sup>(١)</sup> صاحب سيواس.

وعلى الرغم من سقوط قرمان في يد العثمانيين، لم يكن معناه أن قرمان قد خضعت خضوعاً للعثمانيين، وما يؤكد ذلك أن الأسرة الحاكمة في قرمان عادت إلى الحكم بعد دخول تيمور لنك في آسيا الصغرى. ومع أن هذه العودة لم تكسب إمارة قرمان القوة التي تميزت بها قبل دخول العثمانيين، فضلاً عن أنها لم تعد عاملاً سياسياً فعالاً في آسيا الصغرى، إلا أنها استمرت على الرغم من هذا حتى بعد سقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣ تقاوم سيطرة العثمانيين الكاملة على آسيا الصغرى<sup>(٢)</sup>، وتظل المنافس الحقيقي لهم.

عاد بايزيد إلى أوروبا في شتاء سنة ١٣٩١، بعد أن علم أن الإمبراطور البيزنطي يوحنا الخامس باليولوجوس قد استغل فترة غيابه في الأناضول، وقام بإصلاح أسوار وأبراج مدينة القسطنطينية، وأضاف إليها بعض التحصينات. فما كان من بايزيد إلا أن هدده بسمل عيني ابنه ما نويل الموجود في معسكر العثمانيين وإعادته إليه أعمى، فخاف الإمبراطور على ولده،

(1) Ibid., pp. 29-30.

(2) محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي، ص ٣٨ - ٣٩.

وانصاع لما طلبه منه بايزيد. ومات الإمبراطور حزناً بعد ذلك في فبراير سنة ١٣٩١، ولم يبلغ سن الستين<sup>(١)</sup>. واستطاع مانويل الهروب سرّاً إلى القسطنطينية، واعتلى العرش البيزنطي (١٣٩١ - ١٤٢٥)، ثم بدأ في مقاومة السيادة العثمانية، فرفض طلباً لبازيد يتضمن رفع قيمة الجزية وتأسيس حي إسلامي في القسطنطينية. وعندئذ شدد بايزيد حصاره على القسطنطينية، الأمر الذي اضطر مانويل الثاني إلى الانصياع لما طلبه بايزيد، فوافق على هدم عدة مئات من البيوت لتأسيس حي تركي في عاصمته، وإنشاء محكمة إسلامية، ومسجد في قطاع من المدينة صار يعرف باسم سركيسي Sirkeci، كما سمح ببقاء حامية عثمانية قوامها ستة آلاف تركي في حي جالاتا بحذاء الشواطئ الشمالية للقرن الذهبي، وهو الحي الذي كانت تشغله الجنوبية من قبل، وزيدت الجزية التي كانت تدفعها الإمبراطورية للسلطان، بما في ذلك ضريبة العشر لدخل الإمبراطور من بساينه خارج المدينة<sup>(٢)</sup>.

وقد اضطر الإمبراطور البيزنطي مانويل باليولوجوس إلى قضاء معظم السنة الأولى من حكمه في خدمة بايزيد أثناء زحفه في آسيا الصغرى، وظل في معسكر السلطان إلى أن سمح له بالرجوع إلى القسطنطينية، ولكنه حذره قائلاً: «إذا أردت أن تنفذ أوامري، إغلق عليك أبواب مدينتك، واحكم داخلها، فكل ما وراء الأسوار ملك لي»<sup>(٣)</sup>. والحقيقة أنه لم يبق من الأماكن الهامة خارج السيطرة العثمانية سوى القسطنطينية وسالونيك والمورة، ولم يتمكن العثمانيون آنذاك من مهاجمة القسطنطينية لعدم امتلاكهم قوة بحرية قوية تمكنهم من قطعها عن الإمدادات الخارجية<sup>(٤)</sup>.

(1) Doukas, Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks, pp. 81-22, Shaw, op. cit., p.31, Nicol, op. cit, p.66, Vasiliev Hist of the Byzantine Empire, Vol. II, p.625.

(2) Doukas, op. cit., pp. 82-83, Shaw, op. cit., p. 31, Lodge, The close of Middle Ages, p. 504, Hearnsey, op. cit., p. 230.

(3) Stavrianos, The Balkans since 1453, p. 477, Nicol, op. cit., p. 66 Derekson, The Crescent and the Crose, p. 118.

(4) Nicol, op. cit, p. 68.

وقد مهد غزو مقدونيا الطريق للعثمانيين للاندفاع فى سهول تساليا التى استولى عليها القائد العثماني إيقرينوس بك فى بداية سنة ١٣٩٣، وسقطت لاريسا وتحوّلت إلى عاصمة إقليمية لىنى شهر. ثم ضغط إيقرينوس على الدول اللاتينية فى أثينا وآخيا وسالونا ومستعمرة البندقية فى مودون وكورون فى المورة. كذلك قام إيقرينوس بغزوات واسعة المدى فى الشمال فى البوسنة والمجر، للحصول على الغنائم<sup>(١)</sup>.

وقد سبق القول إن بيزنطة وبلغاريا اعترفتا بالسيادة العثمانية، ولكن أقوى دولة أوربية مستقلة كانت قادرة على إيقاف تقدم العثمانيين، كانت فى الحقيقة مملكة المجر، التى امتد حكمها المباشر جنوباً إلى دالماتيا وبلغراد، وفرضت نفوذها على أميرى والاشيا ومولدافيا. وقد بذل الملك سيجسموند (١٣٨٧ - ١٤٣٧) جهوداً كبيرة لتحريك المسيحية ضد العثمانيين، ولكن ملوك وحكام الغرب الأوربي كانوا مشغولين بمشاكلهم الخاصة. وعلى الرغم من أن المجر آنذاك قد مزقتها الانقسامات الداخلية بين النبلاء الإقطاعيين والحكومة المركزية من جهة، وبين الفلاحين الأرثوذكس والنبلاء والحكام الكاثوليك من جهة أخرى، فقد بذل ملكها سيجسموند ما بوسعه للوقوف ضد العثمانيين، بدليل أنه استولى على نيقوبوليس ثم تحرك إلى بلغاريا، الأمر الذى جعل بايزيد يعود من حملته الأناضولية لمواجهة الموقف. وقد استرد بايزيد نيقوبوليس فى عام ١٣٩٢، وعزل تابعه شيشمان الذى كان قد وافق حديثاً على الانضمام إلى المجرين، وسقطت العاصمة البلغارية ترنوفو Trnovo فى ١٧ يوليو سنة ١٣٩٣، واستولى على معظم بلغاريا فيما عدا دوبروچه (دوبروتشا) Dobruca، وودين Vidin و اللتان بقيتا تحت سيادة أميرين بلغارين صغيرين<sup>(٢)</sup>. وعلى هذا فإن الحكم العثماني المباشر فى بلغاريا جعل العثمانيين على اتصال مباشر مع المجر. وما يجدر ذكره أن بايزيد بدأ وقتئذ فى تنفيذ سياسة جديدة تقوم على تخليه عن النظام العثماني القديم الذى يتمثل فى مباشرة حكم البلاد المفتوحة من خلال أمراء تابعين، واستبدله بنظام جديد يقوم على الحكم المباشر والخضوع للسلطة المركزية<sup>(٣)</sup>.

(1) Shaw, Hist. of the Ottoman Empire, p. 31.

(2) Ibid., pp. 31-32. (4) Nicol, op. cit, p. 68.

(3) Shaw, op. cit., p. 32.

أدت التهديدات المستمرة ضد ممتلكات السلطان بايزيد إلى أن يتحرك جيعة وذهابا بين الأناضول وأوروبا، ولذلك أطلق عليه لقب «يلدروم» أى الصاعقة (Thunderbolt) Yildi- rim بسبب سرعة حركته وزحفه. ففي عام ١٣٩٣ - ١٣٩٤، توجه بايزيد إلى الأناضول، بسبب ازدياد نفوذ القاضى برهان صاحب سيواس، وخوفا من الغازى المغولى تيمور لنك (أى تيمور الأعرج) الذى بات يهدد أملاك العثمانيين فى الشرق<sup>(١)</sup>. والحقيقة أنه بعد أن عاد بايزيد إلى أوروبا، خرج الأمراء التركمان فى الأناضول على طاعته، وجهزوا حركة مقاومة جديدة ضده، وطلبوا المساعدة من تيمور لنك. ولهذا عاد بايزيد إلى بروسة ليكتل قواته ضد هؤلاء الأمراء، خاصة أن القاضى برهان الدين قد ازداد نفوذه، بعد أن استولى على أماسيا ونجدة وقيصريّة، ثم وصل إلى ساحل البحر الأسود فى عام ١٣٩٣. وعندئذ رأى بايزيد أن يوقف برهان الدين عند حده حفاظا على هيئته ونفوذه، فتقدم ناحية أماسيا، فتقهقر برهان الدين إلى سيواس، بعد أن أدرك أنه لا قبل له بهزيمة العثمانيين فى معركة مفتوحة، كما أن معظم التركمان الذين انضموا إليه تخلوا عنه، وعادوا لطاعة العثمانيين<sup>(٢)</sup>.

### تيمور لنك:

ومن حسن حظ البيزنطيين والقوى المسيحية الأوربية وقتذاك أن تعرضت الدولة العثمانية لخطر داهم من الشرق، وهذا الخطر هو تيمور لنك أعظم حاكم مغولى قوة منذ زمن حنكيزخان، وواحد من أهم الغزاة فى تاريخ العالم. وقد ولد تيمور فى أبريل سنة ١٣٣٦ فى كيش (شهرى سيز الحالية) التى تبعد خمسين ميلا جنوب سمرقند فى بلا ما وراء النهر وهو ينتمى إلى عائلة نبيلة فى المنطقة التى كان يسيطر عليها جنكيزخان، وإن كان ابن عربشاه يعتقد أن تيمور ينتمى إلى أصول متواضعة. وقد بدأ نجم تيمور فى الصعود ابتداء من عام ١٣٦٠، وأصيب فى أثناء حروبه بجرح سبب له العرج طيلة حياته، مما جعلهم يطلقون عليه اللقب «نمارسى» (لايخ) أى الأعرج، وبذلك كان شديد الميل

(1) Ibid., p. 32, Chevall, op. cit., p. 188. Destruction of the Greek Empire, p. 132.

(2) Shaw, Hist. of the Ottoman Empire, p. 32.

لإلحاق الأذى بالآخرين<sup>(١)</sup>. وقد أجمع المؤرخون على أن حملاته العسكرية قد صاحبها الاغتصاب والنهب والوحشية والسلوك القاسى، وأينما توجه رجاله أحوالوا البلاد إلى صحراء جرداء عارية، «فلا يسمع نباح كلب، ولا سقسقة طائر، ولا صراخ طفل»<sup>(٢)</sup>.

وفى سنة ١٣٦٩ أضحي تيمور لك سيداً على جميع البلاد التى كان يحكمها فرع جغتاي من المغول، ثم أخذ يمد ممتلكاته بما شنه من حروب لا تعرف الرحمة أو الشفقة<sup>(٣)</sup>. ويذكر المؤرخ أرنولد توينبى أن تيمور لك وقع فى أفدح الأخطاء فى حياته، فبدلاً من تكريس جهوده لإعادة إنشاء الإمبراطورية الأوربية الآسيوية التى أقامها جنكيزخان، والعمل الشاق المتعلق بفرض السلام على القبائل الرحل المختلفة، والتى عاشت على الترحل فى هذا الإقليم الشاسع، فإنه وزع جهوده، بل كل إهتماماته إلى الغرب والجنوب، وروسيا، والقوقاز، وإيران، والهند، بل سوريا حتى أضاع وقته فى الحملات الحربية المدمرة والمشيرة للدعر، وضم الأراضى، وهو الأمر الذى ذهب أدراج الرياح فى لحظة وفاته تقريباً<sup>(٤)</sup>.

وقد ظهر خطر تيمور لك فى الشرق الأوسط فى سنة ١٣٨٣، فاستولى فى سرعة مدهشة على بلاد ما وراء النهر، وجعل سمرقند عاصمة لبلاده، وما لبث أن احتل خراسان وهرات وطبرستان وجرجان. ثم زحف إلى مدينة تبريز واستولى عليها سنة ١٣٨٦ وطرد حاكمها قرا محمد التركمانى، وحينما ترك تيمور لك تبريز أواخر سنة ١٣٨٨، أسرع قرا محمد التركمانى واستعاد بلاده<sup>(٥)</sup>.

وفى سنة ١٣٩٣ هاجم تيمور لك بغداد، فبعد أن اكتسح فارس وقتل حاكمها شاه منصور فى مايو من نفس العام، لم يشعر السلطان أحمد بن أويس الجلائرى حاكم بغداد

(1) Ibid., p. 32.

برتولد شولر: العالم الإسلامى فى العصر المغولى، ترجمة خالد أسعد عيسى، ومراجعة د. سهيل زكار (دمشق ١٩٨٢)، ص ١٢١، جوزيف داهموس: سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى، ترجمة د. محمد فتحى الشاعر (القاهرة ١٩٨٧)، ص ١٨١.

(2) Ostrogorsky, Hist of Byzantine State, p. 556.

(٣) رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٧٧٢ - ٧٧٣.

(٤) جوزيف داهموس: سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى، ص ١٨٣.

(٥) حكيم أمين عبد السيد: قيام دولة المماليك الثانية (القاهرة ١٩٦٧)، ص ١٢١ - ١٢٢.

(١٣٨٢ - ١٤١٠) إلا وتيمور يقترب من بغداد ومن غربيها، فأسرع السلطان أحمد بالرحيل من بغداد بأمواله وأولاده، واتجه غرباً لاثناً بالسلطان المملوكى برقوق طلباً للحماية دون أن يبدى مقاومة لتيمور، ودخل تيمور بغداد وقتل أكثر سكانها وخرب أسوارها وجوامعها وأسواقها<sup>(١)</sup>.

ومن بغداد أرسل تيمور لنك إلى القاضى برهان الدين صاحب قيصرية وسيواس فى سنة ١٣٩٣ رسالة سبه فيها، وهدده إن لم يعلن طاعته له. غير أن برهان الدين قطع رءوس كبار رسل تيمور وعلقها فى أعناق باقى الرسل، ثم أرسل نصف الرسل إلى السلطان برقوق والباقيين إلى السلطان العثمانى بايزيد، فرد كل منهما باستعداده لتقديم كل عون لبرهان الدين لمقاومة تيمور لنك<sup>(٢)</sup>.

وفى أكتوبر من نفس العام (١٣٩٣) أرسل تيمور لنك من بغداد سفارة إلى السلطان المملوكى برقوق طالبت بطرد أحمد الجلائرى، وأبلغته أن حدود بلاد تيمور لنك أصبحت تمتد من سمرقند إلى حدود العراق العربى الملاصقة لحدود بلاد دولة المماليك الثانية، وأن أهالى هذه المنطقة يتمتعون بحمايته، وعلى السلطان المملوكى أن يرفعى حدود الجوار. وبرغم أن السلطان المملوكى خالف القواعد المرعية بين الدول وقتذاك، فأمر بقتل رسل تيمور لنك، فإنه كان على حق فى مسلكه مع هذا الداهية الذى لم يكن يؤمن جانبه مطلقاً<sup>(٣)</sup>.

بيد أن تيمور لنك وجد أن بقاءه فى بغداد يعرض قواته لخسارة كبيرة بسبب قلة المؤونة بها. ولذا عبر نهر دجلة واتجه نحو الشمال الغربى ليهاجم أعداءه المماليك فى بلاد الشام وكذلك العثمانيين. فاستولى على ماردين بعد حصار صعب فى مارس ١٣٩٤، ثم اكتسح أرمينية الكبرى، ثم عرج على بلاد قرايوسف التركمانى<sup>(٤)</sup> زعيم قبيلة قرايوللو

(١) أرمنيوس فامبرى: تاريخ بخارى، ترجمة د. أحمد محمود الساداتى، مراجعة د. يحيى الخشاب (القاهرة ١٩٦٥)، ص ٢٢٨ - ٢٢٩، جوزيف داهموس: المرجع السابق، ص ١٨٥، حكيم أمين: المرجع السابق، ص ١٢٢ - ١٢٣.

(٢) حكيم أمين: المرجع السابق، ص ١٢٤ - ١٢٥.

(٣) حكيم أمين: المرجع السابق، ص ١٢٥ - ١٢٦.

(٤) ظهر التجمع القرايوللى أو «الشاة السوداء» من العناصر التركمانية التى اضطرتها الغزوات المغولية إلى التحرك صوب الشرق. ووسطوا سلطتهم شيئاً فشيئاً على أذربيجان والأطراف الشرقية لشبه جزيرة الأناضول. كان قرا محمد يعمل فى خدمة السلطان أويس الجلائرى، غير أن ابنه قرا يوسف قام =



«الشاة السوداء»، واكتسح بعدها بلاد الجراكسة فى شمال شرق البحر الأسود. وحين وصلت هذه الأخبار إلى القاهرة أسرع السلطان برقوق بإعداد جيش ضخم لمحاربة تيمور لنك، وسار على رأس هذا الجيش، وصحب معه أحمد بن أويس وأتباعه. ويبدو أن تيمور وجد أن الظروف غير ملائمة للدخول فى معركة مكشوفة مع برقوق، فزحف شرقا نحو الهند تاركاً بغداد تحت حكم ابنه ميران شاه<sup>(١)</sup>.

وعلى الرغم من رحيل تيمور لنك، فقد استمر السلطان برقوق يتقدم بالجيش حتى وصل إلى دمشق فى مايو سنة ١٣٩٤ لمواجهة أى هجوم مفاجئ قد يقوم به تيمور لنك ضد حدوده، فى الوقت الذى أرسل السلطان العثماني بايزيد رسله بعرض رغبته فى محالفة السلطان برقوق فى حربه مع تيمور. وكتب برقوق لأحمد بن أويس تقليداً بناية السلطنة ببغداد، وزوده بالسلاح والممالك، فتمكن ابن أويس بفضل الجيش المملوكى من هزيمة ميران شاه واستعادة بغداد<sup>(٢)</sup>.

### حملة نيقوبوليس الصليبية:

ثم عاد السلطان العثماني بايزيد إلى أوروبا لمواجهة الأخطار الجديدة التى تهدده، وفى سنة ١٣٩٣ عقدت البندقية والمجر اتفاقية جديدة ضد الأتراك، وطلب الإمبراطور البيزنطى مانويل الثانى بالبولوجوس المساعدة من أوروبا ضد العثمانيين. وعندئذ ساند بايزيد يوحنا السابع ضد مانويل، كما بدأ فى الحصار الثانى لمدينة القسطنطينية فى عام ١٣٩٥م<sup>(٣)</sup>.

وكان التهديد المباشر للعثمانيين فى أوروبا يأتى من دولة المجر، فقد طلب ملك المجر سيجموند Sigismund المعونة من الغرب الأوروبى عام ١٣٩٥ للوقوف فى وجهه

= بالاستيلاء على تبريز، التى أصبحت عاصمة القراقبوليين، وأعلن نفسه حاكماً مستقلاً. وقد أقدم قرايوسف على مواجهة تيمور ولكنه فر أمامه لائذاً بمصر المملوكية، ولم يسترد تبريز إلا فى عام ١٤٠٦.

أنظر بوزورث: الأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى، ص ٢٣٤ - ٢٣٥.

(١) حكيم أمين: المرجع السابق، ص ١٢٦ - ١٢٧.

(٢) إين لياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ج٢، ص ٣٠٢، حكيم أمين: المرجع السابق، ص ١٢٨ - ١٢٩.

(3) Doukas, Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks, pp. 83-84, Shaw, op. cit., p. 33.

العثمانيين، في الوقت الذي دعا بابا روما بونيفاس التاسع (١٣٨٩ - ١٤٠٣) لحرب صليبية جديدة ضد العثمانيين، ومنح غفرانه لجميع المسيحيين الذين سيتوجهون لإنقاذ المجر والدفاع عن الممالك المسيحية المجاورة لها. وكان رد الفعل سريعاً، فقد أتى الحلفاء الألمان والإنجليز، وتطوع الكثيرون من المرتزقة من أسبانيا وإيطاليا، وأبدى كثير من شباب فرنسا وبورجندي حماساً منقطع النظير للاشتراك في الحملة الصليبية، وتقرر أن يشترك في تلك الحملة يوحنا كونت نيفير Count de Nevers ابن دوق بورجندي، وكان تحت قيادته كونت دي لامانش، وثلاثة من أبناء عمومة ملك فرنسا، وجيمس دي بوربون، وهنري وفيليب دي بار. وزحف الفرنسيون في جماعات من فرنسا حوالى منتصف مارس سنة ١٣٩٦، وفي أثناء عبورهم ألمانيا التحق بهم فردريك كونت هو هنزلرن، ومقدم منظمة التيوتون، ومقدم منظمة فرسان القديس يوحنا برودس فيلابرت دي نايلاك Philibert de Naillac الذي أتى بأسطول بندقى جنوى مشترك. وجاءت جماعات أخرى من النمسا وسكوتلندة وبوهيميا وبولندة وسويسرا، وبصفة خاصة من الاشيا (في جنوب شرق أوروبا وتقع الآن في رومانيا). ومنذ قيام الحملة الصليبية الأولى في أواخر القرن الحادى عشر الميلادى لم تجتمع مثل هذه القوات الضخمة<sup>(١)</sup>. ووصف المؤرخون هذه القوات بالشجاعة، وقالوا في رجالها: لو سقطت السماء، فسوف يرفعونها بأطراف حراهم<sup>(٢)</sup>. وقد قدرت الجموع الصليبية بحوالى مائة ألف احتشدت في بودا Buda، حيث عقد مجلس الحرب العام لأول مرة في صيف عام ١٣٩٦ لرسم الخطط وتكتيكات المعركة<sup>(٣)</sup>.

وتقابل الباحث مشكلة في تحديد حجم الجيش التركى في موقعة نيقوبوليس كما هو الحال بالنسبة للجيش المسيحى. إذ قدمت المصادر المسيحية المعاصرة للقاروى أعداداً مبالغاً

(1) Creasy, Turkey, pp. 38-39, Shaw, op. cit., p. 33, Nicol, op. cit, pp. 69-70, Atiya (Aziz S.), The crusade in the later Middle Ages (New York, 1970), pp. 435-436.

عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق والغرب (القاهرة ١٩٧٢) ص ٩٣ - ٩٥، ونسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣١، ص ٧٦٣.

(2) Creasy, op. cit., p. 39.

(٣) عزيز سوريال: المرجع السابق، ص ٩٥، ونسيمان: المرجع السابق، ج ٣، ص ٧٦٣ - ٧٦٤.

Atiya, op. cit., p. 441.

فيها. ولاشك أنها حاولت تبرير الهزيمة المنكرة التي منى بها الجيش الصليبي بطريقة منطقية. وبالنظر إلى الاستراتيجية التي اتبعها الصليبيون، أو بالأصح نقاط الضعف فيها، فلا يبقى ضرورة إلى ذكر التفوق العددي للأتراك لتفسير انتصارهم. فالواقع إن الإشارة إلى أن عدد الجيش التركي كان حوالي أربعمئة ألف مقاتل، كما ذكر أحد كتاب العصور الوسطى أمر غير مقبول تماماً، وكذلك أيضاً أنه كان مائة ألف مقاتل هو أمر غير واقعي وهو الذي افترضه العديد من العلماء المحدثين. ويميل المؤرخ الحديث ديلبروك Delbruk إلى أن يكون حكماً حذراً في استخدامه الإحصاءات التي قدمها المؤرخون في العصور الوسطى قام بتخفيض أرقامهم عن الجيش التركي إلى ما بين أحد عشر ألفاً، وإثنى عشر ألفاً، ويتيح هذا الرقم ميزة بارزة في القوى البشرية، بالإضافة إلى الموقع الدفاعي الذي سيطر عليها وزاد من قوة تفوق السلطان بايزيد<sup>(١)</sup>.

ولم يكن السلطان العثماني بايزيد غافلاً عما يدور حوله، فحينما بلغته الأنباء بأن الحملة الصليبية احتشدت في بلاد المجر، كان يحاصر القسطنطينية. فبادر على الفور إلى استدعاء كل من في متناول يده من العساكر، وتوجه بهم صوب الشمال إلى نهر الدانوب، وجرى تقدير عدد جيشه بما يزيد على مائة ألف رجل<sup>(٢)</sup>.

على أن فرسان الغرب الأوربي لم يتعلموا شيئاً من تجربة الحروب الصليبية، فحينما جرت مناقشة خطة الحملة في بودا، نصح الملك المجرى سيجسموند باتخاذ خطة الدفاع، إذ كان يعلم ما عليه خصمه من قوة، فاعتقد أنه من الأجدي أن يستدرجوا الأتراك إلى داخل بلاد المجر، ثم يهاجمونهم من مواقع سبق إعدادها وتجهيزها. ولم يختلف الملك سيجسموند عن الأباطرة البيزنطيين أثناء الحملات الصليبية المتقدمة، إذ اعتقد أن سلامة العالم المسيحي تتوقف على المحافظة على مملكته، غير أن حلفاءه كانوا كالحاربين الصليبيين الأوائل يرون اتخاذ خطة هجوم كبير، فسوف يجرى التغلب على الأتراك وتقدم الجيوش المسيحية منتصرة في الأناضول، إلى بلاد الشام وإلى المدينة المقدسة ذاتها<sup>(٣)</sup>. ويبدو هذا واضحاً مما قاله المؤرخ المعاصر للحملة فروازار Froissart: «لقد جاءوا ليقهروا كل تركيا وليواصلوا سيرهم إلى إمبراطورية الفرس.. وإلى مملكة سوريا، والأرض المقدسة». وعلى أية حال، لم

(١) داهموس، سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى، ص ١٩٧ - ١٩٨.

(٢) رنسيمان: المرجع السابق، ج ٣، ص ٧٦٤.

(٣) رنسيمان: المرجع السابق، ج ٣، ص ٧٦٤، عزيز سوريال: المرجع السابق، ص ٩٥.

يعمل القادة الغرييون بنصيحة ملك المجر سيجسموند، ولم يأخذوا محاولتهم هذه مأخذ الجد، وكانت خبرتهم بجغرافية الشرق مهوشة ومضللة<sup>(١)</sup>.

سارت القوات الصليبية المتحدة على محاذاة نهر الدانوب حتى أورسوف، حيث عبروا النهر عند البوابة الحديدية المشهورة التي تؤدي إلى بلغاريا، وكانت في نطاق العثمانيين. ثم توجه الصليبيون إلى مدينة ويدين التي كان يحكمها أميراً بلغاريا اسمه يوحنا سراخيمير، وهو من أتباع السلطان بابزید، ولم يكن بالمدينة إلا حامية تركية صغيرة. فلما وصل الصليبيون إلى المدينة انحاز إليهم يوحنا سراخيمير وفتح لهم الأبواب، ودارت مذبحة في الأتراك. أما المدينة التالية الواقعة على النهر فكانت راهوفا، وهي معقل منيع يحيط به خندق وسوران، وينزل بها حامية تركية ضخمة. فاندفع على الفور لمهاجمتها الفرسان الفرنسيون المعروفون بشدة عنفهم وتهورهم، بقيادة فيليب أرنوا كونت إيه، ويوحنا لى ميتجر المعروف باسم المارشال بوسيكوه Baucicout. وكاد الفرنسيون يتعرضون لخطر الإبادة لو لم يبادر سيجسموند بجلب العساكر المجرية. ولم يكن بوسع الحامية التركية أن تظل على مقاومتها زمنا طويلا أمام الجيش الصليبي بأكمله، وانتهى الأمر باقتحامها، وتعرض للقتل بالسيف جميع سكانها، ومنهم عدد كبير من المسيحيين البلغاريين، ولم يبق الصليبيون إلا على ألف رجل من كبار الأغنياء، احتفظوا بهم للحصول على فدية<sup>(٢)</sup>.

وزحف الجيش الصليبي من راهوفا إلى نيقوبوليس التي تعتبر أهم معقل للأتراك على نهر الدانوب، وتقع في الموضع الذي يصل فيه الطريق القادم من وسط بلغاريا إلى النهر. ولم يجلب الصليبيون معهم أدوات الحصار، إذ لم يدركوا الحاجة إليها، ولم يستعد ملك المجر سيجسموند إلا لاتخاذ خطة الدفاع. وبعد أن ثبت أنه لا فائدة للسلام التي نصبها الفرنسيون في عجلة، ولا للنقوب التي حفرها المهندسون المجرىون، ترقب الجيش الصليبي استسلام المدينة حتى لا تهلك جوعاً، وساند الصليبيون في الحصار قدوم أسطول لفرسان القديس يوحنا رعى بالدانوب قبالة أسوار المدينة في ١٠ سبتمبر سنة ١٣٩٦، غير أن المؤن

(١) عزيز سوريال: المرجع السابق، ص ٩٥، Atya, op. cit., pp. 441-443.

(2) Creasy, Turkey, pp. 39-40, Atya, op. cit., pp. 443-444.

رنسيما: المرجع السابق، ج ٣، ص ٧٦٥.

كانت وفيرة في نيقوبوليس<sup>(١)</sup>. أما حاكم المدينة التركي دوغان بك، الذى علم بمصير مواطنيه في ودين وراهوفا، فلم تكن عنده النية لتسليمها، وأبدى شجاعة فائقة عنيدة في مقاومة الصليبيين<sup>(٢)</sup>.

على أن الانتظار والتمهل أدى إلى هبوط الروح المعنوية للجيش الصليبي، ذلك أن فرسان الغرب الأوربي صابروا يلتهون أنفسهم بلعب القمار وشرب الخمر والعريضة، وكل مظاهر الفجور والفسق. وإذا حدث أن تجرأ بعض الجنود على الإشارة إلى أن الأتراك أعداء أشداء، أمر المارشال يوسيكوه بقطع آذانهم، عقابا لهم على روح الإنهزامية. وقعت المشاجرات بين مختلف فصائل الجيش الصليبي، بينما أخذ أتباع سيجسموند الترانسلفانيون، وحلفاؤه الرولاشيون يتحدثون عن التخلي عن الجيش<sup>(٣)</sup>.

ويعد أن أفضت الحملة الصليبية أسبوعين أمام نيقوبوليس، جاءت الأنباء بأن الأتراك أخذوا يقتربون من المدينة، فقد تحرك جيش السلطان على عجل من تراقيا، كان خفيف التسليح، فاق فرسانه خيالة الصليبيين في سرعة الحركة، واشتهر رماة بروعة التدريب، واكتمال النظام، والطاعة التامة لقيادة السلطان<sup>(٤)</sup>. وكان هناك نوع من الفرسان غير المنتظمين الذين يتقدمون الجيش الرئيسى، لكي يوقعوا الفوضى في جيش العدو، والعمل على إعاقة تقدمه، أو يقومون بشن الغارات المتكررة على جناحى جيش العدو، وأحيانا يقوم هؤلاء الفرسان خفيفي العدة، بالعمل كأدوات لجذب العدو للمعركة ويتظاهرون بالهروب بعد أول لقاء مع هذا العدو، عند ذلك يندفع العدو إلى الأمام، على أمل إحراز نصر سهل، دون أن يتوقع أنه قد وقع بالفعل في فخ نصبه الطرف الآخر<sup>(٥)</sup>.

وقبل حدوث المعركة بين الجيش الصليبي والجيش العثماني في نيقوبوليس ظهرت للعيان نقطة الضعف الرئيسية في الجيش الصليبي الذى كان يفتقر إلى وجود قيادة موحدة،

(١) رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٧٦٥ - ٧٦٦.

(2) Creasy, Turkey, p. 40.

(٣) رنسيان: المرجع السابق، ج ٣، ص ٧٦٦. Atiya, op. cit., p.445.

(٤) المرجع السابق، ص ٧٦٦.

(٥) داهموس، سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى، ص ١٩٨.

لقد كان سيجموند ملك المجر القائد العام بصفة رسمية. فإذا لم يكن قد وافق على السماح للفرنسيين ليكونوا أول المهاجمين للعدو على سبيل المثال، لقام الفرنسيون رغم أنف الجمع، بتنفيذ رغبتهم<sup>(١)</sup>. وبعبارة أخرى كان سيجموند يريد الانتظار حتى يقوم بايزيد بالهجوم، وأن يتصدى المجرىون لهجوم المشاة، أما الفرسان فيكونون خط الدفاع الثانى، ولكن الفرسان ظنوا أن سيجموند يرمى من وراء هذا إلى الأفراد بشرف هزيمة بايزيد، فخالفوه فى رأيه، وانتهى أمرهم بأن تقدموا وحدهم إلى الموقعة التى هزموا فيها هزيمة منكزة<sup>(٢)</sup>. كما لم يكن سيجموند متأكداً على الإطلاق من أن الوالاشيين والترانسفاليين الذين كانوا ضمن رعاياه، أنهم سيحترمون أوامره. وباختصار كان جيشه به نقطة الضعف الرئيسية فى الجيش الإقطاعى التقليدى<sup>(٣)</sup>.

وفى يوم الإثنين ٢٥ سبتمبر سنة ١٣٩٦ (٧٩٨هـ) أضحت مقدمة الجيش العثمانى ظاهرة للعيان، فعسكرت فى التلال على مسافة ثلاثة أميال من الصليبيين. وفى صبيحة اليوم التالى وقبل شروق الشمس، قام سيجموند بزيارة زملائه من القادة، وتوصل إليهم أن يسبقوا على التزام خطة الدفاع. ومع أنه لم يخطرهم صراحة أنه لا يثق فى عساكره من الترانسفاليين والوالاشيين، فإنه لم يلق التأييد إلا من سيد كورسى The Sire de Courcy وروحنا سيد فيينا، بينما عزم القادة الآخرون على المبادرة على الفور إلى أن ينشبوا المعركة، ولم يسع سيجموند إلا أن يذعن فى ضعف. فجعل جيشه فى ثلاثة أقسام: احتل عساكره المجرىون قلب الجيش لدرايتهم بطرق الأتراك الحربية، بينما اتخذ الوالاشيون مواقعهم فى الميسرة، وكان الترانسفاليون فى الميمنة<sup>(٤)</sup>، على أن تبقى القوات الفرنسية الأجنبية من أجل الضربة الحاسمة، ولكن الفرنسيين الأقوياء أبوا فى ثقة زائدة وخطرة تنفيذ هذا الرجاء الذى طلبه سيجموند، واتهموه بأنه يحاول أن يسلبهم حق الفخر بيوم عظيم مشهور<sup>(٥)</sup>.

(1) Stavrianos, op. cit., p. 48.

داهموس: المرجع السابق، ص ١٩٩.

(٢) محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربى، ص ٤٤ - ص ٤٥.

(٣) داهموس: المرجع السابق، ص ١٩٩.

(4) Creasy, Turkey, p. 40.

رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٧٦٧.

(5) Creasy, op. cit., p.40.

عزيز سوريال: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٩٦.

ومن ثم تألفت مقدمة الجيش من جميع القادمين من الغرب الأوربي بقيادة يوحنا كونت نيفر، وهو أكبر أبناء دوق بورجندي وولى عهدا، وهو شاب نشيط فى الرابعة والعشرين من عمره.

ولما طلع النهار، لم يترأى من الجيش التركى سوى الخيالة الخفيفة الذين لم يكونوا نظاميين، على منحدر التل، ومن ورائهم اتخذ الرجال الترك مواقعهم، وفصيلة من الرماة، يحميهم حاجز مصنوع من أعمدة مدنية من الخشب. أما القوة الرئيسية من الخيالة السباهية، التى يقودها السلطان بايزيد نفسه، فإنها كانت مختفية فى قمة التل. وكان على ميسرة السلطان فرقة من الخيالة الصربيين بقيادة الأمير ستيفن لازاروفيتش الذى يعتبر من أتباع السلطان المخلصين<sup>(١)</sup>.

دلت المعركة، وفقا للخطة الحربية السابقة، على أن الصليبيين لم يتعلموا شيئا فى كل الأزمنة. فلم ينتظر فرسان الغرب بالمقدمة كيما يخطروا سيجسمون بخططهم. فقد دفعهم الحماس الصادق بالغ الارتفاع على أن يهاجموا التل، فشتوا أمامهم فرسان الترك. وبينما كان الأتراك يجمعون شملهم من جديد وراء الرجال، أعاق فرسان الغرب عن الحركة أعمدة الحاجز المدنية، فبادروا إلى الترحل عن أفراسهم، وواصلوا الهجوم على أقدامهم، فترعوا الأعمدة من الأرض كلما تقدموا. كان ذلك حافزا لهم على الهجوم، حتى تشتت أيضا شمل الرجال الترك. ومع أن بعض الترك استطاعوا أن ينسحبوا إلى ما وراء الخيالة الذين اجتمعوا من جديد، فإن عددا كبيرا منهم تعرضوا للقتل أو جرى قذفهم إلى السهل. على أنه حينما أسرع الصليبيون فى نشوة انتصارهم وبرغم ما عانوه من تعب وإرهاق بالمسير، وبلغوا قمة التل، أصبحوا وجها لوجه مع فرسان بايزيد السباهية والصربيين. ففاجأهم هذه القوات الجديدة النشطة. ولما كانوا مترجلين، وحل بهم التعب، واشتد ظمأهم، وأرهقهم ما يحملون من أسلحة ثقيلة، لم يلبث نظامهم أن اضطرب، وتحول انتصارهم إلى هزيمة، وغرق الكثير من القواد أثناء محاولتهم عبور الدانوب. ولم ينج من القتل إلا عدد قليل من الفرسان، ولم ينج يوحنا كونت نيفر إلا لأن خدامه هتفا باسمه

(١) رنسيان: المرجع السابق، جـ ٣ ص ٧٦٧، عزيز سوريال: المرجع السابق، ص ٩٧،

Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages, p. 446.

وأقنعوه بالإذعان، ومن وقع معه في الأسر الماريشال بوسيكو<sup>(١)</sup>. وكان ملك المجر سيجسموند من بين القلة التي لاذت بالفرار ومعه رئيس فرسان القديس يوحنا برودس إلى بيزنطة، وقد اضطر سيجسموند إلى ترك ميدان المعركة والهروب مستخدماً سفينة في نهر الدانوب<sup>(٢)</sup>.

وعلى الرغم من أن معركة نيقوبوليس إنتهت بالقضاء على الجيش الصليبي، فإن القتال الذي خاضه العثمانيون كان شرساً، وقد انزعج السلطان بايزيد لما أصابه من خسائر قدرت بثلاثين ألف مقاتل، ولذلك أظهر سخطه في اليوم التالي بإعدام ثلاثة آلاف من أسرى الحرب، ولم يبق إلا على حياة عدد قليل يمكن الحصول على فدية ضخمة منهم<sup>(٣)</sup>.

وبعد الكارثة التي حلت بالفرسان الصليبيين في تلك المعركة، لم يبق لدى دول الغرب الأوربي أى استعداد للدخول في مغامرات خطيرة لهزيمة قوة الإسلام أو لوضع نهاية لسيطرة الأتراك العثمانيين. وبدأت تخمد ثورة الدعاية الهائلة التي ظهرت في أوائل القرن، بالرغم من وجود بعض الكتاب الذين كانوا ينادون باستئناف الحروب الصليبية<sup>(٤)</sup>.

تعتبر حملة نيقوبوليس الصليبية آخر الحملات الصليبية الكبيرة. إذ أن طابع تاريخها المثير للأسى، احتذى في دقة مؤلة نهج الحملات الصليبية التي تعرضت في الماضي لكوارث فاجعة، وكل ما بينها من اختلاف أن ساحة المعركة أضحت في أوروبا، لا في آسيا. وما وقع فيها من أخطاء وحماقات كانت واحدة، كل ما تعلمه الغرب من هذا الفشل الذريع الأخير، هو أنه لم يعد للحرب المقدسة وجود من الناحية العملية<sup>(٥)</sup>.

(1) Creasy, op. cit., pp. 41-42, Doukas, Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks, pp. 84-85,

رنسيمان: المرجع السابق، ج٣، ص ٧٦٨.

(٢) داهموس: المرجع السابق، ص ٢٠٠،

Schevill, op. cit., p. 188, Ostrogorsky, op. cit. p. 552, Castellan, Hist of the Balkans, pp. 58-59.

(3) Atiya, op. cit., pp. 455-456

عزيز سوريال: المرجع السابق ص ٩٧، رنسيمان: المرجع السابق، ج٣، ص ٧٦٨ - ٧٧٠.

(٤) عزيز سوريال: المرجع السابق، ص ٩٧ - ٩٨.

(٥) رنسيمان: المرجع السابق، ج٣، ص ٧٧.



وعلى الرغم من أنه لن تقوم حملات صليبية أخرى، غير أن السلطان بايزيد ظل يهدد جوف العالم المسيحي، إذ بلغ نهر الدانوب، وشواطئ البحر الأدرياتي. ومع أن القسطنطينية لازالت بأيدي المسيحيين، فإنها أضحت معزولة، ولم يبق عليها إلا أنه لم يتوفر للسلطان من المدفعية القوية ما يكفى لذلك أسوارها الضخمة، كما لم يكن لديه من السفن ما يكفى لقطع طرق مواصلاتها بحراً<sup>(١)</sup>.

وتعتبر كارثة نيقوبوليس من أهم أحداث أواخر العصور الوسطى ليس فقط بسبب الأهمية التاريخية لمن اشتركوا فيها، بل أيضاً لأنها كانت آخر مشروع دولي هام نفذه فرسان الإقطاع. وقد أثبت الصربون ولاءهم للدولة العثمانية في ساحة نيقوبوليس التي تم فيها إحراز النصر بمساعدة مسيحي البلقان. ووصل السلطان بايزيد قمة مجده، فأرسل من ميدان القتال إلى قاضى بروسة يبلغه بأنباء النصر الذى أسكرته نشوته، فأعلن في نشوة النصر أنه سيحتل إيطاليا وأن حصانه سيتناول طعامه على مذبح كنيسة القديس بطرس بروما. كما بعث من أدرنه برسائل إلى كبار حكام الشرق الإسلامى يؤف إليهم بشرى انتصاره فى نيقوبوليس، واصطحب الرسل معهم إلى بلاطات عوادل المسلمين مجموعة منتقاة من الأسرى الصليبيين باعتبارهم هدايا من المنتصر ودليلاً مادياً على انتصاره. واتخذ بايزيد لقب «سلطان الروم» كدليل على وراثته لدولة السلاجقة وسيطرته على كل شبه جزيرة الأناضول. كما أرسل إلى الخليفة العباسى المقيم فى دولة المماليك بالقاهرة يطلب منه أن يقر هذا اللقب، حتى يتسنى له بذلك أن يسبغ على السطة التى مارسها هو وأجداده من قبل طابعا شرعياً رسمياً، فتزداد هيئته فى العالم الإسلامى، ولم يكن السلطان المملوكى يجد مبرراً لعدم الاستجابة لطلب بايزيد، إذ كان يرى فى العالم العثمانى حليفه الأرحم ضد قوات تيمور لئلا كانت تهدد كلا الطرفين<sup>(٢)</sup>.

ولاشك أن الانتصار الذى أحرزه العثمانيون على الحملة الصليبية فى نيقوبوليس قد زاد من مخاوف الأوربيين، فى الوقت الذى أضاف للعثمانيين رصيماً ضخماً من النفوذ فى جميع أنحاء العالم الإسلامى، وأوجد إمبراطورية مركزية تمتد من الدانوب إلى القرات.

(١) المرجع السابق، ج٣، ص ٧٧١.

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى؛ فى أصول التاريخ العثمانى، ص ٥٤ - ٥٥.

Creasy, Turkey, p. 45.

ونتيجة لذلك تدفق آلاف المسلمين على الأناضول، ودخلوا في خدمة بايزيد، ولم يشتملوا فقط على الرعاية التركمان، بل أيضاً على الكثير من الذين شكلوا العمود الفقري للحياة الإدارية والاقتصادية في إيران والعراق وما وراء النهر، بالإضافة إلى الفارين من الفوضى التي أعقبت انهيار حكم الإيلخانيين<sup>(١)</sup>، ورحف تيمور لذك على أواسط آسيا الصغرى<sup>(٢)</sup>.

ونصل إلى القول إن الحملة الصليبية في نيقوبوليس، كانت كارثة للفروسية الأوروبية، أنهت مصير القسطنطينية، وثبتت أقدام العثمانيين في البلقان، ومهدت الطريق لتقدم العثمانيين إلى بودا وفيينا<sup>(٣)</sup>.

### نشاط بايزيد بعد موقعة نيقوبوليس:

وبعد موقعة نيقوبوليس رجع السلطان بايزيد إلى أدرنة، وكانت قواته قد أغارت على الاشيا والمجر والبوسنة وبلاد الشام، واستولت على آخر إمارة بلغارية مستقلة في ودين، حيث شكلت الأخيرة مع سلستريا ونيقوبوليس قاعدة أمامية جديدة تنطلق منها الجيوش العثمانية الموجهة ضد المجر وروالاشيا في سنة ١٣٩٦. وعمرت القوات العثمانية أيضاً ألبانيا، وشيد بايزيد قلعة أناضولو حصارى - أى قلعة الأناضول - على أضيق نقطة من البوسفور للسيطرة على وصول البيزنطيين للبحر الأسود. وأعد بايزيد نفسه لحصار القسطنطينية عقاباً لموقف إمبراطورها المؤيد للحملة الصليبية، وبدأ الحصار الثالث لها في سبتمبر سنة ١٣٩٦ م، ولكن الحصار لم يأت بنتيجة، ربما لأن أدوات الحصار كانت تنقصها الكفاءة، ويزيد الاحتمال

(١) إيلخان كلمة تركيكية مركبة من لفظين هما: «إين وخان»، الأولى بمعنى تابع والثانية بمعنى حاكم ومملك ورئيس عشيرة. وبذلك يكون معنى إيلخان هو المملك التابع، إلى الحاكم لاحدى الولايات في الدولة ويتبع الخاقان الأعظم الذى يحكم الدولة كلها، وقد أطلق هذا اللقب على بيت هولاكوف حفيدى جنكيزخان مؤسس الإمبراطورية المغولية ابتداء من أباقا (١٢٦٥ - ١٢٨٢)، ثم أطلق على حكام المغول في إيران بعد استقلالهم عن الدولة المغولية الأم، وصارت دولتهم تعرف بالدولة الإيلخانية، واستمرت هذه الدولة تحكم خراسان وبلاد الجبل وفارس وكرمان وما بين النهرين والعراق وآسيا الصغرى وجزء من بلاد الشام إلى فترة محدودة، واستمرت هذه الدولة قرناً من الزمان إلى أن انقرضت في سنة ٧٥٦ هـ (١٣٥٦). أنظر دائرة المعارف الإسلامية، محمد أحمد محمد: إسلام الإيلخانيين (القاهرة ١٩٨٩)، ص ١٠٧.

(2) Shaw, op. cit., p. 33.

(3) Stavrianos, The Balkans since 1453, p. 48.

فى أن المستشارين المسيحيين الموجودين فى بلاط بايزيد، قد أوعزوا إليه أن حصار القسطنطينية سوف يغرى الأوربيين على القيام بجهود صليبية ضده. وأخيراً قرر السلطان أن يفك الحصار فى مقابل زيادة الجزية المفروضة على الإمبراطورية البيزنطية، وفى اتفاقية عقدها بايزيد مع الإمبراطور مانويل الثانى (١٣٩١ - ١٤٢٥ م) وافق الأخير على أن خلفاءه ينبغي أن يقرهم السلطان فى العرش<sup>(١)</sup>.

وفى هذه الأثناء وجد الإمبراطور البيزنطى مانويل الثانى نفسه مهدداً من منافس له على العرش يسانده السلطان العثمانى بايزيد، ولم يكن هذا المنافس سوى يوحنا ابن أخيه. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل نزلت الإمبراطورية إلى وضع بالغ الصعوبة، جعل مانويل الثانى يتوقع اللحظة التى يجبر فيها على الخروج من القسطنطينية، وتحسباً لذلك عقد العزم على تسليم العاصمة إلى جمهورية البندقية، وعرض أن يمنحها أيضاً جزر إمبروس وليمنوس. ورفضت البندقية هذه العروض، وشجعت الإمبراطور على الثبات، وزودته فى الوقت نفسه بقاعدة للمقاومة بأن جهزت سفناً حربية لحماية المستعمرة البندقية، وحذت حذوه حذوها بالنسبة إلى مستعمراتها<sup>(٢)</sup>. ومن جهة أخرى، وجه مانويل الثانى نداءً جديداً إلى الغرب، وقد توسل المساعدة، ليس فقط من روسيا، ولكن أيضاً من البابا، ودوج البندقية، وملوك فرنسا وإنجلترا وأراجون Aragon، وراحت شخصيات موثوق بها تطوف أوروبا نيابة عنه. فاستجاب شارل السادس ملك فرنسا وأرسل قوة من ١٢٠٠ رجلاً بقيادة المارشال بوسيكو من إيج مورت Aigues Mortes، وانضمت إليه فى الطريق تعزيزات جاءت من جنوه والبندقية ورودس ولسبوس. وهاجم بوسيكو الأتراك بشجاعة كبيرة، وطهر النواحي المجاورة للقسطنطينية من العصابات التركية التى تغير عليها، ولكن كما هو متوقع، فإن قوته الصغيرة، مهما أوتيت من حظ، لم تستطع أن تخلص الإمبراطورية من الخطر العثمانى، وبعبارة أخرى لم يقدر بوسيكو على مواصلة قتال العثمانيين، فقرر الرجوع إلى فرنسا سنة ١٣٩٩، وأشار على الإمبراطور مانويل الثانى بالسفر معه إلى أوروبا ليشد أزره فى طلب المعونة من حكام أوروبا<sup>(٣)</sup>.

(1) Shaw, op. cit., p. 33.

(٢) هايد: تاريخ التجارة فى العصور الوسطى، جـ ٣، ص ١٢٢ - ١٢٣،  
Hearsey, City of Constantine, pp. 230-231, Ostragorsky, op. cit., pp 554-555.

(٣) هايد: تاريخ التجارة، جـ ٣، ص ١٢٢ - ١٢٣،  
Ostragorsky, Hist. of the Byzantine State, p. 555.

وقد غادر الإمبراطور القسطنطينية في ١٠ ديسمبر سنة ١٣٩٩، يحدوه الأمل في الحصول على مساعدة من الغرب الأوربي، وعهد بأمور الدولة إلى ابن أخيه يوحنا. وانزعج الإيطاليون عندما شاهدوا كيف أضحى وريث القياصرة فقيراً، فبذل له دوق ميلان الهدايا الرائعة الملائمة لمكانته، ولقى الإمبراطور ترحيباً بالغافى كل مكان، خاصة في باريس ولندن، غير أنه لم يتلق مساعدة مادية، وحصل على وعود غامضة لم تنفذ. أما البابوية فلم تحفل بالإمبراطور، إذ أن مانويل كان من الأمانة مايمنعه من الوعد بأن تخضع كنيسته لروما، لعلمه أن قومه لن يقبلوا ذلك، ولم يعد مانويل إلى عاصمته إلا في سنة ١٤٠٢م، وقد أطربته الأنباء التي تنذر بسقوط الإمبراطورية العثمانية<sup>(١)</sup>، وهى ظهور تيمور لنك.

وفى أثناء انشغال بايزيد في أوروبا، قام علاء الدين على بك أمير قرمان بمحاولة لاستعادة ما فقدته على أيدي العثمانيين، فاستولى على أنقرة عاصمتهم في الأناضول، ثم تقدم من خلال كرميان نحو بروسة عاصمة العثمانيين القديمة. وعندئذ قرر بايزيد مواجهته من جديد، فجمع جيوشه الروميلية (الأوربية) والأناضولية في بروسة، وتحرك على رأس جيش ضخم تجاه قونية، وهناك أحس علاء الدين أنه لا يستطيع مواجهة بايزيد، فأعاد إليه كل الأسرى والغنائم التي استولى عليها، واقترح على بايزيد عقد السلام بينهما. ولكن بايزيد رفض هذا العرض، ودخل في معركة مع علاء الدين في سهل أكشاي Akcay، فى عام ١٣٩٧، انتصر فيها بايزيد، وأمر بإعدامه بعد وقت قصير من المعركة<sup>(٢)</sup>. وفى العام التالى تقدم بايزيد بحذاء ساحل البحر الأسود، ووصل نفوذه إلى حدود طرايزون البيزنطية، فيما عدا مستعمرة جنوبية فى أميسوس Amisus شرق سمسون، ظلت بعيدة عن سيطرته. وقد جعلت تلك الغزوات بايزيد يسيطر على كل أراضى الشمال والغرب جنوب غربى دولة القاضى برهان الدين فى وسط الأناضول. وعندما مات القاضى برهان الدين فى عام ١٣٩٨، أجبرت الانقسامات الداخلية أمراء دولته على قبول سيادة بايزيد، مقابل المساعدة

(١) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ ٣، ص ٧٧٢.

Ostrogorsky, op. cit., p. 555, Barker (John W.), Manuel II Palaeologus (1391-1425): A Study in Late Byzantine Statesmanship. (New Jersey, 1969), p. 215, Vasiliev, op. cit., Vol. II, p. 633.

(2) Shaw, Hist, of the Ottoman Empire, Vol. I, p. 34.

ضد الهجمات المتصاعدة التي يقوم بهاتركمان «الشاة البيضاء» في الشرق. وبذلك صار العثمانيون على اتصال مباشر مع الإقليم المملوكي الممتد من ملطية إلى قيليقية<sup>(١)</sup>.

وفي يونيو عام ١٣٩٩ توفي السلطان المملوكي برقوق، وتولى من بعده ابنه السلطان فرج، وهو شاب عديم الخبرة. ووصلت الأخبار إلى بايزيد أن تيمور لنك قد انشغل بغزواته في الهند، فاستأنف بايزيد غزواته في الشرق، وكان هدفه المباشر إمارة دغاادر التابعة لسلطنة المماليك، فانتهاز فرصة قيام الفوضى التي أعقبت موت برقوق، وضم تلك الإمارة إلى ممتلكاته في أغسطس ١٣٩٩. ثم بعد ذلك استولى بايزيد على معظم قيليقية من المماليك، ثم تحرك إلى شرق الفرات، وأعاد وحدة الأناضول التركية<sup>(٢)</sup>.

### معركة أنقرة:

وفي ربيع سنة ١٤٠٠ استعاد تيمور لنك حكمه في آذربيجان وشرق العراق، وأجبر ملك جورجيا المسيحي على الاعتراف بنفوذه. حدث هذا في الوقت الذي قام فيه السلطان العثماني بايزيد بالاستيلاء على أرزنجان وكماخ Kemah من مطهر الدين بك الذي كان من أتباع تيمور لنك ويتمتع بحمايته، وبذلك أصبح الصدام بين تيمور لنك وبايزيد لا مفر منه. وعندما وصل تيمور إلى باسنلر Pasinler بالقرب من أضروروم، انضم إليه عدد من الأمراء التركمان الذين طردهم العثمانيون من أراضيهم واستولوا عليها، وطلبوه بمساعدتهم في إعادة تلك الأراضي لحوزتهم<sup>(٣)</sup>. فأرسل تيمور لنك سفراء من قبله، أخبروه أن الخان الأعظم تيمور لنك لا يسمح لبازيد أن يستولى على أقاليم لا تخضع ويضمها إلى نفوذه كما يجعل من نفسه حاكما عظيما يهدد نفوذه، وطلب منه السفراء أن يعيد الأراضي التي استولى عليها بالقوة لأصحابها، ولكن بايزيد رفض وأمر بقص لحى السفراء وأعادهم في صورة مهينة لتيمور لنك<sup>(٤)</sup>.

(1)Ibid.,p.34.

(2)Ibid.,p. 34-35.

(3) Ibid., P.35.

(4)Doukas, Decline and Fall of Byzantium., p. 38.

ولاشك أن ظهور تيمور لنك في جنوب غربى آسيا واحتمال اصطدامه بالعثمانيين شجع العالم المسيحى الأوروبى على الاقتراب من تيمور، فوجدت الأفكار التى سادت أيضا أوروبا إبان غزوات المغول الأولى فى القرن الرابع عشر، وهى محاولة استغلال هذه القوى العسكرية بتحويلها إلى المسيحية، والانتفاع منها فى تجنب خطرهما وفى تخطيم القوى الإسلامية المجاورة لهذا العالم المسيحى<sup>(١)</sup>. وشعرت القسطنطينية بالارتياح وتنفست الصعداء عند اقتراب الصراع بين بايزيد وتيمور، وبدأ يوحنا الوصى على عرش القسطنطينية المفاوضات مع تيمور، وفعل نفس الشئ شارل السادس ملك فرنسا، بل حتى إمارة طرايزون الصغيرة أرسلت إليه ما يعبر عن تقديرها له، معلنة استعدادها للسماح له باستخدام مينائها الوحيد، وكذلك وعده أهالى جنوه الذين يديرون منطقة بيرى Pera فى الجزء الذى يقع عند القرن الذهبى من القسطنطينية بإرسال سفنهم، ومنع أى إمدادات عسكرية تركية تحاول العبور من أوروبا إلى آسيا الصغرى<sup>(٢)</sup>. ولكن كل هذه التعهدات باءت بالفشل، لأن تيمور لم يتحول عن الإسلام، ولأنه كان يدرك أن الممالك المسيحية لا يعنىها شئ سوى أن يقضى بايزيد وتيمور على بعضهما البعض<sup>(٣)</sup>.

ولما أدرك تيمور أن بايزيد لم يستجب لطلباته، بدأ بالزحف نحو سيواس العاصمة القديمة للقاضى برهان الدين، والتى استولى عليها بايزيد قبل ذلك بوقت قصير، وأسند حكمها لابنه سليمان. ولم يلبث تيمور أن استولى عليها فى ٢٧ أغسطس سنة ١٤٠٠م، وأعمل القتل فى المسلمين والمسيحيين على حد سواء<sup>(٤)</sup>. ثم بعد ذلك تحرك تيمور جنوباً لتقوية موقفه متنهزاً حالة الضعف التى باتت فيها دولة المماليك الجراكسة، وتقدم فى بلاد الشمال المملوكية، واستولى على ملطية وعينتاب وحلب فى أكتوبر عام ١٤٠٠م، وفى الأخيرة لجأ تيمور لنك إلى إشعال النار بالمدينة حتى هرب سائر نساء البلد والأطفال إلى مساجد حلب، فهجم أصحاب تيمور عليهن وريطوهن بالحبال وأعملوا فيهن السيف. ثم «صارت الأبقار تفتض من غير تستر والخدراة يفسق فيهن من غير احتشام»<sup>(٥)</sup>، كما

(١) محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربى، ص ٤٧.

(٢) دهموس: سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى، ص ٢٠١.

(٣) نفس المرجع والصفحة.

(٤) حكيم أمين عبد السيد: قيام دولة المماليك الثانية، ص ١٣١.

(٥) أبو الهاسن: النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٢٢٣، حكيم أمين: المرجع السابق، ص ١٣٤ - ١٣٥.

استولى تيمور على دمشق في ديسمبر من نفس العام، وقد سحق الجيش المملوكى عدة مرات، وذبح الآلاف أثناء زحفه<sup>(١)</sup>. وانتهى الأمر على هذا النحو، وغادر تيمور بلاد الشام بعد أن دك معالم حضارته دون أن يدخل مصر.

وبينما كان تيمور في الجنوب، تحرك بايزيد في مؤخرته في الأناضول الشرقية، واستعاد سيواس وأرزنجان، بهدف الحصول على ميزة استراتيجية قبل أن يعود تيمور. وفي ربيع عام ١٤٠٢م تناور جيشا بايزيد وتيمور، وجمع الأخير جيشا ضخما جديداً في جورجيا، ثم دخل الأناضول عن طريق أرضروم وكماخ، وتقدم إلى قيصرية، وفرض الحصار على أنقرة ليغري بايزيد على الدخول معه في معركة، في الوقت الذي حصل تيمور على مساعدة معظم التركمان، الذين أعاد إلى أمرائهم أراضيهم وممتلكاتهم، بعد أن أخذها من العثمانيين<sup>(٢)</sup>. ويبدو أن تيمور قد حصل على ميزة استراتيجية، وذلك بالتقدم من سيواس إلى أنقرة خلال الطريق الشمالى الذى تتوفر فيه المياه، على حين أن رجال بايزيد كانوا فى منطقة أقل مياه، وكان الوقت صيفاً شديداً القىظ، وبذلك أجبر بايزيد على البحث عن المياه والمؤن، والقتال من أجل الحصول عليها<sup>(٣)</sup>.

وقد أسند بايزيد قيادة ميمنة جيشه إلى صهره لازاريفتش ملك صربيا، وأمد به بعض الفرسان الأتراك لمساندة فرسانه ثقيلى العدة، وأسند الميسرة إلى ولده سليمان، وتكونت الميسرة من قوات من مقدونيا ومن آسيا الصغرى، أما قلب الجيش فقد تكون من الإنكشارية والسباهية، وتحت قيادة بايزيد نفسه<sup>(٤)</sup>. أما المؤخرة فكانت بقيادة ابنه محمد.

ويميل كثير من الكتاب المعاصرين والمحدثين إلى الإفراط فى تحديد أعداد الرجال فى كل من الجيشين المغولى والعثمانى. ويذكر المؤرخ جروسية Grusset أن حوالى مليون مقاتل اشتركوا فى المعركة التى دارت بينهما. وكتب الفارس شيلتبرج البافارى Bavarian Schiltberger الذى عاصر هزيمة الصليبيين فى نيقوبوليس وانتقل إلى خدمة الأتراك فى

(1) Shaw, op. cit., p. 35, Doukas, op. cit., pp. 80-90.

(2) Shaw, op. cit., p. 35.

(3) Shaw, op. cit., p. 35.

(٤) داهموس، المرجع السابق، ص ٢٠٢.

مذاكراته أن عدد جيش بايزيد بلغ مليوناً وأربعمائة ألف مقاتل، وأن جيش تيمور لنك زاد عن ذلك الرقم بحوالي مائتي ألف مقاتل. وأكثر الأرقام اعتدالا كان حوالي عشرين ألف مقاتل تقريباً لكل من الجانبين<sup>(١)</sup>. وإن كانت المصادر قد اتفقت كلها على أن جيش تيمور كان أضخم<sup>(٢)</sup>.

وأخيراً حدثت المعركة الفاصلة في سهل جوبوق آباد Cubuk بالقرب من مدينة أنقرة في ٢٧ يوليو عام ١٤٠٢، وقد استمرت المعركة حوالي أربع عشرة ساعة، ويبدو أن بايزيد قد أحرز انتصاراً في أول الأمر، ولكن خيانة بعض فرقه التركمانية التي نزعت إلى إلقاء السلاح والفرار، وكذلك - طبقاً لما يذكره البعض - خيانة قواته الصربية التابعة له، قد غيرت الموقف، وتم سحق الجيش العثماني، وبعد أن تأكد بايزيد من هزيمته حاول الهرب، بيد أن جواده تعرض لإصابة قاتلة، ووقع أسيراً في أيدي تيمور لنك<sup>(٣)</sup>. ويقال إن تيمور عامل بايزيد بكل إجلال واحترام، وأمر تيمور بفك أغلال السلطان وأجلسه إلى جانبه، وأكد له أنه سيقى على حياته، وأصدر تعليماته بأن تنصب ثلاث خيام فخمة لحاشيته، ولكن عندما حاول بايزيد الهرب، احتجز في غرفة ذات نوافذ مسدودة بالحواجز، وقد بالغت الأساطير فقالت إنها قفص من حديد. ومرض بايزيد، فدعا تيمور أحسن الأطباء لمعالجته، ومات بايزيد بعد عام من هزيمته<sup>(٤)</sup> كمداً في الأسر في ٩ مارس سنة ١٤٠٣، ودفن في بروسة في مقبرة أجداده. ولم يمهل القدر تيمور لنك طويلاً بعد ذلك، إذ لم يكد يصل إلى سمرقند حتى بدأ استعداداته الفورية لإرسال حملة إلى الصين، وغادر المدينة في أواخر ديسمبر سنة ١٤٠٤، بيد أنه شعر بالمرصد بعد وقت قصير، ومات ودفن في سمرقند<sup>(٥)</sup>.

كانت حروب تيمور لنك ضد الدولة العثمانية ناجحة، وذلك لأن تلك الدولة كانت تحمل في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي بذور عدم الاستقرار، وخاضعة لنظام الأفصال

(١) داهموس: المرجع السابق، ص ٢٠٤.

(2) Shaw, op. cit., p. 35.

(3) Shaw, op. cit., 34, Pears, The Destruction of the Greek Empire pp. 143-144.

(٤) ديورانت: قصة الحضارة، ج ٥، ص ٥٧ - ٥٨، داهموس: المرجع السابق، ص ٢٠٦.

Schevill, op. cit., p. 130, Creasy, Turkey, pp. 50-51.

(٥) القرمانلي: أخبار الدول وآثار الأول، ص ٢٩١، داهموس: المرجع السابق، ص ٢٠٦.



(الأتباع) Vassal System ، الذى ترك الأمراء المسيحيين يباشرون مهام حكمهم فى إماراتهم، وبذلك كانوا عندما يصيب السلطة المركزية فى الدولة العثمانية الضعف والانهك، فيوضع يؤكدون فيه استقلالهم. وقد انهار جيش بايزيد بسهولة فى موقعة أنقرة، لأنه تخلى عن تقليد «الغزاة» - وهم الذين يحاربون الكفار - الذى عاد بالنجاح على أسلافه، فأبعد الضباط والجنود الذين قادوا الفتوحات السابقة<sup>(١)</sup>.

كان الإمبراطور البيزنطى مانويل الثانى يأمل فى أن ما حل بالسلطان العثمانى بايزيد من كارثة، قد ينهى التهديد العثمانى، غير أنه لم يكن من القوة ما يكفى لأن يتخذ إجراء بدون قاعدة أوربية. فقد التزمت الجمهوريات الإيطالية جانب الحذر، إذ بادر الجنويون إلى عقد معاهدة مع تيمور للمحافظة على تجارتهم الآسيوية. على أن تخوفهم على تجارتهم بالبلقان، وقلقهم على المستقبل، حملهم على أن يساعدوا فى الحفاظ على القوة العثمانية، بأن نقلوا على سفنهم بقايا جيش بايزيد إلى أوروبا. أما البنادقة فالتزموا الاعتزال، وكان لحذرهم ما يبرره<sup>(٢)</sup>.

والواقع أن غزوات تيمور منعت السلطان بايزيد من شن هجوم مباشر على القسطنطينية، وأبقت على بيزنطة لمدة نصف قرن آخر<sup>(٣)</sup>. فلو أن كل أوروبا بادرت إلى التدخل، لاستطاعت أن تقضى على الإمبراطورية العثمانية. غير أن الأتراك كانوا من التماسك العنصرى فى الأناضول، والاستقرار السياسى فى البلقان ما يجعل من العسير طردهم، كما أنه لم يكن لتيمور ما الجنكيزخان من العبقرية، إذ أن إمبراطوريته أخذت تتجزأ عقب وفاته مباشرة سنة ١٤٠٥. فعجل المماليك باسترداد بلاد الشام، وظهرت فى أذربيجان أسرة «الشاة السوداء» وأقامت ملكاً امتد من شرقى الأناضول حتى بغداد، وظهرت الأسرة الصفوية فى فارس. وظلت سلالة تيمور تحكم إقليم ما وراء النهر نحو قرن من الزمن، على أنهم أقاموا فى الهند وحدها إمبراطورية فى دلهى استمرت أمدص طويلاً<sup>(٤)</sup>.

(1) Shaw, op. cit., p. 35.

(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ ٣، ص ٧٧٤.

(3) Ostrogorsky, op. cit., pp. 556-557.

(٤) رنسيمان: المرجع السابق، جـ ٣، ص ٧٧٤.

إن النتيجة النهائية لغزو تيمور بلاد الأناضول أنه أدخل بها سيلا جديداً من الترك والتركمان، وبذا ازدادت جذور الدولة العثمانية رسوخاً. فحينما مات تيمور تسلم أبناء بايزيد إرث أبيهم. وما نشب من الحروب الداخلية هيباً للقوى المسيحية فرصة جديدة توقف النمو العثماني المتزايد للدولة العثمانية، غير أن هذ الفرصة لم يجر اغتنامها. فلما انفرد محمد الأول بالسلطنة سنة ١٤١٣ كانت الإمبراطورية العثمانية متماسكة<sup>(١)</sup>. وبعبارة أخرى، لقد قضى تيمور على القوة العسكرية للدولة العثمانية، ولكنه لم يستطع التغلب على القوة الحيوية الكامنة فيها، فما لبثت هذه الدولة أن انبعثت من بين الأنقاض، وانبعث وبرى في عروقها ماء الحياة، واستأنفت سيرها إلى الأمام في ثبات وقوة كعهدها من قبل<sup>(٢)</sup>.

وبوفاة بايزيد تنتهى فترة على جانب كبر من الأهمية من تاريخ الدولة العثمانية، شاهدت بدء تكوين العثمانيين كنأمة ودولة. فإذا كان عثمان وأورخان قد خلقا من الجماعات العثمانية أمة ودولة، فلاشك أن مراد وبايزيد جعلا من هذه الدولة نواة لإمبراطورية متنامية الأطراف<sup>(٣)</sup>. وفي عهد بايزيد ظهرت الدولة العثمانية كقوة فعالة فى السياسة الدولية لأول مرة، حيث كانت إحدى المحاور الأساسية للسياسة العالمية فى هذا العصر، فى منطقة امتدت من غربى أوروبا، وحتى وسط آسيا، ومن مصر حتى شمالى البحر الأحمر<sup>(٤)</sup>.

(١) ونسيمان: المرجع السابق، جـ ٣، ص ٧٧٥.

(٢) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ١٢.

(٣) محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربى، ص ٥٢.

(٤) خليلك إينالچك: العثمانيون، النشأة والازدهار، ص ٥٦.

## الفصل الرابع

### إعادة بناء الإمبراطورية العثمانية

- الحرب الأهلية بين أبناء بايزيد (١٤٠٢ - ١٤١٣).
- السلطان محمد الأول (١٤١٣ - ١٤٢١).
- مراد الثاني (١٤٢١ - ١٤٥١).
- الحرب الأولى بين العثمانيين والبنادقة واشتراك صربيا ووالاشيا وانجر فيها.
- الحملة الصليبية على قارنا سنة ١٤٤٤ م.

## الحرب الأهلية بين أبناء بايزيد (١٤٠٢ - ١٤١٣):

وفى أعقاب معركة أنقرة ظل تيمور لنك فى الأناضول حوالى ثمانية شهور من يوليو ١٤٠٢ إلى مارس ١٤٠٣، وذلك لتثبيت سلطته وإعادة الاستقلال للإمارات التركمانية القديمة، فى الوقت الذى كان ينهب الأراضى العثمانية من أجل الغنائم، ونتيجة لذلك قتل الآلاف، ودمر المساجد والمدارس، وأحرق المدن والحقول، وأوقع الآلاف فى العبودية، وما لبث تيمور لنك أن غادر آسيا الصغرى، ومات فى أوترار فى ١٨ فبراير عام ١٤٠٥، وهو فى طريقه إلى غزو الصين<sup>(١)</sup>.

والواقع أن تيمور لنك ترك الأحوال السياسية للأناضول فى حالة مشابهة إلى حد كبير لما كانت عليه فى عهد السلطان مراد الأول (١٣٦٠ - ١٣٨٩). فقد وضع تيمور الأمير القرماني محمد على رأس دولة ضخمة تشمل ثلث الأناضول، وتحتوى على الأجزاء الشرقية لإمارة حميد، وكرميان، ومدن مثل قيصرية، وأنصاليا وعلايا Alaiye، فضلا عن الممتلكات القرمانية السابقة. ومن الواضح أن تيمور لنك فعل ذلك، لكى يعطى إمارة قرمان القوة التى تمكنها من مقاومة أى محاولة يقوم بها العثمانيون لاستعادة نفوذهم فى المنطقة. ولم يكتف تيمور بذلك، بل استعاد الإمارات التى غزاها بايزيد فيما وراء إمارة قرمان، وإن كان ذلك قد حدث بصعوبة<sup>(٢)</sup>.

وكان الإمبراطور مانويل الثانى فى باريس عندما بلغت كارثة أنقرة، ولكنه رجع بعد انقضاء عام تقريبا إلى القسطنطينية، إذ توقف فى طريقه فى جنوة والبندقية. وقبل أن يصل مانويل إلى عاصمته كان ابن أخيه يوحنا السابع قد نظم أموره للتعامل مع الموقف المتغير. فبعد ثمانى سنوات أصبحت القسطنطينية طليقة من الحصار الذى فرض عليها، واختفى بايزيد الذى طالما نشر الرعب والفرع فى قلوب المسيحيين من على مسرح الأحداث السياسية. ولكن أبنائهم الأربعة تنازعوا حول الوصول إلى العرش، وحملوا السيوف ضد بعضهم البعض. وكان أكبرهم سناً سليمان، الذى سبق إخوته بالتوجه إلى غاليبولى فى أغسطس سنة ١٤٠٢ لكى يسيطر على الولايات الأوربية للإمبراطورية العثمانية المخطمة.

(1) Shaw, The Hist of the Ottoman Empire, Vol. I., p.3 6.

(2) Ibid., p. 36.

وفى أوائل سنة ١٤٠٣ عقد مؤتمر قمة من يوحنا السابع وسليمان وجنوية خيوس، ودوق جاكوبو الأول كريسب صاحب: ناكسوس Naxos، وفرسان القديس يوحنا (الاستيوار) برودس، ومستيفن لازار يفتش أمير صربيا. وفى حوالى ٢٠ من فبراير سنة ١٤٠٣، قبل وصول مانويل الثانى إلى البدنقية عقد اتفاقية كانت فى صالح بيزنطة بصورة تبحث على الدهشة<sup>(١)</sup>. وفى هذه الاتفاقية منح البنادقة امتيازات تجارية واسعة، وحصل البيزنطيون على تنازلات هامة، فقد أقسم سليمان على السلام والصداقة مع يوحنا السابع والإغريق، وأعاد سالونيكاً بضواحيها وقلاعها، وأيضاً خالسيدس Chalcidice وجزر سكوبيلوس ومكيثوس Skyathos وسيكروس، فضلاً عن مساحة واسعة تشمل الساحل التراقى من مسمبريا إلى بانيدوس، أى شريط طويل من ساحل البحر الأسود، وكل منطقة ممرمة الساحلية، وفى هذه الاتفاقية لم يعد البيزنطيون يدفعون جزية للأتراك، وأمر سليمان بإطلاق سراح الأسرى الإغريق والمسيحيين الموجودين فى السجون العثمانية، ووعد بتقديم المساعدة الحربية للقسطنطينية فى حالة قيام تيمور لنك بشن أى هجوم عليها، كما وافق على ألا تدخل سفنه المضائق دون إذن من الإمبراطور البيزنطى<sup>(٢)</sup>. وفى مقابل ذلك جرى الاعتراف بسليمان سلطاناً على المناطق العثمانية فى الروميللى - أو أوربا - من عاصمته أدرنة. ولا ريب أن الأرباح التى حصل عليها البيزنطيون كانت أفضل من التى حصل عليها سليمان، فبعد أن كان البيزنطيون مجرد رعايا بؤساء تابعين للأتراك العثمانيين، أصبحوا وفتحهم سادتهم. ولم يعد باقياً إلا أن يوافق مانويل الثانى على الاتفاقية، وقد وافق عليها فى يونيو سنة ١٤٠٣ بعد رجوعه من أوربا بوقت قصير<sup>(٣)</sup>.

ومن بين إخوة سليمان الثلاثة عيسى - وهو أصغر وأقدر الإخوة - الذى نصب نفسه حاكماً فى بالكيسير Balikesir وبروسة، ومحمد فى أماسيا، وكلاهما اعترفا بسيادة تيمور لنك. وبذلك احتفظ العثمانيون بالسيطرة على كل أقاليم الدولة العثمانية التى

(1) Parker, Manuel II Palaeologus, p. 224.

(2) Ibid., pp. 224-225, Nicol, op. cit., p. 73, Ostrogorsky, op. cit., 557, Halil Inalcik, The Ottoman Empire. p. 17.

(3) Nicol, op. cit., p. 73.

كانت موجودة قبل بايزيد. والحقيقة أن الإمبراطورية التي شيدها العثمانيون قد تفككت وانهارت، ولم يعد واضحا إذا كان لديها القدرة على البقاء<sup>(١)</sup>.

وهنا نكرر القول إن بعض الأوربيين قد ظنوا أنهم لو اتحدوا ونجحوا في تكوين قوة صليبية جديدة، لأمكنهم طرد العثمانيين من أوروبا. ولكن الموقف لم يكن سهلا، فالجيش العثماني الإقطاعي، وجيش «الغزاة» - بقيا - إلى حد كبير - تحت قيادة سليمان. على حين لم تكن أوروبا في حالة تمكنها من استغلال سوء الوضع العثماني لصالحها، فصريريا ظلت معتمدة على سليمان، وانشغل سيجسموند ملك المجر بتقدمه في وسط أوروبا، وأدى غيابه إلى تقوية نفوذ النبلاء الإقطاعيين المجريين، وكان أى هجوم صليبي محتمل دون مساعدة مجرية، سيلقى نفس المصير الذى لقيه الصليبيون في نيقوبوليس<sup>(٢)</sup>.

وهنا نلاحظ أن الوضع الداخلى للعثمانيين خلال فترة الشغور كان معقدا للغاية، فمعظمهم أرادوا عودة تقليد «الغزاة» لمحاربة الكفار وصبغ الدولة بالمؤسسات الإسلامية العالية التي أوجدها السلاجقة. أما المستشارون المسيحيون - أو الحزب المسيحي - فى البلاط العثماني، فقد اقترحوا سياسة مناقضة لسياسة الغالبية العثمانية، وذلك للاحتفاظ بوضعهم الجديد<sup>(٣)</sup>. وتقوم هذه السياسة على توجيه السلطان نحو الشرق. ومن ناحية أخرى، فإن المشكلة فى فترة الشغور لم تكن كامنة فى إعادة بناء الاستحكامات ضد أى هجوم أوربى مضاد، بل فى إعادة الزعامة الموحدة، وتأكيد الحكم العثماني فى الأناضول، وفوق ذلك تنظيم الدولة على أسس أقوى من تلك التي جعلت إمبراطورية بايزيد فى الأناضول وجيشه يتفتتان بسهولة فى مواجهة تيمور لنك<sup>(٤)</sup>.

وفى خلال فترة الشغور - أو الحرب الأهلية بين أبناء بايزيد - ظلت الحدود العثمانية على ما هى عليه تقريبا، فيما عدا الأراضى التي استولى عليها تيمور لنك، وتلك التي تنازل عنها سليمان فى مقابل حصوله على التأييد المسيحي، إذ لم يحاول أعداء العثمانيين

(1) Creasy, Turkey, p. 52, Shaw, op. cit., p. 36

(2) Shaw, Hist of the Ottoman Empire, Vol. I, P. 36.

(3) Ibid., pp. 35-37.

(4) Ibid., p. 37.

فى أوربا وآسيا الصغرى انتهاز فرصة التمزق العثمانى، والقيام بأى مجهود للقضاء على الوجود العثمانى<sup>(١)</sup>.

ومهما يكن من أمر، ففى أثناء وجود تيمور لك على مسرح الأحداث، ظهر النزاع على العرش العثمانى بين أبناء بايزيد فى شتاء عام ١٤٠٣ م. فادعى محمد فى بروسه سيادته على الأسرة العثمانية، ولكنه لم يلبث أن رجع عن ادعائه بسبب مساندة تيمور لك لأخيه موسى. غير أن محمداً قبل دعوة عدد من كبار الشخصيات من سنجقية أماسيا، التى أرادت قيادته لطرد أحد قواد تيمور لك من تلك السنجقية، فوافق محمد، واستطاع الاستيلاء على أماسيا فى عام ١٤٠٣، وسرعان ما مد محمد نفوذه إلى المدن المجاورة سيواس وتوقات ونكسار (قيسارية الجديدة) Niksar، وهى المدن التى سبق أن تهبها وخربها تيمور لك. وبعد أن أحرز محمد عدة انتصارات، تمكن من أن يجتذب إليه أعداداً كبيرة من أنصار ومؤيدى والده السابقين، وبعد مرور سنة على هزيمة أنقرة كان لديه جيش تركمانى ضخم قادر على التصدى للأعداء<sup>(٢)</sup>.

وكان موسى الإبن الوحيد من أبناء بايزيد الذى بقى مع أبيه فى الأسر عقب معركة أنقرة، وبعد موت بايزيد فى ٩ مارس سنة ١٤٠٣، سمح له أن يرافق جثة والده لدفنه فى بروسه<sup>(٣)</sup>. أما عيسى فقد استقر فى بالكسير، وفى الحروب التى دارت بين الأخوين، انتصر عيسى على أخيه موسى، واستولى على أراضيه، ففر موسى لاجئاً إلى ولاية كرميان<sup>(٤)</sup>.

أما سليمان الإبن الأكبر لبازيد فقد ضمن الأمان والاستقرار بفضل مساعدة العناصر المسيحية، وخاصة الإمبراطورية البيزنطية، فقد كانت مصلحتهم فى الوقوف إلى جانب سليمان خلال صراعه مع إخوته من أجل توحيد الأجزاء الآسيوية والأوروبية للإمبراطورية العثمانية، وذلك لأنه سلك معهم سلوكاً طيباً. على أن سليمان استغل العناصر المسيحية لصالحه، ويتضح ذلك فى أن ستيفن بن لازار (١٣٨٩ - ١٤٢٧) ملك صربيا، قد نافسه

(1) Ibid., p.37.

(2) Ibid., p. 37.

(3) Barker, Manuel II Palaologus, PP. 247-248.

(4) Nicol, op. cit., pp. 73-74.

الأمير جورج برانكوفتش، الذى أخذ يمد نفوذه فى جنوب صربيا. وكان سليمان سعيداً لأن يرى الأميرين الصربيين يقاتل أحدهما الآخر، واستغل الموقف لزيادة نفوذه على حسابهما، فى الوقت الذى كان سليمان يتطلع لإعادة ممتلكات أبيه فى الأناضول، وإعادة الإمبراطورية العثمانية إلى ما كانت عليه، بعد أن ينجح فى الإطاحة بإخوته<sup>(١)</sup>.

وكما رأينا، فقد تنازل سليمان عن عدد من المناطق، بما فى ذلك سالونيك، ومساحات كبيرة من جنوب مقدونيا، والمورة، وجزء من تراقيا الساحلية، والمدن القريبة من القسطنطينية بحذاء بحرمرمره والبحر الأسود، كما رفع الجزية عن بيزنطة. ولاشك أن تلك التنازلات كانت ثمنا غاليا دفعه من أجل الحصول على مساعدة المسيحيين ضد إخوته. كما عقد سليمان اتفاقيات مشابهة مع ستيفن ملك الصرب، ومع الجمهوريات الإيطالية فى ٣ يونيو ١٤٠٣، فقد تنازل لهم عن امتيازات تجارية فى مقابل مساعدته. ونتيجة لذلك، قبل الأبناء محمد وموسى وعيسى - إخوة سليمان - سيادة تيمور لنك، ووعدوه بدفع الجزية، وتقديم المساعدة الحربية ضد أخيههم سليمان الذين أطلقوا عليه إسم «عميل الأعداء» Agent of infidels فى أدرة<sup>(٢)</sup>.

ومنذ بداية الصراع بين أبناء بايزيد حول الوصول إلى عرش الدولة العثمانية ظهرت طموحات محمد واضحة، ففى الأناضول أحرز مركزاً هاماً، واستولى على الهضبة الوسطى من التركمان، ودخل فى حروب مع أخيه عيسى، انتصر فيها محمد انتصاراً ساحقاً، وأضاف بروسه وبالكسير إلى دولته التى أخذت تتوسع سريعاً، ثم اجتاز صابروخان، وأعلن محمد نفسه سلطاناً بتأييد الزعماء الدينيين المحليين، وبدأ فى سك عملته بإسمه، وأعلن خضوعه لتيمور لنك. أما أخوه عيسى فقد هرب من بروسه إلى القسطنطينية، وهناك رحب به يوحنا السابع، ثم غادرها إلى أخيه بحثاً عن الأمان. وقد حاول عيسى أن يسترجع نفوذه فى الأناضول، ولكن محمداً هزمه مرة أخرى، فهرب عيسى إلى الشرق، ولم نعد نسمع عنه شيئاً. وبذلك حكم محمد الأجزاء الأناضولية من الدولة العثمانية مع وجود أخيه

(1) Ibid., p. 75.

(2) Shaw, Hist. of the Ottoman Empire, pp. 37-38.



موسى تحت جناحه، على حين حكم سليمان الأجزاء الأوربية من الدولة. حدث ذلك فى سنة ١٤٠٥، وبات واضحاً أن هذا التقسيم من الممكن أن يستمر طويلاً<sup>(١)</sup>.

وعلى أية حال، كان سليمان - الإبن الأكبر - يمتلاً رغبة عارمة فى الأنفراد بحكم الإمبراطورية العثمانية. ولهذا قاد جيشه إلى الأناضول ضد أخيه محمد، فاستولى على أنقرة، وأصبح أقرب ما يكون إلى إحراز النصر ضد أخيه. وعلاوة على ذلك تحالف زعماء التركمان فى ربيع عام ١٤٠٦ خشية أن ينتصر سليمان ويقضى على استقلالهم، غير أن هذا التحالف لم يلبث أن انفض لعجزهم عن القضاء على طموحاتهم الشخصية ومصالحتهم الخاصة، وأصبح سليمان فى وضع يمكنه من إلحاق الهزيمة بمنافسيه فى وقت واحد<sup>(٢)</sup>.

وفى عام ١٤٠٦ حاول محمد أن يستولى على بروسة لمفاجئة أخيه سليمان من الخلف، بيد أنه لقى هزيمة فى ينى شهر، أجبرته على العودة إلى أماسيا. وفى عام ١٤٠٩ وضع محمد خطة جديدة، فقد أرسل أخوه موسى إلى أوروبا فى محاولة للسيطرة على ممتلكات سليمان أثناء غيابه. ومن أجل ذلك أراد محمد الحصول على مساندة مركيا حاكم الاشيا، وستيفن لازاريقتش ملك صربيا الذى خشى أن يصبح سليمان فى وضع بالغ القوة يهدد استقلاله. وفى الاشيا تزوج موسى من ابنة أميرها، ثم جهز جيشاً من الترك والوالاشيين والصرب والبلغار، وتحرك به ناحية أدرنة، الأمر الذى جعل سليمان يعود مسرعاً إلى أوروبا لإنقاذ ممتلكاته، تاركاً الفرصة ل محمد لإعادة الاستيلاء على بقية غرب الأناضول. وهنا حدث ما لم يكن فى الحسبان، فقد خاف قادة «الغزاة» من سليمان الذى سوف يعوق تقدمهم فى أوروبا، والتقوا به خلال سيره إلى القسطنطينية وخاضوا معه معركة بالقرب من صوفيا إنتهت بهزيمته وقتله فى ١٧ فبراير عام ١٤١١<sup>(٣)</sup>. وبذلك أصبح موسى سيد أوروبا دون منازع.

(1) Ibid., p. 38, Barker, Manuel II Palaeologus, pp. 248-249.

(2) Shaw, op. Cit., p.38.

(3) Ostrogorsky, op. cit., pp 558-558, Doukas, Decline and Fall of Byzantium, pp. 106-107, Shaw, op. cit., p. 38.

ولذا كانت إمبراطورية سليمان قد أصبحت في أيدي أخيه موسى، الذي عرف بنشاطه ومقدرته، فوجه الأهمية هنا أن موسى ألقى بتحالفه مع أخيه محمد عرض الحائط، ورفض الاعتراف بتبعيته، وأعلن نفسه سلطاناً، وسك العملة بإسمه. ولكي يرضى موسى قادة الغزاة (الحدود) الذين وقفوا إلى جانبه، عاقب صربيا وبيزنطة لمساندتهم سليمان، وقد أدان موسى أخاه سليمان على تسليمه الأراضي التي كانت في حوزة المسلمين من قبل، وتحرك لإعادتها باسم الإسلام، فاستولى على مساحات ضخمة من جنوب صربيا، بما في ذلك مركز نوڤو برودو Novo Brdo المشهور بتعدين الفضة، فضلاً عن قلاع برفادى وكوبرو Kopr، وفي نفس الوقت غزا أتباعه أجزاء من مقدونيا. وعندما رفض الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني تسليم الأراضي، إنقلب عليه موسى وأجبره على دفع الجزية، ثم بدأ حصاره للقسطنطينية، وهر الحصار الخامس الذي قام به العثمانيون (١٤١١ - ١٤١٢)، واستطاع موسى أن يستعيد كل الأراضي التي سلمها سليمان للبيزنطيين، فيما عدا سالونيك<sup>(١)</sup>.

أدرك مانويل الثاني ما عليه موسى من قسوة وكراهية للمسيحيين، فبعث برسالة إلى محمد الذي كان آنذاك في بروسة، يدعوه أن يأتي إلى سكوتارى، ووعد بنقله في سفنه إلى القسطنطينية، وذلك لقتال موسى. فاستمع محمد للإمبراطور وقاد جيشه إلى سكوتارى، ثم توجه إلى العاصمة. ودخل محمد مع موسى في معركة، ولكنه منى بهزيمة اضطرته إلى الفرار على سفن بيزنطية. وعاد إلى الأناضول، وأخذ يتآمر ضد موسى، بأن وعد صربيا وبيزنطة بإعادة الأقاليم التي انتزعت منهما. وكان أن نزل محمد على ساحل البحر الأسود شمالي القسطنطينية، وتقدم تجاه أدرنه، وسحق جيشاً بقيادة موسى في فيزا Viza، فهرب موسى، ولكنه لم يلبث أن وقع أسيراً، وجرى قتله في ساماكوف جنوب شرق صوفيا في ١٠ يوليو عام ١٤١٣م<sup>(٢)</sup>.

وهكذا انتهى الانشقاق الكبير في البيت العثماني، واستطاع محمد أصغر أبناء بايزيد أن يتغلب على إخوته الواحد بعد الآخر، ويصبح السلطان الوحيد للدولة العثمانية، واشتهر في التاريخ باسم السلطان محمد جلبي الغازي. ولاشك أنه بفضل كبار الشخصيات التركية

(1) Shaw, op. cit., pp 38-39.

(2) Shaw, op. cit., p. 39, Doukas, op. cit., pp. 109-110.

والعناصر البيزنطية في المجتمع العثماني، وجيرانه المباشرين، استطاع محمد أن يوحد ممتلكات أبيه<sup>(١)</sup>.

وينبغي ألا نبالغ في تقدير أهمية فترة الركود التي شهدتها الدولة العثمانية بين سنتي ١٤٠٢ و ١٤١٣. فمن حيث حروب تيمور نلاحظ أنها انحصرت في الأملاك العثمانية في آسيا الصغرى، حقيقة أنها أرجعت الإمارات التركمانية مرة أخرى إلى الوجود، ولكن يجب ألا نغفل أن الحكم العثماني في هذه المناطق لم يكن مستقراً، ولم يكن السلاطين العثمانيون قد صبغوا هذه المناطق بالصبغة العثمانية، ثم يجب ألا ننسى أنها لم تكن في ذلك تكون جزءاً هاماً من الدولة العثمانية، بل بقي قلب الدولة العثمانية سليماً لم تمتد إليه يد التلغ أو الثورة سواء من ناحية تيمور أو العناصر المسيحية في البلقان. الأمر الوحيد الذي تركته هذه النكسة هو تأجيل الفتوحات العثمانية عامة وسقوط القسطنطينية بالذات لفترة من الزمان<sup>(٢)</sup>. ومن حسن حظ العثمانيين أن زاد عدد الأتراك الهاربين أمام جيوش المغول، فامتألت بهم آسيا الصغرى وأملاك الدولة العثمانية في أوروبا، فازدادت قوة الدولة العثمانية من الناحية الحربية.

عندما صار محمد الأول سلطاناً غير منازع للدولة العثمانية في عام ١٤١٣ كان مانويل الثاني مازال يحكم في القسطنطينية، كما كان الأمير ماركيا يحكم والاشيا، وستيفن لازاريقتش يحكم الضرب. أما البوسنة فكانت ما تزال مستقلة، والباينا في طريقها لأن تكون دولة موحدة، على حين إن المجر التي لم تكن بينها وبين العثمانيين حدود مشتركة، بل كانت دولة قوية يحكمها سيجسموند ولها طموحات في البلقان. أما البندقية فكانت تمتلك أراضى حول شواطئ شبه جزيرة البلقان. وعلى هذا كان تحديد سيد البلقان من بين تلك القوى. أمر في غاية الأهمية ولا بد من تقريره في النهاية<sup>(٣)</sup>.

(1) Shaw, op. cit, p. 39.

(٢) محمد أنيس: المرجع السابق، ص ٥٤.

(٣) بيتر شوجر: أوروبا العثمانية، ١٣٥٤ - ١٨٠٤، ترجمة د. عاصم الدسوقي (القاهرة ١٩٩٨)، ص ٤٣.

## السلطان محمد الأول (١٤١٣ - ١٤٢١):

بعد أن صار محمد سلطاناً وحيداً على العثمانيين، اتبع سياسة سلمية مع جيرانه، حتى تسترجع دولته قوتها. فعقد اتفاقية سلام مع الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني، أعاد إليه بموجبها جميع الأقاليم البيزنطية الواقعة حول القسطنطينية وسالونيك، التي أخذها أخوه موسى من الإمبراطورية، وقد فعل محمد ذلك على الرغم من معارضة زعماء التركمان وغيرهم. كما عقد محمد معاهدات سلام مع الحكومات البلقانية المسيحية، والبندقية وجنوه، حتى لا يظهر بمظهر الذي يريد أن يفرض سيطرته مثلما فعل أسلافه<sup>(١)</sup>، وإن كان في الحقيقة كان يعمل على كسب الوقت لإعانة النفوذ العثماني إلى ما كان عليه. وما يدل على ذلك، أن محمداً حرص على إبعاد التأثيرات البيزنطية والمسيحية في بلاطه، التي جعلت أبيه بايزيد يتخلى عن دور «الغزاة»، فقام بطرد النساء البيزنطيات والمستشارين البيزنطيين من القصر<sup>(٢)</sup>.

ولكى يقوى محمد مركزه في الأناضول، قام بسلسلة سريعة من الحملات العسكرية في بداية حكمه. ففي سنة ١٤١٤ أجبر إمارة منتشا على الاعتراف بسيادته، واستعاد أزمير بمساعدة ضئيلة قدمتها الأساطيل الجنوبية الراسية في مياه الجزر الإيجية. وأتبع ذلك بحملتين سريعتين ضد إمارة قرمان في سنتي ١٤١٤ و ١٤١٥، وأوقع الهزيمة بأميرها، وبذلك استعاد المناطق التي أخذت من أبيه بايزيد قبل عام ١٤٠٢ م<sup>(٣)</sup>.

وبعد ذلك انشغل محمد بوضع حد لمشاكله في أوروبا. فقد انتهب زعماء الألبان فرصة شغور العرش العثماني. وما ترتب عليه من نشوب الصراع بين أبناء بايزيد، وأقاموا مذبحاً في الحاميات العثمانية التي تركت في ألبانيا. واستطاع محمد أن يستعيد نفوذه وذلك بالإستيلاء على كرويا (قره حصار) في الجبال الوسطى، وقالونا على الساحل. كما أخضع محمد لطاعته أمير والاشيا مركيا (١٣٨٦ - ١٤١٨)، الذي وقف إلى جانب أخيه موسى خلال الصراع الدائر بينهما حول التسابق إلى العرش العثماني. ثم قام محمد بسلسلة من

(1) Shaw, Hist of the Ottoman Empire, Vol. I., p. 41.

(2) Ibid., p. 41.

(3) Ibid., p. 41.

الغزوات في ترانسلفانيا والمجر، حيث كان ملك المجر سيجسموند (١٣٨٦ - ١٤٣٧) يغذى أطعمته في المنطقة، وأتم محمد غزو دوبرجا. وأدت الغارات المنظمة التي قام بها محمد في البوسنة إلى أن الملك البوسنوي فرتكو الثاني (١٤٢٠ - ١٤٤٣) وكثيراً من النبلاء الإقطاعيين قد اعترفوا بطاعة العثمانيين<sup>(١)</sup>. وأصبح واضحاً منذ ذلك الوقت فصاعداً أن الإمبراطورية العثمانية سيكون لها نفوذ على شئون البوسنة ينافس نفوذ المجر، الأمر الذي اضطر الحكام والنبلاء البوسنيين إلى التعاون مع الأتراك العثمانيين، وهو أمر أثار حفيظة بعض المؤرخين المعاصرين، ولاسيما الصربيون منهم، ولكن طريقة هؤلاء الحكام آنذاك لم تكن تختلف كثيراً عن تصرفات أمثالهم الذين التمسوا المعونة في الماضي من المجر، ولكن الفارق الرئيسى بين الاستعانة بالمجر والأتراك في ظنهم أن الأتراك قوة أبعد ووجودهم مرهون بلحظة معينة، ولا يرجح أن يفرضوا أى لون من ألوان الحكم المباشر عليهم كما سيفعل المجريون<sup>(٢)</sup>.

وأخيراً خاض محمد حرباً بحرية مع البندقية وقراصنتها المتمركزين في الجزر الإيجية، الذين استمروا في أسر السفن التركية، ونهب السواحل التركية. وعلى الرغم من أنه كان قد بدأ في بناء أسطول، إلا أن الأسطول البندقي أوقع هزيمة فادحة بالأسطول التركي بالقرب من غاليبولي في ٢٩ مايو عام ١٤١٦ م. وفي النهاية عقد السلام بين البندقية والدولة العثمانية، وقد توسط في هذا السلام الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني، الذي استطاع التأثير في البندقية لتكبح جماح قراصنتها، مقابل حصولها على امتيازات إضافية في أنحاء الإمبراطورية العثمانية<sup>(٣)</sup>.

ويرجع الفضل إلى السلطان العثماني محمد الأول في أنه قضى على الحركات الداخلية التي هددت كيان الدولة العثمانية، ولاسيما حركة الشيخ بدر الدين. وقد ولد هذا الشيخ في قلعة سيماونه إحدى قرى أدنة زمن السلطان مراد الأول. وحفظ القرآن الكريم، وتعلم الصرف والنحو، ثم ارتحل إلى مصر، وتلمذ على يده السلطان فرج بن السلطان برقوق<sup>(٤)</sup>.

(1) Ibid., p. 42.

(2) مالكولم: البوسنة، ص ٥٣.

(3) Ibid., p. 42., Creasy, Turkey, pp. 56-57.

(4) محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي، ص ٥٤ - ٥٥، يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، جـ ١، ص ١١٨، محمد حرب: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص ١٣٣ - ١٣٥.

ذهب الشيخ بدر الدين إلى تبريز للإرشاد الصوفي، وفي أزنق بدأ يدعو إلى مذهبه، فنادى به على النحر الآتى:

– وحدة الوجود.

– الوجود المطلق هو الله الإله الخالق باعتبار الفعل والتأثير، والعبد المخلوق باعتبار التأثير والانفعال.

– الدعوة إلى الزهد المطلق، وذلك بأن يتجرد الفرد من فخار الثياب، ويكتفى بقطعة من الملابس واحدة تستره، وأن يسير عارى الرأس، وله أن يتخلص من شعره تماما ويسير حافى القدمين<sup>(١)</sup>.

وجعل الشيخ بدر الدين ترك الدنيا وعدم الاشتغال بأمورها من أهم مانادى به، ويعبر عن ذلك بالعبارات الآتية:

– ترك الاشتغال بالدنيا من أعظم أصول الوصول إلى الحق.

– إنكار الجنة والنار ويوم القيامة والملائكة والشياطين.

– عيسى مات جسداً، أما روحه هي الحية.

– إنكار حق التملك، والقول بشيوعية المال والملك.

– قصر الشهادة على نصفها الأول، بمعنى أن تقتصر الشهادة على «لا إله إلا الله» وحذف نصفها الثانى «محمد رسول الله» وكان ذلك طمعا فى ضم اليهود والمسيحيين إلى الحركة<sup>(٢)</sup>.

وساعد على نشر أفكار الشيخ بدر الدين مریدان على درجة كبيرة من النشاط، أحدهما يهودى يدعى طورلاق هود كمال، وكان يدعو لفكر الشيخ فى منطقة مغنيسيا، والثانى يدعى بوركلوجه مصطفى ويدعو إلى فكر الثورة بالقرب من أزمير<sup>(٣)</sup>. وقد كثر أتباع الشيخ بدر الدين، وأخذوا فى نشر مذهبهم بالقوة والتعرض للناس والأموال، فقتلوا الآلاف،

(١) محمد حرب: المرجع السابق، ص ١٣٥.

(٢) محمد حرب: المرجع السابق، ص ١٣٥ – ١٣٧، يلماز أوزتونا: المرجع السابق، جـ ١ ص ١١٨.

(٣) محمد حرب: المرجع السابق، ص ١٤٠.

واجترأوا على أمير أزمير اسكندر بك وقتلوه. وقبض على الشيخ بدر الدين فى دلى أورمان جنوب دوبرووجه، وحاكمه السلطان محاكمة شرعية، وأعدم شنقا على شجرة فى مدينة سيريز<sup>(١)</sup> فى سنة ١٤٢٠ م.

وكان محمد الأول محباً للشعر والأدب والفنون، شأنه فى ذلك شأن كثير من سلاطين الدولة العثمانية الأول. وقد أطلق عليه رعاياه لقب بهلوان (ومعناها البطل). وذلك بسبب نشاطه الدائب وشجاعته. كما أن اعتدال مزاجه وسلوكه وشهامته وحبه للعدالة والحق وسموه باعتباره راعياً فطناً للأدب والفنون، مما خلغ عليه لقباً آخر أعلى مقاماهو لقب «جلبى» الذى يذكر فون هامر أنه يتضمن نفس المعنى الذى يخلعه الإنجليز على لقب چنتلمان<sup>(٢)</sup> The gentleman أى (السيد المهذب) ويعتبر السلطان محمد أول سلطان عثمانى أرسل الهدية السنوية إلى أمير مكة التى يطلق عليها إسم «الصرة» حتى وقت قريب، وهى عبارة عن قدر معين من النقود يرسل إلى الأمير لتوزيعه على فقراء مكة والمدينة. وقد ذكر بعض المؤرخين أن السلطان سليم الأول هو أول من أرسل الصرة فى سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧) بعد فتح مصر، ولكن اتفق من يوثق بهم من المؤرخين خاصة صولاق زادة، على أن السلطان محمد جلبى هو أول من أرسلها<sup>(٣)</sup>. حقيقة إن بعض الحكام العثمانيين قد فاقوا محمداً شهرة، إلا أن بالإمكان اعتباره من أنبل أولئك الحكام. فقد اعترف المؤرخون الشرقيون واليونانيون بإنسانيته، وما يدل على إثاره السلام أنه نقل العاصمة من أدنة (مدينة الغزاة) إلى بروسة (مدينة الفقهاء)<sup>(٤)</sup>.

### مراد الثانى (١٤٢١ - ١٤٥١):

يعتبر مراد الثانى واحد من أعظم السلاطين العثمانيين، وهو الذى أسس القوة العثمانية فى أوروبا وآسيا. وقد سار مراد الثانى على نهج أبيه محمد الأول، فى كونه محباً للعدالة، وراعياً نشيطاً للفنون، ومحباً للحياة. وعمل على تطوير مؤسسات الدولة والجيش،

(١) يلماز أوزتونا: المرجع السابق، ج ١، ١١٨، ٦٤. Castellan, op. cit., p. 64.  
(2) Schevill, op. cit., p. 192.

أحمد عبد الرحيم مصطفى: فى أصول التاريخ العثمانى، ص ٦٢.

(٣) محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٥٤.

(٤) أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ٦٢ - ٦٣.

بطريقة جعلت إبنه وخليفته محمد الثانى (الفاخ) قادراً على القيام بفتوحات جديدة لبناء أعظم إمبراطورية فى الشرق والغرب<sup>(١)</sup>.

وقبل أن يبدأ مراد الثانى فى إعادة بناء الإمبراطورية العثمانية، قضى ثلاث سنوات (١٤٢١ - ١٤٢٣) محارباً فى سبيل حقه فى الحكم، فقد كان عمره عند اعتلائه العرش سبعة عشر عاماً، ولكن وجود إخوته الأربعة الأصغر منه أمد أعداؤه بفرصة ثمينة لإثارة النزاع داخل البيت العثمانى<sup>(٢)</sup>. ويظهر لنا التاريخ العثمانى عنف العادة العثمانية وقسوتها، التى أصبحت بعد ذلك قانوناً واقعاً، وهى أن الذى يصل إلى العرش العثمانى يتبغى عليه أن يقتل كل إخوته ليتجنب أخطار الحرب الأهلية، ولسوء الحظ لم يتخل واحد من وصلوا إلى العرش عن تلك العادة الذميمة<sup>(٣)</sup>. وقبل أن يموت السلطان محمد الأول أراد أن يجنب أولاده ذلك المصير التعس، فأرسل الأمير مصطفى إلى إمارة حميد ليحكم الأناضول، وأرسل الأميرين الأصغر يوسف ومحمود للإمبراطور البيزنطى مانويل الثانى ليكونا فى حمايته، وليؤكد بقاءهما أحياء بعد أن يستولى أخاهما على السلطنة<sup>(٤)</sup>.

وكان مراد الثانى يأمل المحافظة على السلام مع مانويل الثانى، ليكسب وقتاً يسمح له بإعادة بناء الدولة من الداخل، ولكن مانويل الثانى اغتتم فرصة وفاة السلطان محمد الأول وصغر سن السلطان الجديد، وبعث برسولين هما لآخانااس باليولوجوس وثيولوجوس كوراكس Theologos Korax - وهو فى الأصل من آلاشهر (فيلاذلفيا) - إلى مراد، لتعزيته فى وفاة والده، وفى نفس الوقت لتنهئته بولاية العرش. والحقيقة أن مانويل كان غرضه من تلك السفارة، هو تذكير مراد بوصية والده الأخيرة، التى عهد فيها لمانويل بالعناية بولديه يوسف ومحمود وتنشئتهما وتربيتهما فى قصره. فإذا رغب مراد فى استمرار أواصر المودة والصداقة مع الإمبراطور كما فعل والده من قبل، وجب عليه أن ينفذ وصية أبيه، أما إذا رفض تنفيذ تلك الوصية، فإن مانويل هدده بوضع شخص آخر محله حاكماً لمقدونيا وخرسون وكل تراقيا. فرد عليه مراد أنه لا ينبغي أن يتلقى أولاد المسلمين العلم على

(1) Shaw, op. cit., p. 44, Schevill, op. cit., p. 192.

(2) Shaw, op. cit., p. 44.

(3) Barker, op. cit., p. 247.

(4) Shaw, op. cit., Vol. I, p. 44.



أيدى غير المسلمين، ويأبى السلطان ذلك على نفسه بطبيعة الحال، لأنه أمر يأباه دينه. وأبلغ مراد السفارة أن الإمبراطور يطلب المستحيل<sup>(١)</sup>.

وتعين على السلطان مراد الثانى أن يحمى عرشه من مدع يخالف مع الإمبراطور البيزنطى مانويل الثانى، وزعم أنه مصطفى بن بايزيد - عم السلطان - وقد أطلق عليه المؤرخون مصطفى المزيف The False Mustafa<sup>(٢)</sup>. ويذكر نيقولا فانان<sup>(٣)</sup> أن مصطفى من الاشيا التى كان موجوداً فيها فى صيف عام ١٤١٥، وجاء إلى مقدونيا عن طريق بلغاريا، وتسميه الروايات العثمانية بدوزمه مصطفى أى «مصطفى المزعوم» (الكاذب). ولم يتمكن المؤرخون من تحديد إذا كان مدعياً أم لا. على أن التأيد الذى حصل عليه مصطفى من مركيا الكبير أمير الاشيا، وجنيد بك الذى أراد استعادة أقاليم أسرته الواقعة حول أزمير، ومانويل الثانى، وعدة أعيان عثمانيين، والآنزعاج الذى استبد بمحمد الأول، كل ذلك يشير إلى أن مصطفى كان يتمتع بنفوذ مطالب حقيقى بالعرش، بغض النظر عما إذا كانت دعواه مشروعة أم لا. وعلى أية حال، اعترف الإمبراطور البيزنطى بمصطفى كوريث شرعى للعرش العثمانى، وإذا نجح فى الوصول إلى العرش، عليه أن يتنازل عن عدد من المدن الهامة للإمبراطور بعد الاستيلاء عليها. فلم تلبث أن وقعت غاليبولى فى أيدي مصطفى المزيف بعد مقاومة ضئيلة<sup>(٤)</sup>. واستغلت إمارة قرمان الفرصة، واستولت على إمارة حميد القديمة مرة أخرى، بينما أطاحت إمارات منتشا وأيدى، وصاروخان بروابط تبعيتها للعثمانيين<sup>(٥)</sup>.

وأثبت السلطان العثمانى الصغير مراد الثانى أنه يمتلك مقدرة حربية ومهارة سياسية جديرة بأسلافه العظام. إذ اسرع بالتوجه إلى بروسة لتجهيز جيش يمكنه من إعادة نفوذه فى الأناضول. وعندئذ عبر مصطفى المدعى إلى أوروبا وزحف على أدرنة، وقد انضم لمساعدته أمراء الحدود وأتباعهم الذين كانوا يأملون آنذاك القيام بفتوحات جديدة فى أوروبا، وخشوا

(1) Doukas, Decline and Fall of Byzantium, p. 132.

(2) Ibid., p. 136, Shaw, op. cit., p. 45.

(٣) صعود العثمانيين، جـ ١، ص ٨٥.

(4) Creasy, Turkey, p. 57.

(5) Shaw, op. cit., p. 45, Doukas, op. cit., p. 136.

أن يستمر مراد الثاني في السير على سياسة أبيه في التركيز على الفتوحات في الأناضول<sup>(١)</sup> دون أوروبا.

على أن مصطفى المدعى ليرتكب نفس الخطأ القاتل الذي كلف بايزيد الأول عرشه، عندما قرر أن يدخل الأناضول لتوحيد الإمبراطورية العثمانية تحت حكمه، وإن كان في الحقيقة أن البيزنطيين هم الذين حرضوه على ذلك، إذ كان يسعدهم جعله بعيداً كلما أمكن، هو وحليفه جنيد بك. ويلاحظ أن النجاح الذي أحرزه مصطفى في أوروبا، جعل مراد يحصل على بعض المساعدات من صربيا وأمرأاء البلقان الآخرين، الذين خافوا من إعادة تأسيس القوة العثمانية تحت زعامة مصطفى. فزحف مصطفى تجاه بروسه، حيث كان مراد يعد جيشه. وعندما تقابل الجيشان في أولوبات Ulubat لقي مصطفى هزيمة ساحقة، وفر إلى أوروبا، فقتلته مراد على الفور، وقد حصل على السفن التي احتاجها لعبور رجاله من جنوية فوشا Foca، وخرج مصطفى هارباً من أدنة ومعه كنوزه وحريمه قاصداً والأشياء، ولكنه وقع أسيراً وقتل في الطريق، وبذلك انتهت ثورته<sup>(٢)</sup>.

وأدرك الإمبراطور مانويل الثاني سوء فعله والخطر الذي يهدده، وأراد أن يقلل من غضب السلطان مراد الثاني، فبعث إليه يهنئه بانتصاره على مصطفى المدعى، ويعتذر له عما بدر منه، ولكن السلطان لم يكثر له. فقد جلب هذا التصرف على عاصمة مانويل الثاني كارثة جديدة، ويظهر ذلك واضحاً في أن مراد الثاني قرر فرض الحصار عليها، ومن ثم جمع جيشاً ضخماً بلغ حوالي عشرين ألف مقاتل، وجهاز الاستعدادات اللازمة لشن هجوم على القسطنطينية. وكان الإمبراطور مانويل الثاني قد صار عاجزاً طاعناً في سن السابعة والسبعين، وقد عهد منذ زمن طويل بمهام الإمبراطورية لابنه يوحنا الذي كان يخدم في المورة مع أخيه، وعندما علم مانويل أن مراد يستعد للزحف ضده في أبريل سنة ١٤٢٢ أرسل مبعوثه ثيولوجوس كوراكس إلى مراد لمعرفته التامة باللغة التركية<sup>(٣)</sup>.

(1) Shaw, op. cit., p. 45.

(2) Shaw, op. cit., p. 45.

(3) Doukas, Decline and Fall of Byzantium, pp. 160-161, Pears, The Destruction of the Greek Empire, p. 155.

وعلى أية حال، فرض السلطان مراد الثاني الحصار السادس على القسطنطينية في ٨ يونيو سنة ١٤٢٢، وكادت أن تقع في يده، لولا المقاومة العنيدة التي أبداهها سكان المدينة، فقد صدوا المحاصرين، وشجعوا ثورة جديدة في الأناضول قامت بها إمارتا قرمان وكرميان، إذ أغرى البيزنطيون أخ صغير لمراد يدعى أيضا مصطفى الذي بقي حاكما لإمارة حميد، على الخروج على أخيه ليخفف وطأة الحصار على القسطنطينية. وقد شكل الأطراف الثلاثة - قرمان وكرميان وحميد - جيشا متحالفا، استطاع الاستيلاء على نيقية، وفرض الحصار على بروسة في أغسطس عام ١٤٢٢، وبذلك هدد نفوذ مراد مرة أخرى. وعندئذ فك مراد الحصار الذي طال شهرين عن القسطنطينية، وتحرك عائداً إلى الشرق، وهناك وجد عدداً ضخماً من القادة التركمان قد انضموا إلى أخيه مصطفى<sup>(١)</sup>. ودارت معركة بين مراد وأخيه، انتصر فيها مراد، وفر مصطفى، فطارده رجال مراد، وقبضوا عليه بالقرب من شواطئ الدانوب، وهو في طريقه إلى القسطنطينية بحثاً عن النجاة، وأحضره المطاردون إلى مراد، فقرر أن يعدمه شنقاً في ميدان عام كمجرم عادي أمام الناس<sup>(٢)</sup>، في ٢٠ فبراير عام ١٤٢٣، واستعاد السلطان أتباعه الذين وقفوا إلى جانب أخيه مصطفى لطاعته، كما ضم إليه أتباع أخيه.

حاول محمد الثاني أمير قرمان الاستيلاء على المرفأ العثماني أنطاليا، ولكنه مات خلال الحصار بقذيفة مدفعية أطلقت من القلعة، وكان لذلك وقع طيب على مراد، فقد انزاح تهديد آخر من أمامه. وقد استغل مراد المنافسين للعائلة الحاكمة لإمارة قرمان لصالحه، فوضع على العرش محمد بك (١٤٢٣ - ١٤٢٦)، وقبلت قرمان سيادة السلطان العثماني، كما رجعت إمارة حميد مرة أخرى إلى العثمانيين. وأنهى مراد حملته في الأناضول، وذلك بضم الإمارات التركمانية الغربية آيدين ومنتشا وتكه وجزء عظيم من إمارة قسطنطيني<sup>(٣)</sup>.

وفي أوروبا عقد الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني اتفاقية سلام دائم مع مراد في سنة ١٤٢٤، وافق الإمبراطور بمقتضاه على تسليم السلطان المدن الواقعة على البحر الأسود،

(1) Shaw, op. cit., Vol. I, p 45, Hearsy, City of Constantine, p. 232.

(2) Doukas, op. cit., p. 160.

(3) Shaw, op cit., p. 46.

باستثناء القلاع الحصينة مثل مسمبريا ودركوا Derkoi، كما تعهد الإمبراطور بدفع جزية سنوية مقدارها ثلاثمائة ألف قطعة من الفضة<sup>(١)</sup>، وقبلت صربيا وروالاشيا والمجر السيادة العثمانية، ووافقت على دفع جزية في سنة ١٢١٤<sup>(٢)</sup>. وبذلك عادت بيزنطة مرة أخرى إلى وضع دولة تابعة للعثمانيين، وهى التبعية التى تخلصت منها لفترة بعد معركة أنقرة، ولم تتخلص بيزنطة أبداً من تلك التبعية، حيث بقيت على هذا الوضع حتى النهاية<sup>(٣)</sup>.

### الحرب الأولى بين العثمانيين والبنادقة واشتراك صربيا وروالاشيا والمجر فيها:

وحتى ذلك الوقت كانت الصداقة قائمة بين العثمانيين والبنادقة، فقد أرادت البندقية أن تحمى مصالحها التجارية فى الأراضى العثمانية ومنطقة البحر الأسود، وذلك بالحفاظ على علاقات طيبة مع السلطان، خاصة منذ أخذ منافسوها الجنوبية يبحثون عن عقد أواصر الصداقة مع السلطان لإبعاد البندقية. وقد سبق للبندقية أن وقعت اتفاقية تجارية مع السلطان يازيد فى عام ١٣٨٨، كما أنها لم تشترك مع القوى الأوروبية فى الحملة الصليبية التى قامت بها فى كوسوفا. بيد أن التوسع العثماني فى مقدونيا باتجاه البحر الأدرياتي، وفى اليونان تجاه البحر الإيجي، جعل البندقية تشعر بالقلق، وتخشى المنافسة فى مساحة كانت تحت سيطرة نفوذها لبعض الوقت. وقد رأى العثمانيون أنه طالما تسيطر البندقية على الممرات المؤدية للبحر الإيجي، فإن باستطاعتها دوماً تهديد المواصلات بين الأناضول وروميللى (أملاك الدولة العثمانية فى البلقان)، وتقف حجر عثرة فى التوحيد الكامل لشطرى الإمبراطورية الرئيسيين<sup>(٤)</sup>.

وقد أرادت البندقية القضاء على النفوذ العثماني فى مقدونيا، وذلك بوضع أمير عثماني آخر فى العرش، إدعى حقه فيه إسمه مصطفى، وهو المعروف عند المؤرخين باسم مصطفى المدعى، وأرسلت السفن لمساعدته فى الاستيلاء على كساندرا Kassandra وكافالا Kavalla، وهأت له الحصول على مساندة هامة من التركمان الموجودين فى

(1) Doukas, op. cit., p. 169.

(2) Shaw, op. cit., pp 46-47, Lodge, op. cit., p. 506.

(3) Ostogorsky, Hist of the Byzantine State, p. 529.

(4) Shaw, Hist of the Ottoman Empire, Vol. I, p. 47.

المنطقة سنة ١٤٢٥. وهنا نلاحظ أن الحرب الأولى بين العثمانيين والبندقية قامت على فترات طال أمدها حتى سنة ١٤٣٠. ومن الأسباب الرئيسية التي أدت إلى طول تلك الحرب، اختلاف المواقف الاستراتيجية عند الفريقين، والبندقية المعروفة بقوتها البحرية، استطاعت الحفاظ على قواعدها الساحلية بقوات برية صغيرة نسبيا. أما العثمانيون الذين كانت قواتهم الفعالة في البر، فقد بدأوا في إنشاء أسطولهم حديثا، ولذلك لم تتوفر لديهم وسيلة لمنافسة قوة البندقية ومقدرتها في استخدام قواعدها<sup>(١)</sup>. على أن البندقية قد أنهكت قواها في حرب ضد أعدائها في إيطاليا، وهي الحرب التي قادتها ميلان، ولهذا لم يكن بوسع البندقية سوى استخدام جزء صغير من أسطولها ضد العثمانيين. وقد حصلت البندقية على مساندة المجر والصرب والاشيا في البر، حيث صاروا الأداة الفعالة في نزاعها مع جيوش السلطان العثماني<sup>(٢)</sup>.

والحقيقة أن غزو الأتراك العثمانيين لصربيا حتى نهر الدانوب، وبلغاريا جنوبى الجبال البلقانية، جعلتهم يدخلون في صدام مباشر مع المجر. أما والاشيا فقد صارت إمارة قوية ومتمحدة في عهد مركيا الكبير (١٣٨٦ - ١٤١٨)، ولكن النزاع الذي نشب بعد وفاته من أجل الوصول إلى العرش أضعف قدرتها على القتال إلى حد كبير، وأرهن مقاومتها، في الوقت الذي استغل كل من المجرين والعثمانيين هذا الوضع لصالحهم الخاص. أما صربيا فقد سمح ملكها ستيفن بن لازار للعثمانيين بعبور أراضيه في طريقهم لغزو البوسنة في عام ١٤٢٦. وبعد وفاة ستيفن في ١٩ يوليو عام ١٤٢٧، دخلت صربيا في منازعات أسرية لمدة نصف قرن تشبه تماما الموقف في والاشيا. وعندما أصبح جورج برانكوفتش (١٤٢٧ - ١٤٥٦) - ابن أخت ستيفن - ملكا على صربيا، وقد أخذ على عاتقه منذ البداية التخلص من التبعية التي خضع لها أسلافه منذ معركة كوسوفاء، إعتزف بسيادة سيجسموند ملك المجر في مقابل الخدمات التي أداها له. وتنازل برانكوفتش عن قلعة بلغراد الدانوبية المنيعة للمجر في مقابل الحصول على مساعدتها، وبذلك جعل منها القاعدة الرئيسية لمقاومة العثمانيين. ولكن السلطان مراد الثاني رد على ذلك بدعوى أن صربيا تابعة له نتيجة لزواج السلطان بايزيد من أوليفيرا Olivera أخت ستيفن. ولكي يقوى مراد دعواه غزا صربيا مرة

(1) Ibid., pp.47-48.

(2) Ibid., p. 48.

أخرى فى عام ١٤٢٨ ، واستولى على عاصمتها كروشيفاتش (ألاجه حصار) الواقعة فى وسط بلاد الصرب، وأجبر برانكوفتش على استئناف روابط التبعية القديمة للدولة العثمانية، كما تزوج مراد الثانى من مارا إينة جورج برانكوفتش لدعم النفوذ العثمانى<sup>(١)</sup>. وتوثيق عرى التحالف بين الدلتين. ويرى البعض أن برانكوفتش قد برهن على أنه دبلوماسى ذاهية وسياسى حقيقى، فلكى يهدىء من نائرة مراد الثانى الذى طلب منه تسليم صربيا، وزوجه من ابنته مارا، وأعطاه بعض الأقاليم الصربية دوة لها، كما تعهد برانكوفتش بدفع جزية سنوية، وتقديم مساعدة حربية، وقطع علاقته مع المجر. وبذلك استبقى جورج برانكوفتش عرشه المتزعزع واحتفظ به<sup>(٢)</sup>.

وعلى أية حال، جهز سيجسموند ملك المجر جيشا متحالفا من المجر ووالاشيا وإمارة قرمان ضد العثمانيين فى الأناضول وأوربا فى وقت واحد. وتحالفت البندقية مع اللاتين فى قبرس لمساعدة قرمان، وحثت الأمراء التركمان الباقين فى الأناضول وحاكم إيران التيمورى شاه رخ ضد العثمانيين. وعندما علم السلطان مراد الثانى بذلك عاد إلى أوربا، وبنى أسطولا جديدا<sup>(٣)</sup>. وتقدم الأتراك العثمانيون مندفعين بأعداد كبيرة كالنحل إلى سالونيك، وعندما اقتربوا من المدينة نشروا خيمهم وأحاطوا بها. وفى اليوم الرابع ٢٩ مارس عام ١٤٣٠ تقدم الجيش العثمانى نحو سور المدينة، يحملون السلالم والألواح الخشبية السمكية، وأدوات الحصار والدروع، وتغلب الأتراك على القلة المدافعة عن المدينة، وقتل وجرح العديد، ودخل الأتراك المدينة باندفاع شديد، وامتألت المدينة بهم، ونهبوا كل شىء صادفهم<sup>(٤)</sup>. وبعد أن استقر العثمانيون فى المدينة أعاد مراد المسيحيين إليها، ورجعوا إلى كنائسهم وأديرتهم، واستعادوا كل ممتلكاتهم<sup>(٥)</sup>. وفى ٤ سبتمبر من نفس العام، أجبرت

(1) Ibid., p. 78, Lodge, op. cit., p. 130.

(2) Spinka, A Hist of Christianity in the Balkans, p. 153.

(3) Shaw, op. cit., p. 48.

(4) Vryonis (Speros), "The Ottoman Conquest of Thessaloniki in 1430", in Continuity and Change in late byzantine and Early Ottoman Society. ed. by Bryer (Anthony) and lowry (Heath) (U.S.A, 1986), pp. 290-293, Nicol, op. cit., p. 78, Schevill, op. cit., p. 130.

(5) Vryonis, op. cit., p. 302.

البندقية على قبول صلح لابسكى Peace of lapseki، إعترفت بموجبه بسيطرة العثمانيين على مقدونيا ودفع جزية سنوية، في مقابل سيطرة البندقية على ليبانتو والقواعد الأديراتية الأخرى، بالإضافة إلى استعادة البنادقة لحقوقهم في الإبحار خلال المضائق في البحر الأسود<sup>(١)</sup>. ويذكر هايد<sup>(٢)</sup>. أنه حين انعقد الصلح، شعرت البندقية بسعادة بالغة، إذ حصلت من العثمانيين على وعد بأن يترك سائر ممتلكاتها في أمن وسلام، وأن يمنح التجار في الإمبراطورية العثمانية حرية التنقل ومزاولة التجارة.

والواقع أن العثمانيين ظلوا متفوقين في البلقان، يمارسون حكماً مباشراً في أجزاء ألبانيا وإيروس، وأخذوا الجزية والمساعدات الحربية من حكام صربيا والبوسنة والاشيا وراجوزا والبندقية وبلغاريا، فضلاً عن المورة وأرتا<sup>(٣)</sup>. ومع ذلك فقد أقلق جورج برانكوفتش ملك صربيا بال السلطان مراد. ففي عهد الملك المجري سيجسموند إستعاد برانكوفتش استقلال صربيا، وبنى قلعة جديدة في سمندريا Semendria (ومعناها القديس أندريا على نهر الدانوب بالقرب من بلغراد) وهي سميدروف الحالية، واتخذها عاصمة له بدلاً من كروشيفاتس (الأوجه حصار)، كما تنازل عن بلغراد للمجريين رغبة في تأمين مساعدتهم له ضد السلطان، ولكنه قبل أن يحصل على أية مساعدة، استولى عليها السلطان في سنة ١٤٣٩، وبذلك استولى السلطان على كل صربيا تقريباً، وأصبحت ولاية تركية، وهرب جورج برانكوفتش، ولجأ إلى أماكن مختلفة، وانتهى به المطاف أخيراً في دبروفنيك Du-brovnik<sup>(٤)</sup>. وعندما استمر الأمير الوالاشي في قبول التبعية للعثمانيين، دبر سيجسموند استبداله بحاكم قوى يدعى فلاد داركول الأول (١٤٣٢ - ١٤٤٦) Vlad Drokul I، الذي أطاح بطاعة السلطان مرادوارتبط مع برانكوفتش وملك البوسنة ثقاتوا الثاني في تحالف في سنة ١٤٣٤م<sup>(٥)</sup>.

(1) Shaw, op. cit., p 48.

(٢) تاريخ التجارة، جـ ٣، ص ١٣٩.

(3) Shaw, op. cit., p.49, Diehl, Byzantium, Greatness and Decline, p. 223.

رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، جـ ٣، ص ٧٧٥ - ٧٧٦.

(4) Spinka, op. cit., p. 153.

(5) Shaw, op. cit., p. 49, Lodge, The Close of the Middle Ages, p. 506.

وفى تلك الأثناء، كان اهتمام مراد الرئيسى منصبا على احتمال قيام مجهود صليبي أوربي جديد. فقد حاول الإمبراطور البيزنطي يوحنا الثامن باليولوجوس (١٤٢٥ - ١٤٤٨) القيام بمفاوضات لتوحيد كنيسة القسطنطينية وروما، ليضمن الحصول على مساعدة الغرب الأوربي لمقاومة الخطر العثماني، على الرغم من أن شعب القسطنطينية وزعمائها الدينيين رجال الكنيسة الأرثوذكسية قابلوا تلك المحاولة بشعور معارض وتمسكوا بمذهبهم. وبالرغم من الوعود التي بذلها الغرب لمساعدة البيزنطيين في وقوفهم ضد الأتراك العثمانيين، فإن المعارضة البيزنطية كانت تعتقد تماما أن الغرب الأوربي كان يضع كل أمله في القضاء على القسطنطينية ومحو العنصر البيزنطي من الوجود<sup>(١)</sup>.

وعلى أية حال، فقد غادر الإمبراطور البيزنطي يوحنا الثامن عاصمته وتوجه إلى الغرب الأوربي مثلما فعل والده منذ حوالي أربعين عاما، وجده منذ حوالي سبعين سنة. وذهب معه أخوه ديمتريوس، والبطريرك جوزيف، وعدد من الأساقفة والرهبان. ووصل الإمبراطور إلى فيرارا في أوائل سنة ١٤٣٨، حيث دارت مناقشات عنيفة، ثم توجه إلى روما، ودخل الكنيسة الرومانية المقدسة، وفي ٦ يوليو سنة ١٤٣٩ أعلن اتحاد الكنيستين باللغة اليونانية واللغة اللاتينية، وأقيمت صلاة عامة للشكر رأسها البابا إيوجين الرابع، غير أن المعارضة الشديدة في القسطنطينية جعلت الاتحاد الديني أمرا مستحيلا<sup>(٢)</sup>.

كان الإمبراطور البيزنطي يوحنا الثامن باليولوجوس يعاني من مرض النقرس منذ فترة طويلة، وهي حالة زادها الإحباط الشديد والحزن العميق الذي ألم به بعد عودته من إيطاليا، بسبب ما أثارتته فكرة توحيد الكنيستين الشرقية والغربية من ناحية، وبسبب وفاة الإمبراطورة من ناحية أخرى، فسقط مريضا، ومات خلال أيام. واستدعى كبار رجال الدولة أخاه قسطنطينين إلى القسطنطينية. ولم يلبث قسطنطينين أن أرسل سفارة محملة بالهدايا إلى السلطان مراد الثاني لتأكيد السلام بينهما<sup>(٣)</sup>.

(1) Doukas, op. cit. p. 181, Shaw, op. cit., p. 50,

عمر كمال توفيق: تاريخ الدولة البيزنطية (القاهرة ١٩٦٧)، ص ١٨١.

(2) Ostrogorsky, Hist of the Byzantine State., pp. 562-563.

(3) Doukas, op. cit., p. 186.



غير أن مراد الثانى أمر بشن غارات جديدة فى أوروبا لإرضاء البكوات الأتراك وأتباعهم، وما يحصلون عليه من غنائم جديدة. وقد أدى موت الملك المجرى سيجموند فى ٩ ديسمبر سنة ١٤٣٧ إلى قيام منازعات داخلية حادة فى المجر، استغلها مراد لصالحه، فشن غارة دمرت القلعة الدانوبية فى سيفرين Severin، وفرض الحصار على سيبيو Sibiu - وهى المركز التجارى لترانسلفانيا - فى عام ١٤٣٨، وغزا مراد صربيا، واستولى على القلعة التى بناها برانكوفتش فى سمندريا فى سنة ١٤٣٩، وكان هدفه من وراء ذلك إضعاف التحالف الصربى البلغارى. ومارس مراد نفس الإسلوب فى البوسنة، إذ استغل الفوضى الداخلية التى سادت البوسنة على إثر موت الملك تفرتكو الثانى سنة ١٤٤٣، وأجبر خلفاءه البوسنيين، وحكام الجزء الجنوب المستقل عن البلد وقتئذ - وهو الذى يدعى حاليا هرزجوفينا Herzegovina - على دفع الجزية<sup>(١)</sup>.

وعلى أية حال، قام الملك المجرى الجديد لاديسلاس الثالث بتعيين حاكم لترانسلفانيا يوحنا هو نيادى (١٤٠٧ - ١٤٥٦) John Hunyadi فى سنة ١٤٤١ م، وهو شخصية جديدة ظهرت فى أفق أوروبا لتكبح جماح التقدم العثمانى لفترة من الزمن حتى أنه أصبح بطلا قوميا، وأطلق عليها بسبب درعه الفضى الذى كان يتلأأ فى المعركة «فارس الاشيا الأبيض» White Knight of Wallachia. وصار هو نيادى مصدر رعب للجيش التركى لمدة عشرين سنة، ويمكن وصفه بالمجاهد (الغازى) المسيحى Christian ghazi لأنه كرس جهوده لمحاربة الإسلام<sup>(٢)</sup>، وأحرز شهرة واسعة مكنته من قيادة حملة صليبية جديدة ضد العثمانيين.

### الحملة الصليبية على قارنا سنة ١٤٤٤ م:

دعا مجمع فلورنسة إلى حرب صليبية جديدة ضد العثمانيين، وبعد ذلك تجول چاناكى تورشلو Janaki Torzello فى أنحاء أوروبا، حاملا رسالة تتضمن أنه لو استطاع أسطول مسيحى أن يسد المضائق، فإن العثمانيين سوف يعجزون عن إرسال تجذات من

(1) Shaw, op. cit., p 50, Halil Inalcik, The Ottoman Empire., p. 20.

(2) Stavrianos, The Balkans since 1453, p.53.

الأناضول. كما أوضح أن عدد الجيش المطلوب الذى يحتاجه لطرد الأتراك من أوروبا واستعادة الأراضي المقدسة، لايزيد عن ثمانين ألف رجل<sup>(١)</sup>.

وقد عهد البابا إيوجين الرابع (١٤٣٢ - ١٤٤٧) بتنظيم تلك الحملة ودعايتها إلى مندوبه الكاردينال سيزاريني Cesarini، واستغرق الأمر بضعة سنوات لتجهيزها، وأصبحت على أهبة الاستعداد حوالى سنة ١٤٤٣. وكان الوقت مناسباً لقيام تلك الحملة، إذ كان السلطان العثماني بعيداً فى آسيا الصغرى، فى الوقت الذى كانت هناك علامات يقظة مسيحية: ففى ألبانيا اشتعلت ثورة ضد الأتراك، أشعلها - كما قيل - زعيم الباني مسلم خرج على السلطان إسمه جورج كاستريوتس George Castriotes وهو معروف عند الأتراك سكاندنبرج أو اسكندر بك<sup>(٢)</sup>. وقد وقع جورج فى قبضة المسلمين وهو صغير كرهينة، ولما بلغ مبلغ الشباب، هرب من الأسر التركى، وتوجه إلى بلاده. وهناك اختارته قبيلته زعيماً لها. وقام بأعمال حرية دفعت القوة فى العشائر المجاورة، لدرجة أنه ربما للمرة الأولى فى تاريخهم قد نسوا نزاعاتهم القديمة، وارتبطوا فى مجهود حقيقى للحفاظ على حرية تلالهم. وقد استخدم إسكندر بك فى لقاءه بالجيش العثماني حرب العصابات، الأمر الذى ألحق بمراد هزيمة بعد أخرى<sup>(٣)</sup>.

وفى المورة البيزنطية أيضاً ظهر أمل فى الأفق، إذ أعاد قنسطنطين - أخو الأمبراطور - بناء سور هيكساميليون Hexamilion عبر المضيق ، وكان الأتراك قد دمروه فى سنة ١٤٢٣، وأرغم سيد أثينا الإيطالى على دفع الجزية<sup>(٤)</sup>.

وفى تلك الظروف التى تبشر بالأمل، ارتفع شأن يوحنا هونيادى كبطل مجرى وطنى عظيم، بسبب الانتصارات التى أحرزها ضد العثمانيين فى عام ١٤٤٢، ووضع الأوروبيون فيه آمالهم، إذ اعتقدوا أنهم وجدوا أخيراً البطل المسيحى الفذ الذى يتزعمهم فى حملة

(1) Shaw, op. cit., pVol. I, p. 51.

(2) Nicol, op. cit., p. 82, Ostrogorsky, op. cit., p. 565.

(3) Schevill, The Hist of the balkan Peninsula, pp. 203-204.

بيتر شوجر: أوروبا العثمانية، ١٣٥٤ - ١٨٠٤، ص ٨٠، انظر ص ٢٣٩.

(4) Nicol, op. cit., p. 82, Ostrogorsky, op. cit., p. 565.

صليبية ناجحة<sup>(١)</sup>. ويبدو ذلك واضحاً عندما عاود السلطان مراد الثاني غزو ترانسلفانيا في عام ١٤٤٢ هزم في هروانستد وخسر عشرين ألفاً من القتلى. وفي غضب قام بمحاولة ثالثة يائسة للإغارة على المدينة، ولكنه قاسى مثل النتائج السابقة. وأسر هونيادى خمسة آلاف من المحاربين الأتراك، وذهبت أدراج الرياح تلك القصة التي كانت تؤكد أن الأتراك قوة لا يمكن قهرها<sup>(٢)</sup>.

وعلى أية حال، سارت الحملة من المجر في يوليو سنة ١٤٤٣، وقد أثبتت نفس طريق حملة نيقوبوليس، وبلغ عدد جيش الحملة خمسة وعشرين ألف مقاتل بقيادة سيزاريني وجورج برانكوفتش ويوحنا هونيادى بحذاء نهر الدانوب، في الوقت الذي كان على الأسطول أن يبحر من البحر الأسود لمقابلتهم على الساحل<sup>(٣)</sup>. واستولى هونيادى على نيش ومعظم جنوب صربيا، وحث إسكندر بك والألبان على توسيع مقاومتهم ضد العثمانيين. ثم توجه الصليبيون بعد ذلك إلى الجبال البلقانية في بلغاريا، واستولوا على صوفيا على أمل عبور الجبال والوصول إلى الأراضي المنخفضة بحذاء نهر ماريتزا قبل أن ينتهي فصل الشتاء<sup>(٤)</sup>.

وإزاء تلك الظروف المتغيرة، أسرع السلطان مراد الثاني عائداً إلى أوروبا. وكان جيشه في روميللي (البلقان) قد تفرق قبل وصوله، وكان بكوات الحدود وكثير من القادة الإقطاعيين، قد استغلوا الهزائم التي لحقت بالسلطنة، وأبدوا وضع محمد الإبن الأصغر لمراد على العرش العثماني. وهنا نلاحظ أنه كان مع مراد قوات القابوقولي الجديدة من المشاة وقوات الإنشكارية التي رجعت معه من الأناضول. ولذلك قرر مراد إيقاف تقدم الصليبيين بالاستحواز على أحد الممرات البلقانية كابولو ديرنبدى (بوابة تراجان Trayan Gate)، إذ كان على العدو أن يخترق هذا الممر حتى يصل إلى الأراضي المنخفضة. وقد أحرز الصليبيون انتصاراً ضد العثمانيين في بداية هجومهم في ٢٤ ديسمبر عام ١٤٤٣،

(١) عزيز سوريال: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٠٢.

(٢) المرجع السابق، ص ١٠١ - ١٠٢.

(3) Nicol, op. cit., p. 82.

(4) Shaw, op. cit., p. 51.

ولكن اقتراب حلول فصل الشتاء جعل هونيادى يتخلى عن الحملة الصليبية، بعد أن قام بذبح الآلاف من الأسرى المسلمين، ورجع إلى المجر لقضاء فصل الشتاء<sup>(١)</sup>.

والواقع أن وضع العثمانيين صار محرجا، فى حين أحس الصليبيون بإمكانية إحراز النصر، خاصة بعد أن تدفقت آلاف أخرى من الصليبيين على المجر، وحملت الدول المسيحية السلاح من جديد، ووجد مراد نفسه عاجزا عن حسم الموقف، فأقنعه وزيره الأعظم وزوجته مارا الصربية، بضرورة عقد الصلح. ومن خلال وساطة برانكوفتش ملك الصرب عقدت اتفاقية فى أدرنة فى ١٢ يوليو ١٤٤٤ مدتها عشر سنوات. ولكن هونيادى المقاوم العنيد وأتباعه اشترطوا أن يعود ومعظم جيشه إلى الأناضول<sup>(٢)</sup>. وبمقتضى هذا الصلح حصل برانكوفتش على أعظم مكاسبه، فقد نال استقلاله، وبذلك عادت مملكة الصرب إلى ما كانت عليه عند موت ستيفن دوشان فى عام ١٤٢٧، وضمت المجر والاشيا<sup>(٣)</sup>.

وعندئذ أحس السلطان مراد الثانى أن بوسعه العودة إلى الأناضول لمواجهة أعدائه، وفى اعتقاده أن الحلفاء الصليبيين، وهم مسيحيون، لن يخرقوا الاتفاقية، ولكنه أساء التقدير. إذ استطاع المندوب البابوى المرافق للجيش الصليبي المتحالف الكاردينال سيزارنى، أن يقنع قادة الجيش على أن كل يمين تبذل لكافر تعتبر باطلة، وحثهم على مواصلة الزحف، واستغلال ما لديهم من ميزة. غير أن ملك الصرب جورج برانكوفتش الأرثوذكسى لم يوافق على نقض الاتفاقية، ولم يسمح لإسكندر بك أن يبقى مع الجيش، واحتج على نقض الاتفاقية يوحنا هونيادى، على أنه بقى فى قيادة الجيش، بعد أن وعده الكاردينال سيزارنى بتاج بلغاريا بمجرد تحريرها نهائيا من نير الأتراك<sup>(٤)</sup>.

على أية حال، تحرك جيش صليبي ضخم بجنوده من جميع أنحاء أوروبا إلى بودا Buda تحت زعامة الملك المجرى لاديسلاس، وقد غادر هذا الجيش سزجدين فى أول

(1) Shaw, op. cit., p 51.

(2) Shaw, op. cit., pp 51-52, Pears, op. cit., p. 161.

(٣) محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٥٧.

(2) Nicol, op. cit., p. 82, Ostrogorsky, op. cit., p. 565, Shaw, op. cit., pp. 52-53,

رنسيमान: تاريخ الحروب الصليبية، جـ ٣، ص ٧٧٦ - ٧٧٧، عزيز سوريال: المرجع السابق، ص ١٠٢.

سبتمبر عام ١٤٤٤، وانضم إليه هونيادى فى أورسوغا الواقعة على الدانوب، ومعه قوة من فرسان ترانسلفانيا، ثم زحف الجيش الصليبي غربا بحذاء الدانوب تجاه فارنا<sup>(١)</sup>، وهى مدينة جميلة تقع فى بلغاريا اليوم على شاطئ البحر الأسود.

وعندما علم السلطان مراد الثانى بما أقدم عليه الصليبيون من انتهاك الاتفاقية عاد مسرعاً، وبمساعدة السفن الحربية نقل الجيش العثماني الأناضول إلى أوروبا فى أكتوبر عام ١٤٤٤، وقد بلغ هذا الجيش ثلاثة أميال جيش الصليبيين، ونشبت المعركة فى ١٠ نوفمبر من نفس العام بالقرب من فارنا، فاستبسل الصليبيون فى المقاومة، وفى أثناء اشتداد حدة المعركة، كان السلطان الذى أمر بأن ترفع على لوائه المعاهدة التى جرى انتهاكها، يصبح هائفاً وأياً المسيح إذا كنت إليها حسبما يقول أتباعك، فلتنزل العقاب بهم لما ارتكبوه من خيانة. وتغلب مراد، وانتصر انتصار ساحقاً بفضل حماسة وأعداد جيشه، فلقى الملك المجرى لاديسلاس مصرعه ومات الكاردينال سيزاريني، وهرب يوحنا هونيادى مع فلول جيشه الضعيلة<sup>(٢)</sup>.

وتعتبر معركة فارنا علامة بارزة فى تاريخ العلاقات التركية الأوروبية. فقد حطمت اعتقاد المسيحيين أنهم قادرون على طرد الأتراك إلى آسيا، وهى آخر محاولة يقوم بها الغرب الأوروبى لإنقاذ الإمبراطورية البيزنطية من الغرق، وهو المصير الذى سنراه بعد تسع سنوات<sup>(٣)</sup>. وقد أثبت فشل حملة فارنا تأسيس السيطرة التركية فى كل شبه جزيرة البلقان، تلك السيطرة التى استمرت حوالى أربعة قرون<sup>(٤)</sup>.

والمهم أن حملة فارنا الصليبية هى آخر محاولة قام بها الغرب الأوروبى لتخليص القسطنطينية، ولم يشترك الإمبراطور البيزنطى يوحنا الثامن فيها، وشعر البعض أن فقدانهم

(1) Shaw, op. cit., p 54, Pears, op. cit., p. 169.

(2) Nicol, op. cit, p. 92, Ostrogorsky, op. cit., pp. 565-566, Eliot, Turkey in Europe, p. 40.

ونسيمان: المرجع السابق، ج ٣١، ص ٧٧٧، عزير سوريال: المرجع السابق، ص ١٠٢.

(3) Stavrianos, The Balkans since 1453, p. 51.

(4) Halecki (O.), The Crusades of Varna. A Discussion of Controversial Problems (New York, 1943) P. 5.

حريتهم على أيدي الأتراك، أفضل من الحصول عليها على أيدي اللاتين. صحيح أن آلاف المسيحيين صاروا وقتئذ تحت سيطرة الحكم الإسلامي لمدة جيل أو أكثر، ولكن بإمكان عقد مقارنة بين عدالة وتسامح سادتهم الأتراك بعجرفة واستبداد الفرنسيين والإيطاليين في مستعمراتهم الإغريقية، فالحياة كانت صعبة في ظل الأتراك، ولكنها كانت مفعمة بالإستقرار، بدلا من المصير المجهول تحت وطأة اللاتين، أى أن المسيحيين كانوا يفضلون الخضوع لحكم السلطان العثماني على الإذعان لسيطرة اللاتين<sup>(١)</sup>.

لم يقتصر الاحتفال بانتصار تركيا على الصليبيين وحدها، بل امتد إلى العالم الإسلامي أجمع، وفي الجمعة الأولى من وصول الخبر إلى القاهرة في أبريل سنة ١٤٤٥، أمر السلطان المملوكي جقمق بذكر إسم السلطان بعد رسم الخليفة العباسي، والدعاء لأرواح الشهداء العثمانيين في الأقطار المملوكية، وأقيمت الاحتفالات بهذا النصر في مصر<sup>(٢)</sup>.

وقضى السلطان مراد الثاني بقية سنوات عمره في القيام بسلسلة من الحملات العسكرية، لإقرار الحكم العثماني في البلقان، وذلك بالضغط على أتباعه وأفعاله الذين ثاروا عليه، واشتركوا في الحملة الصليبية السابقة. ففي سنة ١٤٤٦ اجتاح مراد المورة، وأجبر البيزنطيين على الدخول في طاعته، وفرض حكما عثمانيا مباشرا على معظم أراضي اليونان الرئيسية، وإن كانت البندقية وجنوة والبيزنطيون لازالوا يسيطرون على حلقة من الموانئ والجزر الممتدة في كل الطريق من كورفو إلى نيجروبونت. كذلك جعل مراد بلغاريا تحت السيطرة المباشرة للعثمانيين، وأقصى أمراءها الوطنيين، وأخذ في «تثريتها» وعثمتها، بصورة تفوق ما حدث في أي ولاية بلقانية أخرى. واستوطن عدد كبير من القبائل التركية في الشمال والشرق، ولهذا ففي أقل من قرن أصبح الأتراك يمثلون غالبية السكان. وقام مراد أيضا بحملة هامة ضد الثائرين في ألبانيا في سنة ١٤٤٧ م، ولكن أخبار تقدم هونيادي جنوبا ومعه جيش صليبي جديد، أرغمه على التخلي عن جهوده التي كان يضطلع بها<sup>(٣)</sup>.

(1) Nicol, op. cit., pp. 82-83, Vasiliev, op. cit., Vol. II, p. 644. Runciman, The Fall of Constantinople, p. 21.

(٢) يلماز أوزنونا: تاريخ الدولة العثمانية، جـ ١، ص ١٢٧.

(3) Shaw, op. cit., Vol. I, P. 53, Pears, The Destruction of the Greek Empire. pp. 171-172.

وكان هو نياى بعد موت لاديسلاس ملك المجر قد عين وصيا على طفله، وبذلك عزز قوته على القيام بتنظيم جهد صليبي جديد ضد العثمانيين. ولم يلبث أن استدعى هونيادى الفرسان الصليبيين من جميع أنحاء أوروبا. وعبر الدانوب فى شمال صربيا على رأس خمسين ألف جندى، على الرغم من أن برانكوڤتش رفض التعاون معه أو تقديم مساعدة له. وفى أثناء رحف هو نياى جنوبا انضم إليه الجنود التى أرسلها اسكندر بك، وتلك التى أتت من الاشياء، ولكن مرادرجع على وجه السرعة من ألبانيا، وتقابل الفريقان فى الموقع القديم كوسوفا بولاى Kossovo - Polye (كوسوفا الثانية)، وكانت المرة الأولى سنة ١٣٨٩م، فلم تنقذ بطولة هونيادى وشجاعة أتباعه قوع الكارثة بجيشه، إذ أن قلة عدد المسيحيين عن أعدائهم، واضطراب نظامهم، وعدم إحكام خطط الألبانيين والمجريين، ونفاذ البارود من أيد مشاة الألبان والبوهيميين مما جعل بنادقهم غير ذات قيمة، والشك فى ولاء الوالاشيين، كل هذه كانت العوامل التى ساهمت فى مأساة المعركة الثانية فى كوسوفا (١٧ - ١٩ أكتوبر ١٤٤٨)، والتى أنهت الصليبية المجرية بإبادة كاملة لم تستطع تجنبها. وبذلك تأكد الحكم العثماني فى جنوبى الدانوب مرة أخرى. وعندئذ أرسل مراد «الغزاة» إلى الاشياء، واستعاد سيطرته عليها<sup>(١)</sup>. ولم تبق على قيد الحياة إذ ذاك إلا القسطنطينية كقلعة منيعة وكرمز للإمبراطورية البيزنطية الطاعنة فى السن. ويذكر الأستاذ شو<sup>(٢)</sup> Shaw أن النتيجة الوحيدة الأكيدة لهذا الفصل المؤلم فى تاريخ الحروب الصليبية إطالة عذاب الإمبراطورية البيزنطية المتعثرة سنوات قليلة أخرى.

وفى ٣١ أكتوبر سنة ١٤٤٨ مات الإمبراطورية البيزنطى يوحنا الثامن فى القسطنطينية يائسا دون وريث من صلبه، وقد أوصى بأن يخلفه أخوه قنسطنطين، وكما هو متوقع تقريبا فى عائلة باليولوجوس، فإن اثنين من إخوة قنسطنطين وهما ديمتريوس وتوماس نازعاه على العرش. ولم ينفذ الموقف إلا أنهم الإمبراطورة العجوز الحازمة هيلينا، فقد أكدت حقها فى الوصاية على العرش حتى وصول قنسطنطين من المورة إلى العاصمة. وقد توج قنسطنطين

(1) Shaw, Hist, of the Ottoman Empire, Vol, I. pp. 53-54.

(2) Ibid.,p. 53.

أمبراطورا في مسترا - بالقرب من مدينة إسبرطة القديمة - في يناير سنة ١٤٤٩، باسم قنستطين الحادى عشر، وهو آخر إمبراطور بيزنطى<sup>(١)</sup>.

وكان من الواجب أن يحاط السلطان العثمانى مراد الثانى علماً باعتلاء قنستطين الحادى عشر باليولوجوس، عرش الدولة البيزنطية، ولكنه لم يبد أى اعتراض، إذ صار متقدماً فى السن ومنهكاً، وعهد بمعظم سلطاته إلى ابنه محمد، وتوفى السلطان بالسكنة القلبية فى بروسة فى ٥ فبراير سنة ١٤٥١، قبل أن يرى القسطنطينية قد أضيفت إلى إمبراطوريته<sup>(٢)</sup>. ولكنه قبل أن يموت عمل على أن يجنب دولته أية منازعات داخلية جديدة حول الوصول إلى العرش بعد وفاته، ولذلك ترك وصية مكتوبة عين فيها ابنه محمداً خليفة له، وكان فى سن التاسعة عشرة، وأرسل الوصية إلى كل الولايات والوزارات، واختار الصدر الأعظم جندرلى خليل باشا وصياً عليه<sup>(٣)</sup>.

وكان محمد الثانى ساعة وفاة والده فى إمارته مغنيسيا بآسيا الصغرى. فوصلته رسالته على وجه السرعة جاء بها نعى والده، ويدعوه كبار رجال الدولة بسرعة الحضور إلى أدرنة، وهناك استقبله كبار رجال الدولة والعلماء، وفى ١٨ فبراير سنة ١٤٥١ تولى محمد الثانى عرش آبائه. وعندما علم الإمبراطور البيزنطى قنستطين الحادى عشر بوصول محمد إلى العرش أرسل سفارة لتقديم العزاء فى وفاة أبيه، وتهنئته بالعرش، فرحب محمد بالسفارة<sup>(٤)</sup>.

ويسجل عهد السلطان مراد الثانى نهاية الثقافة العثمانية القديمة، فقد واصلت الحياة الدينية فى عهده دورانها فى فلك الصوفية التى فرضت طابعها على الحياة الفكرية. فقد كانت قصائد الشاعر التركى الشرقى المتصوف أحمد تيسوى، معروفة فى الأناضول منذ القرن الثالث عشر بواسطة الطرق الصوفية التى نشرت تعاليمه. وفى بلاطه فتح أبوابه

(1) Nicol, op. cit., pp. 83-84.

(2) Ibid., p. 84.

(3) Shaw, op. cit., p. 54.

(4) Doukas, Decline and Fall of Byzantium, pp. 187-191, Kritavoulos, Hist of Mohamed the Conquerer, Trans from greek by charles T. Riggs (New Jersey, 1954), p. 13.



للعلماء والشعراء والموسيقيين، وأخذت اللغة التركية محل لغنى الأدب الرفيع: العربية والفارسية<sup>(١)</sup>.

ويعتبر مراد الثانى من أكبر المهتمين بالبناء والتشييد، فالجوامع والكتليات الموجودة فى بروسة وأدرنة من إنجازاته، وكذلك دار الحديث (١٤٣٥)، والجامع ذو الثلاث شرفات وكتلياته (١٤٤٧)، وأوزون كوبرى على نهر أركنه الذى استغرق تشييده ستة عشر سنة، وكان طوله ٣٩٢ متراً، وهو من الإنجازات الهامة التى شيدها بأموال الغنائم، وافتتح فى سنة ١٤٤٣<sup>(٢)</sup>.

ويقول المؤرخ الألماني فون هامر Von Hammer: «حكم السلطان مراد الثانى فى إمبراطوريته بعدالة وشرف طيلة ثلاثين سنة. كان عادلاً سليم النية مع رعيته دون التفریق بين الأديان، وعرف بوفائه بوعده فى الحرب والسلم، يفضل الصلح، لكنه لم يكن يتردد فى الحرب إذا دعت الضرورة لذلك. كان انتقامه شديداً من الذين لا يوفون بعهودهم، فلا ضير عنده فى هذه الحالة من إبادتهم، ولم يفقد دهاءه حتى نهاية سلطنته»<sup>(٣)</sup>.

---

(١) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس، منير البعلبكي (بيروت ١٩٦٥)، ص ٤٢٩.

(٢) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ج١، ص ١٣٠.

(٣) نفس المرجع السابق والصفحة.

## الفصل الخامس

محمد الفاتح

(١٤٥١ - ١٤٨١)

- فتح القسطنطينية.
- فتح صربيا والبوسنة وهرزوجيفيا (الهرسك).
- حروب محمد الفاتح في المورة.
- حروب محمد الفاتح في ألبانيا.
- حروب محمد الفاتح في الاشيا (الأفلاق) ومولدافيا.
- حروب محمد الفاتح مع البندقية وقرمان.
- حصار رودس والاستيلاء على أوترانتو في جنوب إيطاليا.

## فتح القسطنطينية:

ورث محمد الثاني (١٤٥١ - ١٤٨١) إمبراطورية أفضل حالا من تلك الإمبراطورية التي كان يحكمها أبوه قبل ذلك بثلاثة عقود، إذ كان مطلق اليد في أخذ زمام المبادرة دون أن يرضخ لأية ضغوط داخلية أو خارجية. بيد أن محمد الثاني عقب توليه العرش شعر هو ومستشاروه وخاصة شهاب الدين شاهين وزغنوس باشا أنهم في حاجة إلى إحراز نصر مثير يقوى مركزهم ضد النبالة التركية، التي لازالت في حاجة إلى الهدوء والاستقرار لمنع القايى قولو Kapikulu والدوشرمة من القيام بفتوحات لبناء قوتهم<sup>(١)</sup>.

ولاشك أن الاستيلاء على القسطنطينية كان ضرورة سياسية واستراتيجية، ذلك أن وجود قلعة مسيحية وسط أراضى السلطان وفي موقع استراتيجى غاية فى الأهمية، كان أمراً يهدد أمن السلطة من الداخل والخارج. كما أن وجود إمبراطور مسيحي وبطريك للكنيسة داخل الدولة مستقلين عن السلطة العثمانية، كان من شأنه أن يجفل من رعايا السلطان المسيحيين والذين كانوا يمثلون أغلبية السكان، عناصر للثورة المضادة<sup>(٢)</sup>.

وأحس محمد الثانى أنه طالما ظلت الإمبراطورية البيزنطية باقية، فسوف يكون هناك احتمال لقيام حملة صليبية جديدة تقلق بال العثمانيين، وستعوق توحيد شطرى الإمبراطورية العثمانية وتجعل منه أمراً مستحيلاً. ومن الأحلام التي راودت العثمانيين تأسيس إمبراطورية عالمية تكون القسطنطينية مركزها الطبيعي. وينبغى ألا ننسى أن الإمبراطورية البيزنطية كانت تأوى المدعين المسلمين فى أحقيتهم فى العرش العثمانى<sup>(٣)</sup>.

ومن الواضح أن مدينة القسطنطينية تحتل موقعاً فريداً بين مدن العالم، وتتميز بأهمية جغرافية واستراتيجية، فمن الناحية الجغرافية تقع تلك المدينة عند التقاء القارتين آسيا وأوروبا إذ يحدوها البوسفور من جهة الشرق، والقرن الذهبى من جهة الشمال، وبحر مرمرة فى الجنوب، ولا يمكن الوصول إليها براً إلا من جهة واحدة. أما من الناحية الاستراتيجية، فأرضها تشكل مثلثاً تحمى المياه ضلعيه، أما الضلع الثالث فقد حمته الأسوار المنيعة التى

(1) Shaw, Hist. of the Ottoman Empire. Vol. I, p. 55.

(٢) شوجر: أوروبا العثمانية، ص ٨٤.

(3) Shaw, op. cit., Vol. I, p. 55.

أقامها الحكام. يضاف إلى ذلك أن القسطنطينية صارت أهم مراكز التجارة العالمية، فقد سيطرت سيطرة تامة على كل تجارة البحر الأسود، فمنها تتجه طرق التجارة شمالاً إلى روسيا، وشرقاً إلى آسيا حيث تؤدي الطرق البرية إلى الهند والصين ووسط آسيا، وغرباً إلى وسط أوروبا، وجنوباً إلى الشام ومصر وأفريقية. وما يجدر ذكره أن القسطنطينية بفضل مزاياها التي نتجت عنها، ظلت قادرة على الوقوف في وجه أعدائها، وخط دفاعي أول ضدهم، والحفاظ على الإمبراطورية البيزنطية لمدة تروى على الألف عام<sup>(١)</sup>.

وقد نوه نابليون بونابرت بوجه خاص في العصور الحديثة بأهمية القسطنطينية وخطورتها، فقال في شأنها: «لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها»، وأشار في مذكراته التي كتبها في منفاه بحزيرة سانت هيلانة أنه حاول عدة مرات الاتفاق مع روسيا على اقتسام الإمبراطورية التركية، ولكن وقفت القسطنطينية في كل مرة العقبة الكؤود دون الاتفاق، فقد كانت روسيا تلح في امتلاكها، ونابليون يصصر على عدم تسليمها، إذ أن هذه المدينة وحدها كانت في نظره تساوي إمبراطورية، وهي بعد بمثابة مفتاح العالم، من استولى عليها استطاع أن يسيطر على العالم بأجمعه<sup>(٢)</sup>.

وقد أدرك الغزاة والفاخون منذ وقت بعيد أهمية مدينة القسطنطينية وخطورة موقعها، فحاولوا الاستيلاء عليها وحاصروها مرات كثيرة، غير أن هذه المدينة استطاعت بمناعة موقعها وقوة حصونها وأسوارها أن تصد عن نفسها أعظم الغزاة والفاخين. وكان للمسلمين نصيب كبير من هذه المحاولات، وقد وردت أحاديث شريفة كثيرة تبشرهم بفتح القسطنطينية، منها «لنفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش»، الأمر الذي زادهم تعلقاً وأملًا في فتح هذه المدينة. وأولى محاولات المسلمين ما كان في عهد خلافة معاوية بن أبي سفيان عندما وجه ابنه يزيد إلى القسطنطينية في القرن الأول الهجري (السابع الميلادي)، على رأس حملة ضخمة كان نصيبها الإخفاق، وكان من شهدائها أبو أيوب الأنصاري، الذي أوصى وصيته التي صارت مناراً يهتدى به المسلمون التواقون لحرب البيزنطيين على مر العصور. لقد قال أبو أيوب ليزيد بن معاوية وقد عادته حين ثقل عليه

(١) محمود محمد الحويري: رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية (القاهرة ١٩٩٣)، ص ٤٣.

(٢) سالم الرشيدى: محمد الفاخ، ص ٢٧.

المرض: «إذا مت فاركب بى، ثم سُنْ بى فى أرض العدو ما وجدت مساعاً، فإذا لم تجد مساعاً فادفنى ثم ارجع». وتوفى أبو أيوب الأنصارى سنة ٥٢ هـ فنُفذ المسلمون وصيته، ودفن تحت أسوار القسطنطينية، حيث صار قبره مزاراً للبيزنطيين والمسلمين على السواء، إلى أن كان فتح العاصمة على يد الأتراك العثمانيين فيما بعد، فوجدوا ضريحه ونوا عليه قبة، وأقاموا إلى جانبه مسجداً يبايع فيه سلاطين آل عثمان، حيث يقدلون سيف عثمان مؤسس الدولة العثمانية، من يد إمام مسجد أبى أيوب الأنصارى.

ومن أعظم المحاولات التى قام بها المسلمون لفتح القسطنطينية ما كانت فى عهد الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك سنة ٩٨ هـ، فقد جهز جيشاً ضخماً، عهد بقيادته إلى أخيه مسلمة بن عبد الملك. وبالرغم من ضخامة هذا الجيش وعظم العدة فى البر والبحر، وما أظهره المسلمون من البسالة فى الحصار والقتال، فقد ردهم القسطنطينية بأسوارها المنيع ونيرانها الإغريقية الفتاكة.

وفى تراث الأتراك كانت القسطنطينية تدعى أحياناً كيزيل إلما Kizil Elma أى.. التفاحة الحمراء، بمعنى أنها الحلم الذى يتوق المسلمون الوصول إليه<sup>(١)</sup>. ولذا كان من الطبعى بعد أن استقر العثمانيون فى آسيا الصغرى، وأقاموا بها دولتهم، ولاصقوا الدولة البيزنطية أن يرنو بأبصارهم إلى القسطنطينية، وقد حاصرها السلطان بايزيد الأول، وكان من الممكن أن يقرر مصيرها، لولا أن تيمور الأعرج حوّل انتباه السلطان إلى آسيا الصغرى، كما حاول السلطان مراد الثانى فتح القسطنطينية، ولكنه لم يصل إلى غرضه، حتى جاء السلطان محمد الثانى، فشغل نفسه برسم خطط لفتحها، وذلك منذ اللحظة الأولى التى اعتلى فيها العرش.

حاول العثمانيون مراراً الاستيلاء على المدينة لأنهم كانوا يشعرون بأنها العاصمة الطبيعية لإمبراطوريتهم، إذ أن بقاءها فى أيدي غيرهم من شأنه أن يهدد المواصلات التى تربط أملاكهم الأوروبية والآسيوية، كما أن الاستيلاء عليها كفيل بتشديد قبضتهم على الأراضى التى يحكمونها، ويخلع المهابة والعظمة اللتين كانتا لاتزالان تكمنان حول تلك الأسوار التى أحاطت بقاعدة الإمبراطورية الرومانية الشرقية حوالى أحد عشر قرناً<sup>(٢)</sup>.

(1) Hearsy, City of Constantine, p. 230, Shaw, op. cit., p. 55.

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ١٦٥.

وعلى أية حال، كانت الظروف مهيئة تماما لفتح القسطنطينية، فقد صارت حطاما، وظلا واهيا، وكما قال عنها المؤرخ ديل Diehl «القسطنطينية جسم مريض وضعيف وبائس برأس ضخمة، وتحيط بها دولا إما مستقلة أو عدائية، حتى أطلق على الإمبراطورية البيزنطية «رجل المصور الوسطى المريض»<sup>(١)</sup>.

غير أنه كانت ثمة مصاعب لابد أن يعالجها السلطان العثماني محمد الثاني قبل الإقدام على فتح القسطنطينية. فقد استغل الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الحادى عشر باليولوجوس (١٤٤٩ - ١٤٥٣) صغر سن السلطان واختار أحد الأمراء العثمانيين لينافسه على تولي العرش. وحدث في البلقان والأناضول أن بدأ أتباعه في استغلال الفرصة بحجة عدم خبرته وثاروا عليه. كما عرف محمد الثاني أن النبالة التركية التي يتزعمها الصدر الأعظم جندركلى خليل تعارض خططه الرامية إلى فتح القسطنطينية. ولم يستطع محمد أن يتخلص من نفوذ وزيره الأعظم<sup>(٢)</sup>. ولكنه قام بقتل إخوته الصغار، خوفا من منازعتهم في الملك إذا كبروا، وكان منهم طفل رضيع هو ابن زوجة أبيه الشرعية ابنة أمير سينوب، فأمر بقتله في الحمام، وأرغم أمه أن تتزوج مملوكا من البطانة يدعى إسحق باشا. ولكن واحدا من أولئك الإخوة الصغار يدعى كلابين، أنقذ وحمل إلى روما، حيث نصرّ وسمى «كالستوس أتومانوس»، وأقطعه الإمبراطور فردريك الثالث ضيعة في النمسا، فعاش هنالك حتى مات<sup>(٣)</sup>. وكإجراء أمن داخلى أمر محمد الثاني بترحيل زوجة أبيهما إلى موطنها الأصلى صربيا ومعها معظم مستشاريها، وأحل محلهم فى المراكز والمناصب الهامة رجاله المقربين إليه<sup>(٤)</sup>.

وحتى يركز محمد الثاني جهوده على فتح القسطنطينية، ولا يشغله شىء عنها، كان لابد أن يتحرك لتهدئة جيرانه، فجدد اتفاقيات السلام مع صربيا ووالاشيا. ولكن الوضع مع إمارة قرمان أشد صعوبة، إذ كانت لاتزال تحكم قطاعا ضخما من وسط وشرق الأناضول

(1) Lamerle (Paul), A Hist. of Byzantium. Trans. by Antony Matthew (New York, 1964), pp. 119-120.

(2) Shaw, Hist. of the Ottoman Empire, Vol I, pp. 55-56.

(١) محمد عبد الله عنان: مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام (القاهرة ١٩٦٢)، ص ١٧٢ - ١٧٣.

(4) Shaw, op. cit, p. 56.

ومعظم قسطنطينية، وتستخدم نفوذها في إثارة القلاقل في الأقاليم المجاورة ضد العثمانيين، وتبث عدم الثقة فيهم. فيعث السلطان جيشه بقيادة إسحق باشا لقتال إبراهيم بك أمير قرمان الذي كان يريد الإستفادة من فترة الانتقال من عهد إلى آخر، وسار إسحق باشا في إثره، ولم يكد الجيش العثماني يصل إلى أكشهر Aksehir، حتى فوجيء به إبراهيم، ووجد أنه أضعف من الوقوف ضده، فاضطر إلى الصلح والإذعان، ووافق إبراهيم على إعادة الحدود القديمة وتعهد ألا يخرج بجيوشه إلى ما ورائها، وزوج إبراهيم إحدى بناته لمحمد الثاني لتقوية العلاقة بينهما، وتوكيداً لطاعته<sup>(١)</sup>.

وعندما عاد محمد الثاني من قرمان، شرع في مارس سنة ١٤٥٢م في بناء قلعة حصينة على الضفة الأوربية لمضيق البوسفور، في الموقع الذي يتميز فيه المضيق بأقل اتساع له، حيث ينخفض العرض إلى ٦٦٠ متراً، في مواجهة قلعة أناضولو حصارى التي كان السلطان بايزيد الأول قد شيدها على الضفة الآسيوية، فكان باستطاعة محمد الثاني بسيطرته على هذين الموقعين أن يغلق حسب مشيئته كل إتصال بين القسطنطينية والبحر الأسود، أى تجويع أهالى القسطنطينية. وكان للقلعة أربعة عشر برجاً، منهم خمسة أبراج مغطاة بالرصاص، وعرفت تلك القلعة بروميللى حصار، وقد تم بناء هذه القلعة في أواخر أغسطس سنة ١٤٥٢م. وعندئذ بعث الإمبراطور البيزنطى بسفرائه للاحتجاج على هذا العمل، فأمر محمد الثاني بهم فقطعت رؤوسهم، وأصدر أوامره إلى قائد القلعة فيروز أغا بأن يوقف كل السفن الأجنبية التى تمر أمامه، سواء كانت آتية من جنوة أو البندقية أو القسطنطينية أو كافا أو طرابزون أو أميسوس أو سينوب، وأن يفتشها وتؤدى ضريبة المرور، فإن رفضت فعليه أن يطلق عليها المدافع ويغرقها. ولا شك أن هذا الإجراء عاد على التجارة الإيطالية بالضرر الجسيم<sup>(٢)</sup>.

(1) Shaw, op. cit., p. 56, Kritovoulos, Hist. of Mohamed the Conqueror, p 14, Eliot, Turkey in Europe., p. 42.

(2) Nicolo Barbaro, Diary of the Siege of Constantinople 1453. Trans. by Jones (J.R.), (New York, 1969), p. 9, Shaw, op. cit., p. 56, Nicol, op. cit., pp. 34-35, Kritovoulos, op. cit., pp. 15-16, lemerle, op. cit., p. 130.

ويرى أن ثلاثة من القباطنة البنادقة كانوا عائدتين من البحر الأسود فى سفينة، فمروا على مرأى من روميللى حصار فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٤٥٢، ورفض الثلاثة الاستجابة لإنذار العثمانيين، واستطاع إثنان منهم الهروب دون أية خسائر، ولكن الثالث واسمه انطونيو ريزو Antonio Rizzo كان سىء الحظ، فغرقت سفينته، وانتشل من الماء وسيق إلى حاكم أدرنه، وحكم عليه بالإعدام «بالخازوق»<sup>(١)</sup>، وضربت أعناق معظم بحارته. وسارع مندوب البندقية فى القسطنطينية جيرولامو مينوتو Girolamo Minotto بإيفاد مبعوث إلى السلطان لمحاولة إنقاذ حياتهم، ولكنه وصل متأخراً<sup>(٢)</sup>.

ولكى يتم محمد الثانى عزل القسطنطينية وبحكم تطويقها، بعث قائده طرخان على رأسى جيش قوى فى بداية شهر أكتوبر سنة ١٤٥٢ إلى شبه جزيرة المورة المناجزة حاكميها توماس وديمثريوس باليولوجوس ومنعهما من مساعدة أخيهما قنسطنطين إمبراطور القسطنطينية، كما أرسل فرقاً من جنده لتطهير المناطق المجاورة لهذه المدينة<sup>(٣)</sup>، وتمكن من وقف أى إمدادات تتجه إليها.

وأقبل الشتاء، ودلت بوادره على أنه سيكون قارساً شديد البرودة، وفرح قنسطنطين بذلك، وظن أن البرد سيعوق الأعمال الحربية، وبعث إلى محمد الثانى يحاول صرفه عما

---

(١) الخازوق هو عمود من الحديد الأملس له رأس مديب كالقلم الرصاص، ويؤتى بالضحية فيطرح أرضاً على بطنه وتنزع ثيابه. ويبدأ خبير الخوزقة فى إدخال الخازوق فى فتحة الشرج والدق على قاعدته بلطف حتى يأخذ طريقه إلى أحشاء الضحية بطريقة إنسيابية. ومع كل دقة تتعالى صرخات المعضب إلى عنان السماء من شدة الألم، وتشتمل براعة خبير الخوزقة فى قدرته على إيلاج الخازوق إلى جوف الرجل دون أن تتمزق أمعاؤه فيموت سريعاً ويتنفى الغرض من التعذيب. فإذا نجح فى مهمته وتم إدخال الخازوق كاملاً، رقموا الضحية ليأخذ الوضع جالساً على الخازوق، فيضاعف ألمه وكأنه قاعد على فرن ملتهب. ثم يشدون وثاقه إلى عمود قائم تحت حراسة مشددة. ويتركونه هكذا فى العذاب المقيم حتى يلفظ أنفاسه، وبعدها تبدأ الكلاب والضباع والصقور والحشرات فى نهش جيفته. أنظر: جمال بدوى: جريدة الرقعة، «نظرات فى التعذيب»، ٢٩ يونيه ١٩٩٥، ص ١٤.

(٢) هايد: تاريخ التجارة، ج٣، ص ١٦٣.

(٣) شارل ديل: البندقية جمهورية أرستقراطية، تعريب د. أحمد عزت، عبد الكريم، توفيق اسكندر (القاهرة ١٩٤٧)، ص ١٣٦.

(٣) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ٤٨.



هو بسبيله للاستعداد للحرب، فقال محمد الثاني للرسول: «إذا كان إمبراطوركم يخشى الحرب فليسلم لى القسطنطينية، وأقسم أن جيشى لن يتعرض لأحد فى نفسه أو ماله، ومن شاء بقى فى المدينة وعاش فيها فى أمن وسلام، ومن شاء رحل عنها وذهب حيث أراد فى أمن وسلام أيضاً»<sup>(١)</sup>.

أدرك الإمبراطور البيزنطى نوايا السلطان العثمانى، ومثل أخيه استنجد بالغرب الأوروبى، غير أن البابا فى روما نيقولا الخامس (١٤٤٧ - ١٤٥٥) طلب فى مقابل الدفاع عن المدينة أن تخضع له الكنيسة الشرقية البيزنطية، وحين وافق الإمبراطور على ذلك استشاط رعاياه المتمسكون بمذهبهم الأرثوذكسى غضباً<sup>(٢)</sup>. أما أوروبا آنذاك فقد كانت منهكة فى منازعاتها الخاصة، ذلك أن فرنسا وإنجلترا أنهكهما عندئذ الصراع الطويل الذى انتهى بضياح ممتلكات إنجلترا فى القارة، فى حين كانت ألمانيا دولة ممزقة لا تستطيع الوقوف على قدميها إلا فى صعوبة، مما ترك الإمبراطور البيزنطى وحيداً دون معونة. تذكر<sup>(٣)</sup>. ومع ذلك فقد أعدت البندقية عشر سفن بقيادة جاكوبو لوريدانو Jacopo Loredano، ثم بعث البابا بثلاثين سفينة، وأبحرت هذه السفن معا وكانت تحمل الزاد والعتاد والجند، ووصلت إلى جزيرة خيوس، ثم استأنفت سيرها، ولكنها ما كادت تضى قليلا حتى التقت بها بعض السفن الفارة من القرن الذهبى تنبها بسقوط القسطنطينية فى يد الأتراك. أما سفن البندقية التى كانت راسية فى القرن الذهبى من قبل ضرب الحصار، فقد اشتركت كلها فى الدفاع عن القسطنطينية، كما اشترك جميع البنادق فيها فى القتال وعلى رأسهم القنصل البندقى، وقد قاتلوا جميعا بشجاعة<sup>(٤)</sup>.

أما جنوة، فقد غلبت عليها المصالح التجارية، فعندما رأت أن الحرب على وشك الاندلاع بين محمد الثانى والقسطنطينية، لم تجاهر بالوقوف إلى أى من الجانبين، وأصدرت تعليماتها إلى مستوطناتها فى جالاتا بأن تتخذ موقف الحياد المشوب بالحذر<sup>(٥)</sup>.

(١) نفس المرجع والصفحة.

(٢) عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ٦٦.

(3) Lodge, op. cit., p. 509.

سميد عاشور: أوروبا العصور الوسطى، (القاهرة ١٩٧٨)، ج١، ص ٦٤٤.

(٤) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ٥١.

(5) Nicol, op. cit., p. 36.

وفي ٢٩ يناير سنة ١٤٥٣ وصل إلى القسطنطينية جيوفاني جويستيناني Giovanni Guistiniani المغامر الجنوى الشجاع ومعه سبعمائة من رفاقه المغامرين الجنويين المسلحين على ظهر سفينتين كبيرتين يمتلكهما. وفي طريقه إلى القسطنطينية توقف في جزيرتي خيوس ورودرس، وجمع الرجال من هناك. وكان جويستيناني رجلاً نبيلًا، شيطاً ذكياً، شجاعاً إلى أبعد حد، له خبرة بشئون الحرب، وقد أتى من تلقاء نفسه، عندما علم بخطورة وضع القسطنطينية، والحصار الذي فرضه محمد الثاني عليها، وذلك لمساعدة البيزنطيين والإمبراطور قسطنطين والعقيدة المسيحية. وقد سر الإمبراطور لجيشه، واحتفى به ومعه الحكومة والنبلاء، ووعده الإمبراطور بأن يكافئه بجزيرة لمنوس نظير مساعدته، إذا رفع العثمانيون الحصار عن القسطنطينية، وعهد إليه بالقيادة العامة للدفاع<sup>(١)</sup>.

وعندما اطمأن البابا نيقولا الخامس إلى أن الإمبراطور البيزنطي سينفذ قرار مجمع فلورنسة سنة ١٤٣٩ بشأن توحيد الكنيستين الشرقية والغربية، أرسل الكاردينال إيزيدور Isidore في مائتين من الجنود المختارة لتوحيد الكنيستين والدفاع عن القسطنطينية. وفي ١٢ ديسمبر ١٤٥٢ قام الكاردينال إيزيدور في كنيسة أيا صوفيا بإجراء مراسم الاتحاد، وأدى الصلاة على الأصول الكاثوليكية حضرها الإمبراطور ومؤيدوه. وقد أثار هذا العمل غضباً عارماً في نفوس المعارضين للاتحاد، وهم غالبية الشعب ومعظم رجال الدين بزعامة جورج سكولاريوس الذي أصبح البطريرك جناديوس. وفي وسط الاضطرابات التي عمت القسطنطينية، صاح الدوق لوكاس نوتاراس - وهو ثاني رجل في الدولة بعد الإمبراطور من حيث المكانة - قائلاً: «إنه من الأفضل لنا أن نرى في القسطنطينية حكم عمامة الأتراك، خير من أن نرى فيها قلنسوة البابوية»<sup>(٢)</sup>.

- (1) Barbaro, op. cit., p. 22. Ostrogorsky, op. cit., p. 569, Kritovoulos, op. cit., p. 39, Nicol, op. cit., pp. 36-37, Doukas, op. cit., pp. 211-212, Guerdan (René), Byzantium: its triumphs and tragedy. Trans. by D.F.B. Hartley. (New York, 1957), p. 190.
- (2) Guerdan, op. cit., pp. 192-193, Creary, Turkey, p. 74, Diehl (Charles), Hist of Byzantium (New York, 1945), p. 159, Diehl, Greatness and Decline, Trans. from french by Naomi Walford (U.S.A., 1957), p. 223, Imerle, op. cit., p. 134, Ostrogorsky, p. 568, Vasiliev, op. cit., Vol. II, p. 647. Runciman, The Fall of Constantinople, 1453 (Cambridge, 1965), p. 21.

عزيز سوريال: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٣٨.

ونتيجة لانقسام الشعب بين مؤيد ومعارض لائتلاف الكنيستين الشرقية والغربية، واشتداد الجدل، وتفاقم الخلاف، وتفرق الكلمة، وغلب التعصب على الحكمة، فقد سيطرت هذه المحنة الكلامية على عقول المدافعين عن المدينة، فزادت قواهم المعنوية ضعفا على ضعف، ومازالت هذه المناقشات اليزنطية الشهيرة مضرب الأمثال للجدل العقيم الذى يضطرم وقت الجدد والخطر والداهم<sup>(١)</sup>.

وفى تلك الأثناء انشغل السلطان محمد الثانى فى الاستعداد والتأهب لحصار القسطنطينية، إذ كان كل همه الاستيلاء على تلك المدينة، وبينما كان محمد الثانى يوجه تعليماته الخاصة بمحاصرة المدينة، جاءه مهندس مجرى يدعى أوربان، ويعد أمهر صانع للمدافع، وكان قد ذهب إلى القسطنطينية ليقدم خدماته للإمبراطور، ولكن أحداً لم يأبه له، فتوجه إلى السلطان محمد الثانى، وسأله السلطان إذا كان باستطاعته صنع مدفع ضخيم يدك به أسوار القسطنطينية، رد المهندس بالإيجاب. فغمره السلطان بالأسوال، وأمد بما يحتاجه، وانتهى المهندس من صنع المدفع الذى لم ير مثله قط فى ضخامته وكبر حجمه، وذلك فى خلال ثلاثة شهور<sup>(٢)</sup>. وعندما استخدم المدفع لأول مرة، أهتم السلطان بتحذير الأهالى منه، «وذلك لتجنب إخافه النساء الحوامل، وسمع صوته المدوى الصاعق على بعد خمسة عشر ميلا، ويطلق قذائف زنة الواحدة منها ستمائة رطل. وبذلك كان محمد الثانى أول حاكم فى التاريخ يمتلك مدفعية حقيقية.

وعلى أية حال، استولى على بال السلطان فكرة فتح القسطنطينية، وسيطرت على جميع حواسه، فكان يقضى الليالى فى التخطيط لمهاجمة المدينة، مستخدما الورق والجبر، ويتتبع تحصينات المدينة، ويعين لها الماهرين فى عملية الحصار، وأخذ يفكر فى الأماكن التى يضع فيها المدافع، والأسوار التى سيجرى وضع السلالم عليها، لقد كان يرسم الخطط بالليل، ويصدر أوامره لتنفيذها فى الصباح<sup>(٣)</sup>.

(١) عبد الله عنان: مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام، ص ١٧٩.

(2) Doukas, op. cit., p. 200, Guerdan, op. cit., pp. 194-195, Castellan, op. cit., p.

76. Runciman, The Fall of Constantinople, pp. 77-78.

(3) Doukas. op. cit., pp. 202-203.

كان عدد الإغريق والأجانب المدافعين عن مدينة القسطنطينية لا يزيد عن حوالى سبعة آلاف مقاتل، وقد وقع عليهم عبء الدفاع عن الأسوار ضد القوات العثمانية التى لا تقل عن خمسة عشر ضعفاً، وجيش نظامى بلغ حوالى مائة وستين ألف مقاتل، يقوده السلطان ومعه عشرة آلاف من الإنكشارية، ونصب السلطان أمام السور البى للمدينة المدافع، وكانت هناك أربع عشرة بطارية، فى كل واحد منها أربعة مدافع<sup>(١)</sup>، وضعت فى نقاط متقاربة، واصطف من ورائها حملة السهام. أما أكبر مدفع عرفه العالم آنذاك، فقد أمر محمد الثانى بنقل المدفع الضخم من أدنة إلى القسطنطينية، فجرى ربط ثلاثين عربة معا يجرها ستون ثوراً ضخماً. وانتشر على الجانبين مائتا رجل لمساندة المدفع ومنعه من السقوط فى الطريق. كما استخدم خمسون نجاراً ورجلاً لمساعدتهم، وذلك فى مقدمة العربات، لإنشاء كبرى خشبية على الطريق الوعر غير المستوى. واستمرت رحلة نقل المدفع من فبراير إلى مارس سنة ١٤٥٣، ثم نصب المدفع العملاق فى مكان يبعد خمسة أميال عن المدينة أمام باب القديس رومانوس، وعهد السلطان لكراجه بك وقواته بحراسة المدفع<sup>(٢)</sup>.

ويبالغ بعض المؤرخين المعاصرين مثل دوكاس وغيره فى تقدير القوات العثمانية المحاصرة، ويقولون إنها بلغت ثلاثمائة ألف أو أربعمائة ألف. ويذكر المؤرخ خير الله التركى أنها لم تزيد على ثمانين ألف من الجند النظامية والباقي من غير النظامية (الباش بوزرق) والدراويش والحمالين، ويقدرها باربارو سفير البندقية وصاحب يوميات الحصار بمائة وستين ألف. ولكن فرانزا وهو مؤرخ معاصر أيضاً يقدرها بمائتين ثمانية وخمسين ألفاً، وهو أرجح التقديرات. وكان من ذلك العدد مائة ألف فارس تحتشد فى المؤخرة، ومائة ألف راجل فى الجناح الأيمن من ناحية الباب الذهبى، وخمسون ألف فى الجناح الأيسر حتى قصر بلاشرنى (بلا شيمار) وكان السلطان يحتل القلب، ومعه خمسة عشر ألفاً من الإنكشارية، وروابط القائد زغنوس باشا ومعه بعض القوات على مرتفعات ضاحية جالاناً لمراقبة حركات الجنويين. واحتشد الأسطول التركى فى مياه البوسفور، وكان يضم حوالى أربعمائة سفينة

(1) Doukas, op. cit., p. 213, Nicol, op. cit., p. 87, Kritovoulos, op. cit., p. 36.

Doukas, Deline and fall of Byzantium., p. 207.

منها نحو عشرين سفينة حربية كبيرة. وكان يربط بقيادة أمير البحر بلطة أوغلى فى الخليج الذى يحمل إسمه حتى اليوم<sup>(١)</sup>.

وفى داخل المدينة، قابل الأهالى الاستعدادات التى قام بها محمد الثانى بشعور ملء باليأس، واستمرت الانقسامات الدينية والسياسية فى نفس جهود الدفاع عن المدينة، فى الوقت الذى لم تأت إلا مساعدات قليلة من الخارج، الأمر الذى أدى إلى انهيار الروح المعنوية للقوات البيزنطية، حتى أنه لم يعد ثمة رجال تكفى لتغطية الدفاع عن سور المدينة الضخم. ولم يعد للبيزنطيين ما يدافع عنهم سوى الأسوار والنار الإغريقية، وسلسلة طويلة ممتدة فى مدخل القرن الذهبى لمنع دخول الأسطول العثمانى<sup>(٢)</sup>. وعهد بحراسة ميناء القرن الذهبى إلى الجنويين.

وفى يوم الإثنين ٢ إبريل سنة ١٤٥٣، نصب محمد الثانى معسكره خارج أسوار المدينة وسط ضربات الطبول وصياح آلاف الرجال الثائرين. وبعد ذلك بثلاثة أيام وصل السلطان على رأس جيشه، وبدأت مدافع العثمانيين تطلق قذائفها لأول مرة يوم الجمعة ٦ أبريل. وكان لاصطدام القذائف بالسور وخاصة قذائف المدفع الضخم دوا هائلا وزئيراً يبعث الرعب فى قلوب أهالى القسطنطينية ويصم الأذان. وأسرع الرجال القادرون إلى أسلحتهم، ورأت أعينهم منظراً مفرعاً، فعلى طول السور البرى، من بحر مرمره إلى القرن الذهبى، فى أى مكان يمتد إليه البصر، فى الأفق أو على الساحل، جيشا عدده كحبات الرمل، ومدافع ضخمة تتحرك ببطء إلى مواقعها، وآلاف الثيران تخور بصوت عال، إنها إحدى اللحظات الحاسمة فى التاريخ، وقد لحق بأسوار المدينة كثيراً من الدمار، ولكن خلال الليل استطاع المدافعون أن ينسلوا إلى الأسوار، وقاموا بترميمات سريعة<sup>(٣)</sup>.

لم ينقطع العثمانيون عن رمى قذائفهم على سور المدينة من اليوم الثانى عشر من إبريل حتى اليوم الثامن عشر. وأبدى الإنكشارية شجاعة نادرة، لا يبالون الموت، ولا يخافون الخطر، واقتحموا السور كالوحوش الكاسرة، وعندما كان يموت واحد أو اثنان منهم فى

(١) عبد الله عنان، مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام، ص ١٧٦.

(2) Kritovoulos, op. cit., p. 36, Shaw, op. cit., Vol. I, pp. 56-57.

(3) Nicol, op. cit., p.87.

الهجوم، ففي الحال كان يأتي مزيداً من الأتراك، ويأخذون الموتى، ويحملونهم على أكتافهم، دون أن يعابوا بخطر الاقتراب من أسوار المدينة<sup>(١)</sup>.

وفي أصيل اليوم الثامن عشر من أبريل، استطاعت المدافع العثمانية بقذائفها المتواصلة أن تهدم جزءاً من السور الخارجى، واندفع عدد كبير من الأتراك إلى السور، واشتد القتال بينهم وبين البيزنطيين، وارتفعت الصيحات التي أطلقها العثمانيون عندما أتوا إلى السور، ختى بدت أعدادهم أكثر من حقيقتها، واستمر القتال الضارى العنيف إلى أن أظلم الليل، ولكن المغامر جويستيناني استطاع أن يصد المهاجمين بعد أربع ساعات من النضال العنيف، فأمر محمد الثانى جنوده بالانسحاب<sup>(٢)</sup>.

وفس نفس ذلك اليوم حاولت بعض السفن التركية تحطيم السلسلة الغليظة (موجودة بالمتحف العسكرى حالياً) القائمة على مدخل ميناء القرن الذهبى واقتحامه، ولكن السفن البيزنطية والإيطالية استطاعت أن تردّها عن محاولتها. وفي صبيحة اليوم العشرين من أبريل ١٤٥٣ ظهرت فى بحر مرمرة خمس سفن قادمة من الغرب الأربى تحمل الطعام والمعدات والرجال، أربع منها بعث بها البابا وجنوه لمساعدة القسطنطينية، والخامسة للإمبراطور كانت تحمل جنوداً ومؤنّاً وأسلحة، وحاولت السفن العثمانية الاستيلاء على تلك السفن، ولكنها عجزت عن ذلك، لأنها كانت مجهزة بمدفعية حسنة وبحارة مدربين، واستطاعت السفن الخمسة أن تغلّت من بين السفن العثمانية، وتجنّبت الحصار العثماني، إلى أن دخلت القرن الذهبى، حيث أنزلت السلسلة الحديدية الضخمة، ثم شدها البيزنطيون مرة أخرى، ووصلت إلى ملاذ أمين<sup>(٣)</sup>. أما أهل القسطنطينية، فقد غمرتهم موجة من الفرج، وانتعشت آمالهم، وارتفعت روحهم المعنوية، وزادت ثقتهم فى المستقبل، وأقيمت مواكب الأفراح فى المدينة، ودقت أجراس الكنائس<sup>(٤)</sup>.

(1) Barbaro, op. cit., p. 32.

(2) Barbaro, op. cit., p. 32. Guerdan, op. cit., pp. 195-196, Stavrianos, op. cit., pp. 56-57.

(3) Kritovoulos, op. cit., p. 52,

سالم الرشيدى: محمد الفلاح، ص ٦٠ - ٦٢.

(٤) سالم الرشيدى: المرجع السابق، ص ٦٢ - ٦٣.

وفى ٢١ أبريل سنة ١٤٥٣ لم تكف المدافع العثمانية، عن إطلاق قذائفها على أسوار القسطنطينية بالقرب من بوابة القديس رومانوس، وسوى برج بالأرض، وخاف البيزنطيون أن يشن الأتراك هجوما عاما، واعتقدوا أن العمامات التركية سرعان ما ستظهر فى المدينة. ويذكر المؤرخ باربارو أنه لو حدث أن الأتراك قد هاجموا المدينة فى هذا اليوم بعشرة آلاف جندى فقط، فمما لاشك فيه أن المدينة ستسقط فى أيديهم، ولكن البنادقة أصلحوا السور. ولم يتوقف الأتراك عن قصف بوابة القديس رومانوس، وهى التى جرت فيها الإصلاحات، بل ركزوا لإرسال قذائفهم من مدفعهم الضخم والمدافع الأخرى على هذه البوابة، بحيث كان من الصعب حصر تلك القذائف، وامتألت الأرض بجثث الأتراك، خاصة الإنكشارية بعماماتهم البيضاء. أما الأتراك العاديون، فكانوا يرتدون العمامة الحمراء<sup>(١)</sup>.

أخذ السلطان محمد الثانى يبحث عن وسيلة لإدخال سفنه فى القرن الذهبى وحصار القسطنطينية من أضعف جوانبها، وإضعاف الدفاع عن السور البرى، وتشديد المراقبة على الجنوبية فى جالاتا، ثم تسهيل المواصلات مع قاعدته فى روميللى حصار. وقد حاولت السفن العثمانية عدة مرات تحطيم السلسلة الضخمة القائمة عند مدخل القرن الذهبى، ولكن التوفيق لم يحالفها. ولاحق محمد الثانى فكرة حربية هائلة جديدة بذكائه لنقل السفن من مرساها فى بشكطاس إلى القرن الذهبى، وذلك بجريها على الطريق البرى، وإنزالها خلف السلسلة، وكانت المسافة التى ينبغى أن تقطعها السفن نحو ثلاثة أميال، وذلك فوق أرض ليست سهلة، ولكن تتخللها مرتفعات ووادى وتلال وعرة متعرجة<sup>(٢)</sup>.

وبعد أن مهد الأتراك الأرض المنحدرة وسوها، أتوا بالواح من الخشب وطلوها بالزيت والدهون والشحم، وصبوها على الطريق، لسهولة زلق المراكب عليها، وبهذه الطريقة المبتكرة أمكن إنزال نحو سبعين سفينة فى مياه القرن الذهبى فى جنح الظلام فى خليج يدعى المياه الباردة بعد جالاتا بقليل، بعد أن استخدمت الثيران لجريها<sup>(٣)</sup>. واستيقظ أهالى القسطنطينية فى صباح ٢٢ أبريل على صيحات المسلمين المدوية، وهتافاتهم المتصاعدة،

(1) Barbaro, Diary of the Siege of Constantinople, pp. 36-37.

(2) Barbaro, op. cit., p. 37, Creasy, Turkey, p. 77. Runciman, op. cit., pp. 101-103.

(3) Kritovoulos, op. cit., Guerdan, op. cit., pp. 201-202.

محمد فريد: المرجع السابق، ص ٦٠، سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ٦٤.

وأناشيدهم العالية، وموسيقاهم العسكرية الصاخبة عقب نزولهم فى ميناء القرن الذهبى، فانتابهم الهلع والفرع<sup>(١)</sup>. وهكذا فتحت أول ثغرة خطيرة فى خطوط الدفاع البيزنطية، وتم إحكام الحصار فى البر والبحر. ويصف المؤرخ دو كاس وهو بيزنطى عاصر الحادثة، دهشته من هذ العملية قائلاً: «إنها لمعجزة لم يسمع أحد بمثلها من قبل، ولم ير أحد مثلها من قبل»<sup>(٢)</sup>.

وفى اليومين الأول والثانى من عام ١٤٥٣، لم يحدث أى نشاط حربي فى البحر أو البر، فيما عدا القذف المتواصل للمدافع العثمانية، والصياح طبقاً لعادة الأتراك. وكانت القسطنطينية فى حالة حزن وألم، بسبب النقص المتزايد فى المؤن، وبخاصة الخبز والنبيد، وأشياء ضرورية أخرى للحفاظ على الحياة<sup>(٣)</sup>. ولما اشتدت الضائقة بأهالى القسطنطينية، أمر الإمبراطور بأن تؤخذ آنية الكنائس من الذهب والفضة وأن تصهر وتسك نقوداً حتى يأتى الإنقاذ.

وفى اليوم الثانى عشر من مايو، وفى منتصف الليل، أتى إلى أسوار القصر خمسين ألف جندي مزودين بالأسلحة، وأحاطوا به، وأطلقوا صرخاتهم التى أثارت الرعب، وعلت أصوات الصنج والدقوف. وفى الليل شنوا هجوماً قوياً ضد أسوار القصر، جعل سكان المدينة يظنون أن المدينة وقعت فى أيدي الأتراك فى الليل. ولكن المدينة لم تقع - كما يذكر المؤرخ باربارو وصاحب يوميات الحصار - لأن الرب شاء ألا تقع فى أيدي الأتراك، تحقيقاً للنبوة التى قالها الإمبراطور قسطنطين الكبير (٣٠٦ - ٣٣٧) بأن القسطنطينية التى شيدها وحملت إسمه سوف لا تقع أبداً<sup>(٤)</sup>.

وفى اليوم الثامن عشر من مايو ١٤٥٣، فاجأ محمد الثانى البيزنطيين ببناء برج شامخ استغرق بنائه ليلة واحدة، فطوال الليل ظل عدد ضخم من العمال يعملون فيه، وقد بنى هذا البرج يارتفاع يزيد على أسوار المدينة بالقرب من مكان يدعى كريسكا Cresca، وهو

(1) Barbaro, op. cit., p. 43.

(٢) محمد حرب: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص ٧٢.

(3) Barbaro, op. cit., p. 43.

(4) Barbaro, op. cit., pp.48-49.



مكون من ثلاث طبقات كسيت كلها بالجلود، وفي كل طبقة منها عدد من الجنود يحملون معدات القتال، وقد هال أهل القسطنطينية ضخامة هذا البرج، ووقف الإمبراطور البيزنطي ومن معه من أهل المدينة ينظرون إليه في دهشة، وقال المؤرخ باربارو<sup>(١)</sup>، الذي شهد هذا البرج بنفسه: «وفي الحقيقة، لو اجتمع كل المسيحيين في القسطنطينية، وأرادوا بناء مثل هذا البرج، لاستغرق منهم ذلك شهرا، وقد بناء المسلمون في ليلة واحدة».

وفي وسط الظروف الصعبة التي شهدتها القسطنطينية بعد شهر من الحصار العثماني، وضع البيزنطيون أملهم في مساعدة الأسطول البندقي، خاصة أن سفير البندقية قد وقع اتفاقية مع الإمبراطورية في ٢٦ يناير ١٤٥٣م، تتضمن أن حكومته سوف ترسل المساعدة عند الحاجة إليها، فإذا ظهر الأسطول البندقي في البوسفور فإن المسلمين سيلوذون بالفرار، ولو تأخر في المجيء لنحدة القسطنطينية فلن يجد إلا جثثا لتحريرها. وفي ٣ مايو استدعى الإمبراطور البيزنطي قادة المجتمع البندقي في القسطنطينية وخاطبهم قائلاً: «أيها القباطنة المهذبون، وأنتم كلكم نبلاء البندقية، لقد صار من الواضح أن حكومتكم سوف لا ترسل أسطولا لمساعدة تلك المدينة البائسة، ويبدو لي أنه ينبغي أن نرسل سفينة سريعة إلى المياه القريبة لتحاول أن تجد أسطولكم»، فوافق الجميع على ذلك<sup>(٢)</sup>، ولكن البندقية لم ترد الدخول في الحرب بين العثمانيين والبيزنطيين لضمان مصالحها الاقتصادية.

وعلى أية حال، قطع البيزنطيون كل أمل في مجيء النجدة من الغرب الأوربي، ووضعوا كل أملهم في سور المدينة الضخم الذي لم تنقطع مدافع الأتراك عن قذفه ودكه. واستحوذ اليأس على بطريرك القسطنطينية، فاعتزل منصبه، واختفى في أحد الأديرة ليقضي بقية حياته في الصلاة والعبادة<sup>(٣)</sup>.

وعندئذ طلبت الحامية من الإمبراطور البيزنطي أن يغادر المدينة، على أمل أن يجمع جيش في البلقان لمساعدته ضد العثمانيين، ولكنه أدرك ماترماً إليه الحامية ورفض بإباء قائلاً: «أنا لا أوافق أبداً على أن أفارق رجال كنيسة وكنائس العامة المقدسة، وعرشي

(1) Barbaro, op. cit., p. 52.

(2) Guerdan, op. cit., pp. 206-207.

(٣) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ٧٢.

وشعبي. وماذا سوف يقول العالم؟ أتوسل إليكم ألا تسألوني مغادرتكم، فليس لى من رغبة إلا فى الموت معكم<sup>(١)</sup>.

وفى ٢٣ مايو ١٤٥٣م أعتقد السلطان محمد الثانى أن الوقت قد حان للقيام بالهجوم الشامل، فبعث برسالة إلى قنسطنطين الحادى عشر باليولوجوس يدعو فيه إلى تسليم المدينة قبل أن تهدر الدماء، وأوفد إليه صهره إسفنديا أوغلو داماد قاسم بك الذى كان يربطه بالإمبراطور ود قديم وصداقة قوية، وعرض عليه أن يسلم المدينة بعد أن وصلت إلى ما وصلت إليه من الخراب والبؤس، وتهدمت أسوارها، وأن يجنب الأطفال والنساء والشيوخ أهوال الحرب وويلاتها، وأن الدفاع عبث لايجدى. وعرض عليه باسم السلطان أن يكون حاكما على المورة كما كان من قبل، وسوف يمنح إخوته ولايات أخرى. أما سكان المدينة فمن أراد الرحيل رحل عنها بما شاء من أمواله، ومن أثار البقاء فيها فقد ضمن لهم السلطان على أنفسهم وأموالهم، فإن أبى قنسطنطين هذا فلا ينتظرن غير الحرب والدمار<sup>(٢)</sup>، واجتمع قنسطنطين برجاله ومستشاريه يأخذ رأيهم فى هذا الأمر، ومال بعضهم إلى تسليم المدينة، ولكن جويستينيانى وجماعة من أهل الحرب رفضوا هذا العرض، وأصروا على مواصلة القتال مهما كانت نتائجه. وكان ذلك رأى قنسطنطين، فقال لرسول السلطان: «أنه يشكر الرب إذا جنح السلطان إلى السلم وأنه يرضى أن يدفع له الجزية، أما القسطنطينية، فإنه قد أقسم أن يدافع عنها إلى آخر نفس فى حياته، فإما أن يحتفظ بعرشها أو يدفعن تحت أسوارها<sup>(٣)</sup>.

وعندما علم السلطان بإجاية الإمبراطور البيزنطى، واتابه اليأس من الاستيلاء على المدينة بدون حرب، أعطى تعليماته للمنادين ليبلغوا الجيش عن اليوم الذى حدده لشن الهجوم العام على المدينة. وأكد السلطان بأنه لا يريد لنفسه غير مباني المدينة وأسوارها، أما بالنسبة لكنوز المدينة الثمينة وأسوارها فسيتركها مكافأة للجنود، فاستحسنوا ذلك وصاحوا فرحين<sup>(٤)</sup>.

(1) Guderda, op. cit., p. 202.

(2) Doukas, op. cit., pp. 217-218,

سالم الرشيدى: محمد الفاضل، ص ٧٤.

(3) Creasy, Turkey, p. 77-78, Doukas, op. cit., p. 218.

سالم الرشيدى: المرجع السابق والصفحة.

(4) Doukas, op. cit., p. 230., Runciman, The Fall of Constantinsple, p. 126.

وهنا نلاحظ أن منك المجر أراد أن يضغط على السلطان محمد الثانى وهو فى هذا الوقت الحرج، فأرسل يقول له فى ٢٦ مايو ١٤٥٣ إنه فى حالة عدم توصل العثمانيين إلى اتفاق مع الإمبراطور البيزنطى فإنه - أى ملك المجر - سيقود حملة أوربية لسحق العثمانيين. ولم تغير هذ الرسالة شيئا من الوضع القائم، وإن كان محمد الثانى قد صفى حسابه مع ملك المجر<sup>(١)</sup>.

وبعد أن مضى على الحصار خمسون يوما اشتد فيها الضيق بالمدينة، وظل القصف فيها دون انقطاع، أمضى السلطان محمد الثانى استعداداته الأخيرة فى يوم الإثنين ٢٨ مايو ١٤٥٣، فأمر بنفخ الأبواق فى معسكره، وأمر جميع قواده أن يكونوا على أهبة الاستعداد فى مراكزهم، إذ قرر أن يوجه هجوما عاما على المدينة فى اليوم التالى. وعندئذ أسرع الجميع إلى مراكزهم، ولم يفعل الأتراك شيئا بقية اليوم سوى إحضار السلالم ووضعها على الأسوار لاستخدامها فى اليوم التالى، وقد تم وضع حوالى ألفين من السلالم<sup>(٢)</sup>.

وفى نفس اليوم ركب السلطان ومعه عشرة آلاف فارس إلى مرسى أسطوله فى بشكطاش ليتفقد، ويطلع بنفسه على ما اتخذ من الاستعدادات، ثم وضع مع أمير البحر حمزة باشا التنظيمات حول الطريقة التى سيقترحون بها المدينة، ثم رجع السلطان إلى معسكره<sup>(٣)</sup>.

وفى مساء ذلك اليوم (٢٨ مايو) أوقد الجنود العثمانيون النيران والمشاعل، وتعالى صيحات المسلمين وهم يهتفون بأعلى صوتهم «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، ودقت الطبول، ونفخ فى الأبواق، وارتفعت الأناشيد الحماسية، وأخذ فريق من الشيوخ والعلماء يقرأون القصائد والأذكار الدينية. واستخف بعضهم الطرب والفرح، فأخذوا يتواثبون ويرقصون<sup>(٤)</sup>.

---

(١) محمد حرب: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص ٧٢ - ٧٣.

(2) Barbaro, op. cit., p. 59

(3) Barbaro, op. cit., p. 60.

سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ٧٩.

(4) Guerdan, op. cit., p. 211.

سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ٧٨.

وبعد أن عاد محمد الثانى إلى معسكره، دعا إليه كبار رجال جيشه، وأصدر إليهم التعليمات الأخيرة، وأعلن إليهم أن هجوما عاما سيقع على المدينة، ثم ألقى عليهم الخطبة التالية: «إذا تم لنا فتح القسطنطينية نحقق فينا حديث من أحاديث رسول الله ومعجزة من معجزاته، وسيكون من حظنا ما أشاد به هذا الحديث من التمجيد والتقدير، فأبلغوا أبناءنا العساكر فرداً فرداً، إن الظفر العظيم الذى سنحرزه سيزيد الإسلام قدراً وشرفاً، ويجب على كل جندي أن يجعل تعاليم شريعتنا الغراء نصب عينيه، فلا يصدر عن أحد منهم ما يجافى هذه التعاليم، وليتجنبوا الكنائس والمعابد ولا يمسوها بأذى، ويدعو القسس والضعفاء والعجزة الذين لا يقاتلون»<sup>(١)</sup>. فتعهد رؤساء الإنكشارية بتحقيق النصر، ووعد السلطان الشجعان الذين يصعدون إلى الأسوار فى المقدمة بأعظم الصلات، وأنه سيعينهم رؤساء وسناجق، ولكنه أذّر الجبناء بشر الجزاء، وطايف المشايخ بالعسكر، حاثين على الجهاد فى سبيل الله<sup>(٢)</sup>.

وقبل ظهور الفجر بثلاث ساعات فى اليوم التاسع والعشرين من مايو ١٤٥٣م، أتى السلطان محمد الثانى إلى أسوار المدينة، وبدأ أشد الهجوم وأعنفه. وقد قسم السلطان الذين يقاتلون إلى ثلاثة أقسام، يضم كل منها خمسين ألف مقاتل، فالقسم الأول مؤلف من جنود الرومىلى، وأسرى المسيحيين الذين احتفظ بهم السلطان فى معسكره، والقسم الثانى مؤلف من رجال ينتمون إلى رتب متواضعة من الفلاحين وما شابه ذلك، والقسم الثالث يتألف من الإنكشارية بمعائهم البيضاء، وهم جنود السلطان، وخلفهم ضباط السلطان، وخلف هؤلاء السلطان<sup>(٣)</sup>.

وقد أسند إلى رجال القسم الأول - أو المجموعة الأولى - مهمة وضع السلالم على الأسوار لتسلقها - ورد المدافعون على هؤلاء المهاجمين بأن قاموا بقلب هذه السلالم بمن كان عليها، ولم يمنع ذلك المهاجمين من معاودة تسلق السور مرة أخرى، ونجح بعضهم فى ارتقائه، وحدث قتال عنيف استمر فيه جويستينائى وجنوده. وعندما رأى بعض

(١) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ٧٩.

(٢) عبد الله عنان: مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام، ص ١٨٤ - ١٨٥.

(3) Barbaro, Diary of the Siege of Constantinople, p. 62.

المهاجمين الذين يرفعون السلام كثرة الموتى، وحاولوا التقهقر، ردهم الترك إلى الأسوار مرة أخرى<sup>(١)</sup>.

وكان السلطان العثماني يرمى بهذا الهجوم إلى إرهاب المحصورين واستنزاف طاقتهم، واستهلاك ذخيرتهم، قبل أن يوجه إليهم الضربة القاضية، فأمر جنوده بعد نحو ساعتين من القتال العنيف بالانسحاب، ودفع إلى الهجوم القسم الثاني من جنوده وهم جنود الأناضول. أما المدافعون فقد ظنوا لأول وهلة عند انسحاب المهاجمين أن الأتراك ارتدوا على أعقابهم، وعدلوا عن مواصلة القتال، ولكنهم فوجئوا بهجوم أشد وطأة وعنفا قام به جنود الأناضول، وهم أشد مراساً في القتال<sup>(٢)</sup>. ويذكر المؤرخ باربارو<sup>(٣)</sup> أن القسم الثاني من الجنود اندفعوا كالأسود على الأسوار الواقعة في بواية القديس رومانوس، وعندما رأى أهالي القسطنطينية هذا الهجوم العنيف المرعب، جرى كل رجل طلباً للنجاة.

وبينما كان القتال يجري عنيفا عند السور البري، كان هناك قتال آخر لا يقل عنفا على جانب البحر. فقد أخذت السفن العثمانية التي يقودها أمير البحر حمزة باشا في بحر مرمرة أمكنتها من السور، والتحم الجنود العثمانيون في صراع عنيف مع المدافعين الذي هبوا إلى كذف السلام إلى البحر وإطلاق النيران على الأتراك<sup>(٤)</sup>. وقد أثار هذا الهجوم الشديد من ناحية البحر الفزع بين أهل القسطنطينية، وجارت أصواتهم بالدعاء والضراعة، ودقت أجراس الكنائس دقات شديدة متوالية. على أن هذا الخطر قد أثار في الأهالي من جهة أخرى روح المقاومة والكفاح، ولم تتخلف النساء عن الإشتراك في أعمال الدفاع، فأخذن يغلين الزيوت ثم يحملنها إلى الأسوار لتصب على المهاجمين والذين يتسلقون السور منهم خاصة، ولكن ذلك لم يضعف عزيمة الأتراك<sup>(٥)</sup>.

أما جنود الأناضول الذين كانوا يقومون بالهجوم، فقد أمرهم السلطان بالانسحاب، وكان المدافعون قد بلغوا من الإعياء أقصاه، ولم يكن السلطان يرمى من هذه الهجمات المتواصلة إلا إرهاب المدافعين قبل الإجهاد عليهم. واغتنب جويستيناني وجنوده بالانسحاب

(1) Ibid., p. 62.

(٢) سالم الرشيدى: محمد الفتح، ص ٨٥.

(3) Barbaro, op. cit., p. 62.

(٤) سالم الرشيدى: المرجع السابق، ص ٨٤.

(٥) المرجع السابق، ص ٨٥.

الأتراك، واعتقدوا أنهم سينالون قسطاً من الراحة، ولكن السلطان لم يدعهم ينعمون بالراحة<sup>(١)</sup>. إذ جاء بالقسم الثالث من جنوده وهم الانكشارية، وقد قاد السلطان بنفسه هذا الهجوم. وفي ذلك يقول المؤرخ باربارو<sup>(٢)</sup>: «هجمت الإنكشارية على سور المدينة البائسة كالأسود صائحين، ووصلت أصواتهم بعيداً إلى الأناضول على بعد إثنتى عشر ميلاً من معسكرهم، وسلبت أصواتهم العالية شجاعتنا، وانتشر الإنكشارية في المدينة، وتعالّت أصوات السكان تطلب الرحمة من السماء، حتى لا يحكم الوثنيون (الأتراك) إمبراطورية قنسطنطين، وركع كل الرجال والنساء، وصلوا للرب وأمه العذراء، لكي يمنحنا النصر ضد العنصر الوثني...».

ويذكر المؤرخ بابارو<sup>(٣)</sup>، أن البيزنطيين فعلوا المعجزات من أجل الدفاع عن المدينة، واستبسلوا في القتال، ولكن الأتراك ركزوا هجومهم، وقدموا أروع صور البسالة والبطولة. ورأى البيزنطيون أنه له تعدد فائدة، لأن الرب قرر أن المدينة لا يد أن تقع في أيدي الترك، وتلك هي مشيئته. وضاعف الترك قوتهم في الهجوم، وانهالت القذائف من المدفع الكبير، وانطلق الترك كالوحوش الكاسرة، وفي مدى ربع ساعة كان هناك حوالي ثلاثين ألف تركي داخل الحصون، وقد أطلقوا صرخاتهم العالية التي بدت كالجحيم تماماً، ووصلت: «بدءاً إلى الأناضول، وسرعان ما أصبحت التحصينات على مسافة ستة أميال مليئة بالترك».

وأدرك البيزنطيون أن المعركة في ساعتها الأخيرة، فانتابهم الرغب والفرح الشديدين، وأمر الإمبراطور بدق ناقوس الخطر في جميع أنحاء المدينة، وظهر نشاط مكثف في المدينة، ولكنه نشاط ذات صفة دينية. ففي كل مكان جماعات صغيرة من القسس والأساقفة والرهبان والنساء والأطفال يصلون ويكفون، ويرفعون الأيقونات. وقضى الأهالي الوقت في الصلاة في كنيسة أياصوفيا، وأقيم قداس في تلك الكنيسة، وجثا جميع الحاضرين على ركبهم: الإغريق والجنوية والبنادقة والأرثوذكس والكاثوليكية، والقسس والجنود، والنبلاء والعامّة، الإمبراطور والشحاذون. وقد وحدث النكية بينهم، وأصبحوا متساويين أمام المصير الذي تلقاه المدينة، والموت الذي يحوم حولهم<sup>(٤)</sup>.

(١) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ٨٥.

(2) Barbaro, Diary of the Siege of Constantinople., p. 63.

(3) Ibid., pp. 64-65.

(4) Guderan, Byzantium: Its triumphs and Tragedy., p. 212.

وفى عنفوان الهجوم أصيب جويستينيانى الجنوى بجرح مميت من سهم مشتعل بالنار إخترق صدره، وقرر أن يهجر مركزه ويهرب إلى سفينته، حيث قضى فيها نحيبه بعد يومين، وبموته سرى اليأس إلى قلوب القوات الأجنبية، ودخل الأتراك المدينة من بوابة القديس رومانوس، حيث سويت الأسوار بالأرض من شدة قصف المدافع<sup>(١)</sup>. ويصف أحد أوائل شهود العيان الذين وصلوا إلى البندقية، وهو جاكوبو تيدالدى Jacopo Tedaldi شدة القصف، وكان تاجراً من فلورنسة، وحارب خلال الحصار، وفر فى اللحظة الأخيرة، حيث التقطته إحدى السفن السبعة التى أنقذت حوالى أربعمائة، ووصل إلى البندقية فى ٥ يوليوسنة ١٤٥٣، ومنها إلى فلورنسة. وقد روى أن السلطان حاصر المدينة بحوال مائتى ألف مقاتل، وضرب أسوارها بمدافع ضخمة، وخاصة المدفع العملاق الذى كان يطلق أكثر من مائة قذيفة فى اليوم، وتحت القذف المتواصل تهشمت الأسوار القديمة كالطين<sup>(٢)</sup>.

وازداد هجوم الإنكشارية عنفاً، وصعد البعض منهم برجاً كان يعلوه راية القديس مارك Saint Mark وراية الإمبراطور، فأنزلوها ووضعوا مكانهما راية السلطان العثمانى، وعندئذ أيقن الأهالى أن الأتراك قد استولوا على المدينة، وأنه لم يعد ثمة أمل فى استردادها<sup>(٣)</sup>.

فلما رأى قنسطنطين الأعلام العثمانية ترفرف فى المدينة، واندفاع جموع الأتراك كالسيل فى أرجائها، نزل عن حصانه، وخلع ملابسه الإمبراطورية، وسل سيفه، وأخذ يخطط به ذات اليمين وذات الشمال، حتى أصابه أحد الجنود الأتراك بضربة سيف قاتلة، ومات ميتة الأبطال، ولم يقف شىء بعد ذلك فى وجه الأتراك لدخول المدينة، فقد تفتحت لهم جميع الأبواب والمنافذ، وتزاحم الناس كل يطلب النجاة لنفسه<sup>(٤)</sup>.

وبعد أن دخل الأتراك المدينة، ترك الجنود الاستحكامات ومراكزهم بحثاً عن الأمان، واندفع البنادق إلى سفنهم، وأبحروا على وجه السرعة، وامتلات سطوح السفن بالفارين،

(1) Barbaro, op. cit., p. 65, Kritovoulus, op. cit., p. 70,

عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٣٩.

(2) Schwoebel (Robert), The Shadow of the Crescent, (New York, 1967), p. 4.

(3) Barbaro, op. cit., p. 66, Doukas, op. cit., pp. 222-223, Guerdan, op. cit., p. 215.

(4) Guerdan, op. cit., pp. 216-217.

وتبعهم عدد من السفن الجنوبية، بعضها كان يحمل أعضاء من الأرستقراطية البيزنطية من ال باليولوجوس وكاتنا كوزين، الذين كان لديهم الوقت ليجمعوا عائلاتهم، وهربوا من العقاب الذى كان سينزل بهم، وكانوا محظوظين فى ذلك، فهرب البعض إلى خيوس، والبعض إلى كريت، والبعض إلى البندقية وغيرها. أما نهب المدينة وسلبها الذى وعد به السلطان قواته المنتصرة، فقد استمر ثلاثة أيام ليلاً ونهاراً. فقد نهبت ودمرت المنازل الخاصة والكنائس والأديرة، وتعرض القصر الإمبراطورى للتلف، وحطمت الأيقونات والتحف، والمخطوطات النادرة الثمينة، وانتزعت أطر الأيقونات الثمينة من الذهب والفضة، وألقيت بالأيقونات للديران. وقتل الأتراك كل شىء حتى وقف فى طريقهم، وجرت الدماء فى الشوارع. وقد سمع الجنود الأتراك أن أغلى ما يستحق النهب يوجد فى كنيسة أباصوفيا، وكان الإنكشارية أول من توجه إلى هناك، وكانت الكنيسة مزدحمة بالخائفين والمذعورين الذين فروا إلى هناك، وأغلقوا الباب عليهم. ولكن الجنود سرعان ماشقوا طريقهم إلى داخل الكنيسة، وحطموا التحف الثمينة<sup>(١)</sup>. ومع هذا فإذا أخذنا وجهات النظر المتعارضة والأدلة القائمة، فإن معاملة الأتراك لسكان القسطنطينية كانت أرحم من معاملة الصليبيين. لهم أثناء احتلالها سنة ١٢٠٤م<sup>(٢)</sup>.

وما أن انتهت كل مقاومة فى المدينة، حتى ركب السلطان محمد - الذى أطلق عليه لقب الفاتح - صهوة جواده الأبيض، وكان عمره آنذاك ثلاث وعشرين سنة، وتوجه إلى كنيسة آياصوفيا (سانت صوفيا)، وطاف بأرجائها، وقد بهرته روعتها وأعمدتها الرخامية الرائعة، وصلى شكراً لله، وأمر بتحويل هذه الكنيسة إلى مسجد، وطلب إلى أحد العلماء أن يؤذن للصلاة، ثم صلى السلطان لله الذى اختصه بتحقيق نبوءة الرسول ﷺ القائلة إن القسطنطينية ستصير يوماً مدينة إسلامية<sup>(٣)</sup>.

(1) Nicol, op. cit., 89-90, kritovoulos, op. cit., p. 72, Schwobel, op. cit., p. 7.

(2) Ostrogorsky, Hist. of Byzantine State, p. 571, Stavrianos, op. cit., p. 60, Vasilev, op. cit., Vol. II, p. 653.

عزيز سوريال عطية: المرجع السابق، ص ٤٠، عبد القادر أحمد اليوسف: الإمبراطورية البيزنطية (بيروت ١٩٦٦)، ص ١٨٤.

(3) Nicol, op. cit., p. 90 Hearsey, City of Constantine, p. 245.



ولما كانت مدينة القسطنطينية قد فتحت عنوة أو أخذت بالحرب، فإن الشريعة الإسلامية كانت تبيح نهب المدينة والاستيلاء على أموال سكانها. ولكن محمد الفاتح سيطر على رجاله، وبذل كل ما في وسعه للاحتفاظ بالمدينة سليمة، حتى يجعل منها مركزاً لإمبراطوريته العالمية. وعندما لجأ كثير من السكان إلى مستعمرة جالاتا الجنوبية عبر القرن الذهبي، عقد زغنوس باشا إتفاقية بمقتضاها ضمت جالاتا إلى الإمبراطورية العثمانية، وهدمت أسوارها ودفاعاتها وتحصيناتها، في مقابل أن يسمح السلطان لسكانها بممتلكاتهم، وضمان حرية العبادة، وممارسة التجارة في جميع أرجاء الدولة العثمانية، على أن يدفعوا جزية سنوية<sup>(١)</sup>.

وفي اليوم الخامس من الفتح زار محمد الفاتح جالاتا، وأمر بإجراء تعداد للسكان، فوجد أن كثيراً من البيوت قد أغلقت لأن أصحابها اللاتين فروا في السفن. فأصدر أمراً أن يرجع السكان في غضون ثلاثة شهور، وإذا لم يرجعوا سيصادر بيوتهم. ثم أمر بإزالة أسوار جالاتا، وعين عبده سليمان حاكماً عليها. وحول الكنيسة الكبيرة إلى مسجد، ولكنه ترك بقية الكنائس على حالها، ورجع منتصباً إلى أدنة في ١٨ يونيو ١٤٥٣ ومعه عدد ضخم من الأسرى وكميات كبيرة من الغنائم<sup>(٢)</sup>.

وعندما انتهت الفوضى التي أعقبت فتح القسطنطينية، كانت البطريركية شاغرة إذ ذاك، فالبطريك المعين جريجورى الثالث كان متغيّباً في إيطاليا، وكان لابد من وجود شخصية دينية تقود المجتمع المسيحي في الإمبراطورية العثمانية<sup>(٣)</sup>. فاختار محمد الثاني رجل دين بارز يدعى جناديوس Gennadius ليكون بطريركاً للكنيسة الأرثوذكسية، وأكد له «كل امتيازات أسلافه». وعفى محمد الثاني الكنيسة من الضرائب، وسمح لها باستقلال تام في إدارتها، والاحتفال بحرية الخدمات الدينية، حتى أنه قام بزيارات للبطريك الجديد، وناقشه في اللاهوت، وطلب إليه أن يكتب كراسة عن المسيحية، مما يدل على تسامح وعقلية مستنيرة<sup>(٤)</sup>.

(1) Shaw, op. cit., Vol. I, p. 57, Kritovoulos, op. cit., p. 76.

(2) Doukas, op. cit., pp. 240-241

(3) Nicol, op. cit., pp. 90-91.

(4) Stavrianos, The balkans since 1453, p. 60.

وكان سقوط القسطنطينية حادثاً جليلاً اهتزت له أوروبا المسيحية من أقصاها إلى أقصاها. ففي خلال صيف عام ١٣٥٤ انتشرت أخبار سقوط القسطنطينية، فقد وصلت إلى جزيرة كريت في أوائل يونيو ثلاث سفن تحمل الفارين من المدينة المنكوبة. وروى راهب دير أجاراثوس Agarathos الذي سجل الحدث أنه «لا شيء أسوأ مما حدث، ولن يحدث مثله»، وتضرع إلى أن يخلص جزيرته من براثن الأتراك<sup>(١)</sup>. وكتب المؤرخ ليونتيوس مخاريس Leontis Makharis قائلاً إن «كثيراً من الرجال الطيبين والرهبان أتوا إلى جزيرة قبرس قادمين من القسطنطينية، وأن ملكة الجزيرة شارلوت دى لوزجنان انتابها الحزن العميق، وأشفت على حالة اللاجئين، وبنت لهم ديراً، ومنحتهم قرى وأموالاً كثيرة». وفي نهاية يونيو كتب جين دى لاستيك Jean de Lastic مقدم منظمة الاستتارية في رودس إلى الأمير الألماني فردريك الثاني صاحب براند نبرج الذي كان يؤدي فريضة الحج في بيت المقدس، يخبره بما حدث. فوصف دى لاستيك رعب الحصار العثماني، والنهب الدموي الذي أعقب سقوط المدينة، وحث فردريك والحكام المسيحيين على أن يتوحدوا ويقاوموا السلطان الطاغية الذي أقسم بتحطيمهم<sup>(٢)</sup>.

وقد أوضح البنادقة شدة الرعب الذي استولى على جمهوريتهم في رسالة بعثوا بها إلى البابا نيقولا الخامس (١٤٤٧ - ١٤٥٥)، وحذروا من عواقب النصر العثماني وخطره الدائم. وأقر البنادقة خطأ أن يبرا وقعت في ٢٨ مايو، وتم ذبح كل سكانها من ست سنين فما فوق، وجعل السلطان من القسطنطينية عاصمة له، ومن الصعب إيقافه، إلا إذا قام الرب والبابا والدول المسيحية بمد يد المساعدة، وقد تنبأ السناتو في البندقية بخضوع الجمهورية للترك، وما يترتب على ذلك من نتائج خطيرة للمسيحية. وتوسل البنادقة للبابا أن يستخدم كل نفوذه لمد يد المساعدة قبل أن يفوت الأوان. ولم يلبث السناتو أن أرسل جيوفاني مورو Giovanni Moro إلى بلاط نابولي، لتبليغ ألفونسو الخامس، وقد كبره «أن السلطان العثماني لازال صغيراً، وأنه يكره المسيحية من كل قلبه». وأكد مورو حاجة أوروبا الملحة للاتحاد والوثام بين الحكام المسيحيين. وأخيراً وصل الرسول إلى روما في ٨ يوليو،

(1) Schwoebel, The Shadow of the Crescent, p. 1.

(2) Schwoebel, The Shadow of the Crescent., p. 1.

وأبلغ الشعب الروماني بالكارثة التي ألت بالقسطنطينية، فابصرى الشعب ينتحب في الشوارع<sup>(١)</sup>.

وكتب الكاردينال بيساريون Bessarion إلى دوج البندقية بعد سقوط القسطنطينية قائلاً: «المدينة التي كانت مزدهرة، رمز الفخامة والعظمة في الشرق، وموطن كل ما هو جيد. هذه المدينة قد سقطت وخربت ونهبت تماماً على أيدي أكثر البرابرة همجية ووحشية. حدث لها هذا على أيدي القساة غلاظ القلوب، ذوى الطباع الحيوانية. وثمة أخطار تهدد إيطاليا - ولن أذكر مناطق أخرى - إذا لم نكبح جماح الهجوم المدمر لأكثر أنواع البرابرة الهمج ضرراً»<sup>(٢)</sup>.

كما قام الهاريون الذين فروا من أيدي السلطان العثماني بنشر خبر سقوط القسطنطينية في بلاد البلقان المجاورة. وسافر أسقف إغريقى يدعى صمويل وبصحبته رجل دين أرثوذكسى خلال والاشيا وترانسلفانيا، وعندما وصلا هرمانشتاد Hermanstadt في أغسطس، حذر الإغريق من هجوم يوشك أن يحدث فى المنطقة، كما وصلت أخبار الكارثة إلى ألمانيا وأوروبا الشرقية<sup>(٣)</sup>.

وأبلغت البندقية وروما بقية أوروبا بأحداث القسطنطينية، فعلم فيليب الطيب صاحب بورجنديا، وكان من أشد الناس تحمساً لقتال الأتراك قبل سقوط القسطنطينية، من البابا نيقولا الخامس، ومن إمبراطور ألمانيا فريدريك الثالث، وعندما علم ملك البرتغال بالخطر الوشيك، وعد بمساندة البابا. كما وصلت أنباء الكارثة الأليمة إلى أبعد مكان فى العالم المسيحى، فعندما علم كرستيان الأول ملك الدانمارك والترويج بالحادث، أعلن أن السلطان العثماني وحش خرج من البحر<sup>(٤)</sup>.

أما فى الشرق الإسلامى، فقد كان الفتح العظيم على عكس ذلك، إذ عم الفرح والابتهاج بين المسلمين فى أرجاء آسيا وأفريقية لهذا الفتح الإسلامى. وما أن وصل رسل

(1) Ibid., p. 1.

(٢) بول كولز: العثمانيون فى أوروبا، ص ١٥٣ - ١٥٤.

(3)Schwoebel, The Shodow of the Crescent., p. 3.

(4) Ibid., pp. 3-4.

السلطان محمد الفاتح إلى مصر والحجاز وفارس يحملون نبأ هذا الفتح، حتى هلك المسلمون وكبروا، وأذيعت البشائر من منابر المساجد، وأقيمت صلوات الشكر، وزينت المنازل والدكاكين والحوانيت، وعلقت على الجدران والحوائط الأعلام والأقمشة المختلفة الألوان، وأمضى الناس في هذه البلاد أياماً كأحسن ما تكون أيام الأعياد الإسلامية روعة وبهاء<sup>(١)</sup>.

ويصف المؤرخ المصرى المعاصر أبا المحاسن شعور الناس في القاهرة، بعد أن وصل إليها رسول السلطان محمد الفاتح ورقفته في ٢٣ شوال سنة ٨٥٧ هـ (٢٧ أكتوبر ١٤٥٣) نبأ فتح القسطنطينية ومعهم الهدايا وأسيران، قال: «قلت ولله الحمد والمنة على هذا الفتح العظيم، وجاء القاصد المذكور ومعه أسيران من عظماء استانبول، وطلع بهما إلى السلطان (السلطان، لينال) وهما من أهل القسطنطينية، وهى الكنيسة العظمى باستانبول، فسر السلطان والناس قاطبة بهذا الفتح العظيم، ودقت البشائر لذلك، وزينت القاهرة بسبب ذلك أياماً، ثم طلع القاصد المذكور، وبين يديه الأسيران إلى القلعة في يوم الاثنين خامس وعشرين شوال، بعد أن اجتاز القاصد المذكور ورقفته بشوارع القاهرة، وقد احتفلت الناس بزينة الحوانيت والأماكن، وأمعنوا في ذلك إلى الغاية، وعمل السلطان الخدمة بالحوش السلطاني من قلعة الجبل...».

ويقول ابن لياس في هذه الواقعة: «فلما بلغ ذلك، ووصل وفد الفاتح، دقت البشائر بالقلعة، ونودى في القاهرة بالزينة، ثم إن السلطان عين برسباى أمير آخور ثانى رسولا إلى ابن عثمان يهنئه بهذا الفتح»<sup>(٢)</sup>.

والواقع أن الانتصار الذى حققه العثمانيون ضد الإمبراطورية البيزنطية في ٢٩ مايو ١٤٥٣، يعتبر علامة بارزة على نهاية إمبراطورية وبداية أخرى. فقد توج محمد الفاتح بإنجازات أسلافه، وما أنجزه في إيجاز كما قال المؤرخ وتيك Willek كان «عملاً إمبراطورياً، تحدى به الفاتح كل الغرب الأوروبى، وأثبت أنه صار سيداً على الأرض الممتدة من البحر الأسود حتى البحر المتوسط، وهو وحده الذى يقرر مصيرها»، وهذا يعنى أن التجارة التى

(١) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ١٠٥.

(٢) ابن لياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ج- ٢، ص ٣١٦.

كانت تمر خلال الأراضي السابقة، والتي سيطر عليها الإيطاليون بصفة خاصة، أصبحت حينئذ تحت تصرف السلطان العثماني<sup>(١)</sup>.

وكان فتح القسطنطينية من وجهة نظر العثمانيين ليس مجرد نصر عسكري عظيم، فلم تكن القسطنطينية مدينة عادية، بل عاصمة كبيرة، ومركزاً لشبكة مواصلات تجارية واسعة وممتدة، وقاعدة إدارية، غير أنها تفسخت في القرون الأخيرة. وها هي بعد أن وقعت في أيدي العثمانيين، أضحت من الممكن بعثها من جديد لخدمة أهداف السادة الجدد (العثمانيين) ومصالحهم. ولوقوع القسطنطينية موقعا وسطا بين آسيا وأوروبا، أصبحت هي العاصمة الطبيعية للإمبراطورية العثمانية التي تمتد ولاياتها في القارتين<sup>(٢)</sup>.

ومن النتائج الهامة لفتح القسطنطينية بالنسبة للغرب الأوربي أنه ترك أثراً بعيداً في مسيرته الفكرية، فقد هاجرت جماعات عديدة من المفكرين والعلماء إلى الغرب وبخاصة إيطاليا، حاملين معارفهم وبقايا مكتباتهم<sup>(٣)</sup>. وكان ذلك من بواعث النهضة الحديثة في أوروبا.

وعلى أية حال، أصبحت مدينة القسطنطينية بعد فتحها على أيدي محمد الثاني عاصمة للإمبراطورية العثمانية، تعرف باسم إستانبول أو إسلامبول أو الآستانة، وإستانبول كلمة تركية معناها دار الإسلام. وكانت الخطوة التالية للسلطان هو إعادة المدينة إلى سابق عظمتها، فقبل الفتح بوقت طويل اختفى كثير من سكان المدينة، وانهار ازدهارها الاقتصادي، وتركت المدينة فقيرة بائسة وخالية من السكان إلى حد كبير، وبلغ عدد سكانها حوالي ستين أو سبعين ألف. وقد حاول محمد الثاني بعد الفتح مباشرة أن يتجنب النهب والسلب قدر الإمكان، ولكن كثيراً من الناس هربوا من شدة الخوف. ومن ثم كان أول عمل قام به محمد الثاني هو إعادة سكان استانبول، وإغراء سكانها الفارين بالعودة إليها<sup>(٤)</sup>. وقد أراد بذلك أن يجعل من عاصمته الجديدة عالماً صغيراً يسكنه مختلف الشعوب والعناصر الدينية المتنوعة في الإمبراطورية<sup>(٥)</sup>.

(1)Schwoelbe, p. cit., p. 10.

(٢) بول كولز: العثمانيون في أوروبا، ص ٣٤.

(3)Lernerle, A Hist of Byzantium., p. 135.

(4) Shaw, Hist of Ottoman Empire, Vol.. I. p. 59.

(5) Ibid., p. 59., Runciman, The Fall of Constantinople., p. 159.

وقد اتخذ محمد الثاني إجراءات لإعادة تسكين المدينة التي غادرها سكانها الإغريق إلى أدرنة وبروسة وبلوفديف Plovdiv وغاليبولي، ودعا إغريق المورة وأزمير وطرابيزون، ويهود سالونيك، وأرمن توقات وأماسيا وقيصريّة، وأتراك الأناضول، للإقامة باستانبول، وقدم لهم شروطاً مغرية للغاية، منها المنازل المجانية، والإعفاء المؤقت من الضرائب، ومدهم بأدوات العمل اللازمة<sup>(١)</sup>. وعندما رأى السلطان أن سياسة التهجير التطوعى لم تأت بالغرض المنشود، إبتكر حلاً جذرياً، وهو تهجير رعاياه ممن يتمتعون بالمهارة فى الحرف والتجارة إلى إستانبول بالقوة الجبرية، فأتى بالمهاجرين من الأناضول، والبلقان، ومنحهم الأراضى وتنازلات فى الضرائب، على أمل استعادة الحياة الاقتصادية للمدينة. وقد تم تنفيذ هذا الإجراء فيما بعد فى القرن السادس عشر الميلادى على أيدى السلطان سليم الأول، بعد استيلائه على تبريز ودمشق والقاهرة، كما اتخذهُ السلطان سليمان القانونى بعد غزواته فى البلقان ووسط أوروبا<sup>(٢)</sup>.

لم يكن كافياً إعادة تسكين استانبول أو جعلها عاصمة الإمبراطورية حتى تصير مزدهرة، إذ كان ينبغى أيضاً جعلها مركز تجارة البحر الأبيض المتوسط، وملتقى تجارة العالم الإسلامى مع العالم المسيحى. ومن الواضح أن العثمانيين كانت خبرتهم قليلة فى مجال التجارة، ولذلك فقد احتاجوا إلى خبرة التجار الأجانب، ونظراً لأن أهالى القسطنطينية قد غادروها أثناء الفتح العثمانى بها، فقد عملت الإمبراطورية العثمانية على إحضار غيرهم ليحلوا محلهم فى العاصمة: الإغريق، وخبراء أرمن فى التجارة الدولية، واليهود وخاصة يهود سالونيك. وعندما تعرض اليهود والمسلمون فى أسبانيا فى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلاديين، اجتذبت العاصمة العثمانية عدداً كبيراً من اليهود لتعزيز الحرف والتجارة والشؤون المالية<sup>(٣)</sup>.

(1) Mantran (Robert), "Foreign Merchants and the Minorities in Istanbul during the Sixteenth and Seventeenth Centuries". in Christians and Jews in the Ottoman Empire. Ed. by Benjamin Braude and Bernard Lewis, Vol. I (New York, 1982), p. 128.

(2) Ibid , p. 128.

(3) Ibid., p.128.

وما يجدر ذكره أن السلطان محمد الفاتح وجه نداءات مختلف أنحاء العالم الإسلامي، رحب فيها بالهجرة إلى عاصمة الإسلام الجديدة للعيش فيها، والعمل على النهوض بها. كما أطلق السلطان سراح أسرى الحرب ومنحهم حريتهم، شريطة العمل في بناء الطرق وتمهيدها. أما الفلاحون الذين ينتمون إلى مناطق البلقان، فقد أقاموا في المدينة وحولها، وغرسوا فيها البساتين وأشجار الفواكهة. ونتيجة لذلك، ففي خلال وقت قصير أصبحت إستانبول مزدحمة بالسكان، وملیئة بالحياة والنشاط<sup>(١)</sup>.

وبعد فتح القسطنطينية اعترف العالم الإسلامي بالسلطان العثماني محمد الفاتح زعيما للحرب المقدسة ضد المسيحيين، ووجد السلطان نفسه متفوقا على كل الحكام المسلمين، بما فيهم حيرانه سلاطين المماليك، وطالب بأن يحل محلهم في الإشراف على الحجاز. وشجع على كتابة التراث التركي الذي يظهر أن أسرته تنحدر مباشرة من أوجوزخان Oguz Han، لمواجهة أطماع منافسه الرئيسي أوزون حسن حاكم تركمان «الشاة البيضاء» في إيران، الذين بدأوا يتحدثونه في حكم الأناضول الشرقية<sup>(٢)</sup>.

وبفتح القسطنطينية اعتبر السلطان الشاب فاتح روما الجديدة، واعتبر نفسه الوارث الوحيد والفعلی لواحدة من إمبراطوريات العالم آنذاك، وهي الإمبراطورية الرومانية الشرقية (الإمبراطورية البيزنطية)<sup>(٣)</sup>. وأحاط به البعثة البيزنطيون والإيطاليون، وشجعوه على اعتناق الأفكار المبالغ فيها التي تتسم بالعظمة الرامية إلى سيطرته على العالم<sup>(٤)</sup>.

وقد اتخذ محمد الفاتح من الشريعة الإسلامية قاعدة لحكمه، فقد ترك - كما ذكرنا - أهالي البلاد: المنتوحة من المسيحيين على عقيدتهم وتقاليدهم، ويمارسون حياتهم الخاصة، ويتمتعون بأموالهم تحت حماية الدولة، بشرط أن يدفعوا الجزية، فضلا عن الضرائب النظامية المفروضة على الإنتاج والدخل سواء المسلمين أو المسيحيين.

(1) Shaw, Hist of the Ottoman Empire, Vol. I, p. 59.

(2) Ibid., p. 60.

(٣) خليل إينالجيک: «العثمانيون، النشأة والازدهار»، ص ٦٢.

(4) Shaw, op. cit., p. 60.

لقد قدر للمدينة التي شيدها الإمبراطور قسطنطين الكبير (٣٠٦ - ٣٣٧) أن تطوى آخر صفحاتها في عهد سمي قسطنطين الحادي عشر باليولوجوس<sup>(١)</sup>. ومن المفارقات حقاً أن المدينة التي جعلها قسطنطين الكبير رمزاً للإمبراطورية المسيحية، أصبحت مناراً إسلامياً، منطلقاً لتوجيه الدعوة الإسلامية على يد العثمانيين إلى جهات أوروبا الشرقية<sup>(٢)</sup>.

ونصل إلى القول إن فتح القسطنطينية كان بداية لسلسلة من الانتصارات العثمانية الرائعة في البر والبحر، فلم تأت أواسط القرن السادس عشر حتى استطاع الأتراك أن يسيطروا نفوذهم على مناطق شاسعة في أوروبا الوسطى مثل المجر ورومانيا وجنوب بولونيا وأجزاء من شرقي النمسا. وزحف العثمانيون على مدينة فيينا وحاصروها لأول مرة في سنة ١٥٢٩، ثم حاصروها للمرة الثانية في سنة ١٦٨٣ م. وبالرغم من قتل العثمانيين في هذين الحصارين الشهيرين، فإن مجرد وصول الفتوحات العثمانية إلى قلب أوروبا المسيحية على هذا النحو، أثار الرعب والفرع في دول أوروبا، وكان في أحيان كثيرة عاملاً في جمع كلمة الدول الأوروبية، واتحادها على مقاومة الخطر المشترك، وكان ملوك أوروبا وحكامها يشجعهم على مقاومة هذا الخطر نزعاً صليبية لاشك فيها، ولو أنها لم تكن يومئذ من وحي البابوية أو صنعها<sup>(٣)</sup>.

### فتح صربيا والبوسنة وهرزوفينا (الهرسك):

ظن بعض الأوروبيين في الغرب أن سقوط القسطنطينية في أيدي السultan محمد الثاني سيضع حداً لآماله، ويقنعه بالاكْتفاء بما وصل إليه من جهد توجه بامتلاك عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، وبعبارة أخرى فإن السلطان لصغير سيحول انتباهه عن أية فتوحات أخرى في أوروبا. ولكن هذا الظن كان مجرد وهم، فقد اعتبر محمد الثاني أن استيلائه على القسطنطينية ليس نهاية أعماله الحربية، بل بدايتها ومستقبل تاريخه<sup>(٤)</sup>.

(1) Ostrogorsky, op. cit., p. 571.

(٢) عبد القادر اليوسف: الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٨٤.

(٣) عبد الله عنان: مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ص ١٩٧ - ١٩٨.

(4) Stavrianos, op. cit., p. 60.



وما يجدر ذكره أن العثمانيين فرضوا سيادتهم على كثير من أجزاء البلقان، ولكنها كانت سيادة مزعزعة تقوى حيناً وتضعف حيناً. ولكن بعد أن وضع محمد الفاتح يده على القسطنطينية مفتاح أوروبا الشرقية توطدت سيادة العثمانيين، وبدأت حقاً إمبراطوريتهم فى أوروبا، وكان أول هدف قصده الفاتح هى صربيا<sup>(١)</sup>.

ففى سنة ١٤٥٤ قام محمد الفاتح ببعض الجهود لغزو ساحل البحر الأسود لمولدافيا. ولكنه لم يلبث أن وجد أن مصلحته الأولى آنذاك تتركز فى غرب البلقان، فهناك صربيا الضعيفة التى كانت تمارس الحكم الذاتى قاعدة ينطلق منها المجريون - أو أى حملة صليبية - للزحف ضد السلطان. وكذلك كان الوضع فى إمارات المورة البيزنطية، حيث من الممكن أن تستولى عليها البندقية، وتستخدمها قاعدة تمكنها من إزاحة العثمانيين من أوروبا<sup>(٢)</sup>. ولإزاء تلك الأخطار التى تهدد محمد الفاتح، قام بسلسلة من الحملات بين سنتي ١٤٥٤ و ١٥٦٣ ليمد حكمه المباشر إلى نهر الدانوب من جهة، والبحر الإيغى من جهة أخرى، وبذلك يقيم خطاً دفاعياً حريماً قوياً<sup>(٣)</sup>.

وكان ملك صربيا إذ ذاك جورج برانكوفتش يقوم بدفع الجزية للعثمانيين وتابعا لهم، ولكنه فى الحقيقة لم يكن مخلصاً فى تلك التبعية. وما يدل على ذلك أنه لما جاءه رسول يوحنا هونيادى يعرض عليه الاشتراك فى الحلف الذى ستعقده بعض الدول الأوروبية ضد محمد الثانى الذى عظم خطره على أوروبا بعد استيلائه على القسطنطينية، بادر إلى الموافقة عليه وتأييده. ولتفادى خطر هذا الحلف بادر محمد الثانى إلى غزو صربيا، قبل أن تتخذها القوات المتحالفة قاعدة للهجوم. فلما علم جورج برانكوفتش بزحف السلطان أمر الأهالى أن يلجأوا إلى الأماكن الحصينة، وفرهوا إلى المجر بعد أن وعدهم أنه سيأتيهم بالممدد من هناك<sup>(٤)</sup>. وقد أحرق الأتراك الأراضى فى تلك الحملة، ونهبوا، وذبحوا الأهالى بقسوة ووحشية، حتى ظهر كأن شيئاً لا يمكن أن يشبع عطشهم إلا دماء المسيحيين، وقتلوا كل الذكور فوق أربعين سنة، وساقوا النساء والشباب إلى الأسر<sup>(٥)</sup>.

(١) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ١٥٣.

(2) Shaw, op. cit., p. 63.

(3) Shaw, p. 63.

(٤) سالم الرشيدى: المرجع السابق، ص ١٤٢.

(5) Schwoebel, The Shadow of Crescent., p. 36.

وقبل أن يعود محمد الفاتح من حملته الصربية، عقد معاهدة سلام مع البندقية في ١٨ أبريل ١٤٥٤م، منحت موجبها امتيازات تجارية في القسطنطينية، منها احتكار تجارة الشب في فوسيه، واستغلال مناجم النحاس وصناعة الصابون ومصانع سك العملة وجباية رسوم الجمارك<sup>(١)</sup>. وفي تلك الأثناء كرس السلطان كثيراً من جهده لإعادة تنظيم دولته، وعين عدداً جديداً في المناصب الإدارية. ومنح الإغريق وثيقة توضح حقوقهم وواجباتهم باعتبارهم رعايا له. كما أصدر وثيقة مشابهة للسكان اليهود المقيمين في المدينة، وعين موسى كابسالي Moche Kapsali رانياً أعظم، وعهد إليه بمهمة مسئولية سلوك شعبه<sup>(٢)</sup>.

وفي ربيع عام ١٤٥٥ جمع محمد الفاتح جيشه في السهول الواقعة أمام أدرنة، ثم قادها إلى ولاية كراتوفو Kratovo، وهناك لحقت به قوة بقيادة عيسى بك بن إسحق بك، حاكم الجزء الشمالي الغربي من الولاية، وزحفت الجيوش المتحدة بقيادة السلطان وضربتها بعنف، وحاصرت نوفو برودو Novo Brdo، وهي أحد أعظم المدن التجارية الهامة في البلقان، لوفرة مناجم الذهب والفضة بها، وبعد أربعين يوماً من الحصار سقطت المدينة في أيدي السلطان الفاتح في أول يونيو سنة ١٤٥٥، وجعل عليها والياً وقاضياً وقائداً للقلعة، ومن المعروف أن مناجم تلك المدينة قد ساهمت في ازدهار النشاط الاقتصادي للإمبراطورية العثمانية. وقضى القائدان العثمانيان قراجه بك وعيسى بك بقية صيف هذا العام في إخضاع كل الجزء الجنوبي الغربي من صربيا، وبذلك أمن العثمانيون الاتصال المباشر مع مقدونيا من الشمال، ثم توقف السلطان في سالونيك، ومنها عاد إلى القسطنطينية في أكتوبر<sup>(٣)</sup>، من نفس العام، ولم يبق أمامه من قلاع في صربيا غير بلغراد التي تعتبر «باب المجر».

وفي غضون ذلك نجحت جهود البابا نيقولا الخامس في شمالي جبال الألب في ألمانيا. ففي خلال سنتي ١٤٥٤ و ١٤٥٥ استدعى فردريك الثالث إمبراطور ألمانيا أمراءه للاجتماع به، وعلى الرغم من أن الإمبراطور لم يحضر شخصياً أولى تلك الاجتماعات

(١) شارل ديل: البندقية جمهورية أرستقراطية، ص ١٣٧.

(2) Schwoebel, op. cit., p. 36.

(3) Shaw, op. cit., p. 36, Schwoebel, op. cit., p. 36.

التي انعقدت في راتسبون في أبريل عام ١٤٥٤، وقد حضره فيليب الطيب، فقد استحوذ هذا الاجتماع على الأهمية في أوروبا. وفي هذا الاجتماع أظهر دوق بورجنديا مدى الأزمة التي أمسكت بختناق المسيحية، وأعلن أنه لا بد من المحافظة على العقيدة المسيحية وحرية المسيحيين وحياتهم، وأعلن رغبته في وضع نفسه وموارده للعمل المقدس، ولو أن أى أمير آخر لديه قوة مناسبة فسوف ينضم إليه<sup>(١)</sup>.

وبينما كان محمد الفاتح يقود قواته لحصار نوفو بردو، مات البابا نيقولا الخامس زعيم المعارضة ضد الأتراك في ٢٤ مارس عام ١٤٥٥ بعد مرض طويل ومعاناة شديدة، واختار مجلس الكرادلة في ٨ أبريل الفونسو بورجيا الذى توج بابا بإسم كالكستس الثالث (١٤٥٥ - ١٤٥٨) Calixtus II في ٢٠ أبريل. ومنذ اللحظة الأولى لاعتلائه كرسي البابوية، أعلن أنه سيبدل قصارى جهده لإعلان الحرب ضد الأعداء (الأتراك)، ووعده بتخليص المسيحيين من عبوديتهم، وأكد على ضرورة إرسال حملة صليبية ضد الأتراك. وبدأ كالكستس مشروعاته الصليبية ضد الأتراك بانتهاز فرصة وصول سفراء الدول الأوروبية لتنهتته بمنصب البابوية لفتح باب المفاوضات، والتعرف على القوى والخطط والتوقعات. وعندما ظهر مبعوثو فلورنسا برئاسة رئيس الأساقفة أنطونينوس فى البلاط البابوى فى ٢٤ مايو، تحدث كالكستس عن رغبته فى القيام بعمل حزبى ضد الأتراك، وعبر عن أمله أن تكون فرنسا أول من يأتى لتقديم المساعدة للديانة المقدسة<sup>(٢)</sup>. وبعد ذلك بيومين وافق أنطونينوس فى مجلس كنسى واسع باستحسان مدو على برنامج البابا. وبعد مديح طويل لفضائل البابا وصلاحيته لمنصب البابوية، توسع أنطونينوس فى مشكلة العثمانيين، وأثنى على البابا الجديد لرغبته فى القيام بعمل مقدس، واتهم الأتراك كوحوش قاسية، يسبون الرب، ووصفهم بأعداء المسيح، كما وصف محمد الثانى بأنه ابن الشيطان، والعدو اللدود للجنس البشرى، وأساس الشر فى العالم<sup>(٣)</sup>.

وعلى أية حال أخذ الراهب الفرنسيسكانى يوحنا كابسترانو John Capistrano يجوب أسبانيا وفرنسا وألمانيا وبولندا والمجر يلهب الحماس فى صدور الناس بخطبه البليغة،

(1) Schwoebel, op. cit., p. 32.

(2) Schwoebel, op. cit., pp. 36-37.

(3) Schwoebel, op. cit., p. 37.

ويدعوهم إلى شن حرب صليبية على الأتراك. واختار البابا كالكستس الثالث المجرى يوحنا هونيادى ليتولى قيادة الحملة الصليبية، يعاونه الراهب كابسترانو وكثير من رجال الدين، وتكون حلف صليبي ضد الأتراك اشترك فيه ملك المجر وملك أرجونة وعدة من أمراء إيطاليا ودوق بورجنديا والبنادقة والجنويون وفرسان الاسبتار فى رودس وألمانيا وبرهيميا وبولندا وصربيا<sup>(١)</sup>.

وفى يوم ٧ أبريل سنة ١٤٥٦ وصلت الأخبار إلى بودا أن محمد الفاتح سار على رأس جيش ضخيم بلغ تعداده مائة وخمسين ألف مقاتل، ناحية الحدود الجنوبية للمجر. فمئذ أن استولى على القسطنطينية رأى أن المجر تمثل تهديداً خطيراً لإمبراطوريته فى أوروبا، حتى أن الحملات التى قام بها ضد صربيا فى سنتى ١٤٥٤ و ١٤٥٥ كان الغرض منها تهديد الطريق للقيام بحملة رئيسية ضد المجر. وفى شتاء سنة ١٤٥٥ رأى السلطان أن الوقت قد حان للقيام بعمل حاسم، فاختار بلغراد التى تعتبر بوابة المجر من الجنوب هدفاً رئيسياً له. ووضع السلطان فى حسبانته أنه بمجرد أن تقع بلغراد فى يديه، فلن يأخذ الأمر منه إلا شهرين لفتح بقية المجر<sup>(٢)</sup>. وفى خلال شهور شتاء (١٤٥٥ - ١٤٥٦) ركز السلطان كل جهوده لإعداد الحملة، فجمع قوات من جميع أنحاء الإمبراطورية. ووضع أسطولاً ضخماً فى ويدين Vidin على نهر الدانوب. وفى كروشيفاز Krushevac، كان لديه مسبك، صنع له مدفعاً ضخماً. وقد كتب المندوب الكاردينالى إلى فرانسيسكو سفورزا، معلناً أن الخطر لم يعد قاصراً على المجر وحدها، فلو سقطت المجر، فالإمبراطورية الألمانية والعقيدة المسيحية الصحيحة، وميلان، سيحيط بهم خطر ماحق. وأوضح أن السلام مع عدو كالأتراك أمراً مستحيلاً، فالأتراك لا يشغلهم فقط إخضاع المسيحيين، ولكن تدمير ديانتهم أيضاً. وقد رد الأمراء الصليبيون بكلمات ووعد، واعتقدوا أن الرب لن يسمح للأتراك بالانتصار والنجاح، وأن المساعدة البشرية غير ضرورية<sup>(٣)</sup>.

وقد بدأ الهجوم التركى الأخير على بلغراد فى مساء يوم ٢١ يوليو سنة ١٤٥٦م، وقاوم المدافعون بشجاعة، وصمدوا عدة هجمات. وتكبدت الوحدات المتقدمة التركية خسائر

(1) Lodge, The Close of the Middle Ages, p. 412,

سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ١٢٥.

(2)Schwoebel, op. cit., p. 43.

(3) Ibid., p. 44.

فادحة أثناء مرورها على الخنادق ومهاجمة الأسوار. وقد قام بعض الأتراك باختراق الدفاعات والتحصينات المسيحية من خلال ثغرات أحدثتها قذائف المدافع، ولكن الصليبيين قابلوهم بشجاعة في شوارع بلغراد الضيقة، ودخلوا معهم في قتال وجها لوجه. وكان كاسترانو خلال المعركة واقفاً يلوح بعلم الصليبيين، ويحرض المقاتلين، ويهتف باسم المسيح. وواصل الصليبيون القتال على الأسوار وفي الشوارع، الأمر الذي أدى إلى مصرع كثير من الأتراك. ولم يعد القادة الأتراك قادرين على إعادة النظام بين الجند وتوحيد صفوفهم، وأدت الفوضى إلى هروب الجند الأتراك إلى خطوط دفاعهم لحماية أنفسهم<sup>(١)</sup>.

وفي ضوء النهار ظهرت آلاف من جثث الأتراك، وعندئذ قرر محمد الفاتح أن يفك الحصار عن بلغراد ويتراجع عنها، خاصة أن يوحنا هونيادي قد جاء بسفنه من بودا، وكانت تعادل السفن التركية في الكثرة، ولكنها كانت أشد صلابة وإحكاماً في الصنع. وقد انقضت على السفن التركية، فمزقتها كل ممزق. ولما رأى الفاتح ما أصاب أسطوله من دمار، أعطى أوامره بحرق بقية سفنه لكيلا تقع غنيمة في أيدي عدوه. وهرب الأتراك من مواقعهم وتركوا وراءهم مدافعهم وانسحبوا من القتال، وتم إنقاذ بلغراد، حيث ظلت في أيدي المجرين لنصف قرن آخر، إلى أن سقطت في النهاية في سنة ١٥٢١ على أيدي السلطان العظيم<sup>(٢)</sup> سليمان القانوني (١٥٢٠ - ١٥٦٦).

وسرعان ما أن وصلت أنباء النصر إلى روما في ٦ أغسطس سنة ١٤٥٦، حيث اقتنع الباب كالكستس الثالث أن الرب قد استجاب لصلوات المخلصين، وأعلن أن ذلك أسعد لحظة في حياته، وأمر بإقامة الاحتفالات، وأن تدق جميع أجراس روما، وإقامة صلاة الشكر في كل الكنائس. كما وصلت أخبار النصر على العثمانيين إلى جميع أنحاء أوروبا، فعم الفرح والسرور، وتردد أن الصليبيين في بلغراد لم ينقذوا المجر فقط، بل المسيحية! وشاركت أماكن أخرى في الاحتفالات مثل سينا وفيترايو وبولونا والبندقية<sup>(٣)</sup>. وقد كتب الراهب

(1) Ibid., p. 47.

(2) Ibid., p. 47, Shaw op. cit., p. 63, lodge, op. cit., p. 412, Schevill, The list of the Balkan Peninsla, p. 201, Osterhanver, (M. Eugene), Transylvania. (U.S.A., 1968) pp. 16-17.

سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ١٢٦.

(3) Schwoebel, The Shadow of Crescent., p. 48.

كابستراتنو للبابا أن الوقت قد . نان، «وأن يوم تخلص المسيحية قد ظهر فجرة»، وحانت اللحظة التي يستعيدون فيها أوروبا، وليس هذا فحسب، بل أيضا غزو الأراضي المقدسة وبيت المقدس. وتوسل كابستراتنو للبابا أن يرسل له عشرة آلاف أو إثني عشر ألف فارس إيطاليين مسلحين ليبقوا معه على الأقل ستة أشهر، حيث يمكنهم هم والصليبيون والتبلاء المجريون الاستيلاء على ثروات العدو لدفع نفقات الحملة الصليبية لمدة ثلاث سنوات. وفي نفس هذا المعنى كتب هونيادي إلى أوروبا، موضحا أن السلطان قد اندحر تماما، وأنه لو نهض المسيحيون، فيمكنهم الإطاحة بالمملكة التركية كلها<sup>(١)</sup>.

واظب البابا كالكستس الثالث على مواصلة جهوده ضد العثمانيين، وقد دفعه إلى ذلك انتصار بلغراد من ناحية، واعتقاده أن التيار قد تحول ضد الأتراك من ناحية أخرى. فازداد حماساً، ودعا الأمراء المسيحيين لمقاومة التوسع الإسلامي، واستمر نوابه ودعائه في الانضمام للصليبيين الذين تجمعوا في بلغراد في جموع ضخمة في خلال الأشهر الأخيرة لعام ١٤٥٦ م. وفي تلك الأثناء تفاوض البابا مع جيران الأتراك المسيحيين والمسلمين الذين باتوا يخشون قوة السلطان الصاعدة. كما ساند البابا مباشرة اسكندر بك قائد الألبانيين الشجاع الذي قاوم الاعتداء التركي بنجاح في سنتي ١٤٥٦ و ١٤٥٧ م. ولكن تفاؤل البابا لم يستمر طويلا، ففي أقل من شهر بعد انتصار بلغراد، مات قائد المقاومة المجرية يوحنا هونيادي في ١١ أغسطس سنة ١٤٥٦ م، ضحية وباء مرعب قضى على حياة كثير من المسيحيين الذين ساهموا في إنقاذ المدينة<sup>(٢)</sup>. ويرى البعض أن هونيادي لم يعيش طويلا بعد انتصار بلغراد، بسبب ما أصابه من جهد وإعياء، فضلا عن كبر سنه، كل ذلك لم يساعده على تحمل الجرح الذي أصابه، ثم انتابته حمى عنيفة قضت عليه. وقد بكى البابا عندما بلغه نعيه، وأقيمت له صلاة خاصة في كنيسة القديس بطرس بروما. وكتب إينياس سلفيوس، الذي صار بابا فيما بعد باسم بيوس الثاني، موضحا فداحة الخسارة التي تروبت على موت هونيادي، فكتب يقول: «لقد ماتت آمالنا بموته»<sup>(٣)</sup>. وبعد فترة طويل من المعاناة

(1) Ibid., p. 49.

(2) Ibid., p. 49.

(٣) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ١٢٨.

مات حنا كابسترانو في ٢٣ أكتوبر سنة ١٤٥٦، فقدد الصليبيون رجلاً كان مصدر ثقتهم الكاملة وطاعتهم التامة. لقد فعل البابا كالكستس أقصى ما بوسعه، ولكن أيامه السعيدة الموفقة قد ذهبت، ففي ٦ أغسطس ١٤٥٨ مات البابا دون أن يحقق غرضه وهو القضاء على الأتراك<sup>(١)</sup>، وخلفه في كرسى البابوية بيوس الثاني (١٤٥٨ - ١٤٦٤)<sup>(٢)</sup>.

وبعد أن عاد السلطان محمد الفاتح إلى استانبول، مات جورج برانكوفتش ملك الصرب في ٢٤ ديسمبر عام ١٤٥٦م، تاركاً بلاده في حالة سيئة من الفوضى الداخلية ساهمت في انهيارها<sup>(٣)</sup>. وترك برانكوفتش خلفه زوجته إيرين وابنته مارا أرملة السلطان مراد الثاني وأبناء الثلاثة، وكان لازار أصغر الأبناء الثلاثة، ولكنه كان أكثرهم طموحاً وأشدّهم جرأة وطمعا في الحكم والتفرد به، فوضع السم لوالدته وطرده أخويه، وخشيت مارا على نفسها من بطشه، ففرت إلى السلطان محمد الفاتح ولاذت به، وقد أكرمها ورحب بها<sup>(٤)</sup>.

غير أن لازار مات بعد شهرين في ٢٠ يناير سنة ١٤٥٨، وقد أوصى قبل مماته بتزويج ابنته من ولي عهد البوسنة ستيفن توماشيفيتش Stephen Tomashevich، واستصوبت زوجته هيلين هذه الفكرة، كما رأى ملك المجرم ماتياس كورفان في هذه المصاهرة بين بيتي صربيا والبوسنة ما يقوى جبهة المسيحية ضد الأتراك. ولم تكتف هيلين بذلك، بل رغبت

(1)Schwoebel, op. cit., p. 49.

(٢) كان البابا الجديد بيوس الثاني شخصية هامة، وصل إلى مكانة عالية في الدراسات الإنسانية، وهو صاحب تجربة واسعة في السياسة والدبلوماسية. فقد انغمس إنياس سيليوس الذي عرف فيما بعد بإسم البابا بيوس الثاني لمدة ثلاثين سنة في شؤون أوروبا السياسية، وحضر المجمع الكاثوليكية الهامة. وقد امتلك عقلاً موسوعياً مفكراً لا يعرف الراحة. ومن بين الموضوعات العديدة التي جذبت انتباهه مبكراً، وظلت موضع اهتمامه خلال حياته الوظيفية، هي المشكلة = التركية، فقبل أن يعتلى كرسى البابوية، وقبل سقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين، تناقش مع الحكام المسيحيين حول الوقوف ضد الأتراك. واستغل كل مهاراته في الدراسات الإنسانية والسياسية والإدارة الدينية، في الضغط على الأمراء والشعوب. وقد سار بيوس الثاني على سياسة سلفه كالكستس الثالث العدائية للأتراك، وكتب عن نفسه: «لا شيء أعزّ عندى من حث المسيحيين على عداوة الأتراك، وإعلان الحرب ضدهم».

Schwoebel, The Shadow of the Crescent., p. 57.

أنظر:

(3)Shaw, op. cit., p. 83.

(٤) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ١٢٩.

فى تأمين بلادها ضد الأتراك الذين يتطلعون إلى الاستيلاء عليها، فوضعتها تحت حماية البابا كالكستس الثالث، فوافق وأرسل مندوبه الخاص إلى صربيا. وما يجدر ذكره أن أهل صربيا لم يكونوا أقل عداء للكاثوليكية من أهل القسطنطينية، فلما وضعت هيلين بلادها تحت حماية البابا ثار الصرب عليها، وفضلوا حكم الأتراك على حكم البابا<sup>(١)</sup>.

ولم يستمر الوضع على ذلك، ففي صيف سنة ١٤٥٩م، تحرك العثمانيون بقيادة السلطان محمد الفاتح إلى بلاد الصرب، وقام بطرد المجرين، واستولى على كل بلاد الصرب، فيما عدا بلغراد، وبذلك قضى العثمانيون على استقلالها، وصارت منذ ذلك الحين ولاية عثمانية. وقام العثمانيون أيضا بدمج نظام الإقطاع السابق والتشريع والنظم المالية - بعد تغيير قليل - فى التنظيم الإدارى العثمانى<sup>(٢)</sup>. وكتب السلطان محمد الفاتح إلى سلطان مصر المملوكى الأشرف إيتال يبشره بفتح صربيا، وأهدى إليه بعض الأسرى وأصنافا مختلفة من الأقمشة<sup>(٣)</sup>.

أما البوسنة فقد ظلت خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادى فريسة للمتنافسين الطامعين فى العرش، والصراع بينهم وبين النبالة القوية. فقد حدث أن استعاد الملك البوسنى ستيفن توماس (١٤٤٣ - ١٤٦١) عرشه بمساعدة المجر. وفى سنة ١٤٥٧ طلب السلطان من توماس أن يسلمه أربع مدن على نهر الدانوب، وذلك لتعطيه سهولة الوصول إلى الإقليم الواقع فيما بعد نهر الساف. وعندما أحس توماس بخطر العثمانيين طلب مساعدة البابا كالكستس الثالث، فقام البابا بتنظيم حملة صليبية من قوات مجرية وبوسنية ضد الأتراك. ولكن لسوء حظ البابوية، فإن موت ملك المجر لاديسلاف وضع نهاية لهذه الحملة<sup>(٤)</sup>.

وكانت البابوية فى روما قد بدأت تهتم اهتماماً بالغاً بالبوسنة فى أثناء السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر، خاصة أن الرهبان الفرنسيسكان قد تمتعوا بفترة من النشاط الفعال هناك فى ظل رئاسة جاكوب دى مارتشيا Jacob de Marchia، أسقف البوسنة النشيط، فى ثلاثينيات القرن الخامس عشر. ولكن البابوية ظلت أيضا شديدة الانشغال بمساعدة

(١) سالم الرشيدى: المرجع السابق، ص ١٢٩.

(2) Shaw, Hist of the Ottoman Empire, Vol. I. p. 63.

(٣) إين اباس: بدائع الزهور، ج ٢، ص ٣١٦.

(4) Spinka, A Hist of Christianity in the Balkans., pp. 179-180.



الهرطقة البوسنية، وانهزم منها سيل من الوثائق في أربعينيات هذا القرن، تهم فيها الكنيسة البوسنية بارتكاب أخطاء مذهبية قاتلة من بينها المانوية. وبذل الرهبان الفرنسي سكان جهودا دائبة في خمسينيات القرن الخامس عشر لمكافحة الهرطقة. وما يدل على ذلك التقرير الذى كتبه قاصد رسولى فى البوسنة فى عام ١٤٥١م، يذكر أنه بمجرد أن وصل الإخوة الرهبان إلى الأماكن التى يسكنها الهرطقة، «ذابوا كالشمع إذا اقترب من النار»<sup>(١)</sup>. واعتنق الملك البوسنى ستيفن توماس الكاثوليكية، ثم وافق فى سنة ١٤٥٩، على أن يتحول إلى سياسة الاضطهاد المباشر، فاستدعى رجال الدين فى الكنيسة البوسنية المنشقة وخيرهم بين التحول إلى الكاثوليكية أو النفى من البوسنة، فقبل التحول ألفان منهم، ولم يبق إلا أربعون لاذوا بالفرار، وبذلك قصم طهر الكنيسة البوسنية على يد ملك البوسنة نفسه، وقد حدث ذلك قبل أربع سنوات فقط من تدمير المملكة البوسنية نفسها<sup>(٢)</sup>.

ومن الأسباب التى أدت إلى انتشار الهرطقة فى البوسنة، أن النفوذ المجرى فيها عاد - إلى حد كبير - إلى النبلاء أصحاب الملكيات الكبيرة، وكذلك المزارعين الذين اعتنق منهم هرطقة البرجوميالية رداً على الضغط الكاثوليكي<sup>(٣)</sup>. وقد رأينا من قبل أن ستيفن توماشيفيتش - ابن ستيفن توماس ملك البوسنة - قد تزوج من حفيدة الملك الصربى جورج برانكويتش، وبذلك ضمن بقايا الإقليم الصربى الذى يتركز حول مدينة سمندريا Se-mendria (سميدرفو الحالية)، ولكن سكان تلك المدينة فضلوا أن يعطوا مفاتيح القلعة للسلطان محمد الثانى، بدلا من أن يسمحوا لمجرى كاثوليكي أن يفرض سيادته عليهم.

ربما يذكر أن ملك البوسنة ستيفن توماس لقي مصرعه على أيدى ابنه ستيفن تومافيتش وأخوه راديفوى Rdivoy فى سنة ١٤٦١. وقد صعد توماشيفيتش إلى العرش فوق جثة والده، وكان فى موقف لا يحسد عليه، ذلك أن الشعب كان منقسما من الناحية الدينية، والبلد مهدد كل لحة من الفاتح العثمانى الكبير. ولذلك أبلغ توماشيفيتش البابا بيوس الثانى أن السلطان العثمانى يخطط لغزو البوسنة فى المستقبل. القريب. وفى أوائل سنة ١٤٦٣م طلب المساعدة من المجر والبندقية، إذ أنه بدونهما لن يتمكن من إنقاذ نفسه.

(١) مالكولم: البوسنة، ص ٥٤.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

(3) Spinka, op. cit., p. 180.

وأخذ توماشيفتش يذكر البابا أن السلطان العثماني لن تتوقف أعماله الحربية على غزو البوسنة، ولكن غزواته ستمتد إلى أبعد من ذلك، إلى روما نفسها<sup>(١)</sup>. وعلى الرغم من ذلك لم تحصل المساعدة المنشودة.

وعلى أية حال، دعا البابا القيام بحملة صليبية ضد الأتراك، وطبقا للوعد الذي قطعه المجرىون على أنفسهم بتقديم المساعدة، رفض ملك البوسنة توماشيفتش أن يدفع الجزية السنوية لمبعوث السلطان، الأمر الذي جعل محمد الفاتح يصر على غزو البوسنة، وتأهب للزحف عليها، ولكنه كان عاجزاً عن أن يضع خطته موضع التنفيذ حتى سنة ١٤٦٣<sup>(٢)</sup>.

ففى أوائل ربيع هذا العام، خرج السلطان محمد الفاتح على رأس جيوشه الضخمة من أدرنة متجهاً إلى البوسنة. وأصيب ملك البوسنة توماشيفتش بدهشة بالغة لتقدم السلطان فى زحفه دون أن يعترضه أحد، حتى وصل إلى العاصمة الملكية القديمة بوفاتش Bobo-vats، وحاصرها يومين إلى أن استسلمت. وسقوط تلك المدينة ضاع كل شيء أمام الملك البوسنى<sup>(٣)</sup>. وعندئذ فر الملك شمالاً إلى يايسه Tajce على أمل الحصول على مساعدة المجر، واعتصم بقلعة كليوتش Kljuc على نهر السانا، وهناك أدركه الأتراك، وحشوه على تسليم القلعة مقابل منحه وعد بالأمان، ولكنهم نقضوا وعدهم، فقد ساقوه إلى يايسه وحزوا رأسه، ودفن هناك<sup>(٤)</sup>. ثم تابعت سائر القلاع والحصون فى الاستسلام للعثمانيين فى غضون أسابيع قليلة، ففى منتصف يونيو سنة ١٤٦٣ إنتهت الحرب بين السلطان والبوسنة من الناحية العملية، وفقدت البوسنة استقلالها، وصارت ولاية من ولايات الإمبراطورية العثمانية<sup>(٥)</sup>. ولاشك أن عدم وجود التعاون بين النبلاء، وفيما بينهم وبين الملك، والمقاومة العاجزة، وهبوط الروح المعنوية، كل ذلك كان من الأسباب التى أدت إلى سقوط البوسنة فى أيدي العثمانيين بسرعة أدهشت الجميع<sup>(٦)</sup>.

(1) Spinka, A Hist of Christianity in the Balkans, p. 180, Babinger (Franz), Mehamed the Conqueror and his time (Pirinceton, 1978), p. 216.

(2) Ibid., p. 181.

(3) Ibid., pp. 181-182, Babinger, op. cit., p. 219.

(4) Fine, The Bosnian Church, p.339, Clissold, A Short Hist of Yugoslavia, pp. 62-63, Babinger, op. cit., p. 221.

(5) Spinka, op. it., p. 182.

(6) Fine, op. cit., p. 339.

ثم حول محمد الثاني انتباهه بعد ذلك إلى هرزجوفينا (الهرسك)، لمناعة حصونها وقلاعها وموقعها الاستراتيجي الهام المشرف على البحر الأدرياتي. ولكن ذلك البلد الجبلي الصعب صمد أمام هجمات السلطان العثماني، واستعصى عليه، ولذلك اضطر إلى العودة إلى استانبول، دون أن يحقق غرضه. وقد حصلت هرزوفينا على استقلالها الذاتي حتى سنة ١٤٨٣م، عندما ضمت نهائياً إلى الإمبراطورية العثمانية على أيدي السلطان بايزيد الثاني<sup>(١)</sup> (١٤٨١ - ١٥١٢).

### حروب محمد الفاتح في المورة:

كان يحكم المورة قسطنطين قبل أن يتولى عرش الإمبراطورية البيزنطية، فلما آلت إليه هذه الإمبراطورية سنة ١٤٤٨م، عهد بحكم المورة إلى أخويه توماس وديمترىوس، وقسمت بينهما، فكان الأول يقيم في بتراس، والثاني في إسبرطة. وقد أخذت عليهما الأيمان والعهود في القسطنطينية قبل رحيلهما إلى المورة أن يعيشا في وئام، وأن يتركا المنازعات القائمة بينهما، وقد كانا في المورة بمثابة نائبين للإمبراطور قسطنطين الحادي عشر باليرلوجوس<sup>(٢)</sup>.

وعندما بلغ الأخوان سقوط القسطنطينية، استولى عليهما الفرع، وخشياً على ملكهما، فبادرا إلى طلب السلام من محمد الفاتح، فأبقاهما في الحكم وفرض عليهما جزية سنوية. غير أن أحداً من الأخوين لم يكن على شيء من الدراية بالحكم والإدارة، واشتدت المنافسة بينهما، فطلب توماس المساعدة من البنادقة، في حين طلب ديمترىوس المساعدة من العثمانيين<sup>(٣)</sup>. ولم تستتب الأمور في المورة، بل عمتها الفوضى والاضطرابات، مما أدى إلى تدخل محمد الفاتح، فغزا الجزء الشمالي من المورة خلال صيف سنة ١٤٥٨م، وأضاف إلى ممتلكاته أثينا في يناير عام ١٤٥٩، ثم غزا الجزء الجنوبي من المورة

(1) Spinka, op. cit., p. 1w82, Babinger, op. cit., p. 223.

(2)Lodge, op. cit., p. 511.

سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ١٣٦.

(3)Hali Inalcik, The Ottoman Empire, p. 27.

فى يوليو سنة ١٤٦٠، وبذلك قضى السلطان على المورة، ولم يعد باقيا إلا طرايزون من الزاوية الجنوبية الشرقية للبحر الأسود، كآخر أثر للإمبراطورية البيزنطية. وهذا يعنى أن اليونان كلها صارت تحت السيطرة العثمانية المباشرة، فيما عدا موانى المورة كورنثه ومودون وبيلوس، التى جرى الاستيلاء عليها فيما بعد فى عهد السلطان بايزيد الثانى<sup>(١)</sup>.

أما عن مصير الآخرين حاكما المورة ديميتريوس وتوماس، فإن السلطان محمد الفاتح قد جعل للأول مقراً فى مدينة إينوس وعين له راتباً سنوياً ضخماً، وقضى الأمير البيزنطى بقية حياته فى عيشة هائلة، ثم ارتدى مسوح الرهبان فى آخر عمره، إلى أن توفى بأدرنة سنة ١٤٧١ م. أما توماس فإنه ما أن علم بدخول السلطان الفاتح إسبرطة، حتى فر على إحدى السفن إلى كورفو، وظل هناك يترقب الموقف، إلى أن فقد كل أمل فى العودة إلى المورة، فأقلع فى أواخر سنة ١٤٦٠ إلى روما ليطلب المساعدة من البابا بيوس الثانى ودوق ميلان وغيرهما من أمراء المسيحية، ولكنه لم يلق شيئاً مما كان يريد، فغلبه اليأس، وعاد أدراجه إلى دورازو بألبانيا، وظل بها حتى مات فى ٢ مايو سنة ١٤٦٦<sup>(٢)</sup>.

### حروب محمد الفاتح فى ألبانيا:

أصر محمد الفاتح فى حوالى سنة ١٤٦١ م على وضع حد لمتاعبه فى أوربا، حتى يمكنه أن يركز جهوده على السيطرة على الأناضول. فبعد أن بسط نفوذه على صربيا واليونان، بقيت ألبانيا تشكل له صعوبة بالغة فى الغرب الأوروبى. وكان أن دارت المفاوضات بين السلطان وإسكندر بك ملك ألبانيا، انتهت إلى عقد هدنة بينهما فى ٢٢ يونيو سنة ١٤٦١ م مكنت إسكندر بك من إعادة سيادته على الجزء الجنوبى من ألبانيا وإبيروس، فى مقابل أن يحجم عن توجيه هجمات ضد الممتلكات العثمانية فى الشمال<sup>(٣)</sup>.

على أن الهدنة لم تدم أكثر من ثلاث سنوات، إذ فى سنة ١٤٦٣ دعا البابا بيوس الثانى إلى شن حملة صليبية ضد العثمانيين. ووصلت دعوة البابا هذه إلى إسكندر بك عن

(1) Shaw, op. cit., p. 63.

(2) Lodge, op. cit., pp. 513-514.

(3) Shaw, op. cit., pp. 63-64.

طريق صديقه الحميم بول أنجيلو مطران دورازو، ونجح في حمله على نقض عهده مع السلطان، وأقنعه بأن هذا العمل لا يعد ذنباً، بل هو قربي إلى الرب. ولما علم محمد الفاتح بما حدث، بعث إلى إسكندر بك يذكره بما بينهما من عهد وميثاق، فما كان منه إلا أن سخر من السلطان، ورد عليه قائلاً إنه لن يحافظ على أى عهد معه إلا إذا ارتد عن دينه المزيف (الإسلام)<sup>(١)</sup>.

ولم يشأ إسكندر بك إنتظار الجيوش الصليبية، بل بادر بالإغارة على أملاك الدولة العثمانية وتخريبها. فانتاب السلطان الغضب لذلك، وأرسل إلى ألبانيا جيشاً ضخماً يقدر بخمسة عشر ألف فارس وثلاثة آلاف من المشاة بقيادة بالابان بك، وهو ألبانى الأصل، سبق أن أظهر فى حصار القسطنطينية بسالة نادرة، وكان أول جندى رفع الراية العثمانية على أسوار هذه المدينة، وقد كافأه السلطان على ذلك بأن رقاها إلى منصب القيادة<sup>(٢)</sup>.

وقد اختار إسكندر بك للملاقاة بالابان وادى فالخاليا حتى لا تغطي عليه كثرة الجيش العثماني. وقد توقع أن يكون وراء هذا الوادى كمين للعثمانيين، فحذر جنوده إلى ذلك قبل نشوب القتال ونهاهم عن مطاردة العدو إذا ما كتب لهم النصر فى القتال. وعندما التحم الجيشان إنهمز العثمانيون وارتدوا على أعقابهم. ولم تستطع تحذيرات إسكندر بك أن تمنع ثمانية من أشجع قواده من الاندفاع وراء المهزومين، فوقعوا فى شرك وأحيط بهم من كل جانب، وأسرهم العثمانيون، وأرسلهم بالابان إلى القسطنطينية. وكان لفقد هؤلاء القواد أثر عميق من الحزن فى نفوس أهل ألبانيا، واشتد الغضب بإسكندر بك وجنوده، فانقضوا على العثمانيين، واشتبكوا معهم فى معركة حامية فى أورنيج بالقرب من دبرا العليا أرغمت بالابان على الانسحاب، ولكنه لم يلبث أن عاد بجيش جديد أرسله له السلطان الفاتح، غير أن إسكندر بك استطاع أن يمزق صفوف هذا الجيش، ولم ينج بالابان نفسه إلا بصعوبة<sup>(٣)</sup>.

(١) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ١٥٣ - ١٥٤.

(٢) المرجع السابق، ص ١٥٤.

(٣) المرجع السابق، ص ١٥٤ - ١٥٥.

على أن هذا الفشل الذى منى به العثمانيون لم يوهن عزم السلطان محمد الفاتح ولا عزم قائده بالابان. واقترح هذا القائد أن يعد جيشان جديداً قويان يزحفان إلى ألبانيا فى وقت واحد من طريقين مختلفين. وتولى قيادة أحد الجيشين يعقوب أرناؤوط، وكان عليه أن يدخل ألبانيا من الجنوب متبعاً ساحل البحر، ويقود بالابان الجيش الثانى، فيسير من تراقيا ومقدونية ويدخل ألبانيا من معابر الجبال. وأدرك إسكندر بك أن السرعة وحدها هى التى ستمكنه من منع الجيشين التركيين من الإطباق عليه، فعجل بملاقاة بالان وهزمه. وفيما كان جنوده يقتسمون الغنائم، جاءه رسول يخبره بأن يعقوب أرناؤوط قد دخل بيرات على رأس جيش ضخم. فأسرع إليهم إسكندر بك بجيشه وقذف إليهم برءوس قتلى الأتراك من جيش بالابان يعلمهم بهزيمته. ثم اشتبك الجيشان فى قتال عنيف، لقى فيه يعقوب أرناؤوط مصرعه، وتشتت شمل الجيش العثماني<sup>(١)</sup>.

عاد إسكندر بك إلى كرويا، ثم بعث إلى ملوك أوروبا يشترهم بالنصر العظيم الذى أحرزوه. وسعت دولا كبيرة مثل المجر والبندقية لمخالفته، وأطلق عليه البابا «نصير المسيحية»، ونظرت إليه شعوب أوروبا كبطل من أبطال المسيحية يذود عنها ضد تيار الإسلام الجارف<sup>(٢)</sup>.

ولم يجد السلطان الفاتح بدأ بعد فشل قواده أن يخرج بنفسه، فجهز جيشاً ضخماً يزيد على مائة ألف جندي، وزحف به على ألبانيا ودخلها فى يونيو سنة ١٤٦٥ م، واستعاد بعض القلاع. ورأى إسكندر بك أنه من الطيش أن ينازل بجيشه الصغير جيش الفاتح الضخم فى ميدان مكشوف، فغادر كرويا قبل أن يحاصرها الجيش العثماني، ولاذ بالجبال، وأخذ ينقض منها بين حين وآخر على الجيش العثماني<sup>(٣)</sup>.

ووجد محمد الفاتح أن أمد الحصار سيطول، فعهد إلى قائده بالابان بمواصلة حصار كرويا، فى الوقت الذى رأى إسكندر بك أن هناك بعض القلاع والحصون تعوزها حاميات

(١) المرجع السابق، ص ١٥٥.

(2) Schevill, op. cit., p. 204.

(٣) سالم الرشيدى: المرجع السابق، ص ١٥٦.

للدفاع عنها، فسافر إلى إيطاليا طلباً للمعاونة من البابوية التي كانت تنظر إليه باعتباره نصير المسيحية. فرحب البابا بيوس الثاني بقدومه، ثم اجتمع إسكندر بك بالكرادلة، ووصف لهم الأخطار التي تهدد إيطاليا، وذكر لهم أن الأتراك يتقدمون كل يوم ويقتربون من إيطاليا. وعندئذ باركه البابا وقدم إليه مالا، وكتب إلى جميع حكام أوروبا يستحثهم على معاونته، كما أمدته بالبندقية بجنود مسلحين من الفرسان والمشاة<sup>(١)</sup>.

وعندما عاد إسكندر بك إلى بلاده كان القائد التركي بالابان لا يزال على حصاره لكرويا وينتظر مدداً جديداً من الجند سيأتي به أخوه يونس. فلما علم إسكندر بك بأمر هذا المدد أصبر على أن يمنعه من الوصول إلى بالابان بأى ثمن حتى لا تزداد قوته وشدة ضغطه على كرويا، فكمن مع نخبة من رجاله فى بعض الطرق التي سيجتازها يونس، ثم انقض عليه فجأة فأسره وأسر معه ابنه وشئت شمل الجيش الذى جاء به. وأتى بالأسيرين مكبلين بالحديد وعرضهما من بعيد على بالابان، ثم ضربهما بالسيف نصفين. فلما رأى بالابان ما حدث لأخيه يونس والجيش الذى جاء به تملكه اليأس، وهجم بجيشه على المدينة مندفعاً بغير روية، فأصابته قذيفة قاتلة فى حلقه صرخته فى الحال، الأمر الذى أحدث الفوضى والاضطراب فى صفوف جيشه، فانسحب إلى تيرانا<sup>(٢)</sup>.

وبالرغم من فشل القوات التركية فى إخضاع كرويا، فإن محمد الفاتح رفض أن يستسلم للهزيمة ويدع الألبانيين ينعمون بالراحة والطمأنينة، فأرسل قوات أخرى لمناوشتهم. وأمر بتحسين مدينة البسان وهدم مدينة تشودرى التى أنشأها إسكندر بك بالقرب من دورازو على شاطئ البحر. أما إسكندر بك نفسه، فقد أخذ يطوف ببعض المدن، ووصل فى جولته إلى مدينة السيو التابعة للبنادقة، وهناك فاجأته حمى عنيفة، ومات فى ١٧ يناير سنة ١٤٦٧، بعد أن حكم أربعة وعشرين عاماً. ولم يجد ألبانيا بعد وفاته زعيماً يجتمع عنده

(١) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ١٥٦ - ١٥٧.

(٢) المرجع السابق، ص ١٥٧.

الكلمة، فانتشرت الفوضى والاضطرابات فى أرجائها، وصارت هناك ثلاث قوى تتنازع السيادة فيها، وهى رؤساء القبائل والدولة العثمانية وجمهورية البندقية<sup>(١)</sup>.

### حروب محمد الفاتح فى الاشيا ومولدافيا:

أراد محمد الفاتح أن يصفى حساباته مع هاتين الإمارتين - والاشيا (الأفلاق) ومولدافيا - الواقعتين فى الأراضى المنخفضة شمالى الدانوب، ويقطنهما شعوب تتحدث باللغة اللاتينية، ويطلقون على أنفسهم الرومان. ومن المحتمل أن تلك الشعوب أسلاف الداكيين القدماء الذين احتل الإمبراطور تراجان (٩٨ - ١١٧) إقليمهم داكيا Dacia، ويتباهون بأنهم أبناء روما القديمة. وقد اختفى الداكيون والولايات الأخرى التى ترومنت من صفحة التاريخ خلال القرون الخمسة التى تلت الغزوات السلافية والمغولية، الأمر الذى زاد من الغموض الذى أحاط بهم. وعندما سقطت دفاعات البلقان الإمبراطورية بحثوا عن ملاذ لهم فى البلقان. ومرتفعات الكرابات، بيد أن الفيضان المغولى فى حوالى سنة ١٠٠٠م أجبرهم على شق طريقهم مرة أخرى إلى الأراضى الدانوبية المنخفضة، وأسسوا دولتين جديرتين بالاعتبار، وهما والاشيا ومولدافيا قبل نهاية القرن الثالث عشر الميلادى<sup>(٢)</sup>. ولوقوع والاشيا بين الكرابات والدانوب، وامتداد مولدافيا شرقا من الكرابات إلى نهر دنيستر، فقد دخلت هاتان الدولتان فى صراعات مبررة مع جارتها الطموحتين المجر وبولندا، واستمر الوضع على ذلك، حتى ظهر خطر جديد آتيا من الجنوب، وهو التقدم العثماني<sup>(٣)</sup>.

وكان أول اتصال العثمانيين بهاتين الإمارتين فى عهد السلطان بايزيد الأول، وكانت والاشيا بطبيعة موقعها فى الجنوب أسبق إلى هذا الاتصال. وقد أخضعها بايزيد الأول للسيادة العثمانية سنة ١٣٩٣م فى عهد أميرها مركيا الأول عقابا على تكاتفها مع الصرب فى محاولة استرداد أدرنة من العثمانيين، واشتراكها فى معركة كوسوفو إلى جانب المسيحيين سنة ١٣٨٩م، وعندما نشبت معركة نيقوبوليس سنة ١٣٩٦ قاتل مركبا إلى

(1) Babinger, Medamed the Conqueror, pp. 264-265,

سالم الرشيدى: المرجع السابق، ص ١٥٧ - ١٥٨.

(2) Schevill, The Hist of Balkan Peninsula, pp. 204-205.

(3) Ibid., p. 205.



جانب المسيحيين، ثم أعلن استقلاله بعد الهزيمة التي لحقت ببايزيد في أنقرة سنة ١٤٠٢م. ولكن السلطان محمد الأول (١٤١٣ - ١٤٢١) بعد أن استتب له الأمر، أخضع والاشيا مرة أخرى سنة ١٤١٦م، وصارت تدفع له الجزية<sup>(١)</sup>. ومنذ ذلك الوقت وجد مركيا وخلفاؤه أنفسهم مرتبطين بعجلة التبعية للعثمانيين<sup>(٢)</sup>.

وبعد موت مركيا أمير والاشيا سنة ١٤١٨م تنازع أبناؤه الملك، واحتدمت بينهم الحروب الأهلية، فمنهم من استنجد بالأتراك، ومنهم من استنجد بالجر، وظل الأمر على ذلك من الفوضى إلى أن خلصت الإمارة لولده فلاد الرابع (١٤٥٦ - ١٤٦٢) Vlad IV المعروف بالخورق، The Impalar الذي لم يذكر في التاريخ رجالا يضارعه في القسوة وحسب التعذيب وسفك الدماء. فقد ابتدع له خياله في وسائل القتل والتعذيب أفانين شتى لا تخطر على بال أحد. وقد أطلق الناس عليه ألقابا مختلفة تدل كلها على هذا المعنى. فمواطنوه أهل والاشيا لقبوه بالشیطان (دراكول)، وبه يذكره معظم المؤرخين. وأهل الجمر لقبوه بالسفاح، والعثمانيون لقبوه بالخورق (قازيقلی). وكان من أحب الأشياء إلى نفسه أن ينظر إلى مشاهد التعذيب والآلام التي يعانيها ضحاياه، ويضطرب لسماع أنات المعدبين. وكان لا يتناول طعامه مع رجاله إلا وحوله أعمدة الخوازيق وضحاياه من المئات منصوبون عليها يئنون أنات الموت<sup>(٣)</sup>. وعلى الرغم من أن الخورق استطاع أن يحارب أعداءه مثل الشيطان، ويلقى الهزيمة بمحمد الفاتح وقواده عدة مرات، إلا أنه وقع ضحية لثورة داخلية في سنة ١٤٦٢ أثناء هروبه، وعين محمد الفاتح بدلا منه حاكما، أعلن عن رغبته في وضع حد للحرب مع الأتراك، واعترف بتبعيته للسلطان، وتعهد بدفع جزية له<sup>(٤)</sup>.

وفي ذلك الوقت كان يحكم مولدافيا ستيفن الرابع الشهير الملقب بستيغن الكبير (١٤٥٧ - ١٥٠٤) لمهارته كفائد ودهائه كدبلوماسي، وقد بنى دولة قوية، واستولى على ميناء كيليا الدانوبي، وتدخل في سياسة والاشيا كخطوة أولى تمكنه من غزو ساحل البحر

(١) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ١٥٩.

(2) Schevill, op. cit., p. 205.

(3) Schevill, op. cit., pp. 205-206.

سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ١٥٩ - ١٦٠.

(4) Schevill, op. cit., p. 206.

الأسود والقرم. وكان نزاعه آنذاك مع العثمانيين حول السيطرة على أمراء والاشيا الضعاف، وأخيراً اعترف فلاد الرابع بسياسة العثمانيين والمجريين، وفي المقابل جرى الاعتراف به أميراً على والاشيا. وفي سنة ١٤٦٠ عقد فلا الرابع مع السلطان محمد الفاتح، وفي هذه المعاهدة تعهد السلطان بحماية والاشيا والدفاع عنها ضد أى عدو، والحفاظ على أمرائها وديانتها وقوانينها ومؤسساتها، على أن تكون له السيادة على هذه الإمارة وتدفع له جزية سنوية. كما وعد السلطان العثماني أن يبعد «الغزاة» العثمانيين عن أراضي والاشيا، بشرط ألا يقوم ستيفن بأى عمل لتوسيع نفوذه في المنطقة<sup>(١)</sup>.

وبتسوية الموقف في والاشيا وجعلها محايدة، أصبح السلطان العثماني محمد الفاتح قادراً على تحويل جهوده إلى الأناضول، خاصة أن المعارضين المسلمين للسلطان قد تركزوا في شرق ووسط الأناضول، ويظهر ذلك واضحاً في أنه بعد انهيار إمبراطورية تيمور المغولية، شيدت دولة «الشاه السوداء» إمبراطورية قوية في غرب إيران وشمالي العراق، في حين استطاعت دولة «الشاه البيضاء»، تحت زعامة الأمير التركماني المرموق أوزون حسن (١٤٥٣ - ١٤٧٨)، وبمساعدة ضئيلة من دولة الماليك الجراكسة في مصر، استطاع أن يبنى دولته في غرب إيران وشرق الأناضول. أما إمارة قرمان، فقد أخذت تمد نفوذها في الأناضول الوسطى، وتحرض الأهالي على الثورة ضد العثمانيين<sup>(٢)</sup>.

ومما يجدر ذكره أن الانتصارات التي حققها العثمانيون في مناطق البلقان، قد أثارت الفزع والرعب في قلب البندقية وخنوة، الأمر الذي جعلهما يشجعان إمارات الأناضول على الخروج ضد السلطان، بهدف تقليل التهديد العثماني ضدتهما. وعندئذ أراد محمد الفاتح أن يضع حداً لما تقوم به البندقية وخنوة. ففي أبريل عام ١٤٦١ استخدم محمد الفاتح أسطوله الجديد في هجماته البرية والبحرية، وانتصر على الأسطول الجنوى في مدينة أماصرة Amasra في آسيا الصغرى على شاطئ البحر الأسود، ثم في كفه Kaffa، وأراضى الكاندر Candar بشبه جزيرة القرم، وهي آخر إمارة في المنطقة، وفي أواخر هذا العام قضى على طرايزون البيزنطية. أما أوزون حسن زعيم دولة «الشاه البيضاء»، فلم تكن لديه قوة

(1) Schevill, op. cit., p.20, Shaw, op. cit., Vol.I, p. 64.

(2) Shaw, op. cit., p. 64

كافية لمواجهة العثمانيين بمفرده، ومن ثم اضطر إلى عقد معاهدة سلام معهم في أرزنجان في ١٤ أغسطس عام ١٤٦١م، في الوقت الذي وقفت إمارة قرمان ساكنة، وحافظت على هدوئها، وخافت أن تقوم بأي عمل يثير غضب السلطان ضدها<sup>(١)</sup>.

ولكن محمد الفاتح لم يلبث أن انشغل عن حملاته في الأناضول بالغزوات التي قام بها أمير والاشيا فلاد الرابع في الأقاليم العثمانية في شمالي بلغاريا في سنة ١٤٦١ - ١٤٦٢. فأرسل إليه الفاتح يدعوه إلى الطاعة، فجاء رسول الفاتح أمام الأمير، فإذا به يأمر بخلع عمامة هذا الرسول وأن يخلع من معه عمامتهم أيضا إظهاراً لاحترام الأمير، فلما خالفوه أمر فلاد بأن تستمر عمامتهم رسل الفاتح على رؤوسهم بمسامير من حديد<sup>(٢)</sup>. وقد رد محمد الفاتح على ما فعله أمير والاشيا بغزو إمارته وفتحها وضمها إلى الإمبراطورية العثمانية (أبريل - أغسطس ١٤٦٢). ولكن إمارة والاشيا لم تلبث أن استعادت استقلالها الذاتي في عهد رادو الرابع المعروف برادو الوسيم (١٤٦٢ - ١٤٧٩) شقيق فلاد الرابع، وكان رادو قد تربى في البلاط العثماني، وفي سبيل حصوله على العرش، اعترف بسيادة السلطان العثماني، ووافق على دفع الجزية له<sup>(٣)</sup>.

### حروب محمد الفاتح مع البندقية وقرمان:

وهناك مصدر آخر أثار المتاعب للدولة العثمانية، وهو نشاط البندقية ضد مشاريعها. فالبنديقية خوفا من التوسع العثماني بحذاء البحر الأدرياتي، راحت تبحث في كل مكان عن حلفاء لها ضد محمد الفاتح، ووفقت في مسعاها، فوجدت في ألبانيا إسكندر بك، وفي شرق الأناضول الأمير التركماني حسن أوزون. وقد استخدم مجلس الدولة في البندقية كل وسيلة ممكنة للتغلب على العدو ومنها القتل السياسي، فقد فكر البنادقة جدياً في دس السم لمحمد الفاتح، «نظراً إلى الحاجة لاستخدام كل الوسائل الممكنة ضد تركيا وسلطانها»<sup>(٤)</sup>. وقد استطاعت البندقية أن تقنع إسكندر بك بتحطيم تحالفه مع السلطان العثماني،

(1) Shaw, Hist of the Ottoman Empire, Vol. I, p.64.

(٢) محمد حرب: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص ٨٦ - ٨٧.

(3) Shaw, op. cit., p. 64.

(٤) شارل ديل: البندقية، جمهورية أرستقراطية، ص ١٣٨ - ١٣٩.

واستئناف العمليات الحربية ضد الحاميات العثمانية في الشمال في فبراير عام ١٤٦٢. وما يجدر ذكره أن ملك البوسنة الجديد ستيفن توما شيفيتش (١٤٦١ - ١٤٦٣) أبدى تعاوناً، فأطاح بالسيادة العثمانية، وقبل حماية المجرين وسيطرتهم عليه في عام ١٤٦٢ م. ولكن محمد الفاتح رد على ذلك بغزو ألبانيا، وأجبر ملكها إسكندر بك على توقيع معاهدة سلام جديدة معه، والتخلي عن الأراضي التي استولى عليها في ٢٧ أبريل سنة ١٤٦٣. ونتيجة لذلك أصبحت يد السلطان العثماني طليقة في التعامل مع البوسنة، فغزاها خلال الفترة الباقية من الصيف<sup>(١)</sup>. وقد حصل على مساعدة قيمة من البوگوميليين الوطنيين الذين عانوا من وطأة الاضطهاد المربع الذي قام به الكاثوليك والأرثوذكس خلال الاحتلال المجرى<sup>(٢)</sup>. ولم يعد أمام السلطان إلا حدود مجرية «بانات Banats»، هذا وقد قبلت هرزيغوفينا حينئذ السيادة العثمانية<sup>(٣)</sup>.

ومنذ عام ١٤٦٣ فصاعداً ظلت أراضي البوسنة واقعة تحت الحكم التركي الدائم، رغم أن العثمانيين سحّبوا قواتهم العسكرية الرئيسية أثناء الخريف. بيد أن المكاسب التي غنمها الجيش التركي في النصف الشمالي من البوسنة، ما لبث أن استردها سريعاً ملك المجر ماتياس كورفينوس. إذ ما كاد السلطان العثماني يعود أدرجه، حتى حاصرت القوات المجرية زفتشا Zvečaj ويايسة Jajce، اللتين لم تلبثا حتى سلمتا. وسرعان ما أسس الملك ماتياس «بانية» جديدة للبوسنة تحت الحكم المجرى في هذه الأجزاء الشمالية. وفي سنة ١٤٧١ أصدر أمراً بترقية «ألبان» إلى رتبة «ملك البوسنة». ومع أن هذه المملكة ما لبثت أن تهاوت تحت أقدام الترك في حملاتهم التالية فإن القسم الذي بقي من تلك المملكة، استمر صامداً مدة تزيد على الثمانين عاماً. وفي غضون عشرينيات الألف وخمسمائة ظلت مدينة يايصة في حالة حصار مستمر تقريباً وهي تتلقى معونات من الأغذية من سلافونيا المجرية بواسطة قوافل مسلحة، لا يكاد يصل عددها إلى أربع مرات في السنة. وأخيراً فتحتها العثمانيون في سنة ١٥٢٧ م، بعد تخطيط الجيش المجرى في معركة موهاتس Mohats الفاصلة في السنة السابقة.

(1) Shaw, op. cit., pp. 64-65.

(2) Darby and others, A Short Hist of Yugoslavia, op.63.

(3) Shaw, op. cit., p. 65.

(٤) مالکولم: البوسنة، ص ٧٧.

أما حرب الدولة العثمانية مع البندقية فلم يكن من الممكن تجنبها. إذ استغل البابا بيوس الثاني الموقف ليربط البندقية بالبحر في اتفاقية ضد عدوهما المشترك العثمانيين في ١٢ سبتمبر عام ١٤٦٣، والقيام بحملة صليبية جديدة ضد هذا العدو. واتفق على أنه لو نجحت تلك الحملة، فستحصل البندقية على المورة والأقاليم اليونانية بحذاء البحر الأدرياتي، وسوف يمد اسكندر بك حدود دولته الألبانية في مقدونيا، وكذلك تقوم البندقية بحكم بلغاريا والصرب والبوسنة والواشيا، وفضلاً عن ذلك سوف تعود القسطنطينية وأعمالها إلى الأفراد الموجودين على قيد الحياة من الأسرة البيزنطية الحاكمة السابقة<sup>(١)</sup>. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تفاوض الصليبيون مع الأميرين المسلمين أوزون حسن (١٤٥٣ - ١٤٧٨) صاحب إمارة «الشاة البيضاء»، وأمير قرمان، حيث وعدا بمهاجمة أملاك العثمانيين في الأناضول ويزحفان إلى الغرب، في نفس الوقت الذي يتحرك فيه الصليبيون ضد محمد الفاتح في أوروبا، ويزحفون إلى الشرق، وبذلك يقع العثمانيون بين فكي الكماشة<sup>(٢)</sup>. ويرى البعض أن سياسة الفتوحات التوسعية التي اتبعتها محمد الفاتح، وليست سياسته التجارية، هي التي دفعته لأن يدخل في صراع لا يمكن تجنبه مع البندقية. فقد كان السلطان يمتلك قوة بحرية محدودة، استطاع بفضلها الإستيلاء على القسطنطينية. وعلى ذلك رأى أنه لتأمين ممتلكاته البلقانية، فلا بد له من السيطرة على شواطئ البلقان والبحار المحيطة به، التي كانت تسيطر عليها البندقية من الناحية الفعلية، وذلك بفضل أساطيلها وخبرة ملاحيتها، التي جعلتها تنتشر في البحار الأيونية والإيجية. وحتى يجعل محمد الفاتح من البلقان منطقة أمان وخضوع، كان على القوات العثمانية أن تستولي على المراكز البحرية التي انتزعتها البندقية من الإمبراطورية البيزنطية<sup>(٣)</sup>. ومما يذكر أن البابا بيوس الثاني بعث برسالة طويلة إلى محمد الفاتح، يحضه فيها على اعتناق المسيحية، ووعده بإعطائه الإمبراطورية الشرقية، مثلما فعل أسلافه البابوات الذين أعطوا الإمبراطورية الغربية لشارلمان، وكل ما تعرفه أن محمد الفاتح لم يرد على الاقتراح الغريب الذي عرضه البابا<sup>(٤)</sup>.

(1) Shaw, op. cit., p. 65.

(2) Shaw, p. 65.

(3) Schevill, The Hist of the Balkan Peninsula, pp. 208-209.

(4) Lodge, The Close of the Middle Ages., p. 279.

وقد بدأت الأعمال الحربية للصليبيين فى سبتمبر عام ١٤٦٣، عندما احتلت البندقية عدداً من الجزر الإيجية وأجزاء كثيرة من المورة على أيدى أمهر قوادها<sup>(١)</sup>. وفى ٢٢ أكتوبر سنة ١٤٦٣، أذاع البابا ييوس، الثانى منشوراً حماسياً على جميع المسيحيين فى أوروبا، دعاهم فيه إلى الحرب المقدسة ضد الأتراك، ثم جمع جيشاً صليبيًا جديداً فى أنكونا (مدينة فى منتصف إيطاليا على ساحل البحر الأدرياتي). وأبحر الأسطول البندقي إلى الدردنيل، واستولى على ليمنوس وتينيدوس Tenedos فى عام ١٤٦٤، ومنع العثمانيين من إرسال المؤن إلى المورة، وهدد بمهاجمة إستانبول. فما كان من السلطان محمد الفاتح إلا أن أمر ببناء أسطول جديد، كما شيد قلعتين حصينتين تواجه كل منهما الأخرى عبر مضيق الدردنيل لتجبر العدو على البقاء بعيداً، وقد استغرق بناؤهما سنتين فى ١٤٦٣ و١٤٦٤. وقاد الصدر الأعظم محمود باشا حملة ضخمة تمكنت من استعادة المورة وسحق الجيش البندقي فى ربيع عام ١٤٦٤. كما قاد السلطان بنفسه جيشاً إلى البوسنة وطرده المجرىين من أراضيها، وبدأ فى غزو المجر، وحاصر بلغراد، ولكنه فشل فى الإستيلاء عليها مرة أخرى. وعلى أى حال، فشلت الحملة الصليبية، ومات البابا ييوس الثانى كمداً فى أنكونا فى ١٥ أغسطس عام ١٤٦٤م<sup>(٢)</sup>.

وفى سنة ١٤٦٩ تحرك الأسطول البندقي إلى شرق البحر الإيجى واستولى على جزر لمنوس، ونهب جنوب الساحل الأناضولى، وأنزل المؤن لإمارة قرمان. فغضب السلطان محمد الفاتح وصمم على أن ينزل ضربة قوى بالبندقية<sup>(٣)</sup>. فقاد حملة بحرية إلى مدينة يويويا (نجرپونت) Negroponte - أى الجسر الأسود - وهى القاعدة البحرية الرئيسية للبندقية فى البحر الإيجى. وحاصر السلطان المدينة، وأبليت المدينة فى الدفاع بلاء حسناً، ولكن تراخى أمير البحر نيقولا داكاتالى أضاع كل شىء، إذ لم يستطع منع وصول الأسطول العثمانى ولا اقتحام جسر السفن الملقاة بين الجزيرة والبر، والتى يقطع تدميرها الإمدادات عن العدو. وقد «نسى نفسه»، فى كسل وجبن، فلم يقد بجهد ما لإنقاذ المدينة، وأخيراً سقطت نجرپونت بعد نضال مستميت. وقد انتقم العثمانيون من الحامية والسكان

(1) Shaw, op. cit., p. 65. Babinger, op. cit., pp. 228-229.

(2) Shaw, Hist of the Ottoman Empire, Vol. I. p. 65.

(3) Ibid., p. 65.

المدنيين انتقاماً ذريعاً، فقطعوا أجسام بعض جنود القلعة بواسطة المناشير، ووضعوا البعض الآخر منهم على الخوازيق، ومثلوا بجثة نائب البندقية فيه أبشع تمثيل، وقال أحد المعاصرين: «لم ير أحد قساوة تفوق هذه قط»<sup>(١)</sup>.

على أن الغزو النهائي الذي قام به العثمانيون لقرمان، جعلهم يحتكون احتكاً مباشراً مع دولة المماليك الجراكسة في مصر، وأوزون حسن صاحب إمارة «الشاة البيضاء»، ويدخلون في نزاع معها. فقد تحالف أوزون حسن الأمير التركماني المسلم مع البندقية في عام ١٤٧٢، ووجدت فيه حليفاً أكثر حماساً وأشد جراً واندفاعاً في مقاتلة العثمانيين، وفي مقابل ذلك وعدته البندقية بإرسال جيوش وذخيرة وخبراء لتعليم رجاله طريقة استخدامها. واستعد أوزون حسن لقتال العثمانيين، بأن جمع حوله كل الأمراء التركمان الذين خلعه محمد الفاتح، ووعد أن يرد إليهم إماراتهم في مقابل مساعدته في القضاء على العثمانيين<sup>(٢)</sup>.

وفي رسالة بعث بها أوزون حسن في غضون الأيام التي سبقت لقاءه بالعثمانيين إلى حلفائه دوج البندقية، وإمبراطور ألمانيا وملك المجر ماتياس، كتب يقول إن إبادة الجيش العثماني خلال عدة أيام أمر مؤكد، وأنه لا يستطيع أن يتكهن بما إذا كان سيتم أسر السلطان أم لا. كما تضمنت رسائله أن الدولة العثمانية ذات تسعة أرواح، فقد استطاعت أن تستعيد حيويتها بعد انهيارها في موقعة أنقرة التي جرت منذ حوال سبعين سنة. وأهاب أوزون حسن بالإسراع في احتلال أراضي الدولة العثمانية في روميللي فور قيامه بإبادة الجيش العثماني، وإذا لم يمكنه القضاء عليه بشكل تام، فإن الدولة العثمانية ستصبح على الأقل بعد ذلك دولة من الدرجة الثانية، وتسقط إلى درك إمارة عادية عديمة الشأن<sup>(٣)</sup>.

وكان أن زحف جيش تركماني ضخم من إمارة «الشاة البيضاء»، في الأناضول الوسطى، واستولى على سيواس، ثم انقض فجأة على مدينة توقات، فأمن فيها قتلاً ونهباً

(١) شارل ديل: البندقية، جمهورية أرستقراطية، ص ١٣٩،

Creasy, Turkey, p. 85, Babinger, op. cit., pp. 283-284

عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية، ج ٢، ص ٨٨٤.

(2) Shaw, op. cit., p. 66.

(٣) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ج ١، ص ١٦٢.

تخريباً، حتى أصبحت الممتلكات العثمانية في الأناضول في خطر. وما أن علم السلطان الفاتح بما حدث، حتى واجه الموقف بنشاطه المعتاد، فبعد أن أعد إستانبول لمواجهة أى هجوم بحرى صليبي محتمل، تركها لإبنه جم سلطان البالغ من العمر أربعة عشر عاماً، وقاد جيشاً ضخماً في الأناضول في العام التالي، وحطم جميع المحاولات التي قام بها الصليبيون للمرور خلال المضائق. ثم التقى محمد الفاتح مع أوزون حسن والأمراء التركمان في سهل أولتوق ييلى بالقرب من أرضروم في ١١ أغسطس ١٤٧٣، واحتدم القتال بين الفريقين، وانتهى بانتصار حاسم للجيش العثماني بفضل الإنكشارية. وأمعن العثمانيون القتل في رجال أوزون حسن. ومرة أخرى أدرك الأخير أنه لا يستطيع التغلب على العثمانيين في معركة مفتوحة، ولذلك وافق على توقيع معاهدة سلام معهم في ٢٤ أغسطس من نفس العام<sup>(١)</sup>. وقد قضت معاهدة السلام بتخلي أوزون حسن عن قلعة «قره حصار»، وبالتعهد بعدم التعرض للأراضي العثمانية مرة أخرى، ثم عاد إلى آذربيجان<sup>(٢)</sup>. وبذلك توطد الحكم العثماني في الأناضول غربى الفرات، وقضى على تحالف أوزون حسن مع القوى الأوروبية وبخاصة البنادقة، وبعد وفاته إنهارت إمارته من أساسها، وفي عهد ابنه يعقوب (١٤٧٩ - ١٤٩٠) ظلت العلاقات بينه وبين العثمانيين هادئة<sup>(٣)</sup>.

تخرج موقف البندقية تخرجاً شديداً، بعد أن وقع أوزون حسن أكبر حلفائها في الشرق معاهدة سلام مع العثمانيين، وفي الغرب تحول حلفاء البندقية إلى أعداء، ومن ثم وجدت البندقية نفسها وحيدة، فلم يتجد بداً من أن تدعن للواقع بعد أن أحست أنها عاجزة عن مواجهة السلطان العثماني، فاجتمع مجلس الشيوخ في ٢ مايو سنة ١٤٧٨، وقرر عقد الصلح مع الدولة العثمانية<sup>(٤)</sup>.

وعلى أية حال، أسرع البندقية إلى إجراء مفاوضات مع السلطان محمد الفاتح، إنتهت بتوقيع معاهدة صلح في إستانبول في ٢٥ يناير سنة ١٤٧٩، وبذلك انتهت ستة

(1) Shaw, op. cit., p. 66, Halil Inalcik. Ottoman Empire, pp. 28-29.

يلماز أورتونا: المرجع السابق، ص ١٦٤ - ١٦٥.

(٢) خليل إينالچك: «العثمانيون، النشأة والازدهار»، ص ٦٦.

(3) Shaw, op. cit., p. 66.

(٤) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ٢٣٣.



عشر عاما من الحروب بينهما. وبمقتضى هذا الصلح وافقت البندقية على التنازل عن سكوتارى، وهو آخر ميناء كانت تحتله فى شمالى ألبانيا، والاعتراف بالحكم العثمانى فى ألبانيا، والفتوحات العثمانية فى جزر البحر الإيجى، وبذلك أعطى البنادقة السلطان سيطرة كاملة على البحر الإيجى الشمالى، فيما عدا جزر سبورادس Sporades وخبوس التى لازالت فى أيدي جنوة. وفى مقابل تلك التنازلات الفادحة سمح السلطان للبندقية باستعادة عدد من الموانئ فى دلماشيا بحذاء البحر الأدرىاتى، فضلا عن ممتلكاتها السابقة فى المورة فيما عدا أرجوس. وقد أرغم السلطان البندقية على دفع مبلغ سنوى ضخيم مقداره عشرة آلاف دوكات، لمنحها حرية التجارة فى جميع أرجاء الدولة العثمانية<sup>(١)</sup>، وأن يكون للبندقية قنصل فى استانبول ليشرف على مصالح البنادقة، وينظر فى قضاياهم المدنية<sup>(٢)</sup>.

### حصار رودس والاستيلاء على أوترانتو فى جنوب إيطاليا:

ولاشك أن النصر الذى أحرزه محمد الفاتح على البندقية أعظم قوة بحرية فى شرق البحر المتوسط، جعله يحاول جاهداً تحقيق هدفين هامين لبحريته وهما:

(١) غزو جزيرة رودس بالقرب من مدخل البحر الإيجى، التى تعتبر البوابة التى ينطلق منها لمزيد من التوسع فى غرب البحر المتوسط.

(٢) إحتلال إيطاليا، التى صارت مهددة للغزو بسبب المنافسات العميقة بين البندقية وناپولى وميلان، فضلا عن الانقسامات التى أوجدتها النشاط السياسى للبابا فى روما.

وكانت رودس الجزيرة الإيجية الهامة الوحيدة التى لم يضع العثمانيون يدهم عليها بعد، وكان يحكمها فرسان القديس يوحنا (الإستار)، وهم أصلا منظمة دينية حربية تأسست فى بيت المقدس فى عام ١٠٧٠م. ومن المعروف أن الهيئات الدينية الحربية لعبت دوراً بالغ الأهمية فى الدفاع عن مملكة بيت المقدس طوال القرن الثانى عشر. وفى خلال

(1) Shaw, op. cit., p. 69, Castellan, Hist of the Balkans, p. 83,

شارل ديل: البندقية، جمهورية أرستقراطية، ص ١٤٠.

(1) Lodge, op. cit., p. 256, Halil Inalcik, The Ottoman Empire, p. 29.

نيقولا فتان: صعود العثمانيين (١٤٥١ - ١٥١٢)، فى تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٤٥.

القرن التالي انتقل عبء الدفاع عن الممتلكات الصليبية في الشام إلى تلك الهيئات، والتي كان أقدمها هيئة فرسان الإسبتارية. وبعد أن سقطت عكا في أيدي المسلمين عام ١٢٩١، وانتهى الوجود الصليبي ببلاد الشام، اتخذت الاسبتارية من جزيرة قبرس مقراً لها، على أنها لم تلق شيئاً من التقدير الذي كانت تأمله في تلك الجزيرة، فاستولت على جزيرة رودس في أغسطس سنة ١٣٠٨، واتخذتها قاعدة لنشاطها. ولم يكن فرسان الاسبتارية الذين حولوا الجزيرة إلى قلعة منيعة يقلون حماساً عن آل لوزجنان في قبرس في مشاريعهم الصليبية ضد المسلمين.

وكانت جزيرة رودس آنذاك جزءاً من الإمبراطورية البيزنطية المتداعية، واستخدمت وكرماً للقراصنة. وقد أصبحت منظمة الإسبتارية حصناً منيعاً ضد الإسلام، وقاعدة رئيسية للقراصنة الذين يغيرون على السفن العثمانية في البحر الإيجي وشرق البحر المتوسط، فضلاً عن قيامها بمساعدة الجهود البحرية الصليبية المختلفة في المناطق المجاورة<sup>(١)</sup>.

وفي عهد السلطان العثماني أورخان (١٣٢٤ - ١٣٦٢) انقضت سفن فرسان رودس على بعض السفن العثمانية في إمروس سنة ١٣٤٦ وحطمتها وأسرت بعض بحارتها العثمانيين. بيد أن انصراف السلاطين العثمانيين الأوائل إلى الفتوحات البرية وعدم امتلاكهم بحرية قوية وقلّة تمرسهم بأساليب القتال في البحر وانشغال الفرسان أنفسهم بعد نزولهم في رودس بتشييد القلاع والحصون وإنشاء قوة بحرية قوية لهم، كل ذلك لم يتيح للدولتين فرصة الالتحام في معركة كبيرة حاسمة<sup>(٢)</sup>.

وقد اشترك فرسان رودس برجالهم أو سفنهم في معظم المعارك والحملات التي شنها الغرب الأوربي على الدولة العثمانية في عهد محمد الفاتح وعهد من قبله من السلاطين. وعندما نشب الصراع بين الفاتح وأوزون حسن، عقد رئيس الفرسان معاهدة تحالف مع الأخير، وأمدّه بما كان يحتاج إليه من رجال المدفعية وصناع الأسلحة النارية<sup>(٣)</sup>.

(1) Shaw, op. cit., Vol I. p. 69.

(٢) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ٢٤٣ - ٢٤٤.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٤٤.

ويذكر المؤرخ دوكاس أنه فى خلال العام التالى من سقوط القسطنطينية على أيدي السلطان محمد الفاتح، وفى أثناء وجوده فى أدرنة، وصل فرسان الاستبار من رودس ومعهم كثير من الهدايا، وذلك لتقديم الطاعة للسلطان. وقد رغب هؤلاء الفرسان فى إجراء مفاوضات هادئة الغرض منها عقد اتفاقيات تسمح لهم بحرية التجارة فى المناطق المجاورة لكاريا وليكيا، فى الوقت الذى سيكون فيه الأتراك قادرون على الذهاب إلى رودس دون خوف، ولهم الحرية فى شراء ما يحتاجونه من مؤن من رودس والجزر التابعة بها. وعندئذ طلب السلطان من السفراء دفع جزية سنوية، ولكن السفراء أجابوا عليه بأنه ليست لديهم سلطة البت فى هذا الموضوع دون الرجوع إلى حكومتهم. وهنا قال وزراء السلطان: «إذا لم توافقوا على دفع الجزية، فإنكم ستحرمون من عطف السلطان، وإذا لم تخضعوا لمطلبه: فسوف يخوض السلطان مع الجزيرة معركة ضخمة، ويقوم بتحطيمها هى والمناطق المجاورة لها. وعندئذ طلب السفراء من السلطان أن يرسل معهم واحداً من حاشيته للتحدث فى هذا الأمر مع مقدم الإستهارة، إذ أنهم لا يملكون سلطة التصرف فى هذا الأمر، فوافق السلطان على طلبهم، وأرسل معهم أحد حاشيته<sup>(١)</sup>. وعندما عادت السفارة إلى رودس، واستمع مقدم الفرسان بعناية لطلب السلطان، أجاب على رسوله بأن الجزيرة لا تخصه، بل هى تابعة للبابا الذى منعه من دفع جزية، وإذا رغب السلطان فى صداقتنا، فسيرسل له المقدم سفارة كل سنة لتحيته كجار وسلطان عظيم. وعندما سمع السلطان بذلك ثار وغضب وأعلن الحرب على رودس، وأعقب ذلك أن نزل العثمانيون على شاطئها، وأسروا أربعين من أهلها، وفعلوا نفس الشيء فى جزيرة قوس Kos<sup>(٢)</sup>.

والواقع أن الأحداث السياسية والعسكرية فى أوروبا الشرقية وآسيا منعت السلطان الفاتح من التفرغ لمجابهة جزيرة رودس، واقتصرت الصدام بينه وبين فرسان الاستبار فى السنين الأولى من حكمه على المناوشات البحرية والغارات التخريبية المتبادلة على الشواطئ، لم يكن لها من أثر إلا أنها حملت الفرسان على مضاعفة جهودهم فى تحصين جزيرتهم وسد الثغرات والثلمات<sup>(٣)</sup>.

(1) Doukas, Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks, p. 245.

(2) Ibid., pp. 245-246.

(٣) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ٢٤٤ - ٢٤٥.

غير أن فرسان القديس يوحنا في رودس قد اقتنعوا أن محمداً الفاتح سوف يعمل إن عاجلاً أو آجلاً على طردهم من الجزيرة. ونتيجة لذلك بذل مقدم الفرسان وأتباعه جهداً كبيراً في توجيه الصرخات للبايا وملوك وحكام أوروبا طلباً للمساعدة، وقد توجه ضباط المنظمة إلى الغرب الأوربي سعيًا وراء ذلك. وفي يوليو سنة ١٤٧٧ أرسل مقدم المنظمة مبعوثاً هويبير دويسون Pierre d'Aubusson إلى رؤساء الأديرة في أوروبا، لكي يصل صوت الاستغاثة إلى أوروبا. وقد كتب دويسون أن السلطان العثماني يزداد قوة يوماً بعد يوم، ولا شيء يوقفه عند حده، ويرجع السبب في ذلك إلى أن عدد جيشه يفوق الحصر، ويطيعه طاعة عمياء عند أقل بادرة أو إشارة، وسفنه يقودها قبطانات رائعين وبحارة مهرة، ولديه أفضل المهندسين وآلات الحرب وأموال ضخمة، وقد أقسم السلطان على طرد كل المسيحيين من الشرق الأوربي<sup>(١)</sup>.

وقد علم دويسون من جواسيسه الذين يعملون لحسابه في الباب العالي أن السلطان يعد العدة لمهاجمة رودس بأقوى جيوشه، وأنه سيعمل على سحق فرسان رودس الذين يقفون عقبة كداء في طريق طموحاته التي لا تنتهى. وحث المقدم ملوك وحكام أوروبا على التفكير في الكارثة التي ستقع على رأس المنظمة ما لم يأتوا إليها في الحال، ويقدموا لها المساعدة، وألا يتركوا الجزيرة نهبا لغضب البرابرة<sup>(٢)</sup>.

وعلى عكس ما كان يتوقع دويسون، فإن قوات محمد الفاتح لم تهاجم الجزيرة في سنة ١٤٧٧ أو في العام التالي، بل الحقيقة أنه في صيف سنة ١٤٧٩ أتى رسول إلى رودس برسالة تتضمن طلب عقد هدنة دائمة بين المنظمة والباب العالي. ولكن دويسون لم يوقع على أية اتفاقية، بل أسرع يعمل الاستعدادات اللازمة تحسباً لأي هجوم يشنه العثمانيون<sup>(٣)</sup>. من ذلك أنه شدد الحراسة والمراقبة على المرتفعات، وأحصى سكان رودس الذين يقدرّون على حمل السلاح. وأنشأ في أطراف الجزيرة القرية من الساحل المعرضة للأخطار أكثر من غيرها قلعة منيعة للسكان ومنعهم من الخروج منها صباحاً قبل أن يخرج كشافون من الفرسان ويستوثقوا من عدم وجود أى خطر. ولما نفذت أموال الخزانة العامة في

(1) Schoebel, The Shadow of the Crescent., p. 120.

(2) Ibid., p. 120.

(3) Ibid., pp. 120-121.

هذه الاستعدادات، لجأ دوسون إلى أموال الكنيسة، واستخدمها في هذا السبيل، وأمر بتخزين الحبوب والطحام، وأكره الأجانب المقيمين في رودس وفيهم المسلمون على الإشتراك في أعمال التحصين والبناء، واستولى على السفن الأجنبية الراسية في مياه رودس. ويمكن القول إن دوسون عبأ جميع القوى والطاقات لتحصين رودس، حتى غدت هذه الجزيرة قلعة محكمة شديدة المناعة<sup>(١)</sup>.

وكيفما كان الأمر، ففي ديسمبر سنة ١٤٧٩ ظهر أسطول تركي بقيادة مسيح باشا - وهو أصلاً من أسرة باليولوجوس التي حكمت بيزنطة - أمام جزيرة رودس، فوجدها في غاية التحصين، فرجع إلى خليج فسكوس Physcos انتظاراً للنجدات التي وصلت في مايو سنة ١٤٨٠، وصار عدد الأسطول العثماني يزيد على مائة سفينة. وفي ٢٢ أو ٢٣ مايو نجح مسيح باشا تحت ضربات مدافعه المتواصلة في إنزال جنوده على الساحل الغربي من الجزيرة<sup>(٢)</sup>.

وتبع الأتراك نزولهم الناجح بتركيز قواتهم حول تل يدعى تل القديس ستيفن غربي المدينة، ثم واصل الأسطول التركي تعزيزاته حتى أصبحت قوته حوالي سبعين ألف جندي. ووضع الأتراك ثلاثة مدافع ضخمة بالقرب من كنيسة القديس أنتوني القريبة من الميناء، وفتحوا النار على قلعة القديس نيقولا. وقد اهتم مسيح باشا بتدمير البرج، فظل الأتراك يقصفونه ليلاً ونهاراً حتى استطاعوا تدمير جزء كبير من السور الغربي للقلعة. ولكن دوسون بادر بإرسال جماعات لترميم ما تهدم بالأحجار والأشجار، وتولى بنفسه قيادة حامية برج القديس نيقولا<sup>(٣)</sup>.

وأمر مسيح باشا بمواصلة ضرب أسوار قلعة نيقولا، على أمل أن ينسحب المدافعون، وقد اهتزت المباني في داخل المدينة كأن زلزالاً وقع بها من شدة الضرب، فوقعت أجزاء ضخمة من الأسوار والبيوت، ولكن أهالي رودس إنشغلوا بإصلاح وترميم الأجزاء التي دمرتها المدفعية العثمانية، واشتركوا جميعهم في بناء سور جديد، وحفر خندق في

(١) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ٢٤٦.

(2)Schwoebel, The Shadow of the Crescent., pp. 121-122.

(3) Ibid., pp. 123-124.

وقت قصير كخط دفاع ثان. وعلى الرغم من أن الأتراك كانوا متفوقين في العدد، إلا أنهم عجزوا عن الاستيلاء على برج القلعة، وعانوا هزيمة ثقيلة، قتل فيها حوالي ٢٥٠٠ جندي عثماني، وأصيب كثير من الجند بجروح، وفاقت الخسائر في المعدات الحربية أى وصف (١).

وبعد شروق الشمس بساعة صباح يوم ٢٨ يوليو ١٤٨٠م، هاجم الجيش العثماني أسوار حي اليهود الضعيلة، واقتحم العثمانيون الخندق، وصعد الآلاف منهم الأسوار، وغرسوا رايتهم أمام أعين أهالي رودس، وهبط بعض المهاجمين سلماً داخل داخل، ودخلوا المدينة. ولكن الموقف لم يلبث أن تغير، فجزء من المدافعين كان يقوده مقدم المنظمة، في حين أن الجزء الآخر كان يقوده أخوه أنطوان دويسون الذى صعد السور ومعه فرسانه وجنوده وحارب الأتراك، ودمر البعض الآخر السلم الذى كان الأتراك يستخدمونه لدخول المدينة، وقتلوا أولئك الذين وصلوا إلى الأرض. واستمر القتال ساعتين، جرح فيه بيير دويسون عدة مرات، ولكنه ظل يقاتل. وعجز الأتراك عن اختراق صف المدافعين، ووقعوا فى فوضى، وتكبدوا خسائر فادحة فى الأرواح، فقد مات حوالي ثلاثة آلاف جندي. وبعد ثلاثة شهور انسحبت القوات العثمانية، وعادت إلى بلادها تجر أذيال الفشل (٢). ولاشك أن الانتصار الذى حققه فرسان رودس على العثمانيين قد رفع من شأنهم فى أوروبا، وازدادت أهمية جزيرة رودس فى الدفاع عن المسيحية. ومن ناحية أخرى دلت الحملات الفاشلة التى قام بها العثمانيون ضد رودس على ضعف البحرية العثمانية.

على أن الفشل الذى منى به الجيش العثماني فى حصار رودس، قد خفف من سوء وقعه النجاح الذى أحرزه جيش عثمانى آخر فى جنوبى إيطاليا. فبعد أسابيع قليلة من نزول القوات العثمانية فى رودس. وصلت الأخبار إلى الغرب الأوروبى بظهور أسطول عثماني بلغ عدد سفنه مائة وأربعين سفينة بقيادة جدك أحمد باشا فى جنوبى إيطاليا. وفى ٢٨ يوليو سنة ١٤٨٠، وهو اليوم الذى انتصر فيه فرسان رودس على الأتراك، رسا الأسطول دون عوائق بالقرب من مدينة أوترانتو فى مملكة نابولى. وشرع جدك بعد إنزال المعدات والجنود الذين يقدرون بشمانية عشر ألف جندي فى حصار قلعة المدينة (٣).

(1) Ibid., pp. 125-126.

(2) Ibid., p. 129.

(3) Ibid., p. 131.

جزيرة الإيطالية. وكان ملك نابولي فرانتى Ferrante فى أفرسا Aversa عندما علم أن العثمانيين، قد غزوا مملكته، فكتب إلى أبى الفونسو دوق كالابريا فى ٢ أغسطس يأمره بأن يقطع حملته فى توسكانى، ويتوجه من فورى إلى الجنوب للملاقاة العثمانيين. وفى نفس اليوم وجه فرانتى رسائل إلى البابا وحكام أوربينو وڤيرارا يطلب المساعدة العاجلة. وكتب رسائل مشابهة إلى الحكومات الإيطالية الأخرى يحذروهم من أنهم ما لم ينضموا إليه فى طرد العثمانيين، فإنهم سوف يجتاحون دولهم<sup>(١)</sup>.

وفى تلك الأثناء نزلت قوات تركية على ساحل أبوليا، ونهب جنود جدك أحمد باشا قرى وضواحي مدينة أوترانتو، ودمروا كل شىء فى طريقهم، وقتلوا واستعبدوا الفلاحين، فقد كان عدد الأتراك يفوق عدد المدافعين الذين كان يتقصهم الرجال والسلاح. وحاصر الأتراك أوترانتو، حيث وعد القائد التركى الأهالى بالإبقاء على حياتهم ومنحهم حريتهم إذا خضعوا له طائعين، وعندما رفض الأهالى نداء القائد التركى، بدأ الأتراك فى ضرب المدينة بالمدافع. وعلى الرغم من أن أهل أوترانتو قاوموا بعناد، إلا أن الأتراك اقتحموا أسوار المدينة بالمدفعية، واستولوا على المدينة بسهولة فى ١١ أغسطس سنة ١٤٨٠، وبذلك أصبح لمحمد الفاتح قاعدة فى شبه الجزيرة الإيطالية<sup>(٢)</sup>، يزحف منها من الجنوب إلى الشمال، حتى يصل إلى روما مقر البابوية.

وعندما وصلت الأخبار إلى الإيطاليين يسقط أوترانتو فى أيدي الأتراك، دب الرعب والفرع فى قلوبهم، إذ حملت تلك الأخبار المعاملة الوحشية التى عامل بها العثمانيون الأهالى، من ذلك أن العثمانيين قادوا ثمانمائة مواطن برىء إلى تل قريب يعرف منذ ذلك الوقت بتل الشهداء، حيث خيرهم القائد التركى بين اعتناق الإسلام أو ذبحهم<sup>(٣)</sup>.

أدى الهجوم العثمانى على رودس، وماتبعه من غزو إيطاليا والاستيلاء على أوترانتو على أيدي القوات التى قادها جدك أحمد باشا، إلى ظهور موجة جديدة من الرعب فى الغرب الأوروبى. وفى سنتى ١٤٨٠ و ١٤٨١ أصبحت نبؤات الدعاة الصليبيين حقيقة

(1) Ibid.,p. 131, Lodge, The Close of Middle Age, p. 283.

(2) Schwoebel, op. cit., pp. 131-132, Halil Inalcik, Ottoman Empire,p. 29.

(3) Schwoebel,op. cit., p. 132.

واقعة، ونجحت خطط السلطان الرامية إلى إخضاع الغرب الأوربي وامتلاء البابا سكستوس الرابع (١٤٧١ - ١٤٨٤) فزعاً، واشتد به القلق، وخطط للهرب شمالاً مع معظم سكان المدينة. وقبل أن ينظم جهوده للقيام بعمل عدائي مضاد، جاءت الأخبار إلى الغرب الأوربي بموت السلطان محمد الفاتح فجأة في ٣ مايو سنة ١٤٨١ عن عمر يبلغ تسعة وأربعين عاماً، وسط مظاهر فرحة عظيمة عمت أرجاء أوروبا، وشعور عميق بالراحة إلتاب المسيحيين. وظهر لكثير من المسيحيين أن الرب قد استجاب لصلوات المخلصين. وتؤكد لهم مرة أخرى أن تدخله قد أنقذ المسيحية<sup>(١)</sup>. ويمكن القول إن وفاة محمد الفاتح قد أنقذت أوروبا من خطر العثمانيين. فقد عاد الأسطول العثماني إلى الوطن في ١٠ يوليو، وانتهى بذلك التوسع الإسلامي في المنطقة<sup>(٢)</sup>.

والواقع أن حكم السلطان محمد الثاني شهد سلسلة خارقة من الفتوحات والتحديات لأعظم القوى المجاورة في أوروبا. فبعد استيلائه على القسطنطينية في سنة ١٤٥٣، واصل الزحف وفتح شمال صربيا، وشرطاً من بلاد الأناضول، وبلاد الاشيا والبوسنة وهرزجوفينا (الهرسك)، ودمر جيش البندقية في اليونان، واجتاح مولدافيا وأجر، وحاصر جزيرة رودس، ووافته المنية وهو يدبر هجوماً وغزواً كاملاً لإيطاليا<sup>(٣)</sup>.

ويعد محمد الفاتح المؤسس الحقيقي للإمبراطورية العثمانية في أوروبا وآسيا عاصمتها إستانبول، وإليه ينسب ترتيب الحكومة المركزية وتقويتها على نظام جديد، فقد أطلق على نفس الحكومة العثمانية الباب العالي، وجعل لها أربعة أركان، وهي الوزير وقاضي عسكر والدفر دار الذي تعادل اختصاصاته اختصاصات وزير المالية حالياً، والرابع يسمى نيشانجي وهو عبارة عن كاتب سر السلطان، ثم بعد امتداد سلطة الدولة العثمانية في أوروبا، جعل لها قاضي عسكر خاص إسمه قاضي عسكر الروميلي، وقاضي عسكر آخر للأناضول. ثم رتب محمد الفاتح وظائف الجند، فجعل للإنكشارية رئيساً معنياً «أغا»، وعهد إليه بأشغال الضبط والربط بمدينة القسطنطينية، ورئيساً آخر للطوبجية، وثالثاً يختص بدخائر ومؤن الجيش.

(1) Ibid., p. 202.

(2) Shaw, op. cit., Vol. I., pp. 69-70.

(٣) مالكولم: البوسنة، ص ٧٨.



ورضع أول مبادئ القانون المدنى وقانون العقوبات، فأبدل العقوبات البدنية أى السن بالسن والعين بالعين، وجعل عوضها الغرامات النقدية بطريقة واضحة أتمها السلطان سليمان القانونى<sup>(١)</sup>.

ومن القوانين التى أصدرها محمد الفاتح قانونا يبيح قتل إخوة السلطان الجديد، إذ جرت العادة أن كل إبن من أبناء السلطان الحاكم كان يرى أنه أحق من غيره فى ارتقاء العرش بعد وفاة أبيه. ودلت التجربة فى تاريخ الأسرة الحاكمة على أن الإبن الذى يتقلد العرش يستهل حكمه بقتل جميع منافسيه، واتسع نطاق الصراع العائلى الدموى الرهيب، إذ شمل الأفراد الذكور من الأسرة الحاكمة، حتى الذين لم يتطلعوا إلى ارتقاء العرش. ولم تمارس عمليات قتل الإخوة بصفة قانونية ورسمية إلا منذ عهد محمد الفاتح. فقد أصدر قانونا خول بمقتضاه السلطان الجديد الذى يتولى العرش أن يباشر عمليات قتل إخوته تأميناً لسلامة الدولة. وجاء فى هذا القانون مايلى: «على أى واحد من أولادى تتولى إليه السلطنة أن يقتل إخوته، فهذا يناسب نظام العالم. وإن معظم العلماء يسمحون بذلك، ولذلك فعليهم أن يتصرفوا بمقتضاه»<sup>(٢)</sup>.

والواقع أننا لا نجانب الصواب إذا قلنا إن أعظم آثار محمد الفاتح على الإطلاق هو جعله إستامبول عاصمة للدولة العثمانية، ومركزاً اقتصادياً هاماً لها، وميناءً تجارياً معتبراً فى ذلك العصر، وذلك علاوة على تحويله لهذه المدينة إلى مدينة إسلامية بحق<sup>(٣)</sup>. لقد وضع محمد الفاتح نواة الدولة العثمانية فى الروميللى والأناضول حول إستامبول، وبقيت الدولة على هذا النحو دون تغيير ذى بال مدة أربعة قرون كاملة، كما وضعت سياسته المركزية القوية أيضاً حداً لحركة توسع الأسر المحلية الحاكمة فى المنطقة، وللسياسة القبلية التى كانت منتشرة فى تلك الجهات. ومن ناحية أخرى، فقد أنشأ الفاتح ثمانى مدارس كانت نواة لتطوير المؤسسة العلمية فى الدولة، وجعل من استانبول واحدة من مراكز العلوم فى العالم الإسلامى. وقد تميز عصر الفاتح ببدء ظهور فن العمارة والأدب والتاريخ العثمانى، حيث أعطت كل هذه الفنون وبخاصة المعمارية منها أهم معالم هذا العصر<sup>(٤)</sup>.

(١) محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٦٧.

(٢) عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية، ج ١، ص ٣٤٧ - ٣٤٩.

(٣) خليل إنالجيك: «العثمانيون، النشأة والأزدهار»، ص ٧٠.

(٤) المرجع السابق، ص ٧٠ - ٧١.

كان محمد الثانى يجمع فى شخصه جميع مظاهر عصره الفكرية والثقافية فقد ناصر العلوم الإسلامية، وناصر الشعر بما أغدقه على الشعراء من هبات مادية سخية. ليس هذا فحسب، بل كان مولعا بأن يختبر براعته الشخصية فى ميدان الشعر، تاركا للأجيال اللاحقة جمهرة من الأشعار اعتبرها جديرة بأن تحفظ. والواقع أن السلطان محمداً كان شديد الإعجاب باللغة الفارسية، يدلل أنه عهد إلى الشاعر الأناضولى شهدى أن ينظم بالفارسية قصيدة تصور التاريخ العثمانى على غرار الشاهنامة للفردوسى، وأن ديوان حميدى أحد شعراء بلاطه، ينتظم قصائد بعضها باللغة الفارسية، وبعضها باللغة التركية. كذلك كان شديد الاهتمام بالنهضة التى تفتحت أكامها فى إيطاليا، وعهد إلى أحد فناني البندقية جنتيل بيليني Gentile Bellini بأن يخرج له صورة زيتية - ولاتزال هذه الصورة محفوظة إلى اليوم فى مجموعة لا يارد بالبندقية<sup>(١)</sup>.

لقد ارتبط محمد الفاتح بموهبة النشاط السياسى والحربى الذى تمتع به أسلافه، وجعل منه نشاطه أقدر حاكم فى عصره، ولهذا فإن لقب أمير الذى اتخذه أسلافه إلى عهد يرجع إلى مراد الأول بانتصاره فى كوسوفو، لم يعد مناسباً لمحمد الثانى، الذى اتخذ بكل فخر واعتزاز لقب سلطان<sup>(٢)</sup>.

ولاشك أن إجادة محمد الفاتح للغات اللاتينية واليونانية والصربية والإيطالية وفهمه عدة لغات أخرى، ودهائه فى الرياضيات، ومعرفته العلوم الدينية بصورة فائقة، وإجادته العربية والفارسية، تحملنا على الاعتراف بأن السلطان محمد الفاتح هو أعظم حاكم وأكبر عسكري وأكبر رجل دولة سياسية، وبالنسبة إلى كثير من المؤرخين، فإن محمد الفاتح هو أكبر شخصية أنجبها الأتراك طوال التاريخ<sup>(٣)</sup>.

(1)Dereksen, The Cresenct and Cross, pp. 151-152.,

بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٤٤١ - ٤٤٢.

(2)Schevill, The Hist of the Balkan Peninsula, pp. 195-196.

(٣) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ج١، ص ١٤٥.

## الفصل السادس

### الإمبراطورية العثمانية فى أوج قوتها

- بايزيد الثانى (١٤٨١ - ١٥١٢).
- نزاع بايزيد الثانى مع مصر المملوكية.
- غرب البحر المتوسط.
- الخطر الصفوى.
- السلطان سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠).
- الحرب ضد الصفويين.
- العثمانيون والمماليك.

## بايزيد الثانى: (١٤٨١ - ١٥١٢):

يعتبر عهد بايزيد الثانى أكبر أبناء محمد الفاتح فترة انتقال من عهد البطولة القديم فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر، إلى عهد جديد من العظمة والفخر. وكما رأينا، فقد قام أبوه محمد الثانى بفتوحات هامة فى الشرق والغرب، وأعاد إلى الأذهان إمبراطورية السلطان بايزيد الأول وأضاف إليها، ولكنه ترك صعوبات اقتصادية ومشاكل اجتماعية لا يمكن حلها إلا إذا ظلت الإمبراطورية قوية متماسكة من ناحية، والقيام بفتوحات جديدة من ناحية أخرى. ويعد عهد بايزيد الثانى عهد قوة وتماسك شهدته الإمبراطورية العثمانية قبل أن تستأنف الفتوحات<sup>(١)</sup>.

والواقع أن الأتراك والأوروبيين كلاهما فى خلال الجيل الذى تلى موت السلطان محمد الفاتح كانوا يميلون إلى التفاوض أكثر من ميلهم إلى الحرب. وحتى بعد أن انتهت الحرب الأهلية التى نشبت بعد وفاة محمد الفاتح كما سئرى، وجد بايزيد الثانى أنه من الأفضل الحفاظ على العلاقات الدبلوماسية مع القوى الأوروبية. وقد اعتقد الغرب الأوروبى أنه أمام رجل هادئ المزاج، ولكنه فى الحقيقة كان مشغولا بتقوية نفوذه، وإيجاد إدارة فعالة فى الإمبراطورية التى أسسها والده<sup>(٢)</sup>. وبعبارة أخرى كان السلطان بايزيد الثانى ميالا للسلم أكثر منه إلى الحرب، محبا للعلوم الأدبية، ومشتغلا بها، ولذلك سماه بعض المؤرخين الترك بايزيد الصوفى أو بايزيد الولى. لكن سياسة الدولة دعتة آنذاك إلى ترك أشغاله السلمية المحضة، ولم يغفل واجباته كسلطان، فاشتغل بالحرب، وكانت أول حروبه داخلية<sup>(٣)</sup>.

فعندما توفى السلطان محمد الفاتح كان إبنه «جم سلطان» أحق بالعرش من أخيه بايزيد الثانى، وكان له أنصار كثيرون. وعندما علم جم الذى كان يقيم فى قونية بوفاة أبيه، كان أخوه بايزيد الثانى قد سبقه إلى دخول إستانبول، ولذلك وجد جم أن الوقت لم يعد فى صالحه لمنع أخيه من اعتلاء العرش، ومن ثم توجه جم إلى مدينة بروسة، واستدعى

(1) Shaw, Hist of Ottoman Empire, Vol. I, p. 70.

(2) Schwoebel, The Shadow of the Crescent., p.203.

(3) Schevill, The Hist of the Balkan Peninsula., pp. 211-212,

محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٦٨.

جميع أنصاره والتركمان في الأناضول، وأعلن نفسه سلطاناً على الأناضول في ٢٨ مايو سنة ١٤٨١م، وأمر بضرب النقود باسمه. ثم اقترح جم على أخيه بايزيد الثاني تقسيم الإمبراطورية العثمانية إلى قسمين: قسم أوربي يحكمه بايزيد الثاني، وقسم آسيوي يحكمه جم سلطان. ولكن بايزيد الثاني لم يوافق على هذا الاقتراح دفاعاً عن وحدة الإمبراطورية العثمانية والإبقاء عليها متماسكة<sup>(١)</sup>.

وحصل بايزيد الثاني على مساعدة جده أحمد باشا الذي كان آنذاك في الأناضول لتجنيد فرق جديدة لغزو إيطاليا، وعرف بحب الانكشارية له. وسرعان ما نشبت الحروب بين جم وأخيه بايزيد الثاني، واستمرت عاماً، ولقى فيها جم الهزيمة بالقرب من بنى شهر في ٢٠ يوليو سنة ١٤٨١، واضطر هو وقلوب جيشه إلى الفرار، ولجأوا إلى مصر، فرحب بهم السلطان المملوكي قايتباي، الأمر الذي أغضب بايزيد، ونقم على قايتباي<sup>(٢)</sup>. وبعد أن أقام جم بالقاهرة ضيفاً عند السلطان قايتباي، وأمدّه ببعض المساعدة، عاد إلى حلب في أبريل ١٤٨٢، ومنها راسل قاسم بك آخر أمير قرمانى، ووعدّه أنه لو أنجده وساعده للحصول على ملك آل عثمان، يرد له بلاد أجداده، فاغتر قاسم بك بهذه الوعود، وجمع أنصاره، وسار مع الأمير جم لمحاصرة مدينة قونية عاصمة إمارة قرمان من قبل. وهناك انضم إليه عدد من أمراء التركمان الفارين من وجه العثمانيين، وبعض كبار الملوك الإقطاعيين الذين عزلهم بايزيد الثاني وجردهم من إقطاعاتهم، وحين دخلت قوات جم الجديدة الأراضي العثمانية في قيليقية في ١٩ مايو سنة ١٤٨٢م، لم يجد جم كثيراً من الأنصار، ولم يستطع أن يحصل على أية مساعدة سواء من الدوشرمة أو الارستقراطية التركية، فأصابه اليأس من

(1) Shaw, op. cit., p. 17.

(2) Ibid., p. 71, Halil Inalcik, Ottoman Empire, p. 30.

ومن الأسباب التي أدت إلى الاحتكاك بين المماليك والعثمانيين الإماراتيين التركمانيين قرمان ودغادر بأسيا الصغرى، إذ تدخل محمد الفاخ في شئون هاتين الإماراتين المشمولتين بالحماية المملوكية، ونجح في أن يولى عرشهما أميرين موالين للعثمانيين، وإلى جانب ذلك رحب السلطان العثماني بالأمراء اللاجئين إليه من بلاط السلطان خشقدم (١٤٦١ - ١٤٦٧). أنظر لين لياؤس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، جـ ٣، ص ١٨٣.

الوصول إلى عرش الدولة العثمانية، وهرب إلى جزيرة رودس فوصل إليها في ٢٩ يوليو سنة ١٤٨٢، حيث احتمى بأصحابها فرسان القديس يوحنا<sup>(١)</sup>.

وعلى أية حال، وعد بيير دويسون مقدم فرسان القديس يوحنا برودس الأمير جم، بالعمل على كسب الأنصار في أوروبا ضد أخيه بايزيد الثاني. وقد اتصل مقدم الفرسان ببايزيد، الذي وعد بمنح أخيه دخل إمارة قرمان دون أن يتولى حكمها، بشرط أن يتخلى عن قتال أخيه، ويعتزل ويعيش في سلام في القدس. ولكن جم أصر على أن يتولى حكم قرمان. فلم يوافق بايزيد على ذلك، ووعد المقدم بمنحه سنويا بعض المال في مقابل التحفظ على أخيه جم، كما تعهد له السلطان بعدم التعرض لاستقلال الجزيرة طيلة حياته<sup>(٢)</sup>. وقد قبل فرسان القديس يوحنا ما عرضه عليهم السلطان بايزيد الثاني وأوفوا بوعدهم، ويتضح ذلك في أنهم لم يقبلوا تسليم الأمير جم إلى ملك المجر أو إمبراطور ألمانيا اللذين طلبا إطلاق سراحه ليستغلاه في إثارة المتاعب في وجه بايزيد الثاني<sup>(٣)</sup>.

وفي أول سبتمبر عام ١٤٨٢ أبحر الأمير العثماني جم إلى فرنسا، وكان لا يزال تحت حماية فرسان القديس يوحنا برودس، ووضع تحت التحفظ أولا في مدينة نيس، وبقي ينتقل من بلدة لأخرى مدة سبع سنوات. وفي نهاية الأمر، تقرر في عام ١٤٨٦ إرسال جم إلى البابا إنوسنت الثامن (١٤٨٤ - ١٤٩٢) الذي كان يفكر مليا آنذاك في الدعوة إلى حملة صليبية جديدة ضد العثمانيين، وشجعه على ذلك أن أخا بايزيد الثاني وخصمه في نفس الوقت جم وصل إلى روما، ورأى البابا أنه بإمكان إشعال حرب أهلية في الإمبراطورية العثمانية لصالح جم. ويقال إن رسل السلطان العثماني أقنعوا البابا بالتوقف عن تنفيذ ذلك المشروع وتخليصهم من جم، وبعبارة أخرى القضاء عليه بقتله، مقابل أن يدفعوا له مبلغ ثلاثمائة ألف من الدوكات الذهبية<sup>(٤)</sup>.

(1) Shaw, op. cit., p. 71,

محمد فريد: المرجع السابق، ص ٦٨ - ٦٩.

(2) Shaw, op. cit., p. 71,

محمد فريد: المرجع السابق، ص ٦٩.

(3) Shaw, op. cit., p. 71,

(٤) عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٠٥، محمد فريد: المرجع السابق، ص ٦٩.

وجاء البابا الإسكندر السادس (١٤٩٢ - ١٥٠٣) بعد البابا إنوسنت الثامن، وأصبح صاحب الدور الهام في تلك المأساة الغامضة بالاشتراك مع ملك فرنسا شارل الثامن (١٤٨٣ - ١٤٩٨). ذلك أنه عندما عبر شارل الثامن جبال الألب وغزا إيطاليا وحاصر روما، قام بأسر جم في ٢٧ يناير عام ١٤٩٥، وأمر بإرساله إلى فرنسا، غير أن جم سقط مريضاً في الطريق، ومات في نابولي في ٢٥ فبراير من نفس العام، وبموته تخلص بايزيد الثاني من الخطر الذي كان يتهدهده. ويقال إن وفاة جم غير الطبيعية جاءت بسبب آثار سم أعطى بتحريض من أخيه بايزيد، وإن كان ذلك لم يتأكد تماماً<sup>(١)</sup>.

ويرى البعض أنه بعد انتهاء الحرب الأهلية بين جم وبايزيد الثاني تفرغ بايزيد لشئون دولته، وكان مسالماً بطبعه، فلم يلجأ إلى مد الأملاك العثمانية شرقاً أو غرباً، بل إنصرف إلى سياسة التعمير كإصلاح الطرق والجسور، على أن أعظم آثار بايزيد العمرانية ذلك المسجد الذي يحمل اسمه والذي شيده ما بين سنة ١٤٩٧ و ١٥٠٣ في إستانبول<sup>(٢)</sup>.

ومهما كان بايزيد الثاني مسالماً، فإن سياسته الخارجية أملت عليه القيام بنشاط حربي، عندما كان الوضع يسمح بذلك. وكانت أولى خطواته الحربية، هو إرسال غزاة من الصرب والبوسنة بحذاء ساحل دلماشيا حتى راجوزا، وعبر الدانوب إلى تيمسفار Temesvar والأراضي المجرية، وقد حصل الغزاة على كثير من الغنائم، وأدت غزواتهم إلى فتح نهائي لهزرروجوفينا (الهرسك) في سنة ١٤٨٣، فيما عدا كرنا Craina الساحلية التي ظلت في أيدي البنادقة<sup>(٣)</sup>.

وأول الأعمال الحربية التي قام بها بايزيد الثاني أنه اختار والاشيا، وكان ستيفن الكبير قد ألحق هزائم فادحة بالسلطان محمد الفاتح منعت تأسيس المواصلات البرية المباشرة حول البحر الأسود للتابع العثماني الجديد في كرميا. وقد شعر بايزيد الثاني أن الاستيلاء على

---

(1) Shaw, op. cit., Vol. I, p. 72

يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ج ١، ص ١٨٨، عزيز سوريال: المرجع السابق، ص

١٠٥، محمد فريد: المرجع السابق، ص ٦٩ - ٧٠.

(٢) محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي، ص ٦٠.

(3) Shaw, Hist of the Ottoman Empire., p. 72.

موالدفيا سوف يعطيه ميزة استراتيجية عندما تتجدد الحرب مع المجر من ناحية، وسوف تمكنه من السيطرة على مصبات نهر الدانوب لإيقاف القراصنة المسيحيين الذين كانوا يدخلون البحر الأسود، ويهاجمون السواحل والسفن العثمانية من ناحية أخرى. وقد أمد ستيفن الكبير السلطان العثماني بالذريعة المباشرة للحرب، إذ ما علم ستيفن بثورة جم، حتى غزا والاشيا من يونيو إلى يوليو سنة ١٤٨١، وبعدئذ عبر الدانوب، وقام بسلسلة من الغزوات في بلغاريا، وبذلك هدد بشكل رئيسي نفوذ السلطان بين كل الأتباع الأوروبيين<sup>(١)</sup>.

أما الجبليون في مونتنيجرو (الجبيل الأسود)، فلم يكونوا مثل سكان المدن من أهل راجوزا، بل كانوا في عزلة، ولم ينغمسوا تماما في تيارات الغزو العثماني. لقد احتل العثمانيون هذه المنطقة بعد غزوها في سنة ١٤٩٦، ولكن بعد المنطقة، وقسوة تضاريسها، كانا سببين في أن يستبدل العثمانيون سياسة السيطرة المباشرة بسياسة أخرى تعتمد على الاكتفاء بالسيادة الإسمية. وكان الذي يقع عليهم الاختيار من الشخصيات من ذوى المكانة الاجتماعية والأوضاع المميزة من أهل مونتنيجرو؛ هم المسؤولون أمام السلطات العثمانية، عن جمع الضرائب العامة وتسليمها. ولكن الثمن الحقيقي الذي دأب أهل مونتنيجرو على أن يشتروا به حريتهم ويتحاشوا به التدخل العثماني في شئونهم، كان هو الخدمة العسكرية التي كان يقدمها رجال قبائل المنطقة في خدمة السلطان<sup>(٢)</sup>.

### نزاع بايزيد الثاني مع مصر المملوكية:

وفي عهد السلطان بايزيد الثاني تفاقمت المشاكل بينه وبين المماليك الجراكسة حكام مصر والشام. ومن الأسباب التي أدت إلى وجود المشاكل بين الدولتين العثمانية والمملوكية تجاور ممتلكاتهما في شرق الأناضول، وخاصة منذ أن ساعد السلطان المملوكي قايتباي الأمير العثماني جم خلال منافسته لأخيه بايزيد الثاني، ولكن بايزيد قضى على حركته، فلجأ جم إلى مصر، حيث رحب به قايتباي وأكرم وفادته، الأمر الذي أغضب بايزيد، ونقم على قايتباي<sup>(٣)</sup>، كما سبق أن ذكرنا.

(1) Ibid., p. 72.

(٢) كولز: العثمانيون في أوروبا، ص ١١٣.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ٣، ص ١٨٣.



عزم بايزيد الثانى على الانتقام من قايتباى، فانتهرز فرصة شكوى على دولات أمير دلغادر<sup>(١)</sup> من تصرفات قايتباى، وأمده بقوات ضخمة هاجم بها ملطية التابعة للمماليك فى سنة ١٤٨٤، وفى هذا الصدد يقول ابن إياس<sup>(٢)</sup>: «وهذا أول تحرك ابن عثمان على بلاد السلطان». ولم يقف السلطان قايتباى عاجزاً إزاء ما حدث من على دولات وحلفائه العثمانيين، فأرسل حملته بقيادة الأمير تمرز الشمسى استطاعت إلحاق الهزيمة بهم، وأخذت رايات السلطات العثمانى، ودخلت بها حلب وهى منكسة.

ومن ناحية أخرى، حدث فى العام التالى أن أحد ملوك الهند قد أرسل مع أحد التجار هدايا قيمة للسلطان العثمانى بايزيد الثانى، وكان من بينها خنجر نفيس مرصعا بفصوص ثمينة، ولما وصل التاجر إلى جدة استولى عليها قايتباى. فلما علم بايزيد بذلك اشتد غضبه على قايتباى. ويبدو أن قايتباى رغب فى مد يد السلام إلى بايزيد الثانى، بدليل أنه أرسل إليه الخنجر والهدايا التى بعث بها ملك الهند، فضلا عن تقديم اعتذاره عما حدث<sup>(٣)</sup>. ولكن بايزيد الثانى قابل ذلك بالإساءة، إذ استولت قواته على قلعة كوك التابعة للمماليك فى آسيا الصغرى، فلم ير قايتباى بداً من إرسال حملة فى سنة ١٤٨٥م بقيادة الأمير أزيك، استطاعت أن تلحق الهزيمة بالعثمانيين، وأوقعت عددا كبيرا منهم فى الأسر<sup>(٤)</sup>. وعلى الرغم من ذلك فقد أطلق قايتباى سراح الأسرى وأرسلهم إلى بلادهم، على أمل أن يتم الصلح بينه وبين بايزيد، وشاع فى مصر أمر الصلح بينهما<sup>(٥)</sup>.

والحقيقة أن الصلح لم يتم بين المماليك والعثمانيين، بدليل أن السلطان العثمانى بايزيد الثانى أرسل أسطولا إلى ميناء الإسكندرية ليقطع الطريق على الجيش المملوكى بقيادة الأمير أزيك، ولكن عاصفة قوية اجتاحت الأسطول العثمانى وأغرقت معظمه،

(١) دلغادر فى منطقة الحدود بين أراضي الدولة المملوكية فى بلاد الشام وأراضى الدولة العثمانية فى بلاد الأناضول، أى المنطقة المعروفة اليوم بلواء الإسكندرونة وبعض المناطق المجاورة لها فى سوريا وتركيا. وتتسبب إمارة دلغادر إلى مؤسسها قراجا بن دلغادر التركمانى (ت ١٣٥٣م).

(٢) بدائع الزهور، ج ٣١، ص ٢٠٦ - ٢١٠.

(٣) بدائع الزهور، ج ٣١، ص ٢١٥.

(٤) بدائع الزهور، ج ٣١، ص ٢١٨ - ٢٢٦.

(٥) بدائع الزهور، ج ٣١، ص ٢٣٧.

وعندئذ تقدم أزيك ووصل إلى أطنة (أذنة) واستولى عليها بعد حصار استمر ثلاثة شهور، وعاد إلى القاهرة وفي يده كثير من الأسرى والغنائم (١).

ولم يكد الجيش المملوكى يصل إلى القاهرة، حتى استولى عساكر بايزيد الثانى على سيس وطرسوس وغيرها من البلاد الحلبية فى سنة ١٤٨٨ (٢). وكان أن أرسل السلطان قايتباى حملة بقيادة الأمير أزيك، استعادت كولك، واستولت على قلعة كوار، ثم عادت الحملة إلى القاهرة، فى سنة ١٤٩٠ م (الحرم سنة ٨٩٦ هـ) (٣).

وعلى الرغم من الانتصارات التى أحرزها المماليك ضد العثمانيين فى هذا الدور، إلا أنها لم تكن حاسمة، بل كشفت القناع عن أطماع العثمانيين فى الاستيلاء على باقى إمارات آسيا الصغرى، والتوسع على حساب الدولة المملوكية، إلى أن قضى السلطان سليم الأول على دولة المماليك، كما سنرى بعد قليل.

### غرب البحر المتوسط:

عندما ذبلت دولة المسلمين فى أسبانيا، لم يعد لهم فى الأندلس سوى مملكة غرناطة، بعد أن سقطت المدن الإسلامية مدينة إثر أخرى، ووقع أكثرها بأيدى المسيحيين. فبين سنتى ١٢٣٨ و ١٢٦٠ م استولى فرديناند الثالث ملك قشتالة، وجايم الأول ملك أرجونة على مدن بلنسية وقرطبة وأشبيلية ومرسية، وقدر للمسلمين بعد ذلك أن يستمر حكمهم بغرناطة قرنين ونصف قرن<sup>(٤)</sup>. ولم يكن يتوقع المسلمون أن يعيشوا تلك الفترة فى غرناطة، والممالك المسيحية على مقربة منهم، وقد أحسوا فى الربع الأخير من القرن الخامس عشر الميلادى بقرب زوالهم، عندما تم توحيد أرجونة وقشتالة بتزويج فرديناند بإيزابيلا<sup>(٥)</sup>. وكانت هاتان المملكتان فى منازعات وحروب مستمرة، لهذا أثارت هذه الوحدة فى أسبانيا موجة

(١) بدائع الزهور، ج٣، ص ٢٥٤ - ٢٥٧.

(٢) بدائع الزهور، ج٣، ص ٢٦١.

(٣) بدائع الزهور، ج٣، ص ٢٧٥.

(٤) لين بول (ستانلى): العرب فى أسبانيا، ترجمة على الجارم (القاهرة ١٩٦٤)، ص ١٧٦ -

١٧٨.

(٥) المرجع السابق، ص ١٨٣.

كبيرة من الفرح، ولاشك أن هذا الاتحاد كان معناه فى الواقع انتهاء مملكة غرناطة المسلمة، لأن بقاء هذه المملكة الصغيرة كان راجعاً إلى حد كبير إلى العداء القائم بين هاتين الدولتين<sup>(١)</sup>. وكان أول شىء اهتم به هذان الملكان الكاثوليكيان، هو تصفية مملكة غرناطة وإزالة الحكم الإسلامى من أسبانيا نهائياً. وقد اتبعا فى ذلك سياسة مزدوجة تقوم على القوة العسكرية من جهة، وإثارة التفرقة والفتن الداخلية بين المسلمين من جهة أخرى<sup>(٢)</sup>.

وقد بدأت الدولة العثمانية تهتم بغربى البحر المتوسط، فمنذ عام ١٤٨٢ طلب حكام غرناطة المسلمون مساعدة دولة «الغزاة» الوحيدة - الدولة العثمانية - ضد أرجونة وقشتالة. وقد أبدى بايزيد الثانى اهتمامه وعطفه، تاركاً لغزاة البحر المسلمين فى شمالى أفريقيا الذين أطلق عليهم الغربيون إسم القراصنة، أن يقدموا المساعدة الفعلية، وحين سقطت غرناطة فى عام ١٤٩٢م، وبدأت الدول الإسلامية فى شمالى أفريقيا تواجه احتمالات الغزو المسيحى، تزايد الضغط على العثمانيين طلباً لمزيد من المساعدة، وإن تكن مشاكل بايزيد الثانى فى الشرق قد حالت دون تقديمه المعونة لإخوته المسلمين، ولو أن كثيراً من «غزاة» البحر العثمانيين، قد التحقوا بخدمة العثمانيين وبخاصة بعد أن عززوا قوتهم البحرية، وحشوهم على القيام بنشاط بحرى فى المغرب الإسلامى، وإن تكن الخلافات الأسرية قد شلت نشاط بايزيد الثانى، وبخاصة ما يتعلق منها بمصير أخيه جم الذى كان محوراً لتآمر الدول المسيحية ضد الدولة العثمانية<sup>(٣)</sup>.

### الخطر الصفوى:

سبق الإشارة إلى أن السلطان العثمانى بايزيد الثانى كان ميالاً إلى التأمل والسلام، ويحب الشعر ولكنه فى أواخر حياته تعرض لمشاكل، منها النزاع بين أبنائه، وظهور الأسرة الصفوية فى الشرق التى هددت حدوده الشرقية.

أما تلك الأسرة الصفوية الحاكمة فى فارس فترجع إلى جدها الأكبر موسى الكاظم، وقد أسسها فى أربيل من أعمال آذربيجان الشيخ صفى الدين إسحاق (١٢٥٢ - ١٣٣٤)

(١) أحمد مختار العبادى: دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس (القاهرة ١٩٦٨)، ص ٤٦٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٦٢ - ٤٦٣.

(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى: فى أصول التاريخ العثمانى، ص ٧٤.

أحد سلالة هذه الأسرة، وحملت إسمه<sup>(١)</sup>. وكانت الصفوية فى نشأتها صوفية كبقية الحركات الصوفية التى اجتاحت هذه المناطق، ولكنها لم تتخذ الدعوة الشيعية إلا ابتداء من مشيخة «خوجه على» وإبان إغارة تيمور لنك على الشرق. واتصل تيمور بخوجه على هذا وأوقف عليه أوردبيل له ولأعقابه من بعده. وتمركزت الحركة هناك. ثم أخذت فى الانتشار حتى إذا ما وصلت مشيخة الحركة لجنيد، أخذ هذا يعمل على تحويلها من حركة دينية إلى حركة سياسية، متخذاً القوة أداة لنشرها، وارتبط جنيد بأواصر المصاهرة بأسرة أوزون حسن، واكتسب بهذا الزواج قوة كبيرة<sup>(٢)</sup>.

وحين حصل الصفويون على مساندة أوزون حسن الحاكم التركمانى لفارس وشرق الأناضول، اتخذ لهم زعيمهم «حيدر» غطاء رأس أحمر مميز له إثنين عشر لفة تعظيماً للآئمة الشيعة الإثنى عشر، باعتباره علامة مميزة لأتباعهم الذين عرفوا بعد ذلك باسم قيزلباش (الرأس الأحمر)<sup>(٣)</sup>. وفى سنة ١٤٨٨م قتل حيدر فى إحدى المعارك المحلية وخلفه إسماعيل وأصله تركمانى - الذى يعتبر المؤسس الحقيقى للدولة الصفوية<sup>(٤)</sup>.

وقد حاول خلفاء أوزون حسن الضغط على الصفويين والقضاء عليهم، ولكن إسماعيل (١٤٨٧ - ١٥٢٤) تمكن من الهرب إلى إيران ومعه سبع قبائل من القيزلباش مكنته من القضاء على الإمارات الإيرانية الصغيرة التى خلفت إمارة «الشاة البيضاء» والتيموريين، والسيطرة على كل البلد خلال عقد واحد<sup>(٥)</sup>.

وإذا كانت الأسرة الصفوية قد برزت فى الأصل باعتبارها حركة صوفية، فإن التحول إلى المذهب الشيعى قد اكتمل خلال السنوات الأولى من القرن السادس عشر، وانضوى أهالى إيران تحت زعامة إسماعيل الصفوى الذى كان يتمتع بكثير من الاحترام، وقد صمم إسماعيل على مد النفوذ الصفوى إلى الأراضى العثمانية الواقعة فى شرقى

(1) Shaw, Hist, of Ottoman Empire, Vol. I, p. 77.

(٢) محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربى، ص ١٠٥.

(3) Shaw, op. cit , p. 77.

(٤) محمد أنيس: المرجع السابق، ص ١٠٥.

(5) Shaw, op. cit., p. 77.

الأناضول، فأرسل مئات من الدعاة نجحوا في نشر رسالته بين الرعاة. والحقيقة أن العثمانيين نظروا إلى المذهب الشيعي على أساس أنه تهديد سياسي، وعارضوا الصفويين ليس فقط بسبب خطرهم الحربي، بل أيضا لأن المذهب الشيعي كان يمثل تحديا خطيرا للمذهب السني الذي يعتنقه الأتراك<sup>(١)</sup>.

وقد عارض السلطان بايزيد الثاني القيام بهجوم واسع ضد الشاه إسماعيل الصفوي، إما لتعاطفه الخاص مع التعاليم الغامضة التي كان ينشرها الدعاة الشيعة، أو لرغبته في تجنب الحرب قدر الإمكان، أو لخوفه من أن الدعوة الصفوية من الممكن أن تغري عددا كبيرا من مقاتليه على اعتناقها. ولذلك تمهل بايزيد ودخل في مراسلات مع إسماعيل، على أمل إقناعه بالتخلي عن المذهب الشيعي، وإنهاء مساعيه الرامية إلى نشره<sup>(٢)</sup>. وفي سنة ١٥٠٨ استولى إسماعيل على بغداد ومعظم جنوب غربي إيران، وأجرى مذابح واسعة ضد المسلمين السنيين، وهدم مساجدهم وقبورهم. ونلاحظ أن بايزيد الثاني لم يد أي رد فعل إزاء ما فعله الشاه إسماعيل إلا أن طلب إيقاف مثل هذه الممارسات، في الوقت الذي طلب بايزيد المساعدة من الممالك في مصر، ولكنهم لم يفعلوا أكثر من إصدار الأمر لنائب حلب لمقاومة النشاط الصفوي إذا دخل قبايقه. كما طلب بايزيد الثاني المساعدة من دولة أربك في خراسان، باعتبارها قوة رئيسية وليدة، فقامت بعدة هجمات شغلت الصفويين بقية عهد بايزيد<sup>(٣)</sup>.

وعلى الرغم من الهجمات التي شنتها دولة أربك ضد الصفويين، فقد استمر الدعاة الصفويون في نشاطهم بين تركمان الأناضول، وبخاصة في منطقة «تكة» في الجنوب الغربي، حيث كان نفوذ الصفويين قويا باستمرار. وتمكن أحد خلفاء الشاه إسماعيل. ويدعى شاه قولو من استغلال استياء التركمان الواسع في القيام بثورة كبرى في أنطاليا في ربيع عام ١٥١١م، وحصل على مساندة الآلاف من العثمانيين الذين جرى إرسالهم لإخمادها. وأرسل شاه قولو دعائه إلى داخل الأناضول، وهناك وصفوه بالمهدي المنتظر

(1) Shaw, op. cit., pp. 77-79.

(2) Ibid., p. 78.

(3) Ibid., p. 78.

الذى أرسله الله لإنقاذ البشرية. وفى الوقت الذى كان فيه بايزيد مشغولاً بالصراع الذى نشب بين أبنائه، استولى شاه قولو على معظم وسط وجنوب شرقى الأناضول، وانسحب بايزيد وانتابه المرض، وأرسل جيشاً من الإنكشارية بلغ عدده ثمانية آلاف مقاتل بقيادة الوزير الأعظم على باشا، واستطاع هذا الجيش أن يوقع الهزيمة بشاه قولو، الذى لقي مصرعه بسهم أصابه صدفة بالقرب من قيصرية فى أغسطس عام ١٥١١م، وفر من تبقى من القيزلباش إلى إيران، حيث ظل الصفويون مسيطرين عليها، وصاروا مصدر إزعاج مستمر فى عهد خلفاء بايزيد الثانى<sup>(١)</sup>.

وفى عهد بايزيد الثانى بدأت أول علاقة مع روسيا، بعد أن تمكن دوق موسكو إيفان الثالث من توحيدها بعد استيلاء المغول عليها. وبدأت هذه العلاقة سنة ١٤٩٢، حيث وصل إلى استانبول سفير روسى ومعه الهدايا، كما حضر سفير آخر بعد أربع سنوات وحصل على بعض الامتيازات التجارية<sup>(٢)</sup>.

واعتنى بايزيد الثانى بإنشاء المباني العامة الفخمة، وإنشاء شبكة الطرق والجسور. ومع أن هذه الشبكة أنشئت فى المحل الأول لأغراض عسكرية، فقد يسرت حركة المواصلات العامة وأسندت إليها خدمة جلية أيضاً. بيد أن أعظم آثار بايزيد العمرانية ذلك المسجد الذى شيده ما بين سنة ١٤٩٧ وسنة ١٥٠٣. ويمتاز هذا المسجد بفخامة مواده البنائية، ويزخرفته على الطريقة الفارسية. وتحيط به من جهاته الأربع عقود محددة مصنوعة من الرخام الأبيض والأسود على التعاقب، نامضة على أعمدة ثمانية من اليشب والمرمر الأخضر فوقها سقائف مقببة، وفى الوسط صحن كبير، وله أربعة أبواب، ومآذن ترتفع على أجنحة مستقلة<sup>(٣)</sup>.

وكان بايزيد الثانى يقرأ بدقة كل مؤلف جديد يهدى إليه، ويكافئ المؤلف مكافأة تتفق وقيمة الكتاب كأجر عن التأليف، ويقابل المؤلفين ذوى الكتب القيمة، كان عادلاً ووفياً ومنصفاً. وقد كتب الدبلوماسى الشهير أندريه جريتي Andrea Gritti الذى كان سفيراً للبندقية على أيام بايزيد الثانى يصف السلطان فى رسالته السرية التى أرسلها إلى

(1) Ibid., p. 78.

خليل لينالجيك: «العثمانيون، النشأة والازدهار»، ص ٧٤.

(٣) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٤٤٤.

مجلس الأعيان يقول: «قامته أطول من المتوسطة.. لا يتعاطى الشراب أبداً.. يأكل قليلا، يسر جداً لركوب الخيل.. أحب شيء إليه الصيد ورياضات الفروسية. يعظم الشعائر الدينية ويتصدق كثيراً، يهتم بالفلسفة وعلوم الفلك.. وعدا الوقت الذي يقضيه في الاطلاع، فإنه يخصص وقتاً طويلاً للاهتمام بأمور إصلاح جيشه وتنميته، زاد عدد الانكشارية، وجهاز جيشه بالأسلحة الحديثة والناارية، وأجرى إصلاحاً جذرياً خاصة بالنسبة للمدفعيين ونقله المدافع. وخیالاته وأسطوله هما اللذان حققا الأحداث الخارقة التي شهدناها...»<sup>(١)</sup>.

### السلطان سليم الأول: (١٥١٢ - ١٥٢٠):

من الأسباب التي أدت إلى فشل السلطان بايزيد الثاني في الضغط على الصفويين بصورة حاسمة، ومواصلة انتصاراته بعد الانتصار الذي أحرزه ضدهم في قيصرية، هو ظهور المنازعات الخطيرة بين أبنائه من أجل السلطة والوصول إلى العرش، وهو بعد على قيد الحياة. وكان السلطان بايزيد الثاني قد أنجب ثمانية أولاد، توفي خمسة منهم وهو لا يزال على قيد الحياة، وبقي له ثلاثة أولاد هم: أحمد وقرقوت وسليم، وعين والدهم كلا منهم حاكماً على إقليم من أقاليم الدولة. فعين أحمد حاكماً على أماسيا، وعين قرقوت حاكماً على صاروخان (مانيسا)، وعين سليم حاكماً على طرابزون. وقد عرف ابنه الأكبر أحمد وهو أحب أولاده إليه بأنه إداري قدير، ويحب الناس له، وكان يفضل سياسة أبيه الرامية إلى السلام وتوطيد الحكم، ولذلك حظى بتأييد معظم الإداريين، ولكن الإنكشارية كانت تعارضه بشدة بسبب الهزائم العديدة التي قاسوها تحت قيادته في الأناضول<sup>(٢)</sup>. أما الابن الثاني قرقوت فقد تربى في بلاط جده السلطان محمد الفاتح، ودرس العلوم الإنسانية والشعر والموسيقى، الأمر الذي جعل العلماء يفضلونه سلطاناً، ولكن قرقوت أظهر موهبة عسكرية محدودة في أثناء الحروب التي خاضتها الدولة ضد شاه قولو. أما ثالث الإخوة الأمير سليم الذي كان أكثر قدرة في شؤون الحرب والقتال، فقد نال تأييد الإنكشارية وبكوات الحدود في أوروبا<sup>(٣)</sup>. ويصفه أحد البنادقة في هذه العبارة «إنه أكثر السلاطين قسوة، ولم يكن يحلم إلا بالغزو والحرب». أما المؤرخون العثمانيون فيطلقون عليه

(١) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ج١، ص ٢١٢.

(2) Shaw, Hist. of Ottoman Empire., Vol. I., p. 78.

(3) Ibid., p. 78.

«ياوز» Yaouz أى السلطان الحاد الباتر العنيد، وينظرون إليه على أنه بطل يمثل أروع تمثيل العبقرية العسكرية<sup>(١)</sup>.

طلب الأمير سليم من والده أن ينقل من طرايزون على أساس أنه ظل يحكمها مدة طويلة من ناحية، ولوقوعها فى جهة نائية على أقصى الساحل الجنوبى الشرقى للبحر الأسود من ناحية أخرى. وطلب أن ينقل إلى إحدى السنجقيات فى أوروبا. ورفض بايزيد الثانى طلب لإبنه، فجمع سليم قواته واتجه بها إلى أدرنة ليتباحث مع والده الذى كان يقيم وقتذاك هذه المدينة. وقبل أن يصلها سليم كان السلطان قد غادرها إلى استانبول، فلحق به سليم وسط حشود عسكرية من الإنكشارية، وأصروا على عزل السلطان فوراً وتعيين سليم مكان والده. وفى ٢٥ أبريل سنة ١٥١٢ تنازل بايزيد عن العرش لإبنه سليم، ثم غادر بايزيد استانبول متوجهاً إلى مسقط رأسه فى ديموتيقة، ولكنه توفى فى الطريق<sup>(٢)</sup>. وهكذا قام الإنكشارية بالدور الرئيسى فى خلع السلطان بايزيد الثانى لأنهم ضاقوا ذرعاً بالسياسة السلمية التى اتبعها هذا السلطان فى معظم سنوات حكمه. وانتهزوا فرصة الصراع الذى نشب بين أولاد السلطان الثلاثة على العرش، فزجوا بأنفسهم من أجل تحقيق منافع لهم، لأنهم توسموا فى سليم الرغبة والمقدرة معاً على دفع عجلة الحرب الخارجية واستئناف سياسة التوسع الإقليمى للدولة العثمانية<sup>(٣)</sup>.

وعندما ارتقى سليم العرش، كان فى الأربعين من عمره، وقد سبقته سمعة يحسد عليها، كان قد حصل عليها خلال سنوات حكمه لولاية طرايزون، فهو قائد حربى ممتاز، يقف بشخصه على رأس قواته، وهو إدارى نزيه وكفء، وهو سنى لا يمكن الشك فى استقامة عقيدته، قليل الميل إلى الترف واللهو<sup>(٤)</sup>. وقد أبدى سليم منذ بداية حكمه ميلاً إلى سفك الدماء، ولذلك استحق فى التاريخ لقب «الشرس» The Grim. فاستهل عهده بقتل عدد كبير من إخوته، وما لبث فيما بعد أن قتل عدداً كبيراً من رعاياه وأقدر معاونيه، وأدى

(١) عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية، ج ١، ص ٥٠٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٠ - ٥٠٧.

(٣) المرجع السابق، ج ١، ص ٥٠٨.

(٤) جان لوى باكى جيرامون: «أوج الإمبراطورية العثمانية (١٥١٢ - ١٥١٦)»، فى تاريخ الدولة العثمانية، ج ١، إشراف روبير مانترا، ترجمة بشير السباعى (القاهرة ١٩٩٣)، ص ٢٠٧.



حبه لخوض المعارك. وفي الوقت الذي اتصف سليم بحيوية ذهنية وجسدية غير عاديين، فإنه كان لا يبدى أكثرنا بالمباهج الحسية ويفضل عليها الصيد. ولم يكن ينام إلا قليلاً، يمضياً قسطاً طويلاً من الليل في الإطلاع على الدراسات الأدبية، وكان الشعر الفارسي والتاريخ من أحب الأشياء إلى قلبه. ورغم قسوته فإنه كان يميل إلى صحبة العلماء الذين كرمهم، ورقى كثيراً منهم لتولى وظائف عليا وهامة. وكان يصطحب المؤرخين والشعراء إلى ميدان القتال ليسجلوا تطورات المعارك وينشدوا القصائد التي تتحكى أخبار الماضي<sup>(١)</sup>.

تولى سليم عرش الدولة العثمانية، حاملاً معه طموحاته الرامية إلى إعادة سياسة السلطان محمد الفاتح النشطة في الغزو، وتحقيق وجود إمبراطورية عثمانية عالمية. ولذلك قرر سليم أن يعتمد على الإنكشارية الذين ساندوه، ويفضل قوتهم في استانبول وصل إلى العرش، فزاد أعدادهم إلى خمسة وثلاثين ألف، وزاد رواتبهم، وأغدق عليهم الهبات والهدايا<sup>(٢)</sup>.

ويعد أن تأكدت سيطرة سليم الأول على الحكومة في خلال أشهر قليلة من اعتلائه العرش، كانت المشكلة الصعبة التي واجهته هو التخلص من إخوته بغرض تأمين الدولة. فحاول في البداية استرضائهم، فسمح لأخيه قرقوط بالعودة إلى صاروخان (سانيسا)، وأعطى لأخيه أحمد حكم قونية. ولكن أحمد أراد أكثر من ذلك، وأعلن نفسه سلطاناً على الأناضول، وأرسل ابنه الوحيد علاء الدين للاستيلاء على بروسه ليتخذها عاصمة له في منتصف يونيو عام ١٥١٢ م. ونتيجة لذلك قرر سليم أن يقوى نفوذه، وذلك بإبعاد كل إخوته وأبنائه، فيما عدا سليمان الذي اختاره خليفة له<sup>(٣)</sup>.

على أن ثورة أحمد تفاقمت وبلغت حداً بعيداً من الخطورة، بصورة فاقت ثورة جم. ففي ١٨ يونيو استولى علاء الدين على بروسه، وبدأ في جمع الضرائب من الأهالي. وعندما علم سليم بذلك عبر الأناضول على رأس جيش كثيف، وهناك حصل على

(1) Schevill, op. cit., p. 212,

أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق. ص ٧٦.

(2) Shaw, Hist of Ottoman Empire., pp. 79-80.

(3) Ibid., p. 80.

مساعدة ضخمة مكتبته من إجبار أخيه أحمد وأتباعه على الهرب إلى قيليقية فى صيف سنة ١٥١٢م<sup>(١)</sup>.

ومما يذكر أن بعض أنصار أحمد أشاروا عليه بالحصول على مساعدة الصفويين ضد سليم الأول، ولكن أحمد كان يبغض الشيعة بشدة، وفضل طلب المساعدة من المماليك فى مصر بدلا من الصفويين الشيعة. وفى الوقت الذى بدأ أحمد فى إجراء المفاوضات مع المماليك من عاصمته المؤقتة فى أماسيا، توغل سليم فى بلاد الأناضول وقتل كل أبناء إخوته، وقتل كذلك قرقوط<sup>(٢)</sup>. وكان قرقوط يكبره بثلاث سنوات وأحب إخوته إليه، وقبل أن يغادر قرقوط إستانبول متوجها إلى أنطالية أقسم على عدم مطالبته بالسلطنة فى أى وقت من الأوقات. وأراد سليم التأكد من نية أخيه، فطلب إلى الوزراء أن يحرروا رسائل بأسمائهم ترغبه فى السلطنة، فتورط قرقوط ورد على تلك الرسائل المزيفة بالموافقة، فما كان من سليم إلا أن ألقى القبض على أخيه، وأعدمه فى ١٧ مارس سنة ١٥١٣، قبل إعدام أحمد ثمانية وثلاثين يوما<sup>(٣)</sup>. ولاشك أن الأسلوب العنيف الذى اتبعه سليم فى التخلص من كل أقاربه، أدى إلى تخلى أنصار أحمد عنه، وجعله لا يحصل على أية مساعدة، وكان أن شن سليم هجوما ضد أخيه، ولقى أحمد هزيمة ساحقة فى ينى شهر فى ١٥ أبريل عام ١٥١٣، وجرى إعدامه بخنقه بالقوس والوتر، وبذلك أكد سليم حكمه، ولم تعد هناك أية عقبات أخرى تقف فى طريقه<sup>(٤)</sup>.

### الحرب ضد الصفويين:

وبعد أن تخلص السلطان العثمانى سليم الأول من إخوته وأبناء إخوته، حول أنظاره نحو الشاه إسماعيل الصفوى. وكان المماليك فى مصر قد انزعجوا من خطورة التهديد الصفوى لممتلكاتهم فى بلاد الشام والحجاز، فعقدوا تحالفا مع العثمانيين ضد إسماعيل فى عام ١٥١٣، وبذلك تركوا السلطان سليم طليق اليدين فى جمع كل قواه ضد الصفويين، دون أن يخشى احتمال الهجوم على جناحه الجنوبى<sup>(٥)</sup>. وقد بدأ سليم

(1) Ibid., p. 80.

(2) Ibid., p. 80.

(٣) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ج١، ص ٢١٤.

(4) Sinaw, op. cit , p. 80.

(5) Ibid., p. 80.

بالحصول من شيخ الإسلام صبارى جوريز، وهو أعلى مرجع دينى فى الإمبراطورية العثمانية، على فتوى تخرج الشاه إسماعيل وأتباعه من الجماعة الإسلامية، لأنها تجيز الأجهاز عليهم حتى آخر رجل، واسترقاق نسائهم وأطفالهم، ومن ثم فإن هذه الفتوى تضىفى الشرعية على الدخول فى حرب ضد الشاه، كانت الاستعدادات لها قد بدأت على قدم وساق<sup>(١)</sup>. ولا شك أن الجيش الذى جهزه سليم فى ربيع عام ١٥١٤ كان واحداً من أقوى جيوش عصره من حيث عدد الجنود ونوعية الأسلحة النارية، وكذلك من حيث كفاءة من يستخدمونها، أما قوات الشاه، فهى تضم وحدات فرسان أقل عدداً، لكنها فعالة بشكل رهيب، وإن كانت بلا مدافع ولا بنادق<sup>(٢)</sup>.

وقبل أن يزحف سليم بجيشه تجاه الشرق، قام بذبح آلاف من أتباع القزلباش فى الأناضول، وفى شهرى أبريل ومايو عام ١٥١٤، واصل سليم هجماته العنيفة ضد إسماعيل، متخذاً من ذلك ذريعة للقضاء على كل المعارضين لحكمه. وقد واجه سليم مشكلة توفير المؤن لجيشه، وخاصة عندما رفض صاحب إمارة دغاغر تقديم المساعدة، خوفاً من أن حدوث انتصار عثمانى على الصفويين، سيتبعه زوال إمارته<sup>(٣)</sup>.

وبينما كان العثمانيون يتحركون خلال ولايتى أرزنجان وأرزمروم فى أعالى نهر الفرات، تجنب الصفويون الدخول معهم فى معركة مفتوحة، لمعرفتهم بتفوق قوات سليم الحربية، وعزموا على سحب السلطان إلى مناطق شمالى إيران الجبلية، حيث تمكنهم مشاكل التضاريس الوعرة والمؤن من جعل قوة الجيشين متوازنة. وفى أثناء تراجع الصفويين طبقاً للخطة التى وضعوها، أحرقوا الأرض وأتلفوها، لكى يمنعوا العثمانيين من الحصول على المؤن التى كانوا فى أشد الحاجة إليها<sup>(٤)</sup>. وعلى الرغم من التدمير الذى انتشر وسط جنود السلطان سليم وخاصة الانكشارية، فقد واصل سيره إلى الإمام، وأعدم كل الجنود والقواد الذين تراجعوا عن السير معه. وفى منتصف أغسطس سنة ١٥١٤ قرر السلطان الزحف مباشرة على تبريز، ليحجر الشاه إسماعيل على الدخول معه فى معركة للدفاع عن

(١) جان لوى باكى جرامون: «أوج الإمبراطورية العثمانية»، ص ٢٠٩ - ٢١٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٢١١.

(3) Shaw, Hist. of Ottoman Empire., p. 81.

(4) Ibid., p. 81.

عاصمته. وأخيراً حدثت المعركة الفاصلة في سهول جالديران (تسالديران) في منتصف الطريق بين تبريز وبحيرة أرمية - في ٢٠ رجب سنة ٩٢٠هـ (٢٣ أغسطس ١٥١٤)، حيث انهزم العثمانيون في أول الأمز، ولكنهم سرعان ما حققوا انتصاراً حاسماً، وقتلوا الآلاف من رجال قبائل القيزلباش، وجرح الشاه إسماعيل الصفوى، ولم يستطع الفرار إلا بصعوبة بالغة<sup>(١)</sup>. غير أن الانتصار العثماني لم يستكمل بعمل لإسقاط الدولة الصفوية، إنما اقتصر على جعلها في موقع دفاعي، وسبب تراجعاً واسعاً لأنشطتها داخل الأناضول.

وبعد أن استولى سليم على تبريز أرسل الآلاف من تجارها الكبار والصناع والعلماء إلى استانبول. غير أن سليم قرر مغادرة المدينة، خوفاً من عدم توفير المؤن اللازمة لجيشه قبل أن يأتي فصل الشتاء، وتراجع إلى قره باغ في القوقاز، وهو المكان المفضل للقبائل الرعوية لچنكيزخان وتيمور لنگ، على أمل الرجوع في العام التالي لاستكمال غزو إيران. ولم يلبث الشاه إسماعيل أن استرجع تبريز مرة أخرى، في الوقت الذي أرغمت مشاكل التموين وهبوط الروح المعنوية في جيش سليم على سحب جيشه، والعودة إلى الأناضول، بعد أن أودى هجوم الشتاء القارس بحياة الآلاف من جنده. وقد انسحب سليم راجعاً في أكتوبر سنة ١٥١٤م، بعد أن تأكد أنه سوف لا يكون قادراً على العودة لمحاربة الصفويين إلا في الربيع وفقاً لما خططه، وفي أثناء تراجعه أخذ السباهية الإقطاعيون يعودون إلى أراضيهم<sup>(٢)</sup>.

وأخيراً وصل سليم الأول إلى أماسيا بآسيا الصغرى في ٢٤ نوفمبر سنة ١٥١٤، وأعاد معظم الإنكشارية إلى استانبول لقضاء فصل الشتاء تجنبا لنشوب منازعات فيما بينهم. وفي تلك الأثناء أتى وفد من الشاه إسماعيل الصفوى لعرض اقتراحات السلام على السلطان، ولكن الأخير رفض عرض إسماعيل ووضع الوفد في السجن. وعندما سمع الإنكشارية الذين تخلفوا في أماسيا بما حدث من السلطان، ثاروا في ٢٢ فبراير سنة ١٥١٥، فعاملهم السلطان معاملة قاسية، وعزل الوزير الأعظم أحمد باشا وأعدمه في ١٥ مارس من نفس العام، بسبب فشله في إحكام قبضته على الإنكشارية، والحفاظ عليها منضبطة وعلى أهبة الاستعداد. ولم يكتف سليم بذلك، بل تخلص من قادة الانكشارية الذين لم يرغب في

(1) Ibid., p. 81.

(2) Ibid., p. 81.

بقائهم، وعين بدلا منهم قادة مقربين إليه، وكان غرضه من ذلك أن يجعل الانكشارية أداة لقوته<sup>(١)</sup>.

وعلى الرغم من أن الشاه إسماعيل الصفوي استرجع تبريز وآذربيجان، فإن العثمانيين أكدوا هيمنتهم على أرزنجان وبايسورت Bayburt، وقللوا الضغط الصفوي في تلك المناطق. وقد سبقت الإشارة إلى أن إسماعيل تجنب القتال مع العثمانيين. وفي خلال بقية القرن السادس عشر وشطراً كبيراً من القرن السابع عشر، لجأ الصفويون في حروبهم مع أعدائهم إلى أسلوب إتلاف الأرض، واعتمدوا على سوء الطقس ونقص المؤن، وإجبار العدو على التخلي عن زحفه. وما يجدر ذكره أن موقعه جالديران جعلت إسماعيل يفقد نفوذه، وأدت إلى قيام المنازعات بين المجموعات القبلية المختلفة حول السلطة، واستمرت تلك المنازعات في عهد ابنه وخليفته طهماسب. وأصبح من الصعب على الصفويين أن يركزوا دعايتهم للمذهب الشيعي في الأناضول<sup>(٢)</sup>.

ولتقوية النفوذ العثماني في شرق الأناضول، أنشأ السلطان سليم ولاية حدودية أسند قيادتها إلى بييك محمد باشا Biyikh Mehmet Pasa، وعهد إليه سليم بسحق المساندين المتبقين للصوفييين، وغزو المناطق الباقية الواقعة خارج السيطرة العثمانية. فاستولت حملة ضخمة على قلعة كماخ الواقعة على حافة تطل على نهر الفرات بالقرب من أرزنجان، حيث اعتاد القيزلباش تهديد المواصلات بين سيواس وأرضروم. وقد أدت الأعمال الحربية التي قام بها سليم للإستيلاء على ما تبقى من الأناضول، إلى تحالف حاكم إمارة دغاادر والمماليك والصفويين ضده، ولكن أياً منهم لم يجرؤ على رفع السيف علناً في وجه سليم، الأمر الذي جعله يقضى على المتحالفين ضده الواحد بعد الآخر. وقد بدأ سليم حملته بالقضاء على إمارة دغاادر، حيث ألقي هزيمة ساحقة بجيشها في تورنا داغ Turna Dag في ١٢ يونيو عام ١٥١٥م، وأعدم أعضاء الأسرة المالكة، وبذلك سيطر سليم على قبليقية، وتأهب لمواجهة المماليك<sup>(٢)</sup>. ثم تقدم سليم صوب كردستان، وهناك أعلن زعماء الأكراد ولاءهم له، فسمح لهم بالتمتع بالاستقلال الذاتي، في نظير أن يقدموا له المساعدة المالية

(1) Ibid., pp. 81-82.

(2) Ibid., p. 82.

والحرية من ناحية، وأن ينشروا الدعاية العثمانية والمذهب السنّي في أنحاء منطقة كردستان<sup>(١)</sup>.

وعلى الصعيد الاقتصادي، فقد كان لضم مناطق شرقي الأناضول أهمية عظيمة للدولة العثمانية، حيث أصبحت منذ ذلك الحين تسيطر سيطرة تامة على طرق التجارة الدولية التي تأتي بحرير إيران وغيره من منتجات الشرق الأخرى، من تبريز إلى حلب وبروسه، الأمر الذي عاد بدخل عظيم على الخزينة العثمانية<sup>(٢)</sup>. وأخيرا سيطر السلطان سليم على وصول الممالك لمصادر الرقيق الرئيسية في القوقاز من ناحية أخرى<sup>(٣)</sup>.

### العثمانيون والممالك:

لما تولى السلطان سليم الأول عرش الدولة العثمانية، خرج عن السياسة الأوربية التي سار عليها أسلافه من السلاطين العثمانيين، فتوقف عن الزحف الغربي والتوسع في أوروبا على حساب القوى المسيحية المجاورة، واتجه بغزواته ناحية الشرق الإسلامي على حساب الدول الإسلامية المجاورة. وقد اختلف المؤرخون في تفسير هذه الظاهرة، فيرى البعض أن الدولة العثمانية قد بلغت مرحلة التشيع في فتوحاتها الغربية بنهاية القرن الخامس عشر الميلادي، وأنه كان عليها في أوائل القرن التالي البحث عن ميادين جديدة للتوسع، في حين يرى البعض الآخر أن الأحداث التي دارت داخل الشرق الإسلامي أو حوله في أوائل القرن السادس عشر هي التي جذبت الدولة العثمانية إلى الخروج إلى الشرق الإسلامي لحماية آسيا الصغرى بصفة خاصة والعالم السنّي بصفة عامة، والمقصود هنا بأحداث الشرق الإسلامي هو الزحف البرتغالي على حدود الشرق العربي ومنافذه البحرية، وأن خروج العثمانيين إلى هذه المناطق كان هدفه حماية الشرق الأدنى الإسلامي من الخطر البرتغالي<sup>(٤)</sup>. وبعبارة أخرى، فقد أعلن العثمانيون أن هدفهم من التحرك صوب الدولة المملوكية، هو حماية الحرمين الشريفين والمدن الإسلامية المقدسة والعالم الإسلامي من

(1) Ibid., p. 82.

(٢) خليل إينالجيك: «العثمانيون، النشأة والازدهار»، ص ٧٧.

(3) Ibid., p. 83.

(٤) محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤ - ١٥١٩)، ص ١٠٢ - ١٠٣، محمود الحويدي: مصر في العصور الوسطى، ص ٢٧٦.

هجمات البرتغال، الأمر الذى عجز عن تحقيقه المماليك، وبذلك يكون تحرك العثمانيين ناحية الشرق بهدف الغزو والجهاد حماية لأرض الإسلام<sup>(١)</sup>.

والحقيقة أن الازدهار الذى نعمت به مصر فى عصر دولة المماليك، تعرض لخطر أوربي جديد قبل أن يشرف القرن الخامس عشر الميلادى على نهايته. ذلك أن فكرة الحروب الصليبية فى هذا القرن قد تطورت، فبدلاً من مواجهة المسلمين فى معارك دامية أثبتت الحروب الصليبية فشلها الذريع فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر إذ بها فى القرن الخامس عشر تتجه إلى توسيع نطاق تلك الحروب، وذلك بتطويق المسلمين من الأمام والخلف. ووجه الأهمية هنا أن الطريق إلى تحقيق هذا الهدف لم يكن معروفاً، ويتطلب جهوداً متواصلة لاكتشافه. ومن ثم كانت النزعة الاستعمارية هى القاعدة العريضة التى قامت عليها الكشوف الجغرافية فى أواخر العصور الوسطى<sup>(٢)</sup>. وفى هذا الدور من أدار الحركة الصليبية ظهرت البرتغال بجهودها الكشفية ذات الطابع الصليبي، وشجعها البابوات على أساس تطويق المسلمين من الأمام والخلف، وتخطيط سيطرتهم على تجارة الهند التى تمثل المنبع الرئيسى لثروتهم ورخائهم<sup>(٣)</sup>.

وفى هذه المرحلة من مراحل الحركة الصليبية تبرز شخصية الأمير البرتغالى هنرى الملاح (١٣٩٤ - ١٤٦٠) فى صورة الفارس الصليبي. ومن المعروف أنه كان رئيساً لمنظمة المسيح، وهى منظمة صليبية كان هدفها القضاء على المسلمين<sup>(٤)</sup>. كما كان رئيساً لطائفة اليسوعيين (الجزويت) التى ورثت منظمة الداوية فى أملاكها، وبالتالي كان يهيم العمل على كسب أراضى جديدة للمسيحية على حساب المسلمين<sup>(٥)</sup>.

وعلى أية حال، اشتدت رغبة البرتغال فى الوصول إلى الهند، نتيجة لاتساع نفوذ الأتراك العثمانيين وسيطرتهم على أعالي الفرات والقسطنطينية من جهة، ولتحكم سلطنة

(١) خليل إينالجيك: «العثمانيون، النشأة والازدهار»، ص ٧٧.

(٢) محمود الحويرى: ساحل شرق أفريقيا من فجر الرسلام حتى الغزو البرتغالى (القاهرة ١٩٨٦)، ص ٦٨.

(٣) نفس المرجع والمكان.

(٤) سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى، ج ١، ص ٥٥٩ (القاهرة ١٩٧٥).

(٥) Prestage (Edgar), The Portuguese Pioneers (London, 1933), pp 28-30.

الممالك في طريق البحر الأحمر ومصر والشام من جهة أخرى<sup>(١)</sup>، في الوقت الذي اشتدت مخاوف البرتغال من النجاح الذي أحرزه الأسبان في كشفهم البحرية في غرب المحيط الأطلسي. ولذلك عهد ملك البرتغال عمانويل الأول (١٤٩٥ - ١٥٢١) إلى فاسكو دى جاما بقيادة حملة بحرية بهدف الوصول إلى الهند بحراً، والتأكد من أن مدينة «سفالة» الواقعة في ساحل شرق أفريقية، هي فعلاً «أرض الذهب الذى لا ينبض»<sup>(٢)</sup>.

ويذكر المؤرخ البرتغالى جونادوس دى باروس أنه بعد أن استعدت الحملة للإبحار استدعى الملك عمانويل قائد الحملة وضباطها لحضور احتفال أقيم لهذا الغرض، وأعلن بحضور بعض كبار الشخصيات البرتغالية أن هدفه الأساسى من الوصول إلى الهند هو نشر الديانة المسيحية والسيطرة على ثروات الشرق. ثم قام الملك بتسليم فاسكو دى جاما راية من الحرير الأبيض عليها صليب منظمة المسيح الدينية. وهنا أقسم فاسكو أنه سيرفع تلك الراية عالية خفاقة أمام المسلمين والوثنيين، وسيحميها ويدافع عنها حتى الموت<sup>(٣)</sup>.

وفى ٢٠ مايو سنة ١٤٩٨، بعد رحلة استغرقت أكثر من عشرة شهور، تمكن فاسكو دى جاما من الطواف حول أفريقية عن طريق رأس الرجاء الصالح، والوصول إلى كاليكوت أهم موانئ ساحل ملبار الهندى، وبذلك حقق البرتغاليون إنجازاً عالمياً جديداً. وبعبارة أخرى، فإن وصول فاسكو دى جاما إلى الهند، يمثل تحولا بارزاً في تاريخ التجارة الشرقية. إذ كانت حاصلات الشرق تصل إلى أوروبا حتى ذلك الوقت بواسطة التجار في مصر المملوكية، الذين كانوا يبيعونها بدورهم إلى البنادقة بأسعار مرتفعة، وقد عادت تلك التجارة في تلك الحاصلات على مصر والبندقية بأرباح طائلة. وهكذا ذهبت حصيلة الضرائب التى كان سلاطين الممالك يحصلون عليها وأدت إلى ثرائهم من ناحية، واستمدوا منها أسباب قوتهم وعظمتهم من ناحية أخرى<sup>(٤)</sup>.

(١) سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ ١، ص ٥٥٩ - ٥٦٠.

(2) Oliver (R.), Mathew (G), Hist of Africa (Holland, 1976), p. 134.

(3) Prestage, op. cit, pp. 251-252

محمود الحورى: ساحل شرق أفريقية، ص ٧٤ - ٧٥.

(٤) هايد: تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، جـ ٤، ص ٤ - ٥، محمود الحورى: المرجع السابق، ص ٧٤ - ٨٦.



وعبثا حاولت دولة المماليك الجراكسة إيقاف البرتغاليين عن التعرض بسوء للتجار المسلمين في الهند وتهديد سفنهم التجارية، فدخلت في حرب معهم كان نصيبها فيها الهزيمة الساحقة وتخطيط أسطولها في معركة ديو البحرية في ٣ فبراير سنة ١٥٠٩، فلم تقم للتجارة المملوكية في الهند بعد ذلك قائمة، وتدهور مركزها الاقتصادي، ولم تعد سوقا عالميا للتجارة بين الشرق والغرب، ولم تمض على تلك المعركة سوى سنوات قليلة، حتى سقطت الدولة المملوكية فريسة هينة في أيدي العثمانيين.

وفي تلك الأثناء، كان العثمانيون يمتلكون أفضل مدفعية في العالم، فقد استخدمت جيوش السلطان سليم الأول أحدث المدافع النحاسية المركبة على عجلات يجر الواحد منها زوج من الثيران<sup>(١)</sup>. ولم تكن مصر قد أدركت حتى السنوات الأخيرة من دولة المماليك حاجتها لاستخدام الأسلحة النارية، ويرجع السبب في ذلك إلى أنه لم يكن ثمة تهديد خارجي على مصر يدفعها إلى طلب هذا السلاح من أوروبا التي كانت على اتصال دائما بها. ثم إن تربة مصر لم تكن تنطوي على المعادن الأساسية لصب المدافع، فضلا عن تدهور الأوضاع الاقتصادية في مصر نتيجة القحط والأوبئة والمجاعات وثورات المماليك الجلبان والعربان. وعلى الرغم من ذلك، فقد استخدمت الأسلحة النارية على عهد السلطان قانصوه الغوري (١٥٠١ - ١٥١٦). ولكن المماليك عجزوا عن استخدامها بكفاءة، وبخاصة أنهم عهدوا بها إلى وحدات أقل شأنًا من الناحية الاجتماعية، على حين بقي القسم الأكبر من المماليك الأصلاء بعيداً عن استخدامها<sup>(٢)</sup>.

وقد سبقت الإشارة إلى أن السلطان العثماني سليم الأول بدأ بمحاربة الدولة الصفوية الشيعية بفارس، لكي يقضى عليها وعلى مذهبها الشيعي. وبعث برسالة في مايو سنة ١٥١٤ إلى السلطان قانصوه الغوري يوضح له فيها نواياه ضد فارس، وما يعتزم القيام به ضد الشيعة. فقرر الغوري إرسال جيش يربط في حلب دون أن يتدخل في النزاع الفارسي العثماني، ويرقب ما يسفر عنه النزاع<sup>(٣)</sup>. ولم يلبث السلطان سليم أن استطاع بقواته

(١) إيفانوف (نيقولاى): الفتح العثماني للأقطار العربية ١٥١٦ - ١٥٧٤م، ترجمة يوسف عطا الله،

مراجعة د. مسعود ضاهر (بيروت ١٩٨٨)، ص ٦٠.

(٢) محمود الحوري: مصر في العصور الوسطى، ص ٢٧٧.

(٣) بدائع الزهور، جـ ٤، ص ٤٠٢ - ٤٠٣.

الضخمة ومدافعه أن يحقق انتصاراً كبيراً على الشاه إسماعيل الصفوى فى موقعة جالديران فى ٢٣ أغسطس ١٥١٤، ويدخل تبريز عاصمة فارس الشيعية فى ٥ ستمبر من نفس العام<sup>(١)</sup>. كما اكتسح ديار بكر والرها ونصيبين والموصل وغيرها، واستولى على إمارة دغاغر وعاصمتها الأبلستين المشمولة بحماية المماليك. وبعد هذه الانتصارات التى حققها سليم الأول، وجه اهتمامه شطر بلاد الشام التى كانت جزءاً من دولة المماليك الجراكسة، وأصبحت الحرب لا محالة واقعة بينه وبين السلطان الغورى.

ويرى البعض أن الصراع العثمانى الصفوى هو الذى جعل سليم يقرر الاستيلاء على الأراضى المملوكية لأسباب استراتيجية، إذ أن سيطرته على موانئ قيليقية من شأنها أن توفر له طريقاً بحرياً يسهل عليه تموين حملاته القادمة ضد الصفويين بصورة أجدى مما كان عليه الحال خلال الحرب السابقة<sup>(٢)</sup>. على حين يرى البعض الآخر أن الصراع العثمانى الصفوى لم يكن السبب المباشر فى النزاع المملوكى العثمانى، وإن كان عاملاً مباشراً للتعجيل به، أما السبب الحقيقى فهو التنافس على السيادة العليا على العالم الإسلامى<sup>(٣)</sup>.

وعلى أية حال، إتخذ السلطان الغورى عدة إجراءات، فتحالف مع إسماعيل الصفوى، كما آوى الأمير قاسم العثمانى ابن أخى السلطان سليم، الذى فر من وجه عمه بعد أن قتل السلطان أباه أحمد (أبو قاسم وأخو سليم)، واتخذ منه أداة للتهديد<sup>(٤)</sup>.

وانتشرت الأخبار فى القاهرة فى أوائل عام ٩٢٢هـ (١٥١٦) بأن السلطان سليم يحشد الجنود ويجرى الاستعدادات الضخمة لمهاجمة الصفويين براً وبحراً، ولكن السلطان الغورى لم يصدق أن هذه الاستعدادات من أجل الصفويين، وأن الهدف الحقيقى لها هو السلطنة المملوكية. ولم يضيع الغورى وقتاً، بل سرعان مابدأ فى الاستعداد الحربى، وساء موقف المماليك الجلبان وعدم تقديرهم للخطر المحدق، فأنبههم بقوله: «لاتشمتوا العدو فينا، وابن عثمان متحرك علينا، ولا بد من خروج بجريدة له عن قريب».

(١) بدائع الزهور، ج٤، ص ٤٨٤ - ٤٨٥.

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى: فى أصول التاريخ العثمانى، ص ٨٣.

(٣) إبراهيم طرخان: مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة، ص ١٧٥.

(٤) نفس المرجع والصفحة.

ولكن دولة المماليك الجراكسة آنذاك كانت تمر بمرحلة ضعف شديد، فقد انهزمك المماليك الجلبان في العيبث والفساد، وأخذوا ينهبون الدكاكين في القاهرة، وتعرضوا للناس بالضرر والأذى، ولم يسلم السلطان الغورى من مضايقاتهم، بل أخذوا يطالبونه بنفقاتهم، حتى ضاق به الأمر، «ويكى حتى أغمى عليه ورشوا على وجهه الماء، وهو يقول: (ما بقى لى حاجة بسلطنة، فأرسلونى أى مكان تختارونه»<sup>(١)</sup>. والواقع أن الحماس لم يعد يملأ نفوس الجراكسة للدفاع عن مصر، إذ كانوا يرون أن السلطان العثماني سليم الأول طالما أنه لم يقم بغزو الأراضي المملوكية، فليس ثمة داع للحرب أو تبريرها *Casus belli*. ولكن السلطان الغورى لم يأخذ برأيهم، فأعلن عن عزمه التحرك إلى بلاد الشام لإيقاف سليم الأول عند حده، سواء كان ذلك سلماً أو حرباً. وكان أن جهز الغورى حملة ضخمة كانت تفتقر إلى النظام والتماسك، كما أن تمويلها كان عبثاً ثقيلاً على الأهالى، فقد سبب تمويل الجيش شبه مجاعة بين الأهالى، وانتشر الغلاء، وانتزعت الدواب من الطواحين، واختفى الخياطون والتجار، خشية أن تنهب بضائعهم أو يقدمون أموالاً للمماليك أو القيام بخدمات إلزامية، فى حين احتجب العبيد خوفاً من استخدامهم فى جر الأثقال. وكانت الخزانة المملوكية خاوية، فرواتب ضباط الجيش آنذاك كانت لاتتعدى ثلث أو سدس ما كان يدفع لهم منذ عهد السلطان قايتباى. وفرضت حكومة المماليك على الأهالى ضرائب ثقيلة لتمويل نفقات الحرب لم يعهدوها من قبل، فى الوقت الذى كان على كل قرية صغيرة أن تمد الحملة بفرسين، والتزمت كل مدينة بتسليم أربعة خيول. ولم يكن باستطاعة الفلاحين أن يتحملوا ذلك، فهربوا تاركين محاصيلهم وهجروا قراهم. وجرى تخفيض قيمة العملة لتمويل الحملة، أما أولئك الجنود الذين سيقون بمصر بعد خروج الحملة، فلم يتسلموا رواتبهم<sup>(٢)</sup>.

وبينما كان السلطان الغورى يكمل استعداداته ويصدر أوامره إلى الخليفة العباسى المتوكل والقضاة الأربعة بالتأهب لمصاحبتة على رأس الجيش إلى حلب لمواجهة تهديد

(١) بدائع الزهور، ج٤، ص ٤٨٤ - ٤٨٥.

(٢) نفس المصدر، ج ٥١، ص ٢٨، ٣١.

Stripling (George William Frederick, The Ottoman Empire and the Arabs. 1511-1574 (U.S.A., 1977), pp. 40-41.

العثمانيين، وصلت رسالة من خاير بك نائب حلب يذكر فيها أن السلطان سليم ينوى مهاجمة الشاه إسماعيل الصفوى، وأن الشاه يستعد لمقابلته<sup>(١)</sup>. والحقيقة أن خاير بك كان على اتصال بالسلطان سليم، وقد أراد برسالته هذه تثبيط همة الغورى وصرفه عن الاستعدادات القائمة<sup>(٢)</sup>. وقد بدأت اتصالات خاير بك بالعثمانيين منذ عهد السلطان بايزيد الثانى. ثم وصلت رسالة أخرى من بسيباى نائب الشام - وهو لقب حاكم دمشق - لتدعيم خيانة خاير بك، إذ حدث أن اتصل خاير بك بسيباى وأقنعه بأن العثمانيين لن يفكروا فى محاربة المماليك، وطلب إليه أن يكتب إلى الغورى بذلك من جهته، فكتب سيباى وذكر كذلك أن هناك غلاء بالشام وأن الزرع لم يحصد بعد، وأن العدو، لم يتحرك بعد، ولاداعى لسفر السلطان «وإن كان عدو متحرك فنحن له كفاية»<sup>(٣)</sup>.

بيد أن السلطان الغورى لم يأخذ بكلام الخائن خاير بك واستمر فى استعداداته، وحشد جيوشه فى الريدانية (شمالى القاهرة بين المطرية والجبل الأحمر)، استعداداً للخروج إلى الشام، وتحسباً لأية مفاجآت قد تصدر عن العثمانيين. وفى أثناء وجوده بالريدانية وصلته رسالة ثانية من خاير بك نائب حلب، ومع تلك الرسالة رسالة من السلطان سليم موجهة إلى السلطان الغورى مليئة بالألفاظ الرقيقة والتواضع الجم، ويقول فيها السلطان سليم: «أنت والدى وأسألك الدعاء، وإنى مازحفت على بلاد علاء الدولة (دلغادر) إلا بإذنك، وكان قتله عين الصواب، وأما التجار الذين يجلبون المماليك الجراكسة فإنى ما منعتهم، وإنما هم تضرروا من معاملتكم (العملة أو النقود) فى الذهب والفضة، فامتنعوا عن جلب المماليك إليكم، وأن البلاد التى أخذتها من علاء الدولة أعيدها لكم، وجميع ما ترونه ويريده السلطان فعلناه»<sup>(٤)</sup>. ويعلق ابن إياس<sup>(٥)</sup> على رسالة العثماني بقوله: «وكان هذا كله حيلة وخداعاً من ابن عثمان حتى يبلغ بذلك مقاصده، وقد ظهر حقيقة ذلك فيما بعد».

(١) سعيد عاشور: العصر المملوكى، ص ١٨١.

(٢) إبراهيم طرخان: مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة، ص ١٧٦.

(٣) بدائع الزهور، ج ٥، ص ٢٦.

(٤) بدائع الزهور، ج ٥، ص ٤٥.

(٥) نفس المصدر والجزء والصفحة.

وعلى أية حال، خرج قانصوه الغورى على رأس جيش كثيف، بعد أن أناب عنه فى السلطنة أثناء غيابه الأمير طومان باى، فوصل فلسطين، ومنها إجتبه إلى حلب، فبلغها فى ١٠ جمادى الثانية سنة ٩٢٢هـ (يوليو ١٥١٦)، وهناك ألحق جنده الأذى بأهلها، وعاثوا فيها فساداً، وأخرجوا الناس من بيوتهم، وسبوا حريمهم وأولادهم، وأذوهم الأذى البالغ، وكان ذلك سبباً لقيام أهل حلب مع السلطان سليم على الجراكسة، لشدة ما حل بهم من الشرر منهم<sup>(١)</sup>. وفى حلب وصل رسولان من قبل السلطان العثمانى لمفاوضة الغورى فى أمر الصلح، وإمعانا من الرسولين فى خداع الغورى قالوا له: «نحن قوض لنا أستاذنا الأمر، وقال مهما اختاره السلطان افعلوه ولا تشاوروني». وقد فطن المؤرخ ابن ياس<sup>(٢)</sup> إلى ما كان يرمى إليه سليم الأول من وراء سفارته، فردد ما قاله من قبل بقوله: «وكل هذا حيل وخداع حتى يظلل السلطان (الغورى) عن القتال، ويشنى عزمه عن ذلك، وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد». وعلى الرغم من أن الغورى استقبل الرسولين استقبالا حسنا، وأرسل بدوره للسلطان سليم رسولا يؤكد رغبته هو الآخر فى الصلح، إلا أن سلطان الماليك كان يعرف ما يدور فى ذهن السلطان سليم، بدليل أنه جمع أمراءه - ومن بينهم خاير بك - وحلفهم جميعا على ألا يخونوه ولا يغدر ون به، فحلفوا جميعا.

غير أن السلطان سليم استقبل سفير الغورى أسوأ استقبال، إذ قبض عليه وكاد يفتك به لولا شفاعة بعض وزراء سليم، وقال له: «قل لأستاذك يلاقينا على مرج دابق». وعاد رسول الغورى إليه، ليخبره بما لقي من إهانة وإذلال، وأن جيوش العثمانيين تحركت فعلا، واستولت على ملطية وكركر وبهسنا وغيرها من القلاع. وفى ذلك الوقت أدرك سيباى نائب الشام أن خاير بك قد خدعه عندما استحثه على الكتابة للسلطان الغورى فى مصر يطمأنه من ناحية سليم. وهجم سيباى على خاير بك وأمسك بتلابيبه صائحا: «يامولانا السلطان! إذا أردت أن تنتصر على عدوك بإذن الله، فاقتل هذا الغادر الخائن فى الحال»<sup>(٣)</sup>. ولكن خاير بك لم يكن وحده غارقا فى الخيانة، إذ كان له شريك هو الأمير جان بردى الغزالى نائب حماء، الذى أسرع بالتدخل وأقنع السلطان بعدم السماع لتلك التهم، حتى

(١) ابن زنبيل: آخرة الماليك، تحقيق عبد المنعم عامر (القاهرة ١٩٦٢)، ص ٢١ - ٢٢.

(٢) بدائع الزهور، ج ٥، ص ٦٠.

(٣) ابن زنبيل: آخرة الماليك، ص ٢٥.

لايفت فى عضد سائر الأمراء، وبعثرة الجهود فيما لايفيد، وتفرقة كلمة الممالك فى وقت يواجهون فيه عدواً مشتركاً. وهكذا ترك خاير بك حراً طليقاً ليتم الدور الشائن الذى بدأه.

وعلى أية حال، فقد تحرك قانصوه الغورى على رأس جيوشه للملاقاة سليم الأول فى ٢٠ رجب سنة ٩٢٢هـ (١٩ أغسطس ١٥١٦)، وفى صحبته الخليفة والقضاة الأربعة. وفى اليوم التالى وقف الممالك الجراكسة والعثمانيون وجها لوجه فى سهل مرج دابق. وهناك أشاع الغورى أن جيش العدو يضم فى صفوفه مسيحيين وأرمن وشعوباً أخرى بغیضة. وكان الغورى يهدف بذلك إثارة الكراهية ضد العثمانيين بين صفوف جنده والشاميين المرافقين له، فضلاً عن إعطاء تأثير مفاده أن الحرب بينه وبين سليم الأول حرب مقدسة يخوضها المسلمون ضد المسيحيين<sup>(١)</sup>. وفى يوم ٢٥ رجب عام ٩٢٢هـ (٢٤ أغسطس ١٥١٦)، استعد العثمانيون لخوض معركة تعتبر واحدة من أهم المعارك التى خاضوها فى تاريخهم، ذلك أنهم لو حققوا انتصاراً على الممالك، فسيفرعون أيديهم عن حراسة الجزء الجنوبي الشرقى من آسيا الصغرى، ويتفرغون لحروبهم فى أوروبا، فضلاً عن أن انتصارهم سيمنحهم مكانة عالية فى بقية البلاد الإسلامية الأخرى<sup>(٢)</sup>.

وعند مرج دابق، أخذ السلطان الغورى يرتب عسكره بنفسه، فكان مكانه فى القلب، وحوله أربعون مصحفاً شريفاً فى أكياس من الحرير الأصفر يحملها جماعة من الأشراف، ومن حوله جماعة من الصوفية والأشراف ومعهم أعلامهم ما بين حمراء وخضراء، وتولى قيادة ميمنة الجيش سييائى نائب الشام، والميسرة خاير بك نائب حلب<sup>(٣)</sup>. ولما دارت المعركة انسحب خاير بك من ميسرة الجيش، وأظهر الهزيمة دون قتال، وأطلق الإشاعات الكاذبة بين صفوف الممالك المقاتلين، فهو حيناً يشيع أن السلطان الغورى أمر بماليكه الأجلاب بعدم القتال حتى يصدر أوامره إليهم، وحتى يقاتل الممالك القرانيص وحدهم، وهم الممالك القدماء، وحيناً آخر يشيع خاير بك أن الغورى سقط قتيلاً فى المعركة وتراجع هو وجنوده مولين الأدبار، ليحذو حذوهم بقية الجيش المملوكى<sup>(٤)</sup>.

(1) Stripling, op. cit., pp. 44-45.

محمود الحورى: مصر فى العصور الوسطى، ص ٢٧٩ - ٢٨٠.

(2) Stripling, op. cit., p. 46.

(٣) بدائع الزهور، ج ٥، ص ٦٨ - ٦٩.

(٤) ابن زنبيل: آخرة الممالك، ص ٢٨، سعيد عاشور: العصر المماليكى، ص ١٨٤ - ١٨٥.

كان السلطان سليم الأول يخشى أكثر ما يخشى فرسان المماليك، فوزع قواته ومدفعيته بحيث تستطيع الاختباء في أى لحظة خلف سلاسل من العربات المتصلة بعضها ببعض، وخلف حواجز من الأشجار والأخشاب لمقاتلة العدو من هناك. وقد استطاع فرسان المماليك الشجعان أن يحرزوا نصراً على جيوش العثمانيين في أول الأمر، وقتلوا منهم قرابة عشرة آلاف رجل<sup>(١)</sup>، حتى هم السلطان سليم الأول بالهرب أو طلب الأمان، ولكن مدفعية الجيش العثماني بما قدفته من نيران أوقعت بجيش المماليك، فاختلف نظامه، وامتلاً ميدان المعركة بالجثث، ولبت الغوري واقفاً في مكانه وهو يرى جيشه يلوذ بالفرار، وبدا شبح الهزيمة مخيفاً مفزعاً، فأخذ يستغيث وينادى عسكره قائلاً: «يا أغوات، هذا وقت المروءة، هذا وقت النجدة». فلم يستجب له أحد، فالتفت إلى مشايخ الصوفية والفقراء الواقفين حوله، وقال لهم: «إدعوا إلى الله تعالى بالنصر، فهذا وقت دعاكم». وعندئذ خشى الأمير تمرّاز الزردكاش على السلطان، فشق طريقه إليه، وأخذ العلم السلطاني وطواه وأخفاه خشية أن يستولى عليه العثمانيون أو يعلموا مكان السلطان، وقال للغوري: «يامولانا السلطان! إن عسكر ابن عثمان قد أدركنا، فانح نفسك واهرب إلى حلب». ويقال إن هذه العبارة وقعت على قلبه وقع الصاعقة، ولم يحتمل قسوة الموقف، فأصيب بالشلل، وطلب جرعة ماء، فجاءها بها في كوب من الذهب، ولكنه لم يتمالك نفسه، وهوى من فوق صهوة فرسه ميتاً، وداسته الخيول<sup>(٢)</sup>.

ولاشك أن انتصار العثمانيين في هذه المعركة يرجع إلى استخدام المدفعية الحديثة، ذلك أنهم لو كانوا قد اشتبكوا مع المماليك بالسيوف والرماح لكان هناك شك كبير في انتصارهم، ولو شاء المماليك استخدام المدفعية الحديثة في القتال لتغير مصير المعركة، ولكنهم أحجموا عنها احتقاراً لها، ففى ظنهم أن الأسلحة النارية تبعد بهم عن مبادئ الفروسية. وقد عبر المؤرخ ابن زنبيل<sup>(٣)</sup> عن تلك الحقيقة بدقة قائلاً: «وأطلقوا (العثمانيون) المدفع والبندقيات، وحملوا على الجراكسة والعربان والمشاة مثل القطر في الثرى، وصار النهار عليهم مثل القيامة الكبرى، وكان يجيء كل مدفع على نحو خمسين أو ستين أو مائة نفس، فصارت تلك الصحراء كالجزيرة من الدماء».

(١) بدائع الزهور، ج ٥ ص ٦٩ - ٧٠، ابن زنبيل: آخره المماليك، ص ٣٠ - ٣١.

(٢) بدائع الزهور، ج ٥، ص ٧٠.

(٣) ابن زنبيل: آخره المماليك، ص ٢٩.

لجأت فلول المماليك الهاربة إلى حلب، حيث انتقم منهم الجلبليون جزاء لما ارتكبوه في حقهم من قبل وطردهم، فأسرعوا إلى دمشق في أسوأ حال، ومنها إلى مصر وهم في أنحس حال، فدخلوا القاهرة في رمضان سنة ٩٢٢ هـ (أكتوبر ١٥١٦)، وتعرضوا خلال الطريق لأذى العريان.

وبعد الانتصار الساحق الذي أحرزه سليم الأول في مرج دابق، تحرك جنوبا متتبعا فلول المماليك. فدخل حلب في ٢٨ أغسطس ١٥١٦ وسط هتافات الترحيب من الأهالي. وفي اليوم التالي، وأثناء خطبة الجمعة نودي بسليم الأول خادما للحرمين الشريفين. وبذلك اتخذ لنفسه اللقب الذي كان يحمله حكام مصر منذ صلاح الدين الأيوبي، وكرس نفسه زعيما روحيا ومدنيا لدار الإسلام، وبدأ يطلق على نفسه لقب «سلطان المسلمين» أو «بإدى شاهي إسلام» كما فعل المماليك. وهكذا حقق سليم الأول خلال أسبوع واحد، أهداف الحرب بكاملها: إلحاق الهزيمة بالمماليك وبسط الهيمنة العثمانية<sup>(١)</sup>.

وتساقطت في أيدي سليم الأول مدن حماه وحمص ودمشق. ففي ٨ أكتوبر سنة ١٥١٦، دخل سليم دمشق، وسار في شوارعها المفروشة بالحرير وسط احتفالات رائعة. واستقبل فيها وفود طرابلس وبيروت وصيدا وغيرها من المدن السورية التي سارعت إلى تقديم ولائها له. ووصل إلى دمشق أمراء دروز جبل لبنان الذين انحازوا إلى جانب العثمانيين، ومقابل الاعراف الشكلى بالتبعية للعثمانيين احتفظوا لأنفسهم بالحكم الذاتي<sup>(٢)</sup>.

ثم واصل سليم زحفه جنوبا للاستيلاء على مصر قلب العالم الإسلامي، وكان بها طومان باي - وهو ابن شقيقة الغوري - نائبا عن قانصوه الغوري، فلما مات الأخير اعتلى طومان باي عرش سلطنة المماليك الجراكسة، وهو في الثامنة والثلاثين من عمره، وتلقب بلقب الأشرف، وهو آخر سلاطين المماليك. والواقع أن طومان باي وجد نفسه في وضع لا يحسد عليه، فالمماليك في تلك المرحلة من تاريخ مصر، كانوا - قد وصلوا إلى درجة من

(١) نيقولاى إيغانوف: الفتح العثماني للأقطار، ص ٦٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٥.



الانحلال والفوضى حجبته عن رؤية الخطر المحيط بهم. ولما لم يجد طومان باى استجابة من المماليك للوقوف ضد العثمانيين، اضطر إلى تجنيد العربان والمصريين والمجرمين والقتلة الذين أعفى عنهم للانضمام إلى الجيش المملوكي<sup>(١)</sup>، الأمر الذى جعل جيشه يفقد النظام والتماسك. أما الجيش العثماني، فقد زحف إلى مصر، وهو فى حالة معنوية مرتفعة، رغم المعاناة الشديدة التى قاساها، بسبب فقد الكثير من الجمال والخيول فى صقيع بلاد الشام، وفى أثناء عبور الصحراء، فضلا عن الهجمات التى كان البدو يوجهونها للجيش العثماني فى فلسطين وحدود مصر<sup>(٢)</sup>.

وفى خلال ذلك الموقف العصيب الذى تعرضت له مصر، تسلم طومان باى رسالة من السلطان سليم العثماني فى ذى القعدة سنة ٩٢٢هـ (يناير ١٥١٧)، يعيره فيها بأصله المملوكى، قائلا: «إنك مملوك تباع وتشترى، ولا تصح لك ولاية ملك»، ويطلب منه أن يكون نائبا عنه فى مصر، ويهدده إذا رفض ذلك بأنه سيدخل إلى مصر، ويقتل جميع من بها من الجراكسة، حتى يشق بطون الحوامل، ويقتل الأجنة التى فى بطونهن من الجراكسة<sup>(٣)</sup>. وفى الوقت الذى أرسل سليم رسله لمطالبة طومان باى بالدخول فى طاعته، دأب خاير بك الخائن على إرسال كتب إلى أمراء مصر ومشايخ العربان يرغبهم فيها بالدخول فى طاعة سليم، وأخذ يطنب فى محاسنه وعدله فى الرعية<sup>(٤)</sup>.

ولما وصلت الأخبار إلى طومان باى بأن العثمانيين بدأوا يخترقون الصحراء الشرقية فى طريقهم إلى القاهرة، أراد الخروج لملاقاتهم وهم متعبون من مشقة الطريق، ولكن المماليك طالبوه بنفقات باهظة. فأخذ يستحثهم قائلا: «أخرجوا قاتلوا عن أنفسكم وأولادكم وأزواجكم، فإن بيت المال لم يبق فيه درهم ولا دينار، وأنا واحد منكم إن خرجتم خرجت معكم، وإن قعدتم قعدت معكم، وما عندى نفقة لكم<sup>(٥)</sup>». وقد أحس طومان باى بالخطر

(١) بدائع الزهور، ج٥، ص ١١٩ - ١٢٠.

(2) Stripling, op. cit, p.52.

(٣) بدائع الزهور، ج٥، ص ١٢٥.

(٤) نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٥) بدائع الزهور، ج٥، ص ١٢٠ - ١٢١.

الذى يهدده ويهدد مصر، ومع ذلك فقد صمم على الخروج لقتال العثمانيين، ولكنه لم يجد استجابة من المماليك الذين رفضوا الخروج، بل تناولوا عليه، وقالوا له: «إن رحت لعنة الله عليك، غيرك يجى يعمل سلطاناً»<sup>(١)</sup>.

وفى ٢٩ ذى الحجة سنة ٩٢٢هـ (٢٣ يناير ١٥١٧) كانت المواجهة الحاسمة بين العثمانيين والمماليك فى الريدانية، وقد تفوقت فيها مدافع وبنادق العثمانيين على الأسلحة التقليدية التى تسلىح بها المماليك، ولحقت بطومان باى هزيمة قاسية رغم أنه حارب بشجاعة وجراً<sup>(٢)</sup>. وبذلك أصبحت القاهرة تحت رحمة العثمانيين.

والواقع أن هزيمة المماليك فى الريدانية كانت أمراً لامحيد عنه، نظراً لأن الخيانة ظلت تلعب دورها حتى آخر لحظة فى تاريخ السلطنة المملوكية، إذ كان الخائن جان بردى الغزالى قد اتصل بشريكه فى الخيانة الأمير خاير بك، وأعلمه بخطة السلطان طومان باى فى الدفاع، الأمر الذى جعل العثمانيين يتجنبون فى زحفهم نحو القاهرة التحصينات التى أقيمت بالريدانية، وأمعن خاير بك فى التكنيل بالمماليك بأن أقنع الغزالى بإخفاء الطوارق والمكاحل، حتى المرحلة الأخيرة من مراحل القتال، مما كان له أسوأ الأثر فى الجند حين وجدوا أنفسهم وراء الخندق معرضين لبنادق العثمانيين<sup>(٣)</sup>.

لم يفقد طومان باى الأمل فى الاحتفاظ بسلطنة المماليك، فعمل على تحصين بوابات القاهرة، واستدعى المصريين للدفاع عن أنفسهم، كما حرر قرابة ستة آلاف من العبيد السود وجهزهم بالأسلحة، وحفر المماليك الخنادق، وأقاموا المتاريس فى شوارع القاهرة. وفى ٣ المحرم سنة ٩٢٣هـ (٢٧ يناير ١٥١٧) دخل سليم الأول القاهرة وأخذ فى مهاجمتها، وأظهر المصريون همة عالية، إذ دافعوا عن مدينتهم، حتى أن النساء والأطفال كانوا يرمون العثمانيين بالحجارة والطوب، وحدث قتال عنيف فى شوارع القاهرة وطرقاتها دام ثلاثة أيام، وأمر سليم الأول بإشعال النار فى البيوت، وأعمل العثمانيون السيف فى كل

(١) بدائع الزهور، ج٥، ص ١٢٥.

(٢) بدائع الزهور، ج٥، ص ١٤٤ - ١٤٦،

Stripling, The Ottoman Turks and Arabs., p. 53.

(٣) إبراهيم طرخان: مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة، ص ٨٩، سعيد عاشور. العصر المماليكى، ص ١٨٨.

من صادفوه، ونهبوا القاهرة، ولم تفلح مقاومة المماليك، فحلت بهم الهزيمة فى ٣٠ يناير سنة ١٥١٧م، واستسلموا لشروط سليم الأول<sup>(١)</sup>. واضطر طومان باى إلى الهرب، بعد أن انفض عنه رجاله، وتشتت أنصاره، والتجأ إلى الدلتا، حيث اختفى عند صديقه شيخ العريان فى البحيرة، وهو حسن بن مرعى، فأمنه وأقسم له هو وإخوته على المصحف ألا يروحوا بسره. وللأسف فإن الشيخ لم يلبث أن خانته، وسلمه للعثمانيين، ناسياً ما فعله معه طومان باى يوم أن دفع الديون المستحقة عليه أيام السلطان الغورى. وما كاد سليم الأول يعلم بخبر القبض على طومان باى حتى فرح فرحاً شديداً، وقال: «الآن ملكنا ملك مصر»<sup>(٢)</sup>.

وكان أن أحضر طومان باى مقيداً بالأغلال، ودخل سليم وهو فى زى عرب الهوارة، وعلى رأسه زنط وعليه شاش، وعلى بدنه ملوطة (قباء) بأحكام طوال، فقام له سليم وأخذ يتأمله معجبا بشجاعته وفروسيته، ثم ويخه على مقاومته، ولكن طومان باى ظل محتفظاً بشجاعته وهيبته، وأخذ يدافع عن سلوكه وأفعاله، وقال للسلطان سليم: «الأنفس التى تربت فى العز لا تقبل الذل، وهل سمعت أن الأسد يخضع للذئب؟ لأنتم أفرس منا ولا أشجع منا، وليس فى عسكرك من يقايسنى فى حومة الوغى»<sup>(٣)</sup>. ولا شك أن طومان باى كان يقصد أن سليم لم ينتصر على المماليك بشجاعته، وإنما انتصر بمدافعه وبناذقه، وهى الأسلحة التى لم يتزود بها المماليك.

ولم يسع السلطان إزاء شجاعة طومان باى إلا أن عبر عن إعجابه، بقوله لمن حوله: «والله مثل هذا الرجل لا يقتل، ولكن أخروه فى الترسيم (الحجز) حتى ننظر فى أمره»، وأوشك أن يبقى على حياته، فيرسله منفياً إلى مكة أو يصطحبه معه إلى إستانبول لولا تخريص الخائنين جان بردى الغزالي وخاير بك للسلطان سليم، مما جعله يأمر بإعدام طومان باى<sup>(٤)</sup>.

وفى يوم الإثنين ١١ ربيع الأول سنة ٩٢٣هـ (٢٣ أبريل ١٥١٧) أخرج طومان باى من سجنه فى إمبابة، وحمل إلى باب زويلة (بوابة المتولى) فى اليوم المحدد لإعدامه، وأخذ

(١) بدائع الزهور، ج٥، ص ١٥٣ - ١٥٥.

(٢) بدائع الزهور، ج٥، ص ١٧٤ - ١٧٥، ابن زنبيل: آخرة المماليك، ص ١٣٢.

(٣) بدائع الزهور، ج٥، ص ١٧٥.

(٤) بدائع الزهور، ج٥، ص ١٧٥، ابن زنبيل: آخرة المماليك، ص ١٣٦.

يسلم على الناس طول الطريق، حتى أرخى له المشاعلى حبل المشنقة، وطلب من الناس أن يقرأوا له سورة الفاتحة ثلاث مرات، ويسط يديه وقرأ الفاتحة، ثم التفت إلى المشاعلى، وقال له: «إعمل شغلك»<sup>(١)</sup>.

وبإعدام طومان باى إنتهت دولة المماليك، ودخلت مصر عهداً جديداً من تاريخها، فهبطت من دولة مستقلة كاملة السيادة إلى ولاية عثمانية. ويعلق ابن إياس<sup>(٢)</sup> على ذلك قائلاً: «ومن العجائب أن مصر صارت نيابة، بعد أن كان سلطان مصر أعظم السلاطين في سائر البلاد قاطبة، لأنه خدام الحرمين الشريفين، وحاوى ملك مصر الذى افتخر به فرعون...». وغادر سليم الأول القاهرة في ٩ مايو سنة ١٥١٧م إلى تركيا، بعد أن أخذ معه الكثير من كنوز مصر، وأخذ ألف وثلاثمائة من أمهر الصناع والعمال والحرفيين المصريين.

وبعد أن فتح السلطان سليم بلاد الشام ومصر، تقبل ولاء زعماء القبائل البدوية الكبرى وشريف مكة، وبذلك تمت له السيطرة على البقاع الإسلامية. وكان تعيينه للشريف حاكماً على جدة والمدينة ومكة وسائر الحجاز سابقة سارخلفاؤه على منوالها. وقد أضفى ضم الدولة العثمانية للأماكن المقدسة عليها زعامة دينية في العالم الإسلامى، وتأكيداً لهذه الزعامة في العالم السنى، وهى الزعامة التى تربت على هزيمة الصفويين وتضييق نطاق انتشار المذهب الشيعى بعد موقعة جالديران. وقد أضاف سليم إلى ألقابه على أثر فتح مصر لقب «خدام الحرمين الشريفين»، وما لبث أن ربط كثيراً من الأوقاف على المسجد الأقصى، ثم على الأماكن الإسلامية المقدسة في الحجاز<sup>(٣)</sup>.

وقد اهتم سلاطين الدولة العثمانية بمخلفات الرسول ﷺ، والتى كانت قد جاءت هدية من الشريف يركات أمير مكة المكرمة إلى السلطان سليم الأول في أثناء إقامة الأخير في مصر كرمز لدخول الحجاز تحت السيادة العثمانية. وقد حمل سليم هذه الهدية معه إلى إستانبول حيث حفظت في خزانة قصر طوب قابى وأطلق عليها «أمانات مقدسة». وكانت هذه الآثار تضم برده، وسجادة صلاة، والبيرق النبوى - أى العلم النبوى - وقوساً وسهماً،

(١) بدائع الزهور، ج٥، ص ١٧٦.

(٢) بدائع الزهور، ج٥، ص ٢٠٦.

(٣) عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثمانى، ص ٨٥.

قدم، ومفاتيح الكعبة ونسختين من القرآن الكريم يقال إنهما كانتا للخليفين عثمان وعلي<sup>(١)</sup>.

وهناك مسألة ترتبط بالفتح العثماني لمصر، هي ما يقال من أن المتوكل آخر الخلفاء العباسيين، في القاهرة قد تنازل للسلطان سليم عن الخلافة. والواقع إن سليم كان قد أطلق على نفسه لقب «خليفة الله في طول الأرض وعرضها» منذ عام ١٥١٤م، أى قبل فتحه للشام ومصر وإعلان الحجاز خضوعه لآل عثمان. فقد أحرز سليم وأجداده مكانة تلائم استخدام لقب الخلافة، في الوقت الذي كان فيه مركز الخلافة في القاهرة لا يعتد به. وقد أحرز العثمانيون عظمتهم بالجهاد، كما أن فتوحات سليم جعلته أقوى حاكم مسلم معاصر، فقد شملت إمبراطوريته بلاداً لم يسبق لأى خليفة أن مارس فيها سلطة فعلية، كما أعلى مكانته دخول مكة والمدينة تحت سيادته، وأن قوة الدولة العثمانية في عهده جعلت المسلمين في العالم الإسلامي يتطلعون إلى مساعدته بعد أن اعتدى البرتغاليون على الموانئ والمدن الإسلامية في ساحل شرقى أفريقية وفي البحار الجنوبية، وتعبق الإسبان المسلمين الأندلسيين الفارين إلى شمال أفريقية، وكان ملك البرتغال ينوى هدم المدينة المنورة ونيش قبر الرسول عليه الصلاة والسلام. والحقيقة أن السلطان سليم لم يهتم بلقب الخلافة الذي فقد مكانته، ولم يحاول أحد في ديوان دولته أن يقيم له وزناً. أما الخليفة العباسى المتوكل، فقد انتقل إلى استانبول، ثم ما لبث أن عاد منها إلى القاهرة بعد وفاة السلطان سليم، ومارس صلاحياته بصفته «خليفة» حتى وفاته عام ١٥٤٣م.

(١) عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج١، ص ٢٣.

(٢) عبد الحليم مصطفى: المرجع السابق، ص ٨٦ - ٨٧.

## الفصل السابع

### جوانب أخرى في التاريخ العثماني في العصور الوسطى

- اليهود في المجتمع العثماني في العصور الوسطى.
- علاقة العثمانيين برعاياهم المسيحيين.
- البوجوميلية.
- انتشار الإسلام في ألبانيا.
- انتشار الإسلام في صربيا.
- انتشار الإسلام في البوسنة.
- انتشار الإسلام في الأناضول.
- نظام الدوشرمة (ضريبة الغلمان).
- الإنكشارية.
- السباهية.
- البكتاشية.

كانت الدولة العثمانية دولة عالمية، بمعنى أن الدولة لم تحصر نفسها في النطاق الإقليمي الضيق المحدود الذي نشأت فيه عند تأسيسها، وهي بقعة صغيرة من الأرض في شبه جزيرة الأناضول، بل امتدت امتداداً واسعاً في ثلاث قارات هي آسيا وأوروبا وأفريقية، وأصبحت تحكم شعوباً مختلفت جنسياتها وديانها ولغاتها وثقافتها وعاداتها وتقاليدها<sup>(١)</sup>. وتميزت بتنوع بشري تناول الجوانب العنصرية واللغوية والدينية. فمن الناحية العنصرية ضمت الدولة - بجانب الأتراك العثمانيين - رعايا من العرب والأكراد والتركمان والشراكسة والبربر والسراني والأرمن والألبانيين والدروز واليونانيين والبشناق (نسبة إلى ولاية البوسنة) والصرب والمجر والبلغار والكرواتيين والكريتيين (سكان جزيرة كريت) والقبارصة وغيرهم. ومن الناحية اللغوية كان رعايا الدولة يتكلمون مجموعة من اللغات الميتة والحية، فمن اللغات الميتة أو قليلة الاستعمال كانت السريانية واللاتينية والعبرية، ومن اللغات الحية: العربية والتركية والكردية واليونانية والمجرية، فضلاً عن اللهجات الصقلية وغيرها. أما الناحية الدينية فقد كان من بين رعاياها: المسلمون السنيون ويشكلون نسبة عديدة عالية، وطوائف من الشيعة مثل المتأولة والعلويين والإسماعيلية، ثم الدروز. ومن الطوائف المسيحية: الروم الأرثوذكس، والروم الكاثوليك، والسراني اليعاقبة، والأرمن، والأقباط، والأحباش، والموارنة، واللاتين، والكاثوليك، والبروتستانت، واليهود<sup>(٢)</sup>.

### اليهود في المجتمع العثماني في العصور الوسطى:

أثبتت الحفائر الأثرية التاريخية أن اليهود سكنوا في المناطق المجاورة ليوغوسلافيا الواقعة تحت الحكم الروماني، وتشهد بذلك أطلال المعابد اليهودية منذ القرنين الثالث والرابع للميلاد، والمقابر اليهودية في دالماشيا ومقدونيا والجبل الأسود، وعند مدينة أوسيك Osijek التي تبعد ثلاثين ميلاً من الحد البوسني الشمالي الشرقي. ومن الاكتشافات التي ظهرت جبانة للآفار من القرن الثامن أو التاسع الميلادي تقع قرب نوفى ساد (شرق أوسيك، وعلى بعد مائتين من البوسنة)، وهي تحتوي على عدد كبير من القبور عليها رموز يهودية ونقوش عبرية، وهو أمر يشير إلى أن هؤلاء الآفار قد استوعبوا بعض قبائل خزر القرم القديمة التي اعتنقت اليهودية أثناء القرن الثامن<sup>(٣)</sup>.

(١) عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية، ج١، ص ٩٠ - ٩١.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص ٩١ - ٩٢.

(٣) مالكويم: البوسنة، ص ١٤٦ - ١٤٧.

وفى عهد الدولة البيزنطية ، وفى وقت يرجع إلى القرن الثانى عشر على الأقل ، كان اليهود الريانيون<sup>(١)</sup> Rabbis يتزعمون المجتمعات اليهودية، سواء كان ذلك فى العاصمة القسطنطينية أو المدن الصغيرة. ومن الواضح أن العثمانيين تبثوا نفس السياسة فى مدنهم العواصم، فمتمحو اليهود تيسيرات كثيرة، فكان ليهود بروسة حيا خاصا بهم، يطبق الإجراءات الخاصة بحكمهم الذاتى فى الأعمال اليومية<sup>(٢)</sup>. وعندما استولى العثمانيون على أدرنة سنة ١٣٦١م، انتقلت غالبية حياة البلاط العثمانى إلى تلك المدينة، ونقل اليهود نشاطهم من بروسة إلى العاصمة الجديدة، حيث لعبوا دوراً فى تطورها. وفضلا عن ذلك، فإن اليهود الذين كانوا يقيمون فى أقاليم البلقان التى لاتخضع للعثمانيين، قد جذبتهم الحياة الفكرية والفرص الاقتصادية فى العاصمة العثمانية، فهاجروا إليها، وانضموا إلى المجتمع اليهودى الموجود الذى يضم الريانيين والقرائين، والمنافسين الجدد الذين وصلوا من بروسة<sup>(٣)</sup>.

وكان زعيم اليهود الريانيين إسحق تسارفاتى Isaac Tsarfati وقد جاء من أوروبا المسيحية، وألف رسالة هامة تحتوى على بعض المعلومات عن موقف يهود أدرنة، ومن المحتمل أنه كتب رسالته عندما رأى ازدهار حالة اليهود والحرية التى يتمتعون بها فى الدولة

---

(١) الريانيون هم غالبية يهود العالم المعروفين أكثر من غيرهم الآن، كما كانوا فى العصور الوسطى، وتعنى كلمة «رياني» العبرية: الإمام أو الحبر أو الفقيه، وقد عريت هذه الكلمة إلى «ريانى» ووردت فى القرآن الكريم فى قوله تعالى (سورة المائدة آية ٤٣) «إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والريانيون والأحبار، بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء... الآية». وبمرور الوقت أصبح هذا اللفظ يطلق على الغالبية العظمى من اليهود، وقد سمي أتباع هذه الفرقة ريانيين إشارة إلى اتباعهم تفاسير علماء الريانيين فى عدد من المسائل الجوهرية والفرعية مع غيرهم من الفرق اليهودية مثل القرائين والسامرة. أنظر نورمان ف. كانتور: تاريخ العصور الوسطى. قصة حياة حضارة ونهايتها. ترجمة د. قاسم عبده قاسم، مراجعة د. على الغمراوى، ج ١ (القاهرة ١٩٧٩)، هامش (١) ص ٣٢٣ - ٣٢٤.

(2) Epstein (Mark A.), "The leadership of the Ottoman Jews in the Fifteenth and Sixteenth Centuries", in Christians and Jews in the Ottoman Empire. Ed. by Benjamin Braude and Bernard Lewis - Vol. I (New York, 1982), pp. 101-102.

(3) Ibid., p. 102.



العثمانية. وقد وصف تسارفتى سهولة الرحلة إلى فلسطين والأماكن المقدسة، بغرض اجتذاب من يريد أداء فريضة الحج، أو الذين فضلوا أن يدفنوا هناك<sup>(١)</sup>.

وفي نهاية القرن الرابع عشر الميلادي، لقي اليهود اضطهادات واسعة النطاق في كل الدول المسيحية في الغرب الأوربي، ونتيجة لذلك أخذوا يبحثون جاهدين عن أرض آمنة يستقروا فيها، فقدم لهم العثمانيون الأرض الموعودة التي طالما حلموا بها، وبعبارة أخرى، رحب العثمانيون باليهود المهاجرين إلى دولتهم، وحموهم من أية ضغوط، ومنحوهم استقلالاً ذاتياً، وتسامحوا معهم في ممارسة شعائرهم الدينية، حتى أنهم كانوا - إلى حد ما - المفضلين لدى السلطات العثمانية. وما يجدر ذكره أن العثمانيين كانوا في أشد الحاجة إلى الحرفيين والتجار ورجال البنوك والأطباء وجامعي الضرائب، ولذلك استفادوا من الأنشطة والخبرات الاقتصادية اليهودية، والتقنيات والمهارات التي جلبها اليهود معهم، الأمر الذي جعل اليهود يعترفون بالجميل للعثمانيين، فساعدوا بكل قوتهم الإمبراطورية العثمانية وحكامها منذ أواخر القرن الرابع عشر الميلادي<sup>(٢)</sup>.

وفي عام ١٤٥٣ عين السلطان محمد الفاتح أول حاخام باشي لطائفة اليهود وهو موسى قيزالي، وأعلن في الوقت نفسه السماح لليهود بالبقاء في إستانبول وأعطاه أسبقية بروتوكولية على البطريرك. وفي عهد السلطان سليمان الأول (١٥٢١ - ١٥٦٦) كان اليهود أو من منحوا حق تعيين كخيا (وكيل) لهم ليمثلهم أمام الحكومة المركزية. وإذا كان موسى قيزالي احتاج إلى «براءة» السلطان لممارسة مهامه كأول حاخام باشي، فإن خلفاءه لم يكونوا بحاجة إلى ذلك، إذ كان يقع الاختيار عليهم بمعرفة أبناء الطائفة أنفسهم<sup>(٣)</sup>.

وثمة أسباب كثيرة كانت وراء تمتع اليهود بهذه المعاملة الخاصة، فبينما كان السلطان محمد الفاتح يعتبر الأرثوذكس أكثر الطوائف المسيحية ولاء له، إلا أنه كان في

(1) Ibid., p. 102.

(2) Hacker (Joseph R.), "Ottoman Policy toward the Jews and Jewish Attitudes toward the Ottomans during the fifteenth century". Ed. by Benjamin Braude & Bernard Lewis. Vol. I, p. 117.

(٣) بيتر شوجر: أوروبا العثمانية، ص ٦٥.

الوقت نفسه على يقين من وفاء اليهود ودقتهم. ولم يحدث أن عومل يهود أوروبا القرن الخامس عشر الميلادي في أى دولة بأفضل مما عاملتهم الدولة العثمانية. وكانوا منذ أيام السلطان مراد الثاني (١٤٢١ - ١٤٥١) يعملون في خدمة السلاطين وبصفة خاصة كأطباء للقصر، وأكثر من هذا كانوا يتقنون مهارات عالية، كدرايتهم بلغات كثيرة كان العثمانيون بحاجة إليها بجانب التركية والعربية والفارسية<sup>(١)</sup>.

ويعتبر استيلاء العثمانيين على القسطنطينية في سنة ١٤٥٣ م حداً فاصلاً، ليس في التاريخ العثماني فحسب، بل في تاريخ اليهود في الدولة العثمانية أيضاً. ففي خلال السنوات الأولى التي تلت الفتح العثماني للمدينة، قام العثمانيون بحملة معروفة لإعادة تسكين المدينة، ولجعلوا من استانبول عاصمة عظيمة حقاً. ومن بين الجماعات التي أتت بها العثمانيون لإعادة الاستقرار للمدينة، معظم اليهود الذين كانوا يعيشون في مدن البلقان الواقعة تحت النفوذ العثماني، كما أتت لإستانبول بعض اليهود من الأناضول. وقد حدث أن نقلت الدولة العثمانية يهود ما يزيد عن أربعين مدينة، بما فيهم أغلبية يهود أدرنة، إلى العاصمة الجديدة<sup>(٢)</sup>.

وقد كتب باحث يهودى يدعى .سى كبسالى Moses Capsali في سنة ١٥٢٣ تاريخ الأسرة العثمانية، فذكر أن السلطان محمد الفاتح دعا اليهود إلى الإقامة في استانبول، وقدم لهم مزايا خاصة، وأصدر مرسوماً يحمي مصالحهم، ومنحهم بيوتاً وأراضى، وأعفاهم من الضرائب، في الوقت الذي صاروا مقربين لديه<sup>(٣)</sup>. ومن الوثائق التركية نعلم أن كثيراً من اليهود عملوا جامعي ضرائب خلال عهد محمد الفاتح وبايزيد الثاني، وانهماك كثير من التجار اليهود في تجارة الحرير والتوابل وبلغ أخرى في بروسة وإستانبول وغالبولي ومدن عثمانية أخرى<sup>(٤)</sup>.

(١) المرجع السابق، ص ٦٥.

(2) Epstein, op. cit., p. 103.

(3) Hacker, op. cit., pp. 118-119.

(4) Hacker, "Ottoman Policy toward the Jewes and Jewish Attitudes toward the Ottomans during the Fifteenth Century", p. 122.

وفى سنة ١٤٧٧ قبل بضع سنوات من انتهاء حكم محمد الفاتح، بلغ عدد السكان اليهود فى استانبول طبقا لتعداد هذا العام حوال ثمانية آلاف نسمة، وما يجدر ذكره أنه بين سنتى ١٤٦٦ و ١٤٦٩ قد عانت استانبول من سلسلة من الأوبئة اجتاحتها وأدت إلى إنقاص سكانها، فلا بد أن نستنتج أن المجتمعات اليهودية كانت فى ازدياد إبان تلك الفترة<sup>(١)</sup>.

وقد أتى اليهود من أسبانيا إلى الإمبراطورية العثمانية منذ نهاية القرن الرابع عشر الميلادى فى أعداد قليلة. ولكن تلك الأعداد خلال العقد الأخير من القرن الخامس عشر الميلادى ازدادت زيادة ضخمة جديرة بالاعتبار، وسرعان ما فاقوا فى أعدادهم اليهود المقيمين فى الإمبراطورية العثمانية. ففى سنة ١٤٩٨ أصبح اليهود يمثلون غالبية فى استانبول طبقا لما ذكره إلياه مزراحي Elijah Mizrahi، ذلك أن طردهم من أسبانيا كان أكبر مأساة ألّت بهم فى أواخر العصور الوسطى. ففى الوقت الذى منعت فيه الدول الأوروبية المسيحية أولئك اليهود المطرودين من أسبانيا من دخول أراضيهم، رحبت بهم الدولة العثمانية واستقبلتهم فى أراضيها، وأحسنّت معاملتهم، الأمر الذى أدى إلى تعاطف اليهود بصورة واسعة النطاق مع الدولة العثمانية<sup>(٢)</sup>.

وما يجدر ذكره أن اليهود المطرودين من أسبانيا فى سنة ١٤٩٢ وما بعده، دخلوا أراضي الإمبراطورية العثمانية، وقد تجرد بعضهم من ثرواته وممتلكاته على أبدى حركة الاسترداد الكاثوليكية، ولكنهم أتوا بقدراتهم ودرايتهم بأوروبا وطرقها، وهى دراية تشكل دعمهم الثقافى ومهاراتهم وقيمهم بصورة حسنة فى السنوات المبكرة من وصولهم إلى أراضي الإمبراطورية العثمانية. وكان بعض اليهود أثناء قيام حركة الاسترداد الكاثوليكية قد أخفوا ديانتهم خوفا من بطش السلطات الأسبانية، وأظهروا أنهم كاثوليك، فلما خرجوا من أسبانيا ورحبت بهم الدولة العثمانية، رجعوا إلى ديانتهم اليهودية تحت حماية الدولة الإسلامية<sup>(٣)</sup>.

(1) Ibid., p. 123.

(2) Ibid., p. 123.

(3) Epstein, op. cit., p. 108.

وتعطينا سيرة اللاجئ اليهودي «يوسف ناسي» إلى الإمبراطورية العثمانية صورة واضحة عما يمكن أن يصل إليه الأجنبي ذو الموهبة والطموح من مكانة عالية في ظل الدولة العثمانية. لقد ولد ناسي حوالى سنة ١٥٢٠م من أسرة يهودية تمارس التجارة والطب. وكانت أسرته قد طردت من أسبانيا في سنة ١٤٩٢، وأجبرت على التحول للمسيحية في لشبونة في سنة ١٤٩٧. وعندما أنشئت محاكم التفتيش في البرتغال في سنة ١٥٣٦ قررت جراسيا ناسي المسعولة عن الأسرة وصاحبة النفوذ عليها، أن ترحل بالأسرة كلها بما فيها يوسف - ابن أخيها وزوج ابنتها فيما بعد - إلى أنتويرب Antwerp، وهناك أصبح يوسف ثريا ورجل أعمال محترماً ومشهوراً، يلتقى الترحاب في بلاط فرنسا ومجتمعاتها، وفي بلاط الهابسبرج في الأراضي المنخفضة، وفي إيطاليا، وفي غيرها من المجتمعات الأوروبية. ولما كان اعتناق يوسف ناسي وأسرته للمسيحية ومسيحيته ظاهرياً وغير حقيقى، فقد تزايدت الشكوك حول حقيقة مسيحيته ومسيحية أسرته، الأمر الذى اضطهرهم إلى الهجرة إلى استانبول في سنة ١٥٥٣ هرباً من الاضطهاد<sup>(١)</sup>، وفي استانبول سرعان ما عاد يوسف إلى ديانته اليهودية، وأعلن ذلك على الملأ في سنة ١٥٥٤م. وفي الأعوام التالية أصبح تاجراً مشهوراً، كما كان مستشاراً سياسياً يحظى بالثقة في الدوائر الحكومية العثمانية، ونصيراً سخياً للدوائر العبرية في استانبول وسالونيك. وقد فتح له باب التأثير والسلطة واسعاً، عندما تولى صديقه سليم الثانى عرش السلطنة في سنة ١٥٦٦م، وقد عينه سليم الثانى دوقاً على ناقسوس Naxos وجعلها له إقطاعاً خالصاً يورث، وناقسوس هذه تتكون من إثنتى عشر جزيرة في بحر إيجه، ولها أهمية تجارية واستراتيجية. وبعد موت سليم الثانى في سنة ١٥٧٤، انعزل يوسف وعاش مغموراً في قصره في بلقدير Belvedere على اليوسفور<sup>(٢)</sup>.

وقد حصل اليهود في الدولة العثمانية على الحكم الذاتى فى الولايات، وأبرز نظام لهذا الحكم كان فى مدينة سالونيك، وفى السنوات الأولى من حكم السلطان سليمان القانونى (١٥٦٠ - ١٥٦٦)، كان اليهود يمثلون أكثر من نصفها، وناقس اليهود مجتمع استانبول فى الأهمية<sup>(٣)</sup>.

(١) كولز: العثمانيون فى أوروبا، ص ١٦٤ - ١٦٥.

(٢) كولز: العثمانيون فى أوروبا، ص ١٦٥ - ١٦٦، بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٤٨٧ - ٤٩٠.

(2) Epstein, op. cit., p. 100.

وهنا نكرر أن الأطباء اليهود لعبوا دوراً بارزاً في الإمبراطورية العثمانية، لما عرفوا عنه من مهارة وحذق. وأول طبيب يهودى يسترعى الانتباه كان حكيم يعقوب Hakim Yakub الذى احتل مكانة فريدة فى بلاط السلطان، وحصل على صداقته، ولطبيعة عمله كان فى حاجة لينال ثقة السلطان كاملة. وفضلاً عن ذلك، فإن التعليم الأوربى الذى ناله يعقوب ودرايته باللغات، وضعه فى مكانة متميزة، وجعله نافعا لمن يطلب منه المشورة. وكان يعقوب فى خدمة العثمانيين قبل سنة ١٤٥٣، وبعد أن استقر العثمانيون فى العاصمة الجديدة، لابد أنه احتل مكانة هامة، بدليل أن هناك حياً فى إستانبول يحمل إسمه<sup>(١)</sup>. وفى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى أتى الكثير من الأطباء اليهود من أسبانيا فارين أمام ضغط الكاثوليك، وخدموا فى البلاط العثمانى، ولا شك أن النجاح الذى حققه من سبقهم وخدمتهم المخلصة، جعلت من السهولة عليهم أن يشغلوا مراكز متميزة<sup>(٢)</sup>. وهناك أيضاً أماتوس لوسيتانوس Amatus Lusitanus، وهو واحد من أعظم الأسماء الأوربية فى عالم الطب فى القرن السادس عشر، ولا زالت كتبه حتى اليوم تحتوى على عدد ضخم من الحالات العلاجية. وقد ولد فى البرتغال فى سنة ١٥١١ م بإسم خوان رودريجو- Juan Ro-drigo. أما الإسم أماتوس الذى حمله فيما بعد، فهو ترجمة لإسم حبيب، الإسم العبرى الأصلى للعائلة. وقد تخرج طبيباً فى سلامنكا، وهاجر إلى إيطاليا، حيث قدم خدماته الطبية للبايا، وحاضر فى فيرارا، وخرج من إيطاليا بسبب الاضطهاد الشديد الذى تعرض له، وتوجه إلى سالونيك، وهناك توفى فى سنة ١٥٦٨ م<sup>(٣)</sup>.

وعلى أية حال، تمتع اليهود فى ظل الإمبراطورية العثمانية بالحرية الدينية، وزاولوا شعائهم الدينية، وأخذت الدولة على عاتقها مسؤولية حماية أرواحهم وممتلكاتهم، وتبوأوا أرفع المناصب، فى حين أنزلت بهم أوربا المسيحية أبشع أنواع الإذلال والتعذيب والاضطهاد.

(1) Epstein, op. cit., p. 110.

(2) Epstein, op. cit., p. 111.

(3) Roth (Cecil), The Jewish Constribution to Civilization (U.S.A., 1940), p.232.

## علاقة العثمانيين برعاياهم المسيحيين:

عندما وصل الأتراك العثمانيون إلى آسيا الصغرى ووجدوا أنفسهم في وسط إسلامي وهو سلاجقة الروم، كان ذلك أكبر عامل في اعتناقهم للدين الإسلامي. ولم يكن للعثمانيين حين نزلوا بآسيا الصغرى أى نوع من التعصب الديني، إذ كانوا قبائل محاربة كل شغلها الشاغل أن تحارب في سبيل الحصول على عيشها. ولقد كان لاعتناق العثمانيين للإسلام أثر كبير، فالإسلام جمع شمل العناصر المتفرقة في شمال غرب آسيا الصغرى تحت راية واحدة، وخلق لها قضية واحدة<sup>(١)</sup>. وفي أثناء عملية تكوين الدولة العثمانية واتساعها، وخاصة في عهد السلطان أورخان (١٣٢٤ - ١٣٦٢)، عاش المسلم والمسيحي جنبا إلى جنب في تسامح زائد، وفي عهده تحول سكان بيثنيا إلى الإسلام<sup>(٢)</sup>.

ولم تكن القسطنطينية تسقط في أيدي العثمانيين سنة ١٤٥٣م، حتى توطدت العلاقات بين الدولة العثمانية والكنيسة المسيحية بصفة قاطعة وعلى أساس ثابت. ومن أولى الخطوات التي اتخذها محمد الفاتح بعد استيلائه على القسطنطينية وإعادة إقرار النظام فيها، أن يضمن ولاء المسيحيين بأن أعلن نفسه حامى الكنيسة الإغريقية، فحرم اضطهاد المسيحيين تحريما قاطعا، ومنح البطريرك الجديد جنادىوس مرسوماً يضمن له ولأتباعه ولمرءوسيه من الأساقفة حق التمتع بالامتيازات القديمة والموارد والهبات التي كانوا يتمتعون بها من قبل. وقد تسلم الراهب جنادىوس أول بطريرك بعد فتح القسطنطينية عصا الأسقفية التي كانت رمز هذا المنصب<sup>(٣)</sup>. وبمقتضى ذلك أصبح جنادىوس رئيس طائفة ملة الروم (الأرثوذكس)، برتبة باشوية رفيعة بثلاث شارات من رموز الإمبراطورية العثمانية، والسيد غير المنازع للكنيسة الموحدة، والمسئول الرسمي عن سلوك ولاء كافة الأرثوذكس الخاضعين للسلطان<sup>(٤)</sup>.

(١) محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي، ص ١٨ - ١٩.

(2) Schevill, The Hist of the Balkan Peninsula, pp. 180-181.

(٣) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة د. حسن إبراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوى (القاهرة ١٩٧٠)، ص ١٧٠ - ١٧١.

(٤) عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية، ج ١ ص ٦٣.

وبجانب كل السلطات الكنسية والقضائية التي كان البطريرك يتمتع بها، كانت له سلطات شرعية أخرى تتعلق بمسائل الزواج والطلاق والميراث وفقا للأصول الكنسية، فكان من عمل البطريركية أن تفصل في القضايا التي تتعلق بالإغريق بعضهم مع بعض، وكان لها أن تفرض الغرامات، وتسجن المجرمين في سجن بطريركي خاص في استانبول، بل كان لها أن تحكم بالإعدام في بعض الأحيان. وكانت المراقبة التامة على الشؤون الروحية والكنسية متروكة كلها في أيدي البطريرك وأعضاء المجمع الأعظم، وكان في استطاعة البطريرك أن يدعوهم متى شاء، كذلك كان في استطاعته أن يفصل في كل شئون العقيدة من غير أن يخشى تدخلا من جانب الحكومة<sup>(١)</sup>.

وكان للكنيسة مدارسها الخاصة، وطبقا للقانون العثماني كان البطريرك وأساقفته هم الذين يفتحون تلك المدارس ويديرون شئونها. وبفضل الكنيسة حافظ الإغريق على تراثهم القديم، وظهر البطريرك في صورة من أخذ مكانة الإمبراطور البيزنطي الذي لم يعد له وجود، ومن قصره في حي الفنار في استانبول، بأشر البطريرك نفوذه على كل الكنائس المسيحية في الإمبراطورية العثمانية سواء كانت إغريقية أو سلافية<sup>(٢)</sup>. وبذلك قادت الكنيسة الأرثوذكسية سفينة المسيحية، وحافظت على اللغة الإغريقية والتقاليد والوطنية المسيحية في شرق البلقان لمدة أربعة قرون، وفتحت الكنيسة المدارس بعد فتح القسطنطينية مباشرة، فأُسرع البطريرك جناديوس بتأسيس «مدرسة الشعب الكبيرة» في حي الفنار، كما فتح الأساقفة في ولاياتهم مدارس للتعليم<sup>(٣)</sup>.

وإذا كان محمد الفاتح قد سعى إلى استمالة الكنيسة الأرثوذكسية، باعتباره راعيها وحاميها ضد البابا في روما. فقد سارت الدولة العثمانية على هذه السياسة التي عرفت في التاريخ العثماني باسم «الاستمالة». ويمكن تعريف سياسة الاستمالة هذه، بأنها تقوم على جذب الأهالي والسكان المحليين من غير المسلمين واستمالتهم لطاعة الإدارة العثمانية، وذلك بتقديم الامتيازات المختلفة لهم، ثم إرساء دعائم الحكم العثماني في مناطقهم بعد

(١) توماس أرنولد: المرجع السابق، ص ١٧١.

(2) Diehl (Charles), Byzantium: Greatness and Decline. Trans. from the French by Naomi Walford (U.S.A., 1957) pp. 291-292.

(3) Ibid., p. 292-293.

ذلك<sup>(١)</sup>. وبناء على هذا، كانت الإدارة العثمانية تتكفل بحماية هؤلاء في ممارسة كافة الشعائر الدينية. وبهذا المسلك القويم كانت الدولة تروج لنفسها دعاية كان لها تأثيراً إيجابياً بين السكان المسيحيين. الذين تحرروا من أغلال النظام الإقطاعي وأعبائه، وعاش السكان المسيحيون الذين كانوا يتحصنون خلف القلاع لدفع هجمات الغزاة في البداية، عاشوا في ظل حماية دولة ذات نظم سمحة<sup>(٢)</sup>.

وعلاوة على ذلك، كانت هناك مظاهر أخرى هامة لسياسة الاستمالة التي اتبعها العثمانيون تتمثل في حمايتهم لكنائس الأرثوذكس وأديرتهم، وإعلانهم العفو عن بعض الضرائب التي كانت مفروضة عليهم، أو عنها كلها في بعض الأحيان، وإبقائهم على الأوقاف الدينية في تلك المناطق كما هي، وذلك بالإضافة إلى إلغاء الامتيازات الخاصة بالطبقة العسكرية المحلية الإقطاعية، وضم هذه الطبقة إلى النظم العسكرية العثمانية. وهكذا نجح العثمانيون في استمالة القرويين والكنيسة والطبقات العسكرية التي كانت موجودة في المناطق المفتوحة، حيث وطدت هذه الإجراءات أقدامهم هناك، ويسرت عليهم القيام بغزوات جديدة في تلك الجهات<sup>(٣)</sup>.

وقد جعل التسامح الديني الذي منحه الإمبراطورية العثمانية للإغريق، وماتمتعوا به من حماية لحياتهم وأموالهم يسرعون في الموافقة على تغيير سادتهم وإيثار سيادة السلطان العثماني على سيادة أية سلطة مسيحية. وكان الغزاة العثمانيون في بقاع كثيرة يلقون ترحيباً من جانب الإغريق، ويعدونهم مخلصين لهم من الحكم الظالم المستبد الذي عانوه على أيدي المسيحيين والبنادقة. كذلك كان الإغريق الذين عاشوا تحت حكم بيزنطة غير المباشر، فقد بلغت حالة التدهور والظلم التي ميزت أسرة باليولوجوس إلى حد يدعو المتأمل إلى الخوف والدعر، «فإن الأرستقراطية الفاسدة ورجال الكنيسة المستبدن الذين لا يحصيهم العدد، وضغط القانون الباطل، وإرهاق الحكومة الوضيعة، وأكثر من هذا، المقاطعات والمالية والجيوش المجيشة لجمع الضرائب والخراج، كل ذلك قد جعل الشعب المنحل، لافرة أمامه للإصلاح، ولا أمل له في الانتعاش»<sup>(٤)</sup>.

(١) خليل إينالجيك: «العثمانيون، النشأة والازدهار»، ص ٤٨.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٩.

(٤) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص ١٧٢ - ١٧٣.



وما يؤيد ذلك، ما ذكره الإخباريون من الروس الذين تحدثوا عن سقوط القسطنطينية بقولهم: «إن أية دولة لاتخاف القانون تشبه فرساً من غير زمام. لقد سمح الإمبراطور قسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧) وأسلافه لأكابر دولته بأن يستبدوا بالشعب، فلم تعد في محاكمهم عدالة، ولا في قلوبهم شجاعة. وجمع القضاة الثروات من دموع الأبرياء ودمائهم، وأصبح الجنود الإغريق لايفخرون إلا بفخامة الملابس، والمواطنون لايتخرجون من الظهور بمظهر الغش والخيانة، والجنود لايجدلون من الفرار. وأخيراً صب الله غضبه على هؤلاء الحكام الجاحدين، ورفع من شأن محمد الفاتح الذى ينشد أتباعه المحاربون اللذة في القتال، والذي لايتدخل قضائه ضمائرهم»<sup>(١)</sup>.

وكان المغامر يوحنا هونيادى إبان قتاله العثمانيين قد طلب إليه جورج برانكوفتش ملك الصرب (ت ١٤٥٦م) أن يمضى في قتالهم، وسأله برانكوفتش: «وماذا تصنع يدينا إذا أنت انتصرت على الأتراك؟، فأجابه هونيادى: «أحمل الناس على اعتناق الكاثوليكية، وأقيم الكنائس الكاثوليكية في كل مكان». ووجه برانكوفتش نفس السؤال إلى السلطان محمد الفاتح، فأجاب: «أقيم إلى جنب كل مسجد كنيسة والناس أحرار في دينهم، فمن شاء ذهب إلى المسجد، ومن شاء ذهب إلى الكنيسة». وقد كان لهذه السياسة الإسلامية السمحة في عصر لم يكن قد عرف بعد مبدأ التسامح الدينى أثر عظيم في مد فتوحات السلطان محمد الفاتح، ويسرت له سبيلها»<sup>(٢)</sup>.

وكتب جين بودن Jean Bodin في كتابه الصادر في سنة ١٥٧٦م باسم «كتب الجمهورية الستة»، والذي ألفه خلال الحقبة المريرة التى يمكن تسميتها بحقبة الحروب الفرنسية الدينية، فيبدى إعجاباً واحتراماً شديدين بالتسامح الدينى الذى يمثل اشعاراً عثمانياً أساسياً. وكتب بودن قائلاً: «إن ملك (سلطان) العثمانيين الذى يحكم جانباً كبيراً من أوروبا، يحمى شعائر الأديان بطريقة أفضل من أى أمير في هذا العالم. أضف إلى هذا أنه لايجبر أحداً، بل على العكس أنه يسمح لكل فرد أن يعيش وفقاً لما يمليه ضميره. وفضلاً عن ذلك، فإنه في قصر حريمه يسمح بممارسة شعائر أديان أربعة مختلفة، شعائر اليهودية،

(١) المرجع السابق، ص ١٧٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٢٣، سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ١٢٨.

وشعائر المسيحية وفقاً لطقوس الكنيسة الرومانية، وشعائر المسيحية وفقاً لطقوس الكنيسة الإغريقية، وشعائر الإسلام<sup>(١)</sup>.

وعلى أية حال، نادراً ما كان العثمانيون استبداديين طغاة، رغم قسوتهم، إذا ما قارناهم بأوروبا المعاصرة لهم، حيث كان الهوس الديني والتعصب المذهبي، بينما كان الرعايا العثمانيون في أوروبا يتمتعون بأقصى درجات التسامح الدينية<sup>(٢)</sup>. ولكن المناظر التي تدعو للأسى، والتي مازالت كامنة في الخيال الشعبي لشعوب البلقان المسيحية، والتي تصور العثمانيين غزاة سفاحين متعطشين للدماء، ما هي إلا نتيجة للدعاية التي سادت يوم كانت الروح الصليبية هي الغالبة، وكان الهبسبرج وبابوات روما هم عصب هذه الدعاية<sup>(٣)</sup>.

ونجد خير تعبير عن التسامح الذي عرفه العالم العثماني، في أخبار رحلات القرن السادس عشر ثم في القرن السابع عشر، وذلك قبل أن يؤدي التوسع الاقتصادي والثقافي والسياسي الأوروبي إلى تبديل تصورات الرحالة، وإلى دفعهم إلى التركيز على مفسد النظام<sup>(٤)</sup>.

### البوجوميلية:

أخذت البوجوميلية إسمها من حركة بلغارية هرطقية أسسها في القرن العاشر الميلادي - في عهد الملك بطرس (٩٢٧ - ٩٦٨) - قسيس بلغاري يدعى بوجوميل Bogomil (حبيب الرب) beloved of God، وقد أتت البوجوميلية من آسيا ثم انتشرت في القرون التالية في القسطنطينية وبقيّة مناطق البلقان، بما في ذلك مقدونيا وأجزاء من صربيا. وتنادى البوجوميلية بلاهوت ما نوى «ثنائي»، يكاد يكون فيه للشيطان قوة تكافئ قوة الرب أو تكاد، ويرى بوجوميل أن العالم المادي قد خلقه الشيطان، وللهراب من سيطرة العالم المادي يجب على المرء أن يناضل لتجنب كل اتصال بالمادة، ولن يتمكن من ذلك إلا إذا عاش حياة زهد وتشفق قاسية، وأن يتخلى عن اللحم والنبذ والاتصال الجنسي. وقد

(١) كولوز: العثمانيون في أوروبا، ص ١٦٠.

(٢) المرجع السابق، ص ١١٨ - ١١٩.

(٣) المرجع السابق، ص ١١٩.

(٤) روبر مانتران: تاريخ الدولة العثمانية، ج ١ ص ١٣ (التمهيد).

رفض البوجوميل العهد القديم، واعتبار تجسد المسيح نوعاً من الوهم والخيال، وأنه من ثم لم يكن في الإمكان حدوث موته على الصليب. ونبذ البوجوميل التعميد بالماء والسر المقدس وكل نظم الكنيسة المسيحية وأديرتها الثرية. وكون البوجوميل «كنيسة بوسنية» خاصة بهم يرأسها أسقف، ويخدمها هيئة شبه رهبانية من المخلصين الذين نشروا عقيدتهم بالعمل كرسل أو مبشرين، واستمرت تلك الكنيسة في الانتشار حتى أصبحت - على وجه التقريب - الديانة القومية في البوسنة<sup>(١)</sup>.

وقد تعرضت طائفة البوجوميل منذ القرن الثالث عشر الميلادي لاضطهاد الكاثوليك، وطالما دعا البابوات إلى شن حرب صليبية على أتباعها. ففي سنة ١٣٢٥ كتب البابا يوحنا الثاني والعشرون إلى ملك البوسنة قائلاً: «إلى ولدنا الحبيب الحبيب ستيفن ملك البوسنة، لعلنا بأنك ابن مخلص للكنيسة، نعهد إليك أن تستأصل شأفة الهرطقة في ملكك، وأن تبذل العون والمساعدة لقاضينا فاييان، ذلك أن جمهوراً عظيماً من الهرطقة تجمعوا من نواح كثيرة متعددة، وتدفعوا جميعاً على مملكة البوسنة مطمئنين إلى أنهم سيبرزون هناك خطاياهم الفاحشة ويعيشون في أمن ودعة. ولما كان هؤلاء القوم قد أشربوا خبث العدو القديم (أى الشيطان) وتسلاحوا بسموم باطلهم، أفسدوا عقول الكاثوليك بتظاهرهم بالبراءة وادعائهم الزائف اسم المسيحيين، كلامهم يدب ديب السرطان، ويندسون في تواضع، ولكنهم يقتلون في باطن الأمر، وهم ذئاب في ثياب خراف، يسيرون جنونهم الوحشي، يجعلونه وسيلة للتمويه على خراف المسيح الأبرياء»<sup>(٢)</sup>.

وفي القرن الخامس عشر الميلادي أصبحت آلام البوجوميل لا تحتل، حتى إنهم استغاثوا بالأتراك لتخليصهم مما هم فيه من بؤس وشقاء، لأن ملك البوسنة والقساوسة كانوا قد بلغوا باضطهاد البوجوميل حداً ربما لم يبلغه أحد من قبل. فهرب عدد كبير منهم يقرب من أربعين ألفاً من البوسنة، ولجأوا إلى البلاد المجاورة، أما الذين لم يوفقوا في الهرب، فقد أرسلوا إلى روما مكبلين في الأصفاد. ولكن ذلك لم يضعف من قوة البوجوميل في

(1) Stephen Clissold (ed.), A Short Hist of Yugoslavia., pp. 58-59, Obolonesky, The Bogomils, p. 114, 119-120, Eliot, Turkey in Europe., pp. 240

مالكولم: البوسنة، ص ٥٩ - ٦٠.

(٢) ترماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٢٧.

البوسنة إلا قليلا. ففي سنة ١٤٦٣ عندما غزا السلطان محمد الفاتح البوسنة، وجد الملك الكاثوليكي أن رعاياه قد تخلفوا عنه، وسلم حاكم البوجوميل مفاتيح الحصن الرئيسي، مدينة بوبوفانس الملكية إلى العثمانيين<sup>(١)</sup>.

والواقع أنه عندما جاء العثمانيون إلى البوسنة لم ينهض أحد من البوجوميل إلى قتالهم ومقاومتهم، بل رحبوا بمجيئهم، واستقبلوهم استقبال من جاء لإنقاذهم وتحريرهم، ومنذ ذلك الوقت لم نسمع عن طائفة البوجوميل إلا قليلا<sup>(٢)</sup>. وذلك لأن معظمهم اعتنقوا الدين الإسلامي، فقد كانوا يفضلون غزو السلطان لهم، عن أن يحولهم البابا عن مذهبهم. ويرجع السبب في إقبال البوجوميل على الإسلام، إلى أن العقيدة الإسلامية تمتلك كثيرا من نقاط التشابه مع البرجوميالية، فقد رفض البرجوميال عبادة مريم العذراء، ونظام التعميد، وأنكروا الصليب رمزا دينيا، ورفضوا تقديس الأيقونات والصور الدينية وآثار القديسين، واعتقدوا أن المسيح نفسه لم يصلب وهم يتفقون في هذه الناحية مما جاء به القرآن الكريم<sup>(٣)</sup>. فضلا عن هذا فإن العقيدة الإسلامية تمنح ميزة عملية لأولئك الذين يعتنقونها، وهي المحافظة على أراضيهم وامتيازاتهم الإقطاعية. وعلى هذا تقدم البوسنة لنا ظاهرة فريدة لطبقة أرستقراطية، سلافية الجنس ومسلمة الديانة. وقد تولت تلك الطبقة في الدول العثمانية أرفع المناصب، ومنها من وصل إلى منصب الوزير الأعظم، وبعض الحكام كانوا يوسنويين وطنيين، ولذلك قيل: «ينبغي أن يكون المرء إبنا لمسيحي مرتد، لكي يحصل على أرفع المناصب في الإمبراطورية العثمانية». وقد حافظ النبلاء البوجوميل على لغتهم، ولكنهم قلدوا العثمانيين في الزي والألقاب وكثيراً من عادات البلاط العثماني<sup>(٤)</sup>.

### انتشار الإسلام في ألبانيا:

بدأ غزو الأتراك العثمانيين لألبانيا سنة ١٣٨٧م، ولكن كان لابد أن تنسحب الجيوش التركية سريعا، وجرى الاعتراف بنفوذ السلطان العثماني محمد الفاتح للمرة الأولى في سنة

(١) المرجع السابق، ص ٢٢٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٢٧.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٢٨.

(4) Stephen Clissold, op. cit., pp. 63-64.

١٤٦٣ م. ثم استردت ألبانيا استقلالها فترة قصيرة بزعامة جورج كاستريوتا George Kas tiota الذى اشتهر باسمه الإسلامى إسكندر بك. وقد أثبتت الدراسات الحديثة عدم صحة الأفكار الخيالية التى نسجت حول قصة أيامه الأولى، التى تذكر أنه سُلِمَ فى صباه رهينة إلى الأتراك، وشب بينهم على الإسلام، وحظى بعطف السلطان. والحقيقة أنه قضى أيام شبابه فى بلاده الجبلية، وبدأ نضاله مع الأتراك منذ اليوم الذى أحرز فيه النصر عليهم سنة ١٤٤٤، وظل أكثر من عشرين عاماً يقاوم غزواتهم مقاومة عنيفة. ولكن بعد وفاته سنة ١٤٦٧ أخذ الأتراك يستردون ألبانيا، وسقطت كرويا (آق حصار) عاصمة أسرة كاستريوتا فى أيديهم بعد أحد عشر عاماً. ومنذ ذلك الوقت، يظهر أنه لم تحدث مقاومة منظمة فى كافة أنحاء ألبانيا، على الرغم من أن الثورات كانت كثيرة الوقوع، وأن خضوع البلاد لم يكن تاماً بحال. وظل بعض الموانئ البحرية يقاوم مدة أطول، وسقطت مدينة دوزازو فى سنة ١٥٠١ م، على حين لم تسلم مدينة أنتيفارى Antivari الواقعة فى أقصى الشمال من ساحل ألبانيا حتى سنة ١٥٧١. وقد نصت شروط التسليم على أن تحتفظ المدينة بقوانينها ونظام حكومتها، وأن تكفل لأهلها الحرية فى إقامة شعائر دينهم المسيحى، وألا يتعرض أحد بسوء لكنائسهم ومعابدهم<sup>(١)</sup>.

وإذا تتبعنا انتشار الإسلام فى ألبانيا، نلاحظ أنه انتشر تدريجياً وفى بطء على أيدى أهالى البلاد أنفسهم لانتيجة لضغط المؤثرات الأجنبية. وفى خلال القرن السادس عشر، يظهر أن الإسلام لم يخط إلا خطوات بطيئة نحو التقدم، على الرغم من أن تيار الدخول فى الإسلام كان قد بدأ منذ حين. وفى سنة ١٦١٠ م كان عدد الأهالى المسيحيين يفوق عدد المسلمين بنسبة عشرة إلى واحد. ولما كان المسيحيون يقطنون معظم القرى مع خليط قليل جداً من المسلمين، يظهر أن حالات الدخول فى الإسلام كانت أكثر منها فى المدن الكبيرة. وفى مدينة أنتيفارى مثلاً، بينما أثر كثير من المسيحيين أن يهاجروا إلى البلاد المسيحية المجاورة، تحولت الغالبية من هؤلاء الذين بقوا فى هذه البلاد إلى الإسلام تدريجياً، سواء الشريف منهم والوضيع، حتى أخذ عدد الأهالى المسيحيين يتناقص يوماً بعد يوم<sup>(٢)</sup>.

(١) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٠٥ - ص ٢٠٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

وقيل إن جميع أهالي ألبانيا الوسطى فى الوقت الحاضر مسلمون تقريباً، وإن أتباع الإسلام يؤلفون نحو ستين فى المائة من أهالي ألبانيا الشمالية، ويحتفظ الأهالي المسيحيون بأكثر نسبة فى ألبانيا الجنوبية، ولا سيما فى المقاطعات المتاخمة لبلاد اليونان (١).

### انتشار الإسلام فى صربيا:

سبقت الإشارة إلى أن مملكة الصرب فقدت استقلالها بعد الهزيمة الساحقة التى منيت بها فى كوسوفو (كوسوفا) سنة ١٣٨٩، وفى تلك المعركة فقد لازار ملك الصرب والسلطان العثمانى مراد الأول حياتهما، وأصبحت صربيا ولاية تابعة للإمبراطورية العثمانية، التى سمحت لستيفن لازاريقتش (١٣٨٩ - ١٤٢٧) - ابن لازار - بحكم صربيا بعد أن اعترف بسيادة العثمانيين، وزوج أخته من السلطان الجديد بايزيد الأول، وعقد معه تحالفا وديا. وفى موقعة نيقوبوليس سنة ١٣٩٦ انتصر العثمانيون ضد التحالف الأوروبى الصليبي. وفى ساحة أنقرة عندما سحق تيمور لنك الجيوش العثمانية سنة ١٤٠٢، ووقع السلطان بايزيد نفسه أسيراً، كان ستيفن يشهد أحداث المعركة، فجارب بشجاعة فى جانب زوج أخته، وبدلاً من أن ينتهز الفرصة لدعم استقلاله ظل مخلصاً لعهد، ووقف مع أبناء بايزيد حتى استردوا عرش أبيهم. وفى عهد جورج برانكوفتش خليفة ستيفن، تمتعت صربيا بشبه استقلال. ولكنه عندما ثار سنة ١٤٣٨ غلب العثمانيون على مدينة كوسوفو مرة أخرى، وحينئذ لم يكن بد من أن يعترف الصرب بسيادة المجر إلى حين. ولكن الهزيمة التى لحقت ببسوحنا هونيادى فى فارنا سنة ١٤٤٤، حملت صربيا على أداء الجزية مرة أخرى للإمبراطورية العثمانية، وانتهى أمرها إلى أن صارت ولاية عثمانية فى سنة ١٤٥٩ م.

بدأ انتشار الإسلام بين الصربيين بعد موقعة كوسوفو مباشرة، عندما تحول عدد كبير من النبلاء الإقطاعيين القدامى بمحض إرادتهم إلى الدين الإسلامى، إذ طال بهم العمر ولم يلجأوا إلى البلاد المسيحية المجاورة، حتى يضمنوا سلامة ما كسبوه من مزايا قديمة. وقد وجد السلطان العثمانى فى هؤلاء النبلاء الداخلين فى الإسلام أشد الدعاة تحمساً للدين الجديد. ولكن السواد الأعظم من الشعب الصربى ظل متمسكاً بدينه القديم فى خلال الفترة التى تحملوها فيها المتاعب والمشاق. أما فى ستار صربيا Stars Serbia أو الصرب

(١) المرجع السابق، ص ٢٢١.

القديمة وحدها، التي تؤلف الآن الجزء الشمالى الشرقى من ألبانيا الحديثة، فقد كان هناك عدد هائل نوعاً ما من هؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام، بل لقد سار انتشار الإسلام هنا بخطى وثيدة جداً حتى القرن السابع عشر الميلادى<sup>(١)</sup>.

### انتشار الإسلام فى البوسنة:

تعتبر «الدفاتر» العثمانية خير مصدر للمعلومات، وهى سجلات الضرائب التى سجل فيها مالكو العقارات، والتى تقسم الناس إلى فئات حسب أديانهم. فمن هذه الدفاتر والبيانات يمكن عمل استيفاء التفاصيل حول انتشار الإسلام فى البوسنة. وتظهر أقدم الدفاتر (١٤٦٨ - ١٤٦٩) أن الإسلام كان محدود الانتشار فى السنوات القليلة الأولى بعد الغزو. وفى منطقة شرق ووسط البوسنة التى تغطيها تلك السجلات، كانت هناك ٣٧١٢٥ داراً للمسيحيين، بينما لم تكن للمسلمين سوى ٣٣٢ داراً. فلو فرضنا أن بكل دار خمسة أفراد فقط فى المتوسط، لأعطانا ذلك عدداً يصل إلى ١٨٥٣٢٦ مسيحياً<sup>(٢)</sup>.

والدفتر التالى الذى حلل تحليللاً وافياً، يغطى البوسنة لعام ١٤٨٥، وهو يظهر أن الإسلام قد بدأ يحدث تقدماً له ضخامته. وتسجل لنا دفاتر عشرينيات القرن السادس عشر أرقاماً كلية حول سنجقية البوسنة، بشكل فيها المسيحيون ١٩٠٠٩٥ فرداً، والمسلمون ٨٧٥٧٥. ونظراً لأننا نعرف أنه لم تكن هناك هجرة واسعة المدى للمسلمين إلى داخل البوسنة أثناء تلك المدة، فإن الرقم ينبغى أن يمثل اعتناق البوسنيين المسيحيين للإسلام<sup>(٣)</sup>.

وما لبثت عملية اعتناق الإسلام أن زادت سرعتها تدريجياً فى هرزجوفينا (الهرسك)، إذ أن هناك تعليقاً صدر عن أحد الرهبان الأرثوذكس بالهرسك فى سنة ١٥٠٩ م، وفيه يلاحظ أن كثيراً من أفراد الشعب الأرثوذكسى قد اعتنقوا الإسلام عن رضا وقبول. وفى شمال البوسنة وشمالها الشرقى لم يتيسر لانتشار الإسلام أن يتم إلا ببطء فى مواكبة التوسع على حساب المجر. وما أن اكتمل الفتح فى عشرينيات القرن السادس عشر، حتى انتشر الإسلام بصورة أسرع قليلاً<sup>(٤)</sup>.

(١) المرجع السابق، ص ٢٢٤.

(٢) مالكولم: البوسنة، ص ٨٧.

(٣) نفس المرجع والصفحة.

(٤) نفس المرجع، ص ٨٨.

ولاشك أن الفكرة القائلة بأنه جرى تحويل جماعى للبوسنيين إلى الإسلام فى السنوات الأولى التالية للغزو، إنما هى فكرة واضحة الزيف، فإن عملية التحويل للإسلام كانت بطيئة فى البداية فى أحيان كثيرة واستغرقت عدة أجيال، ولكن الأهالى كانوا يعتقدون الإسلام بمحض إرادتهم المطلقة. وتشير الدفاتر، بوصفها دليلا وشاهداً، إلى عدم وجود أدنى تعرض للمسيحيين الذين أصبروا على التمسك بعقيدتهم، وكان من الأشياء الطبيعية لدى الأهالى أن يصبحوا مسلمين، ويتسموا بالأسماء الإسلامية، ومع ذلك يواصلون المعيشة مع بقية عائلاتهم المسيحية<sup>(١)</sup>.

وهناك أيضاً نظرية خاطئة أخرى حول إسلام البوسنة وما زالت شائعة، وإن تقوضت على يد البحث التاريخى منذ سنة ١٩٣٠ وما بعدها، وهى الادعاء بأنه عندما فتح العثمانيون البوسنة، اعتنقت هيئة النبلاء المحلية بأجمعها الإسلام، بغية الاحتفاظ بأراضيها الإقطاعية. وقد شاعت هذه النظرية فى القرن التاسع عشر على يد الفرنسيين سكانى والوطنى السلافى إيفان فرانجو يوكيتش Ivan Franjo Jukich الذى أصدر كتاباً فى سنة ١٨٥١م عن تاريخ البوسنة تحت إسم مستعار هو «سلافوليوب بوشنيك» Slavoljub Bošnjak أى البوسنى المحب للسلاف. وقد أكد فى كتابه هذا أثناء حديثه عن الأرستقراطية المسلمة فى البوسنة: «أنهم نشأوا عن المسيحيين الفاسدين الذين تحولوا إلى مسلمين، لأن التحول إلى الإسلام كان سبيلهم الوحيد للاحتفاظ بأراضيهم. واحتفظت لهم العقيدة الجديدة بممتلكاتهم وثروتهم وحررتهم من كل الضرائب والمدفوعات، وأعطتهم تفويضا كاملا للانغماس فى كل رذيلة وإتيان كل شر، وذلك من أجل أن يعيشوا كالسادة العظام دون بذل أى تعب أو جهد»<sup>(٢)</sup>. وفى ثلاثينات الألف وتسعمائة لاحظ المؤرخ فاسو تشوريلوفيتش Vaso Chu-brilovic أن قلة ضئيلة من ملاك الأراضى البوسنيين القدماء أصبحوا فعلا من الفرسان (السيباهية) واحتفظوا ببعض مزارعهم، ولكن كما لاحظ هو أيضاً، لم يكن من المحتم عليهم أن يصبحوا مسلمين لكى يحتفظوا بتلك الأرض. وكان المسيحيون الفرسان (السيباهية) موجودين بوفرة أثناء السنوات الأولى للبوسنة العثمانية، وهناك واحد شهير منهم

(١) نفس المرجع، ص ٩٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٩٩.



أصبح «جراح باشى» أى كبير الجراحين فى حاشية والى اليوسنة فى سبعينات الألف وأربعمائة، كان يدعى فيلاه سفينيار يفيتش Vlah Svinjarevic وتعنى إين راعى الخنازير، وهو إسم غير إسلامى بشكل يلفت النظر<sup>(١)</sup>.

وهناك فكرة شائعة تقول بأن بعض الأهالى اعتنقوا الإسلام رغبة فى تحسين مركزهم الاقتصادى أو الاجتماعى أمر لاسبيل إلى إنكاره، لأن هذه الاتجاهات النفعية موجودة بين كل البشر. ولا مفر من أن يكون هذا الدافع وراء اعتناق الكثيرين للإسلام. بيد أن الدافع الاقتصادى لايمكن أن يكون هو المبرر الوحيد كما تزعم إحدى النظريات التى ترى فيه محاولة لتجنب دفع الضرائب المقررة على غير المسلمين، وهى الجزية<sup>(٢)</sup>.

### انتشار الإسلام فى الأناضول:

كان الإسلام ينتشر لاريب فى مسيحى الأناضول فى العصر السلجوقى. ولابد أن المخالطة الطويلة بين المسلمين والمسيحيين، وما كان للمسلمين من مركز خاص فى إدارة الدولة، ورغبة غير المسلمين فى التخلص من بعض الأعباء، لاشك فى أن هذه العوامل السيكلوجية والاقتصادية قد ساعدت كلها على حركة الدخول فى الإسلام<sup>(٣)</sup>.

وإذا استثنينا مناطق غرب الأناضول والبلاد الساحلية، نستطيع أن نقرر أن الأناضول كان قد «ترك» إلى حد كبير فى أواخر القرن الثانى عشر، الميلادى بفضل كتل من الترك أكثف من الكتل التركية التى كانت تقطن شمالى سوريا والعراق والجزيرة وإيران وأذربيجان<sup>(٤)</sup>.

وإذا كان ظهور المغول قد عمل على زيادة الهجرة فى مناطق الأناضول، فإنه عمل على زيادة كثافة العنصر التركى الإسلامى فى الأناضول الذى كان قد فتح حديثا، لأن الأناضول يقع فى أقصى الغرب من العالم الإسلامى، كأنه بمنجى من الخطر المغولى<sup>(٥)</sup>.

(١) المرجع السابق، ص ٩٩ - ١٠٠.

(٢) المرجع السابق، ص ١٠٠.

(٣) فؤاد كوبريل: قيام الدولة العثمانية، ص ١٣٣.

(٤) المرجع السابق، ص ٧٩ - ٨٠.

(٥) المرجع السابق، ص ٨٠.

وقد سبق الإشارة إلى أن الرحالة ابن بطوطة الذى عبر بلاد آسيا الصغرى سنة ١٣٣٠م، رأى تلك البلاد بما فيها من مدن وقرى تحمل أسماء تركية صرفة، الأمر الذى يعطينا صورة مذهلة عن التحول الذى حدث، ونقصد بذلك «التتريك الفعال» لآسيا الصغرى ودخولها فى الإسلام<sup>(١)</sup>.

وعلى الرغم من الدعاية التى كانت تزاولها المدارس الدينية والطرق الصوفية المستقرة فى مدن الأناضول، لم تقع بين المسلمين والمسيحيين ممن يعيشون تحت حكم واحد فى مناطق الحدود أية خصومة ترجع إلى سبب دينى. ونستطيع دون أدنى تردد أن نسحب هذه الحقيقة التاريخية وهى انعدام العداء الدينى بين المسلمين والمسيحيين على كل تاريخ الأناضول طوال العصور الوسطى المتأخرة<sup>(٢)</sup>.

ومع أن المسلمين والمسيحيين كانوا يعيشون فى مناطق متعادية على الحدود تتجلى على جانبيها الخصومة بين الترك والبيزنطيين، فلم تقع بينهم أى عداوة دينية، حتى ليقرر المؤرخون البيزنطيون أن الروم الذين كانوا يعيشون فى جزر بحيرة يكشهرى - وهى يومذاك من مناطق الحدود - كانوا يصطنعون لقوة الأواصر بينهم وبين الترك تقاليد الترك وعاداتهم، ويعقدون معهم علاقات الصداقة، ضارين صفحاً عن أوامر الإمبراطور البيزنطى<sup>(٣)</sup>.

وعلى أية حال، يمكننا أن نقرر ببساطة أن الدخول فى الإسلام بالأناضول قد تم بالتدريج ونسبة محدودة، وأن نسبته لم ترتفع فى عهد الإمبراطورية العثمانية إلا بعد أن رسخت قدمها فى البلقان، أى فى القرن الخامس عشر على الأكثر. ثم مازال الدخول فى الإسلام يتزايد بعد ذلك فى القرنين السادى عشر والسابع عشر<sup>(٤)</sup>.

### نظام الدوشرمة (ضريبة الغلمان):

هى ضريبة آدمية فرضتها الدولة على رعاياها المسيحيين الذين يعتنقون مذهب الكنيسة

(١) أنظر ص ٢٧ - ٢٨.

(٢) فؤاد كوبرلى: قيام الدولة العثمانية، ص ١٣١.

(٣) المرجع السابق، ص ١٣١ - ١٣٢.

(٤) المرجع السابق، ص ١٣٦.

الأرثوذكسية الشرقية، وكلمة الدوشرمة أصلاً يونانية تعنى جمع الأولاد من العائلات المسيحية، وكان هؤلاء يمثلون خمس أطفال الشعوب المهزومة في مقدونيا والصرب وبلغاريا وألبانيا والمجر وغيرها كحصة بيت مال المسلمين. وكانت الدولة العثمانية تجمع أطفال الدوشرمة، وهم صغار، وتحويلهم إلى الدين الإسلامى، وتنظم لهم دراسات علمية مدنية وعسكرية، لتجعل منهم أدوات إسلامية للقتال والحكم فى خدمة الدولة<sup>(١)</sup>. وقد ملأ أطفال الدوشرمة - بعد تعليمهم وتدريبهم - صفوف فرقة الإنكشارية وقوة الخيالة النظاميين، ومنهم كانت تستقى نسبة كبيرة من كبار موظفى الدولة، وباتساع الدولة كان الأتراك يشكلون الفئة المهيمنة، على حين أن أطفال الدوشرمة كانوا يشكلون قمة جهاز الحكم وسيطرون على الأتراك ذاتهم<sup>(٢)</sup>.

وكانت الحكومة العثمانية ترسل وكلاء إلى المناطق المأهولة بالعائلات المسيحية، فيجتمع كل من هؤلاء الوكلاء بقسيس القرية، ويطلب منه كشفاً بأسماء الأطفال الذكور الذين قام بتعميدهم. ولم يكن هناك قانون معين أو لائحة تحدد طريقة اختيار الطفل، بل كل ما فى الأمر أن الدولة تحدد لكل وكيل عدد الأطفال الذين يتعين إحضارهم للسلطان. وكان العثمانيون يمارسون فى العادة جمع الأطفال من الريف والقرى، وكانوا يأخذون أولاد المزارعين، وما يجدر ذكره أن العثمانيين كانوا يستجيبوا لدواعى الرحمة، فلا يأخذون الطفل وحيد والديه، ولا الأطفال الذين فى سن الرضاعة، لأن أمثالهم يشكلون عبئاً ثقيلاً على الموظفين المختصين بتنشئة الأطفال وتربيتهم. وكانت الحكومة العثمانية لاتأخذ الأولاد الذين تجاوزوا الحلم، لأنه يصعب فصل أمثال هؤلاء الأولاد عن ماضيهم وعن أهلهم وعن بيئتهم الأولى. ولذلك كان وكلاء الدولة العثمانية يأخذون فى معظم الأحوال الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين سن السابعة وسن العاشرة. ومنذ أن يتحرك الوكيل بهؤلاء الأطفال إلى عاصمة الدولة تنقطع الصلة نهائياً بين هؤلاء الأطفال وذويهم<sup>(٣)</sup>.

(١) عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية، ج ١، ص ١٢٠.

(٢) عبد الرحيم مصطفى: فى أصول التاريخ العثمانى، ص ٤١.

(3) Gilb (H.A.R.) and Bowen (H.), Islamic Society and the West, Vol. I., Islamic Society in the Eighteenth Century, pp. 56-60.

عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية، ج ١ ص ١٢٠ - ١٢١.

وكان الوكيل الحكومى يخرج من القرية بحصيلة مالية وشرية، وتتمثل الحصيلة المالية فى الرشوة التى يحصل عليها من بعض الآباء الموسرين فى سبيل التغاضى عن جمع أولادهم. وكانت هذه الحصيلة تختلف قلة وكثرة تبعاً لدرجة ثراء الآباء من ناحية، ومدى جشع الوكلاء من ناحية أخرى<sup>(١)</sup>. ومع ذلك فإن بعض المؤرخين يقررون أن غالبية الآباء كانوا يرحبون بتقديم أولادهم، ونظروا إلى العملية كلها على أنها امتياز لهم أكثر منها عبئاً نفسياً ثقيلاً. ويؤكدون هذا الرأى بقولهم إن العائلات المسلمة كانت تطلب إلى الأسر المسيحية أن تقدم أولادها المسلمين إلى وكيل الحكومة المركزية على أنهم مسيحيون بدلا من أولاد هذه الأسر المسيحية. وكانت مزايا نظام الدوشرمة واضحة أمام أعين المسلمين من البوسنة الذين رتبوا لإرسال ألف من أبنائهم فى سنة ١٥١٥ إلى مدارس التدريب الخاصة بالقصر الإمبراطورى. وكذلك عمل اليهود على حشد أولادهم ضمن حصيلة الدوشرمة على أنهم مسيحيون. وبذلك تسرى، فى غفلة من الحكومة، على أولاد المسلمين واليهود الامتيازات التى تعود على أبناء الأسر المسيحية<sup>(٢)</sup>.

ومن المرجح أن تطور الدوشرمة إلى نظام يقوم على الجمع الدورى للأطفال المسيحيين لملء الوظائف فى القصر والإدارة قد تم فى عهد السلطان بايزيد الأول (١٣٨٩ - ١٤٠٢)، وطبق بوجه عام فى عهد مراد الثانى ومحمد الفاتح<sup>(٣)</sup>.

وفى إستانبول كان يتحول أطفال الدوشرمة إلى الإسلام، وتجرب لهم جراحة الختان، ويتلقون تربية دينية، ويحضرون دراسات فى اللغة التركية والتاريخ الإسلامى العام والتاريخ العثمانى، فينشأون على التمسك بأهداب الدين الإسلامى والتعلق بالدولة العثمانية، وكانوا إلى جانب ذلك يتلقون تدريباً عسكرياً خاصاً<sup>(٤)</sup>. وكان من تبدو عليهم صفات استثنائية من الناحيتين العقلية والجسمية، يدرّبون باعتبارهم غلماناً فى الخدمة الداخلية فى القصور السلطانية، وكان يطلق عليهم إيج أو غلاتات (مفردها إيج أوغلان). أما الباقون فكانت

(١) عبد العزيز الشناوى، المرجع السابق، جـ ١ ص ١٢١.

(٢) المرجع السابق، جـ ١ ص ٤٨٤، بيتر شوجر: أوربا العثمانية، ص ٧٧ - ٧٨، مالكولم: البوسنة، ص ٨٠.

(٣) عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ١٢٢ - ١٢٣.

(٤) عبد العزيز الشناوى، المرجع السابق، ص ١٢٢.

الدولة تعددهم لشغل الوظائف المدنية الكبرى، ويتلقون تعليمًا عسكريًا ومدنيًا خاصًا، ووصل بعضهم إلى منصب الصدارة العظمى أى رئاسة الوزارة، وكان بإمكانهم الانخراط فى الخدمة العسكرية فى جيش القبوقلو (عبيد الباب العالى) (١).

وهناك ما يدل على أن الموظفين العثمانيين الذين كانوا من «الدوشرمة» أصلاً، ظلوا يتذكرون طفولتهم عندما أخذوا صغاراً من ذويهم، ويحنون إلى ذوى القربى منهم. فإبراهيم باشا الصدر الأعظم فى عهد السلطان سليمان الأول، كان من أصل يوناني، وظل فى منصبه مدة ثلاثة عشر عاماً قبل أن يشق فى عام ١٥٣٦ لارتكابه أخطاء كثيرة من بينها أنه كان يحمى أقربائه اليونانيين ويرعى مصالحهم، ومحمد صوقوللو الصدر الأعظم (١٥٦٤ - ١٥٧٩) لم يكن يتصل فقط اتصالات خاصة بعائلته، بل ساعد أيضاً أهالى الصرب من خلال محاولة إقناع السلطان بإعادة تأسيس أسقفية بيك Pec فى عام ١٥٥٧ بالاشتراك مع أخيه رئيس الأساقفة، حتى أن يتولى منصب الصدر الأعظم (٢).

### الإنكشارية:

إن القوة الحقيقية للجيش العثمانى فى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى كانت تكمن فى جماعة الإنكشارية (المشاة النظاميين) والسباهية (الخيالة). فطبقاً للشرعة الإسلامية كان غير المسلمين من سكان دار الحرب هم وحدهم الذين يحل استرقاقهم، كما أن حكماً آخر من أحكام الشرعة كان يخصص للإمام خمس الغنائم بما فى ذلك الأسرى من غير المسلمين. وكان السلاطين العثمانيون منذ البداية يعتبرون أكمة بالدرجة التى تؤهلهم للتمتع بهذه الميزة، ومن ثم امتلاكهم عدداً كبيراً مطرد الزيادة من الأسرى الأرقاء الذين كان يبيعهم أمراً عادياً (٣).

وكان للسلطان حق الاختيار الأول فى الأسلاب والغنائم، وفضلاً عن ذلك كان السلطان يشتري الأسرى الصغار الأقوياء بأرخص الأسعار، ويصنفون كأبناء بالتبني وعبيداً له. وقد أطلق عليهم السلطان «الفرق الجديدة» التى تسمى بالتركية ينى شرى

(١) عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ١٢٢ - ١٢٣.

(٢) بيتر شوجر: المرجع السابق، ص ٧٧.

(٣) عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ١٢٢.

Yeniceri (Janissazies)، وبعد أن يتم ختانهم وتحويلهم للإسلام، كان السلطان يقوم بتعيينهم حراساً له، ويكافأهم بالهدايا الكثيرة، ويمنحهم المناصب العالية، ويسمح لهم السلطان بمشاركته الطعام والشراب، ويحنو عليهم كما يحنو الأب على أطفاله<sup>(١)</sup>.

ويذهب المؤرخون العثمانيون إلى أن فرقة الإنكشارية يرجع إنشاؤها إلى عهد أورخان (١٣٢٦ - ١٣٦٢) ابن السلطان عثمان وخلفه، وإلى أخيه وكبير وزرائه علاء الدين، وإلى قره خليل جانداولى صهر الشيخ إده بالى، وكانت الفرق الأساسية عند العثمانيين قبل هذا العصر - كما كانت الحال فى الجيوش الفارسية - هى فرق الفرسان الذين يسمون قينجى (الفرسان الخفاف) يشد أزهرهم الجنود المشاة الذين يسمون بالفارسية «بيادة» وبالتركية «يايا»، ويرجع أن الذى أوحى إلى الترك أن يعززوا فرسانهم بجنود مشاة مدربين هو ما شاهدوه من فرق الجيوش البيزنطية<sup>(٢)</sup>. وهنا نلاحظ أنه لا يوجد دليل على أن فرقة الإنكشارية كانت أداة للتحويل القسرى إلى الإسلام عن طريق إدخال أولاد المسيحيين إلى الجيش العثماني قبل عهد السلطان مراد الأول (١٣٦٢ - ١٣٨٩). ولما كان المؤرخون يجمعون على أن الإنكشارية لم يجنّدوا إلا من مسيحيي أوربا، فلم يكن باستطاعة أورخان أن يفكر فى القيام بذلك، لأن المشكلة التى جرى حلها بهذه الكيفية لم تنشأ إلا بعد وفاته<sup>(٣)</sup>.

ويقال إن مصطلح «إنكشارية - بنى شرى» مصدره درويش هو الحاج بكتاش الذى سنتناول الحديث عنه بعد قليل. ذلك أن السلطان أورخان قد اصطحب الطليعة الأولى من هؤلاء المجندين إلى مسكن الحاج درويش بأماسيا، ورجاه أن يباركهم ويخلع عليهم إسماء، فوضع بكتاش كفه فوق رأس أحد الواقفين فى الصف الأول، ثم قال للسلطان: «إن القوات التى أنشأتها ستحمل إسم بنى شرى، وستكون وجوههم بيضاء وضياء، وستكون

(1) Doukas, Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks., p. 135, lodge, The close of the Middle Ages, p. 500.

(2) Hearsey, City of Constantine, p. 185, Creasy, Turkey, p. 19. Schevill, The Hist. of the Balkans, p. 182.

دائرة المعارف الإسلامية، مادة «الإنكشارية».

(٣) عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ٤٣.

أذرعهم اليمنى قوية، وسيوفهم بتارة، وسهامهم حادة، وسيوقون فى المعارك، ولن ييرحوا ميدان القتال إلا وقد انعقدت لهم ألوية النصر. وتخليداً لبركة الحاج بكتاش، كان الإنكشارية يضعون على رؤوسهم قلنسوة من الصوف الأبيض، شبيهة بقلنسوة الدرويش من خلفها قطعة طويلة من القماش اسطوانية الشكل، باعتبارها رمزاً لكم الحاج بكتاش الذى بارك به رقبة زميلهم<sup>(١)</sup>.

وثمة فريق من المؤرخين يتشككون فى صحة تلك الرواية بل ينفونها نفيًا باتًا، على أساس أن الحاج بكتاش كان قد توفى قبل إنشاء فرق الإنكشارية بقرن من الزمان. ولكن الثابت تاريخياً أن الإنكشارية كانوا ملتصقين التصاقاً قوياً بالطريقة البكتاشية<sup>(٢)</sup>.

وبوصفهم عبيداً للسلطان (بالتركية قول)، فإن الإنكشارية كانوا يربون فى روح ولاء وانضباط مطلقيين. وكان يجرى إنزال العقاب عن المخالفات التى يرتكبها أى إنكشارى عن طريق الضرب بالعصى، أو التنقل الذى ينزل بالمخالفين إلى رجال حاميات عاديين فى قلاع المقاطعات. وفى الأصل، كان يحرم على الإنكشارية الزواج طالما يقومون بالخدمة العسكرية، وألغى هذا التحريم فى عهد السلطان سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠)، ويشير هذا إلى مرحلة هامة فى تطور الإنكشارية. فمنذ ذلك الوقت كتب جيفرى حوالى عام ١٥٤٠ قائلاً: «يسكن المتزوجون مع زوجاتهم، ويسكن الآخرون فى بيوت معينة خاصة بهم، منظمين فى أى مكان أوحى من إستانبول، حيث يسكن كل ثمانية أو عشرة أو إثني عشرة أو أكثر معاً»<sup>(٣)</sup>.

ويتضح من السجلات العثمانية أن عدد فرقة الإنكشارية فى الأصل كان ستة آلاف إنكشارى، ثم نمت وازداد عددها سنة بعد أخرى، وفى عهد السلطان مراد الأول وصل عددها إلى عشرة آلاف إنكشارى، وفى عهد محمد الفاتح ١٢٠٠٠، وفى عهد سليمان القانونى ٢٠٠٠٠، وفى عهد محمد الرابع - منتصف القرن السابع عشر - لم يزد عدد

(١) دائرة المعارف الإسلامية، مادة «إنكشارية»، عبد الرحيم مصطفى: فى أصول التاريخ العثمانى، ص ٤٣، القرمانلى: أخبار الدول وآثار الأول، ص ٢٩٩،

Creasy, Turkey, p. 4.

(٢) عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية، ج ١، ص ٤٨١.

(٣) جيل فينشتاين: «الإمبراطورية العثمانية فى عظمتها»، فى تاريخ الدولة العثمانية، ج ١ إشراف روبر مانتران، ترجمة بشير السباعى، ص ٢٨٩ - ٢٩٠.

الفرقة عن ٤٠٠٠، وفي خلال ٣٠٠ سنة قدر أن ما يزيد عن خمسة ملايين من الأطفال المسيحيين قد أصبحوا إنكشارية<sup>(١)</sup>.

ولم يكن هناك لأحد سيادة على الإنكشارية سوى قائدهم والسلطان العثماني. وكان معروفا عنهم شهرتهم كمحاربين مهرة ولوائهم المطلق للسلطان. وحاربوا كمشاة استخدموا السهام. والإنكشارية جعلوا الجيش العثماني من أفضل جيوش العصر، إن لم يكن أفضلها<sup>(٢)</sup>، حتى القرن السابع عشر.

ولاشك أنه لا يمكن اتهام السلطان العثماني بأنه سار على سياسة شاملة تتجه إلى التثريك أو العمل على اعتناق الإسلام بالإجبار. ومن الواضح أنه يجند الإنكشارية من الرعايا المسيحيين ويحولهم إلى عثمانيين، لكن النسبة المثوية للأولاد المجندين لتشكيل قوة الإنكشارية ضئيلة جداً بالقياس إلى حجم سكان الإمبراطورية العثمانية. وفضلا عن ذلك، فإن الانضمام إلى الإنكشارية، التي تعتبر نخبة، يتيح للعناصر القادرة فرصة الوصول إلى أعلى المناصب، ولهذا لم يكن التجنيد الإجباري للأولاد المسيحيين يقابل دائما استقبالا سيئا من جانب الرعايا المسيحيين<sup>(٣)</sup>.

وفي حوالي سنة ١٥٠٠م تم تسليح الإنكشارية ببنادق يدوية، وكان رسوخ أقدامهم في القتال، وترابطهم في جماعات محاربة، ومهاراتهم في استخدام هذه الأسلحة قد تسبب في اندحار الجيوش المملوكية، وفي التعجيل بفتح العثمانيين لبلاد الشام ومصر خلال عامي ١٥١٦ و ١٥١٧. كما شنت الإنكشارية آخر محاولة يائسة لسلاح الفرسان المسيحي في معركة موهاكس الفاصلة، تلك المعركة التي انتهت بانتقال مملكة المجر لحكم السلطان سليمان القانوني في سنة ١٥٢٦<sup>(٤)</sup>.

(1) Derekson, The Crescent and the Cross. p. 115.

(٢) جوزيف داهموس: سبع معارك فاصلة في تاريخ المصور الوسطى، ترجمة محمد فتحي الشاعر (القاهرة ١٩٨٧)، ص ١٩٩.

(٣) نيكورا ييلديسينو: تنظيم الإمبراطورية العثمانية (القرنان الرابع عشر والخامس عشر)، في تاريخ الدولة العثمانية، ج١، ص ١٩٨.

(٤) كولز: العثمانيون في أوروبا، ص ٥٦.



وفى الأوقات التى لم تكن تستلزم قيام الإنكشارية بمهام الحرب كان يعهد إليهم بالحفاظة على الأمن فى أهم مواقع الإمبراطورية العثمانية. وفى إستانبول كانوا يقومون بحراسة الديوان أثناء اجتماعاته التى يرأسها السلطان، كما كانوا يقومون فى المدينة بمهام الشرطة وقوة المطافىء وبحراسة بوابات المدن الهامة والحصون، ويشكلون قوات الشرطة فى الولايات. وقد زاد محمد الفاتح رواتب الإنكشارية وامتيازاتهم إلى حد كبير بعد فتح القسطنطينية. وحين اتسع ملك العثمانيين فى أوروبا جرى اختيار غلمان الإنكشارية من أوروبا بدلا من آسيا، وبخاصة من بلغاريا وألبانيا والبوسنة. على أنهم مالبثوا أن شكلوا قوة سياسية فى الدولة. وفى أواخر القرن الخامس عشر قاموا بثورة أمكن إخمادها. ومنذ عهد محمد الفاتح أصبح من المعتاد أن يقوم كل سلطان جديد بتوزيع «نقود الإنكشارية» لضمان ولائهم<sup>(١)</sup>.

وعلى أية حال، وجد السلاطين العثمانيون فى الإنكشارية ولاء وإخلاصا وشجاعة فى القتال، حتى صاروا مصدر رعب وفرع لأوروبا المسيحية، فهم الذين اقتحموا أسوار القسطنطينية سنة ١٤٥٣<sup>(٢)</sup>. وفى ذلك يقول المؤرخ لودج<sup>(٣)</sup> Lodge: «ولدة قرنين لم تستطع أية قوة حرية التغلب على الإنكشارية.. ويفضلهم ضمن العثمانيون انتصار الهلال بأطفال الصليب، ودربوا الأولاد المسيحيين على تدمير استقلال ونفوذ بلادهم وكنيستهم». وفيما بعد تغيرت أحوال الإنكشارية، فصاروا مصدر الأذى والخراب لحياة كل سكان تركيا، بما فيهم السلطان العثماني نفسه، الأمر الذى جعله السلطان المستنير محمود الثانى يصدر أمراً بالقضاء عليهم فى سنة ١٨٢٦ لترتاح منهم الناس<sup>(٤)</sup>.

### السباهية:

كانت قوة الفرسان التى يكونها السباهية أكبر قوات الدولة العثمانية العسكرية، وكانوا يقومون بما يوكل إليهم من مهام عسكرية، مقابل الإقطاعات التى منحتها لهم الدولة

(1) Castellan, Hist of the Balkans., p. 75,

عبد الرحيم مططفى: المرجع السابق، ص ١٢٥.

(2) Hearsey, City of Constantine 324-1453, p. 228.

(3) The Close of the Middle Ages., p. 500.

(4) Hearsey, op. cit., p. 228, Eliot, Turkey in Europe., p. 60.

مقدماً. وبعبارة أخرى كان السلطان يمنح أرضاً زراعية لأفراد من الفرسان، ويستقرون فيها ويشرفون على زراعتها بمساعدة الفلاحين الذين كانوا يتولون زراعتها بصفتهم مستأجرين. وكانت هذه الأراضي تسمى إقطاعيات، وكان يطلق على الفرسان الذين يحصل عليهم الجيش العثماني عن طريق الإقطاع، الحربي إسم السباهية<sup>(١)</sup>.

وينسب إلى أورخان (١٣٢٤ - ١٣٦٢) استخدام السباهية في الجيش العثماني لأول مرة، وقاموا في بداية الأمر بمهمة الحرس الشخصي للسلطان، وبتزايد عددهم أصبحوا يشكلون قلب الجيش وعصبه، وكان القوس والسهم سلاحهم الرئيسي، أو على الأقل السلاح الذي استخدموه ضد العدو عندما كانوا يهاجمون بخيولهم السريعة. وما أن تنفذ سهامهم، ويصبحوا على مقربة من العدو، فإنهم يستخدمون الرماح والسيوف المعقوفة والوحيد الحد، وكذلك الخناجر<sup>(٢)</sup>.

ومن المعروف أن العثمانيين احتفظوا بمبدأ كان متبعاً أيام السلاجقة يقضى بأن تقسم الأراضي المفتوحة إلى إقطاعيات متفاوتة المساحة والقيمة، تعطى أقلها للسباهية لقاء خدماتهم العسكرية، وتعطى أحسنها وأكبرها بصفة (زعامت) للقادة الأكبر مركزاً وكفاية قتالية، بشرط أن يسلحوا عدداً من الجند يتناسب مع إقطاعياتهم. ولما كانت أراضي السباهية وراثية، فقد ولدت نوعاً من الاستقرار الزراعية متينة الأساس، وكانت هذه الطبقة من الناس التي تتوقف مصالحها وإيراداتها على الرواج الاقتصادي في القرى الممنوحة لها، كانت تمثل الحكومة - على نحو ما - في مناطقها، وكان لها دور كبير في تقدم الدولة العثمانية في القرن الخامس عشر في رخائها<sup>(٣)</sup>.

وكان الإقطاع الذي يمنح للسباهي يطلق عليه التيمار Timar ويطلق على حائزه تيمارجي، وكانت الأرض ملكاً للسلطان، ولم يكن لورثة صاحب التيمار أى حقوق قانونية في وراثتها (وإن كان الميراث هو العرف المرعى). وكان أصحاب هذه الإقطاعيات ملزمين أن يتجمعوا ومعهم أسلحتهم وخيولها عندما يستعدون لأداء الواجب العسكري،

(١) عد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية، ج١، ص ١٣٠.

(٢) جوزيف داهموس: سبع معارك فاصلة، ص ١٩٨.

(٣) فؤاد كوبرلى: قيام الدولة العثمانية، ص ١٧٠ - ١٧١.

وكان عليهم أن يحضروا معهم جنداً آخرين ويدفعوا لهم أجورهم، بما يتناسب تناسباً طردياً مع مساحة الإقطاع الحربى ومع الإيرادات التى تغلها هذه الإقطاعيات<sup>(١)</sup>. وكان أصغر الساهية مركزاً يذهبون إلى الحرب دون أتباع، راكبين خيولهم، ويرتدون صديريات من الزرد ومعهم خيامهم<sup>(٢)</sup>.

وهكذا كان الإقطاع أو التيمار يقوم مقام المرتب فى مقابل استمرار السباهية فى القيام بواجباتهم العسكرية وإعالتهم لأتباعهم وإمدادهم بالأسلحة والمؤن والطعام، مما يحتاج إليه انجملته العسكرية. وكان السباهية يعيشون فى القرية التى توجد بها أراضى التيمار ويقومون بجباية الضرائب من الفلاحين، وهى فى العادة ضرائب نوعية. وكان على الفلاحين أن يوفرُوا للسباهية نصف المحصول، بالإضافة إلى كميات من العلف والدريس والخشب. وكان بإمكان الفلاح أن يشغل الأرض طالما يقوم بزراعتها ويدفع الضرائب المقررة عليها، كما كان بإمكانه أن يورث أبناءه حق شغلها. وفضلاً عن الدخول التى كان التيمارى يستقيها من الضرائب التى يدفعها الفلاحون، كان بإمكانه أن يخصص لنفسه قطعة من الأرض يقوم الفلاحون المأجورون أو فلاحو التيمار بزراعتها. وإلى جانب مسؤولية التيمارى عن ضمان فلاحه الأراضى وتحصيلها، كان يضطلع بحفظ الأمن فى القرى، وفى أوقات الحروب كان عشرة بالمائة من التيماريين يبقون فى السنجق لحفظ الأمن وجباية الضرائب<sup>(٣)</sup>.

وكان نظام الإقطاع العثمانى من وجهة نظر الفلاحين، ذا مزايا متعددة، ذلك أن السيد الإقطاعى غالباً ما يكون غائباً فى المعارك طوال فترة الصيف منكبا على جمع الغنائم والأسلاب، يوليها اهتماماً أكثر من اهتمامه باغتصاب ما يملكه الفلاحون التابعون له<sup>(٤)</sup>. ومن مزايا هذا النظام أنه ساعد على التوسع الأفقى والرأسى فى زراعة مساحات شاسعة من الأراضى داخل الأقاليم العثمانية فى أوروبا وفى آسيا، واطمأنت الدولة إلى أن جهوداً صادقة تبذل للنهوض بزراعتها بدافع المصلحة المشتركة بين الأتباع الإقطاعيين وبين الفلاحين.

(١) مالكولم: البوسنة، ص ٨٠ - ٨١.

(٢) عبد العزيز الشناوى: المرجع السابق، ص ١٣٣.

(٣) عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ١٢٧.

(٤) كولز: العثمانيون فى أوروبا، ص ١١٤.

كما أن هذا النظام كفّل للدولة الحصول في زمن الحرب على قوات من الفرسان كانت تبلغ في بعض الأحيان مائتي ألف رجل دون تكاليف، لأن التابع الإقطاعي كان يذهب إلى الحرب ومعه جواده وسلاحه<sup>(١)</sup>. وفوق كل هذه المزايا وأهمها المستوى الحربي العالي الذي كان يتمتع به الفرسان الإقطاعيون، وقد قرر المؤرخ التركي أحمد جودت «أن أقوى قوات قتالية في الدولة العلية كانت تتكون من أصحاب التيمارات والزعامات»<sup>(٢)</sup>.

وعلى أية حال، إذا أجرينا مقارنة بين حياة الفلاح في ظل الإقطاع العثماني وحياته في البوسنة الإقطاعية قبل العهد العثماني، نلاحظ أن حياته في ظل الإقطاع العثماني كانت بالفعل أفضل، وبخاصة في السنوات الأخيرة السابقة على الغزو التركي، عندما كان الناس يرزحون تحت عبء الأثقال المالية الإضافية الضخمة التي تطلبها الدفاع عن البوسنة ضد العثمانيين، ودفع الجزيات اللازمة لإرضائهم. وما هو ذا الملك ستيفن توماشوفيتش يكتب في أحد التماساته التي وجهها يطلب النجدة والمساعدة قبل الغزو: «يبدى الترك نحو الفلاحين شعوراً ملؤه الرفق. وهم يعدون كل من ينطلق إليهم بأن يكون حراً، ويرحبون بهم بمنتهى اللطف.. والناس سيخدعون بمثل هذه الحيل للتخلي عني»، على أن هذه الحيل لم تكن من بعض النواحي خدعة<sup>(٣)</sup>.

### البكتاشية:

لعبت الطريقة البكتاشية دوراً هاماً في تاريخ الدولة العثمانية في القرن الرابع عشر الميلادي، وقد اشتهرت تلك الطريقة باسم مؤسسها الحاج بكتاش، الذي كان يعتبر قديس الأناضول في ذلك القرن. وقد أرسل إليه - كما ذكرنا - السلطان أورخان (١٣٢٦ - ١٣٦٢) عدداً كبيراً من الإنكشارية ليدعروهم بالخير والتوفيق، فدعا لهم الحاج بكتاش بالنصر على الأعداء<sup>(٤)</sup>. وتتفق المصادر المتأخرة على أن الحاج بكتاش لم يؤسس الطريقة البكتاشية، بل كان مؤسسها الحقيقي فارس غامض يدعى فضل الله، إذ أن التاريخ

(١) هيد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية، ج ١ ص ١٣٨.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

(٣) مالكولم: البوسنة، ص ٨٢ - ٨٣.

(4) Hasluck (F.W.), "Christianity and Islam Under the Sultans". Ed. by Margaret M. Hasluck, Vol. I (New York, 1973), p. 159.

التقليدى لوفاة الحاج بكتاش سنة ١٣٣٧ - ١٣٣٨ أمر يدعو إلى الشك إلى حد كبير، فى حين أن فضل الله مات فى سنة ١٣٩٣ - ١٣٩٣ شهيداً على أيدي أحد أبناء تيمسور لنك، وبعدموته بوقت قصير قدم تلاميذه تعاليمه إلى نزلاء صومعة الحاج بكتاش نفسه<sup>(١)</sup>. ويرى محمد فؤاد كوبرلى<sup>(٢)</sup> أنه ليس من التاريخ فى شىء ما يقال من أن الحاج بكتاش قد لاقى السلاطين العثمانيين أو أنه لعب دوراً فى إنشاء الجيش الإنكشارى. ومع أن الطريقة البكتاشية كانت موجودة فى القرن الرابع عشر، فإنها لم تكن أكبر أهمية من سائر الطرق الأخرى، وإنما بلغت البكتاشية أهميتها فيما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر<sup>(٣)</sup>.

ويقرر البعض أن الحاج بكتاش يعتبر مؤسس طائفة الدراويش التى تحمل اسمه، كما أنه بارك الإنكشارية، ولذلك كان داعية ومحارباً. ويقال إنه من خلال مريديه أسس سبعمائة تكية للدراويش، بمعدل واحدة فى كل المدن التى فتحها أورخان، وفى الأخيرة اشترك مع أورخان فى حصار مدينة بروسة<sup>(٤)</sup>. وأقدم كاتب أوربى يتحدث عن الحاج بكتاش هو جورج المجرى، الذى قضى فترة طويلة من الأسر فى تركيا بالقرب من إسكى شهر فى السنوات الأولى من القرن الخامس عشر، وعرفه بالقديس وراعياً للحجاج. أما عاشق باشا زادة أقدم مؤرخ تركى، والذى كانت عائلته من منطقة كيرشهر Kirshehr، حيث دفن الحاج بكتاش، فإنه ينكر ارتباط بكتاش بالسلطان أورخان، قائلاً: «لم يكن للحاج بكتاش مطلقاً أى علاقة بالسلاطين العثمانيين، فقد أتى من خراسان مع أخيه منتش Mentish، واستقروا فى سيواس بالقرب من «بابا إلياس»، ثم توجهوا بعد ذلك إلى قيصرية. ومن هذه المدينة رجع أخوه إلى بلدهما عن طريق سيواس، بيد أنه قتل فى الطريق. أما بكتاش فبينما كان فى طريقة من قيصرية إلى كازايوك مات، ودفن هناك، حيث لا زال يوجد قبره المقدس»<sup>(٥)</sup>.

(1) Ibid., p. 160.

(٢) قيام الدولة العثمانية، ص ١٦١.

(٣) نفس المرجع والصفحة.

(4) Hasluck, op cit., Vol. II, p. 488.

(5) Ibid., pp. 488-489.

ويقال إن والد بكتاش ظهر أنه السيد سلطان إبراهيم، الذى كان حاكما لولاية خراسان. وعندما ولد أطلق عليه والده إسم بكتاش، ويعنى ذلك «الصاحب فى الرتبة»، أو «المساوى لأمير». وعندما بلغ بكتاش سن الرابعة، عهد به والده إلى شخص يدعى لقمان بيرند لتعليمه، وهو أحد حوارى أحمد يسيقى Ahmed Yesevi الشيخ التركى الشهير فى آسيا الوسطى. ولم يكد لقمان يدخل حجرة الدراسة حتى رأى شخصين يعلمان بكتاش القرآن الكريم. وعندما سأله والده عن هذين الشخصين، أجاب أن الشخص الذى كان على يمينه هو جده «محمد المصطفى عليه الصلاة والسلام»، وأما الذى كان على يساره فهو «عمود القدسية، حامل كأس الكوثر، أسد الله، سيد العالم، قائد المؤمنين على المرتضى». وأضاف بكتاش أن أحدهما كان يعلمه العلم الخارجى والآخر العلم الباطنى، وكان الإثنين يستخدمان القرآن الكريم، ويزعم بكتاش أنه أخذ من على بن أبى طالب القوة التى تمكنه من صنع المعجزات، كما منحه على بن أبى طالب. «علامة»، وهى بقعة خضراء مضئية فى كف يده، وبقعة مشابهة فى جبهته. ويقال إن لقمان أراد بعض الماء للوضوء، بدأت الماء تنساب من يد بكتاش وعندئذ اندهش لقمان وصاح قائلا: "Ya Hunkâr" ومعناها «آه أيها السيد». ولازال هذا اللقب يستخدم حتى الآن<sup>(١)</sup>.

أما اللقب الثانى الذى عرف به بكتاش، فهو الحاج. وفى ذلك يروى أن معلمه لقمان توجه إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، وبعد أن طاف حول الكعبة توجه إلى جبل عرفات، وهناك وقف لقمان ومعه أصحابه، ولاحظ أن اليوم الذى توجه فيه إلى عرفات هو اليوم السابق على تقديم الأضحية، وفى الحال جلب له بكتاش صينية حافلة بالطعام، وبذلك أعطى بكتاش لقب حاج<sup>(٢)</sup>.

ومن المعجزات التى تروى عن الحاج بكتاش أن أحمد يسيقى أرسله إلى بلاد الروم، وهو الإسم الذى أعطاه المسلمون لآسيا الصغرى، بعد أن أعطى له إقليم سلوسا كارايوك Soluca kara Uyuk، وفى أثناء سفره حدثت معجزات، فنسب إليه أن أسدين قد هاجماه. ولكنهما سرعان ما تحولا إلى حجر. وعندما مر على نهر ملهىء بالسملك، خرج

(1) Birge (John Kingsley), The Bektashi Order of Dervishes. (London, 1965), p.

36.

(2) Ibid., p 36.

السّمك من الماء وحياه. وقد زار الحاج بكتاش أولاً مكة المكرمة، والمدينة المنورة، ودمشق، وحلب، ثم بعد ذلك آسيا الصغرى، حيث توجه إلى عین تاب وإيلستين وقيصرية. وقد خاف الدراويش أن يأخذ الحاج بكتاش مكائهم، فأغلقوا الحدود لمنعه، فما كان منه إلا أن قفز إلى ذروة عرش الرحمن، حيث حملته الملائكة. ثم غير شكله إلى حمامة وهبط إلى الأرض على صخرة فى سلوسا كارايوك، وهناك أتى إليه المريد يزيد البسطامى فى شكل نسر، ثم تحولت الحمامة إلى رجل وأمسك بالنسر، ثم أرسله الحاج بكتاش لدعوة الدراويش لمقابلته، ويعد أن اجتمعوا به شاهدوا معجزات حدثت على يديه<sup>(١)</sup>.

ومن أشهر المعجزات التى جاءت فى التراث البكتاشى، أن السيد محمود حيران من آكشيهر AK Sehir سمع عن الحاج بكتاش، فتوجه لمقابلته، ولكى يريه مدى ما عليه من قوة امتطى ظهر أسد، واستخدم ثعبانا سوطا يلهب به ظهر الأسد، وسار معه ثلاثمائة من مريديه. ولكن بكتاش نشر سجاده على صخرة كبيرة، وأمر الصخرة بالتحرك. وعندما التقى الرجلان ذكر بكتاش أنه من السهولة أن تتركب حيوانا وتسوقه، ولكن أن تجعل صخرة لاحياة فيها تتحرك، فتلك هى المعجزة. وتبادل الرجلان الحديث، وتركوا الصخرة واقفة حيث يمكن لأى شخص أن يراها حتى الوقت الحاضر<sup>(٢)</sup>.

---

(1) Ibid., pp. 36-37.

(2) Ibid., p. 39.

## المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع العربية والمعرية

إبراهيم على طرخان: (دكتور)

مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة (القاهرة ١٩٦٥).

إبن الأثير: (على بن أحمد بن أبى الكرم، ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٨م)

الكامل فى التاريخ، ٩ أجزاء (المطبعة التجارية بالقاهرة).

أحمد عبد الرحيم مصطفى: (دكتور)

فى أصول التاريخ العثمانى (القاهرة ١٩٩٣).

أحمد كمال الدين حلمى: (دكتور)

السلاجقة فى التاريخ والحضارة. (الكويت ١٩٧٥).

أحمد مختار العبادى: (دكتور)

دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس (القاهرة ١٩٦٨).

أرنولد (توماس):

الدعوة إلى الإسلام، ترجمة د. حسن إبراهيم جليش، د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل

النحراوى (القاهرة ١٩٧٠).

أومان (تشارلز):

الإمبراطورية البيزنطية. ترجمة د. مصطفى بدر (القاهرة ١٩٥٣). (٢٥٦١)

إيقانوف (نيقولاى):

الفتح العثمانى للإقطار العربية ١٥١٦ - ١٥٧٤، ترجمة ديوانى محمد مصطفى، مراجعة د.

مسعود ضاهر (بيروت ١٩٨٨).

بارتولد (و):

تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، ترجمة د. أحمد السيد (سليمانات (القاهرة ١٩٧١)).



بروكلمان (كارل):

تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس، منير البعلبكي (بيروت ١٩٦٥).  
إبن بطوطة: (أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧)  
مذهب رحلة ابن بطوطة (القاهرة ١٩٣٤).

بوزورث (كليفور. أ.):

الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة حسين علي اللبودي، مراجعة د.  
سليمان إبراهيم العسكري (القاهرة ١٩٩٥).  
بيلد بسينو (نيكورا):

«تنظيم الإمبراطورية العثمانية (القرنان الرابع عشر والخامس عشر)»، في كتاب تاريخ  
الدولة العثمانية، ج ١ إشراف روبر مانتان، ترجمة بشير السباعي (القاهرة ١٩٩٣).  
جوامون (جان لوى باكو):

«أوج الإمبراطورية العثمانية (١٥١٢ - ١٥١٦)»، في كتاب تاريخ الدولة العثمانية،  
ج ١ إشراف روبر مانتان، ترجمة بشير السباعي (القاهرة ١٩٩٣).  
جوزيف نسيم يوسف: (دكتور)

العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى (القاهرة ١٩٦٧).

حسن أحمد محمود: (دكتور)

الإسلام والحضارة العربية في آسيا الصغرى بين الفتحين العربى والتركي (القاهرة  
١٩٦٨م).

حسن بيرنيا:

تاريخ إيران القديم من البداية حتى نهاية العهد الساساني (القاهرة ١٩٧٩).

حسن حبشى: (دكتور)

الحرب الصليبية الأولى (القاهرة ١٩٥٨).

حسين محمد ربيع: (دكتور)

دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية (القاهرة ١٩٦٨).

حسين مؤنس: (دكتور)

إبن بطوطة ورحلاه (القاهرة ١٩٨٠).

حكيم أمين عبد السيد: (دكتور)

قيام دولة المماليك الثانية (القاهرة ١٩٦٧).

إبن خلدون: (عبد الرحمن بن محمد، ت ٨٠٨هـ / ١٥٠٥م).

العبر وديوان المبتدأ والخبر، المجلد الخامس (بيروت ١٩٦٨).

خليلك إيتالجيك:

«الدولة والرعايا»، ترجمة عبد اللطيف الحارس، مجلة الاجتهاد، السنة الحادية عشرة،

عدد ٤١، ٤٢ سنة ١٩٩٩م.

«العثمانيون، النشأة والازدهار». ف كتاب تاريخ الدولة العثمانية، ج١ إشراف روبر

مانتران، ترجمة بشير السباعي (القاهرة ١٩٩٣).

دائرة المعارف الإسلامية

داهموس (جوزيف):

سبع معارك فاصلة في تاريخ العصور الوسطى، ترجمة د. محمد فتحي الشاعر (القاهرة

١٩٨٧).

ديل (شارل):

البندقية جمهورية أرستقراطية، تعريب د. أحمد عزت عبد الكريم، توفيق إسكندر.

(القاهرة ١٩٤٧)

ديورانت (ول):

قصة الحضارة، الجزء الخامس من المجلد السادس، ترجمة محمد علي أبو درة، مراجعة

على أدهم (القاهرة ١٩٧٢).

رايس (تاماراتالبوت):

السلاجقة تاريخهم وحضارتهم، ترجمة لطفى الخورى وإبراهيم الدسوقي، مراجعة عبد الحميد العلوجي (بغداد ١٩٦٨).

رنسيماان (ستيفن):

الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة زكى على (القاهرة ١٩٦١).

تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة د. السيد الباز العرينى، ٣ أجزاء (بيروت ١٩٦٧ - ١٩٦٩).

زبيدة عطا: (دكتورة)

بلاد الترك فى العصور الوسطى (القاهرة بدون تاريخ).

إبن زنبيل: (أحمد الرمال، ت ٩٦٠ هـ / ١٥٥٢):

آخرة المماليك، تحقيق عبد المنعم عامر (القاهرة ١٩٦٢).

سالم الرشيدى: (دكتور)

محمد الفاتح (القاهرة ١٩٥٦).

سعيد عبد الفتاح عاشور: (دكتور)

«العلاقات العربية التركية من منظور عربى»، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم،

معهد البحوث والدراسات العربية (القاهرة ١٩٩١).

الحركة الصليبية، جزآن (القاهرة ١٩٧٨).

أوربا العصور الوسطى، جزآن (القاهرة ١٩٧٨).

العصر المماليكى فى مصر والشام (القاهرة ١٩٦٥).

السيد الباز العرينى: (دكتور)

الشرق الأوسط والحروب الصليبية، الجزء الأول (القاهرة ١٩٦٣).

سبولر (برتولد) :

العالم الإسلامى فى العصر المغولى، ترجمة خالد أسعد عيسى، مراجعة د. سهيل زكار  
(دمشق ١٩٨٢).

عبد العزيز الشناوى: (دكتور)

الدولة العثمانية دولة مفترى عليها، جزءان (القاهرة ١٩٦٥).

عبد القادر أحمد اليوسف: (دكتور)

الإمبراطورية البيزنطية (بيروت ١٩٦٦).

عبد النعيم محمد حسنين: (دكتور)

دولة السلاجقة (القاهرة ١٩٥٧).

سلاجقة إيران والعراق (القاهرة ١٩٥٩).

عزيز سورياى عطية: (دكتور)

العلاقات بين الشرق والغرب. ترجمة فيليب صابر يوسف (القاهرة ١٩٧٢).

عمر كمال توفيق: (دكتور)

تاريخ الدولة البيزنطية (القاهرة ١٩٦٧).

فأتان (نيقولا) :

«صعود العثمانيين (١٤٥١ - ١٥١٢)»، فى كتاب تاريخ الدولة العثمانية، ج١

إشراف روبر مانتران، ترجمة بشير السباعى (القاهرة ١٩٩٣).

الفارقى (أحمد بن يوسف بن على بن الأزرق الفارقى، مولده سنة ٥١٠هـ/١١١٦م)

تاريخ الفارقى، تحقيق د. بدوى عبد اللطيف عوض (بيروت ١٩٧٤).

فامبرى (أرمينوس) :

تاريخ بخارى، ترجمة، د. أحمد محمود الساداتى، مراجعة د. يحيى الخشاب (القاهرة

١٩٦٥).

فؤاد عبد المعطى الصياد: (دكتور)

المغول فى التاريخ (القاهرة ١٩٧٥م)

فينشتاين (جيل):

«الإمبراطورية العثمانية فى عظمتها»، فى كتاب تاريخ الدولة العثمانية، ج١ إشراف  
روبير مانتريان، ترجمة بشير السباعى (القاهرة ١٩٩٣).

القرمانى: (أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقى الشهير بالقرمانى، ت  
١٠١٩هـ).

أخبار الدول واثار الأول فى التاريخ (بيروت، بدون تاريخ).

ابن القلانسى: (أبو يعلى حمزة بن أسد بن على بن محمد التميمى، ت ٥٥٥هـ/  
١١٦٠).

ذيل تاريخ دمشق، ٣٦٠ - ٥٥٥هـ، تحقيق د. سهيل زكار (سوريا ١٩٨٣).

كواز (بول):

العثمانيون فى أوروبا. ترجمة د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ (القاهرة ١٩٩٣م).

لين بول (ستانلى):

العرب فى أسبانيا، ترجمة على الجارم (القاهرة ١٩٦٤).

أبو المحاسن: (جمال الدين يوسف بن تغرى بوى، ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م)

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ١٤ جزءاً (القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٧١).

محمد أحمد محمد: (دكتور)

إسلام الإيلخانيين (القاهرة ١٩٨٩).

محمد حرب: (دكتور)

العثمانيون فى التاريخ والحضارة (القاهرة بدون تاريخ)

محمد عبد الله عنان:

مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام (القاهرة ١٩٦٢).

محمد فريد بك:

تاريخ الدولة العلية العثمانية (القاهرة ١٨٩٦).

محمد فؤاد كوبرلى:

قيام الدولة العثمانية. ترجمة د. أحمد السعيد سليمان (القاهرة ١٩٩٣).

محمد محمود إدريس: (دكتور)

تاريخ العراق والمشرق الإسلامى خلال العصر السلجوقى الأول (القاهرة ١٩٨٢).

محمود محمد الحويرى: (دكتور)

بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها فى التصدى للصليبيين (القاهرة ١٩٩٢).

العلاقات المبكرة بين أوروبا والمغول (القاهرة ١٩٨٧).

رؤية فى سقوط الإمبراطورية الرومانية (القاهرة ١٩٩٣).

ساحل شرق أفريقية من فجر الإسلام حتى الغزو البرتغالى (القاهرة ١٩٨٦).

النويرى الإسكندراني: (محمد بن قاسم بن محمد النويرى الإسكندراني، ت بعد

١٣٧٢هـ / ١٩٧٥م).

الإمام بالأعلام لما جرت به الأحكام المقضية فى واقعة الإسكندرية، تحقيق د. عزيز

سوريال عطية (الهند ١٩٧٣ - ١٩٧٦).

هايد (ف):

تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، أربعة أجزاء، ترجمة أحمد

محمد رضا، مراجعة د. عز الدين فودة (القاهرة ١٩٨٥).

إبراهيم على طرخان: (دكتور)

مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة (القاهرة ١٩٦٥).

ويدجوى (البان . ج):

التاريخ وكيف يفسرونه، جزآن (القاهرة ١٩٩٦).

يلماز أوزنوتا:

تاريخ الدولة العثمانية. ترجمة عدنان محمود سلمان، مراجعة د. محمود الأنصارى،  
ج ١ (استانبول ١٩٨٨).

ثانيا: المصادر والمراجع الأوربية:

**Babinger (Franz):**

Mehamed the Conqueror and His Time. Trans. from the German by Manheim. Edited by William C. Hickman. (Princeton, 1978).

**Barbaro (Nicolo):**

Diary of the Siege of Constantinople 1453. Trans. by Jones (J.R.). (New York, 1969).

**Barker (John W.):**

Manuel II Palaeologus (1391-1425): A study in late Byzantine Statesmanship. (New Jersey, 1969).

**Birge (John Kingsley)**

The Bektashi Order of Dervishes (London, 1965).

**Brice (W.C.):**

"The Colonization of Anatolia", in Bulletin of the John Rylands library. Vol. 38 (1955-1965).

**Cahen (Claude):**

"The Turkish Invasion: The Selchukids", in Setton (ed.), A Hist of the Crusades. Vol. I (Philadelfia, 1955).

**Castellan (Georges)**

Hist of the Balkans. from Mohamed the Conqueror to Stalin.  
Trans. by Nicholas Bradley. (New York, 1992).

**Charanis (Peter):**

"The Byzantine Empire in the eleventh Century", in Setton (ed.), A Hist of the Crusades. Vol. I.

The Strife among the Palaeologi and the Ottoman Turks.,  
1370-1402", Byzantion, 16 (1942-1943).

**Clissold (Stephen)**

A Short Hist of Yugoslavia. (Cambridge, 1966).

**Creasy (Sir Edward):**

Turkey, revised and ed. by Archibald Cary Coolidge and W.  
Harold Clavin (U.S.A., 1928).

**Darby (H. C.), Seton -Watson (R.W.), Auty (Pyllis Laffan (R.G.D.) and Clissold (Stephen). Ed. by Clissold:**

A Short Hist of Yugoslavia. (Cambridge, 1966).

**Derekson (David):**

The Crescent and the Cross Fall of Byzantium :may, 1453.  
(New York, 1964).



**Diehl (Charles):**

Byzantium: Greatness and Decline. Trans from french by Naomi Walford. (U.S.A., 1977).

Hist. of Byzantium. (New York, 1945).

Hist. of the Byzantine Empire. Trans - by G.B. Ives. (U.S.A., 1925).

**Eliot (Sir Charles):**

Turkey in Empire. (London, 1965).

**Fine (John V.A.):**

The Bosnian Church, A new interpretation. A Study of the Bosnian Church and Society from the 13th to the 15th Centuries (New York, 1975).

**Gibb (H.A.R.) and Bowen (H.):**

Islamic Society and the West. Vol I., Islamic Society in the Eighteenth Century.

**Grousset (R.):**

The Empire of the Steppes. Trans. from the French by Naomi Walford. (New Jersey, 1970).

L'Empire des Steppes. (Paris, 1948).

**Guerdan (Pené):**

Byzantium: its triumphs and tragedy. Trans. by D. L.B. Hartley. (New York, 1957).

**Hacker (Joseph R.):**

Ottoman Policy towards the Jews and Jewish Attitudes towards the Ottomans during the fifteenth Century. Ed. by Benjamin Braud & Bernard Lewis. (New York, 1982).

**Halecki (O.):**

The Crusades of vama. A Discussion of Controversial Problems. (New York, 1943)

**Halil Inalcik:**

The Ottoman Empire: The classical Age 1300-1600 (London & New York, 1973).

**Hearsey (John E.N.):**

City of Constantine. 324-1453. (Philadelphia, 1966).

**Kritovoulos (Michael):**

Hist of Mohamed the conquerer. Trans. from the Greek by Charles T. Riggo. (New Jersey, (1945).

**Langer (W.L.) and Blake (R.P.):**

"The Rise of the Ottoman Turks and its Historical Background", in American Historical Review, 37 (1931-1932).

**Lemerle (Paul):**

A Hist of Byzantium. Trans by Antony Matthew (New York, 1964).

**Levtchenko (M.V.):**

Byzance des origines à 1453. (Paris, 1949).

**Lodge (R.):**

The close of the Middle Ages. (London, 1910).

**Mantran (Robert):**

"Foreign Merchants and the Minorities in Istanbul during the sixteenth and seventeenth centuries.", in Christians and Jews in the Ottoman Empire. Ed. by Benjamin Braude and Bernard Lewis, Vol. I (New York, 1982).

**Nicol (D.M.):**

The End of the Byzantine Empire. (London, 1979).

**Obolensky (Dimitri):**

The Bogomils. A study in Balkan New - Manichaeism - (Cambridge, 1948).

**Oliver (R.), Mathew (G.):**

Hist of Africa. (Holland, 1967).

**Osterhaven (M. Eugene):**

Transylvania (U.S.A., 1968).

**Ostrogorsky (G.):**

History of the Byzantine State. (New Jersey, 1968).

**Pears (Edwin):**

The Destruction of the Greek Empire and the Story of the capture of Constantinople by the Turks. (New York, 1968).

**Prestage (Edgar):**

The Portuguese Pioneers. (London, 1933).

**Ratchnevsky (Paul):**

Genghis Khan, His life and legacy. Trans. and edited by  
Thomas Bivison Haining. (U.S.A., 1992).

**Runciman (Steven)**

The Fall of Constantinople 1453. (Cambridge, 1965).

**Roth (Cecil)**

The Jewish Contribution to Civilization . (U.S.A., 1940).

**Schevill (Ferdinand):**

The Hist of balkan Peninsula. From the earliest times to the  
present day. (New York York, 1933).

**Schwoebel (Robert):**

The Shadow of the Crescent. (New York, 1967).

**Shaw (stanford J.):**

Hist of the Ottoman Empire and Modern Turkey. Vol. I  
(Cambridge, 1977).

**Spinka (Motthew):**

A Hist of Christianity in the Balkans. A Study in the spread of  
Byzantine Culture among the slavs (London, 1968).

**Stavrianos (L.S.):**

The Balkans since 1453. (New York, 1958).

**Stripling (George William Frederiek):**

The Ottoman Empire and the Arabs. 1511-1571) U.S.A., 1977).

**Vasiliev (A.A.):**

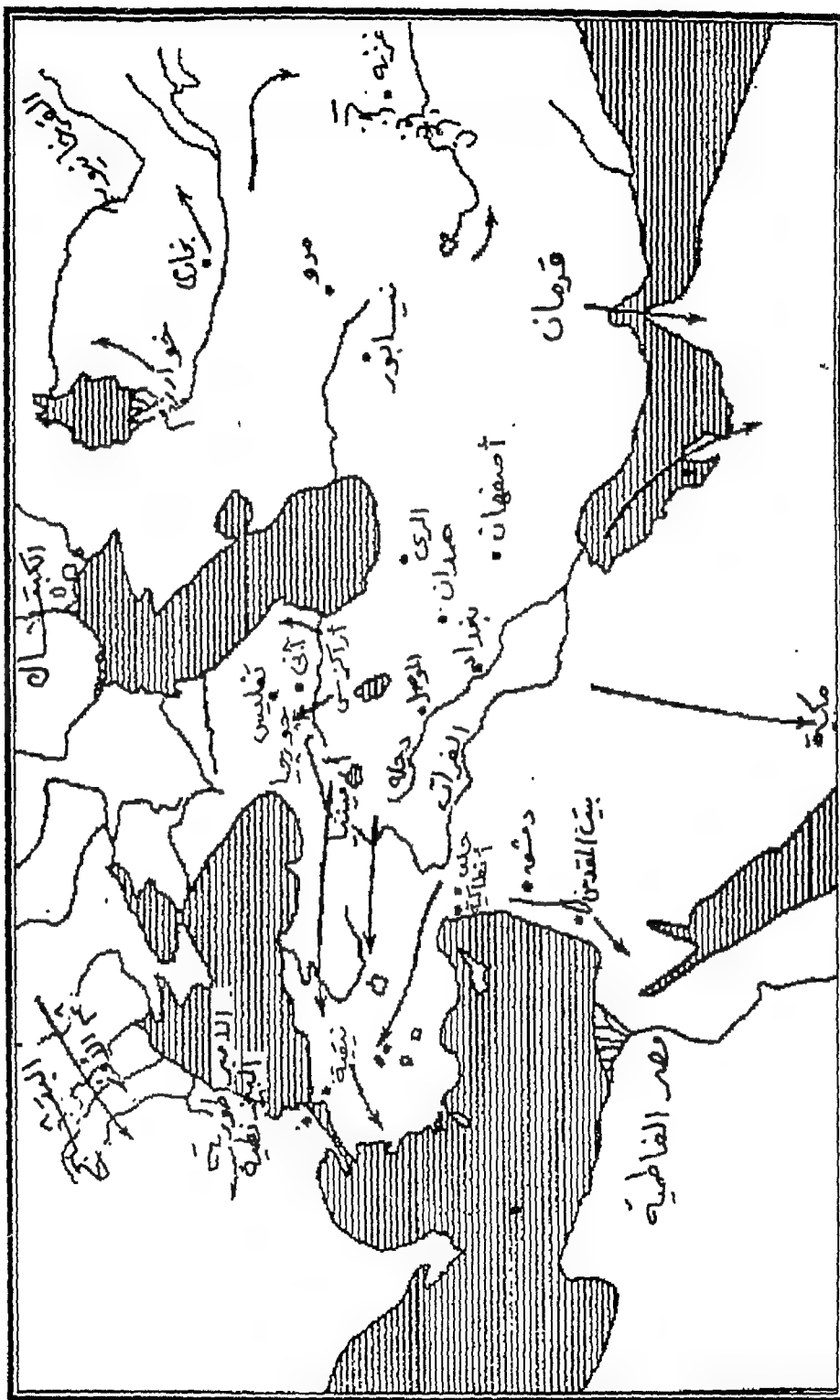
Hist of the Byzantine Empire 324-1453 Vol. II (U.S.A., 1964).

**Vryonis (Speros):**

The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor and the Process of Islamization from the Eleventh through the fifteenth Century. (London, 1971).

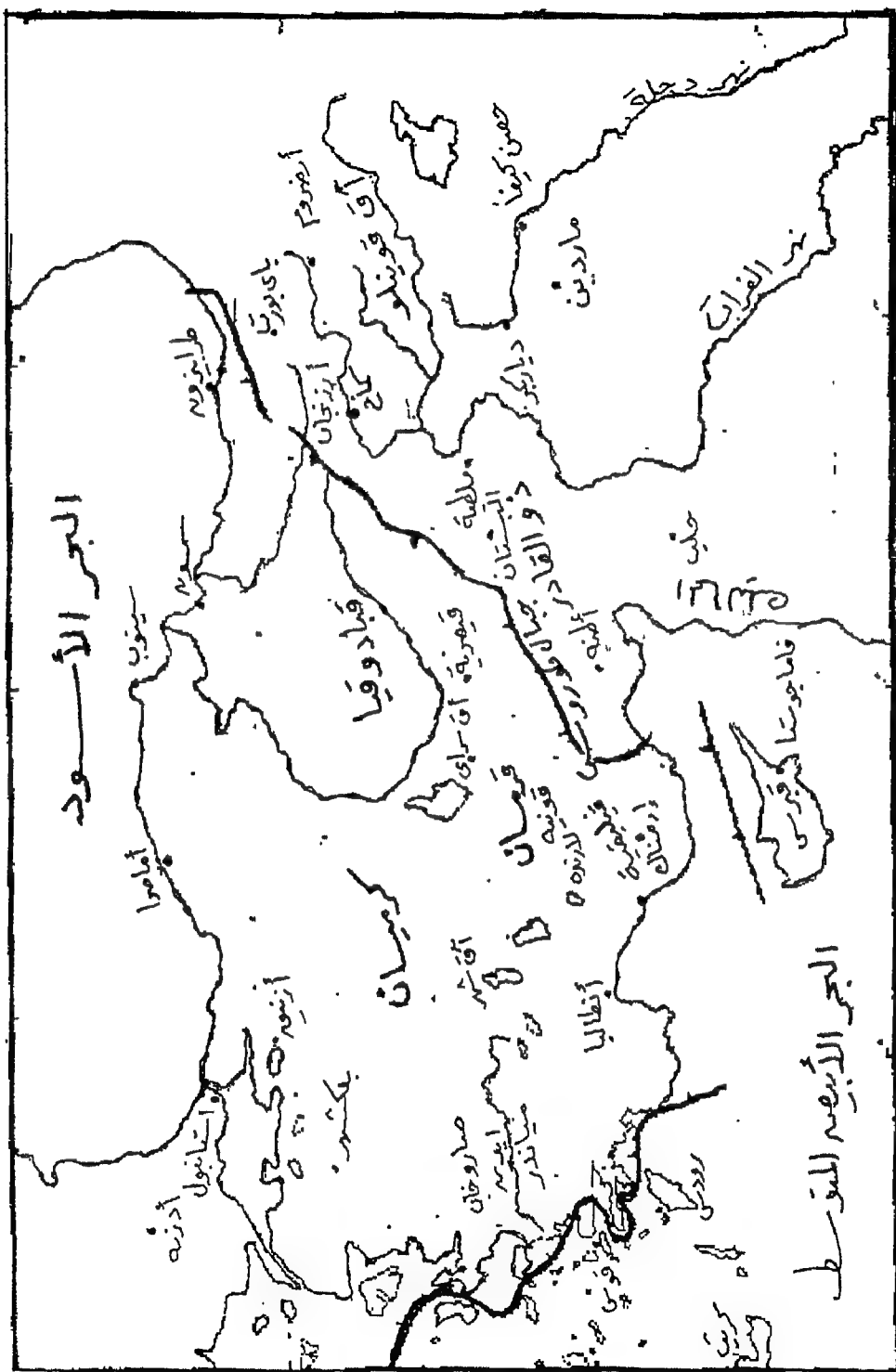
"The Ottoman Conquest of Thessaloniki in 1430", in Continuity and Change in late Byzantine and Early Ottoman Society. Ed. by Bruer (Anthony) and Lowery (Heath). U.S.A., 1986).

(١)



إمبراطورية السلاجقة في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي



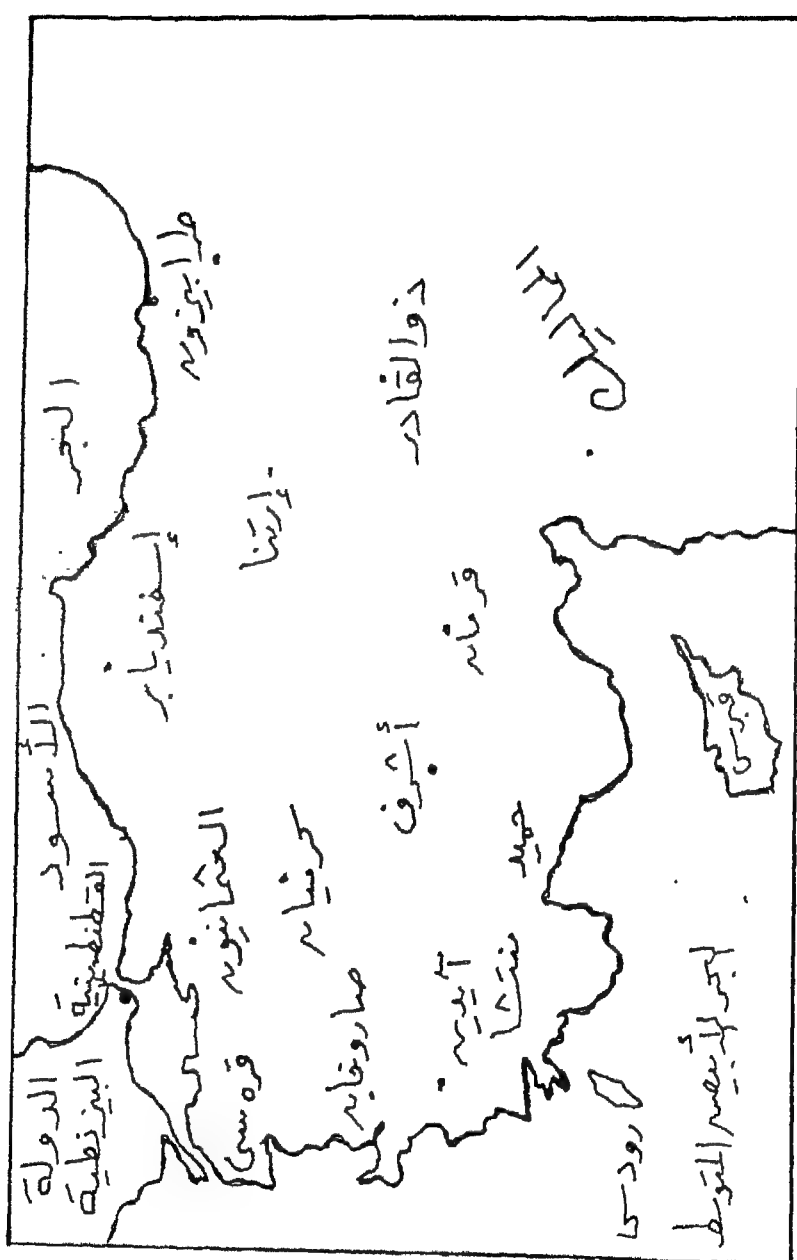


الأغذية

البحر الأبيض المتوسط

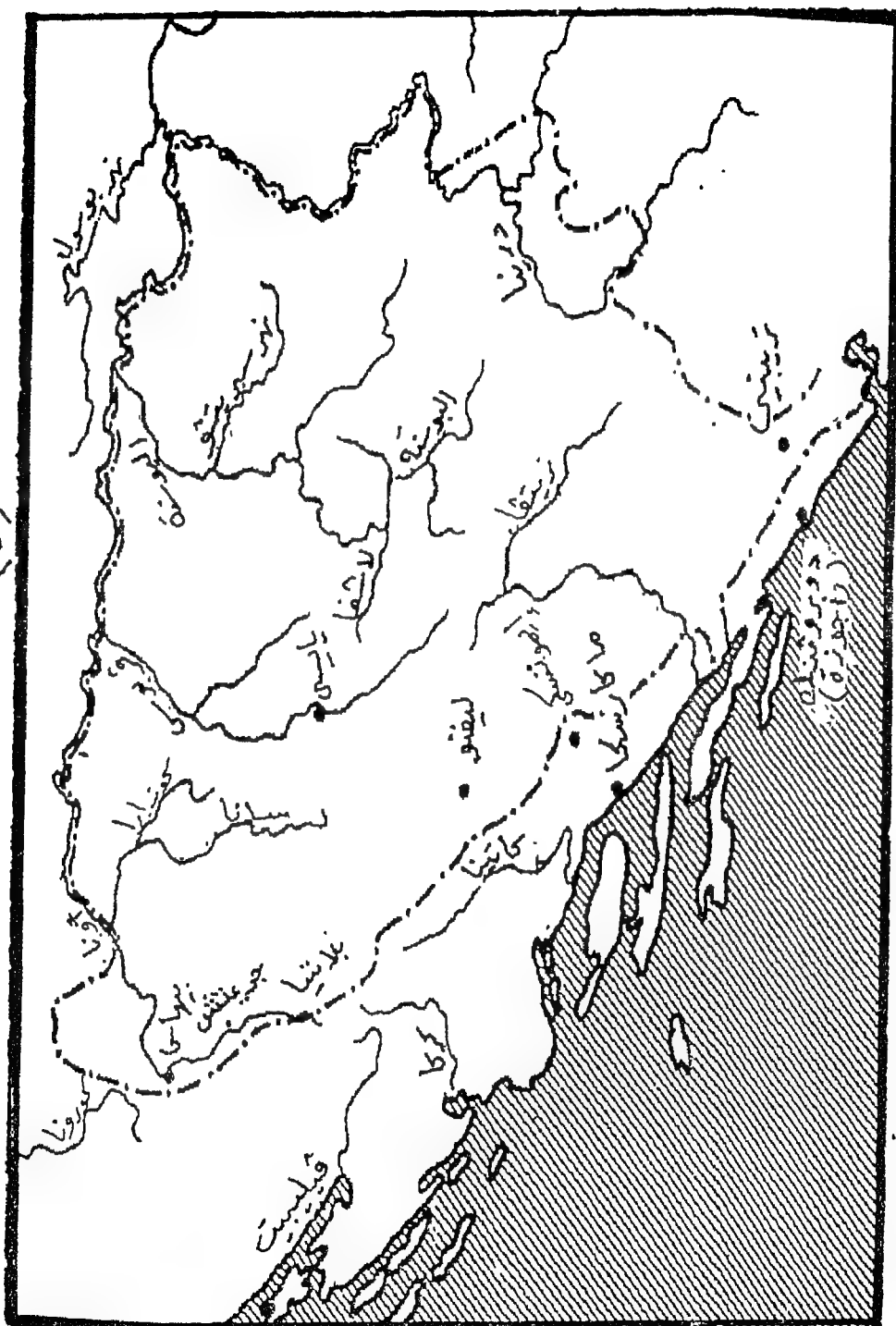


(٢)



الأناضول في منتصف القرية الرابع عشر

(٥)



البوسنة وهرزجوفينا (الهرسك) في القبر الخامس عشر

(٦)



(٢٧٧)

فتحات الدولة العثمانية حتى سنة ١٦٨٠ م  
البحر الأبيض المتوسط

## الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣ - ١٠
الفصل الأول: ظهور الأتراك العثمانيين وقيام دولتهم:	١١ - ٣٩
الأتراك	١٢ - ١٧
الأتراك السلاجقة	١٧ - ٢٠
السلاجقة والبيزنطيون	٢٠ - ٢٨
ضعف نفوذ السلاجقة	٢٨ - ٣٤
أصل الأتراك العثمانيين	٣٤ - ٣٧
قيام الدولة العثمانية	٣٧ - ٣٩
الفصل الثاني: إتساع الدولة العثمانية	٤١ - ٦٤
أورخان (١٣٢٤ - ١٣٦٢)	٤١ - ٤٨
مراد الأول (١٣٦٢ - ١٣٨٩)	٤٨ - ٥٩
متاعب العثمانيين فى الأناضول	٥٩ - ٦١
معركة كوسوفا (قوصوه)	٦١ - ٦٤
الفصل الثالث: الإمبراطورية العثمانية فى عهد بايزيد الأول	٦٦ - ٩٢
(١٣٨٩ - ١٤٠٢):	
تيمور لنك	٧٢ - ٧٥
حملة نيقوبولس الصليبية	٧٥ - ٨٤
نشاط بايزيد بعد موقعة نيقوبولس	٨٤ - ٨٧
معركة أنقرة	٨٧ - ٩٢
الفصل الرابع: إعادة بناء الإمبراطورية العثمانية:	٩٤ - ١٢٣
الحرب الأهلية بين أبناء بايزيد (١٤٠٢ - ١٤١٣)	٩٤ - ١٠١
السلطان محمد الأول (١٤١٣ - ١٤٢١)	١٠٢ - ١٠٥

مراد الثاني (١٤٢١ - ١٤٥١) .....	١١٠ - ١١٥
الحرب الأولى بين العثمانيين والبنادقة واشتراك .....	
صربيا ووالاشيا والمجر فيها .....	١١٥ - ١١٥
الحملة الصليبية على فارنا سنة ١٤٤٤ م .....	١٢٣ - ١١٥
الفصل الخامس: محمد الفاتح (١٤٥١ - ١٤٨١): .....	١٨٨ - ١٢٥
فتح القسطنطينية .....	١٥٤ - ١٢٥
فتح صربيا والبوسنة وهرزوجيفينا (الهرسك) .....	١٦٥ - ١٥٤
حروب محمد الفاتح في المورة .....	١٦٦ - ١٦٥
حروب محمد الفاتح في ألبانيا .....	١٧٠ - ١٦٦
حروب محمد الفاتح في والاشيا (الأفلاق) ومولدافيا .....	١٧٣ - ١٧٠
حروب محمد الفاتح مع البندقية وقرمان .....	١٧٩ - ١٧٣
حصار رودس والاستيلاء على أوتوانتو في جنوب إيطاليا .....	١٨٨ - ١٧٩
الفصل السادس: الإمبراطورية العثمانية في أوج قوتها: .....	٢٢٣ - ١٩٠
بايزيد الثاني (١٤٨١ - ١٥١٢) .....	١٩٤ - ١٩٠
نزاع بايزيد الثاني مع مصر المملوكية .....	١٩٦ - ١٩٤
غرب البحر المتوسط .....	١٩٧ - ١٩٦
الخطر الصفوي .....	٢٠١ - ١٩٧
السلطان سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠) .....	٢٠٤ - ٢٠١
الحرب ضد الصفويين .....	٢٠٨ - ٢٠٤
العثمانيون والمماليك .....	٢٢٣ - ٢٠٨
الفصل السابع: جوانب أخرى في التاريخ العثماني في العصور الوسطى:	٢٥٧ - ٢٢٥
اليهود في المجتمع العثماني في العصور الوسطى .....	٢٣١ - ٢٢٥
علاقة العثمانيين برعاياهم المسيحيين .....	٢٣٦ - ٢٣٢
البوچرميلية .....	٢٣٨ - ٢٣٦
انتشار الإسلام في ألبانيا .....	٢٤٠ - ٢٣٨
انتشار الإسلام في صربيا .....	٢٥١ - ٢٤٠

٢٤٣ - ٢٤١	..... انتشار الإسلام في البوسنة
٢٤٤ - ٢٤٣	..... انتشار الإسلام في الأناضول
٢٤٧ - ٢٤٤	..... نظام الدوشرمة (ضريبة الغلمان)
٢٥١ - ٢٤٧	..... الانكشارية
٢٥٤ - ٢٥١	..... السباهية
٢٥٧ - ٢٥٤	..... البكتاشية

الخرائط



